

فرانشيسكو غابرييلي

F R A N C E S C O G A B R I E L I

المؤرخون العرب للحروب الصليبية

STORICI ARABI DELLE CROCIATE

إعداد وتحقيق وترجمة:
نبيل رضا المهائني



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

المؤرّخون العرب للحروب الصليبيّة

Storici Arabi delle Crociate

فرانشيسكو غابرييلي

Francesco Gabrieli

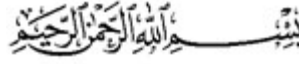
إعداد وتحقيق وترجمة:

نبيل رضا المهائني

Nabil R. Mahaini



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. su



الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2357-8

جميع الحقوق محفوظة للناسر



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناءة الررم

هاتف: (961-1+) 785107 - 785108 - 786233

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: (961-1+) 786230 - البررد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناسر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناسرون ش.م.ل

لوجة الغلاف: Jan van Huchtenburgh

تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

إهداء

إلى أولئك الذين اختلست منهم وقتاً أمضيته في القيام بهذا العمل
وفي غيره من أعمال كثيرة سابقة، وسأَمْضِيهِ في تلك اللاحقة،
غَيَّبْتَنِي فعلتني الشنيعة-البديعة عنهم،
غَبْنْتُهُمْ حَقَّهُمْ وغَبْنْتُ نفسي حَقَّهَا في أن نعيش سوية،
ونتمتع سوية بنعمةٍ ثمينة هي نعمة الوقت في صحةٍ وعافية،
إلى أولئك الذين أحببْتُهُمْ في سرِّي ولم تُظْهَرْ لهم
علانيتي كثيراً من ذلك الحبِّ
إلا ما طَنَّوْهُ ظَنًّا وهم يشعرون ببعض دفء تجلَّياتِه في حياتهم،
إلى أولئك الذين غَمَضْتُهُمْ حَقَّهُمْ وأنا أَمْنَحُهُمْ لهم، ومنحْتُهُ لهم
وأنا أَسْلِبُهُمْ إِيَّاهُ،
إليهم جميعاً أهدي في سلة واحدة جهدَ هذا العمل، وما سبقه،
وما سيأتي بعده من أعمال لم أقصد بها والله إلَّاها:
أن تكون كاملة صحيحة سليمة قويمه، وفي هذا مرضاة الله
الذي هو من وراء كل قصد. فعسى ألا أكون قد ضللت أو أخطأت.
إليهم: زوجتي الغالية وأولادي وذويهم، أحبائي،
الشهود على عثرات دربي، رفاقي.

نبيل

مقدمة المؤلف

يهدف هذا الكتاب إلى مساعدة القارئ الغربي على النظر إلى فترة الحروب الصليبية من "الجانب الآخر"، أي من وجهة نظر الخصم آنذاك. لاشك أن هذه عملية مفيدة ومهمة على الدوام، لكنها تبدو أكبر فائدة وأعظم أهمية في حالتنا هذه، أي حالة الصدام بين المسيحية والإسلام خلال العهود الوسطى: حضارتان لا اختلاف جذرياً بينهما في ذلك الوقت، بل لوحظ - وبحق - أن كليهما مبنيتان على موقف روحي واحد وعلى طبقات ذهنية متشابهة في جوهرها، لكن التجربة الدينية التي خاضها الطرفان كانت مختلفة عن تطلعاتهما وطموحاتهما الشاملة، فاندفعت الواحدة ضد الأخرى ليزداد تشدد الطرفين. ومعروف أن ازدياد التشدد يزيد التعصب ويؤدي إلى بروز تطرفٍ يشتد خلال الأزمات على وجه الخصوص. وإذا كان هذا التعصب قد تلاشى الآن، لدينا على أقل تقدير، فإنه تحول إلى تناقضات من نوع آخر ليست في جوهرها إلا تناقضات دينية. إننا لانجد اليوم أحداً يستخدم "الخناجر" و"المطارق" في الدفاع عن علوم المسيحية، بل وعلى العكس، فقد أصبح تقليداً لدى الجانب المسيحي الكاثوليكي الموقف المتفهم نحو الإسلام، لكن الجانب الآخر لم يقابل على الأرجح هذا الموقف بنفس الروح. مع هذا كله فإن العداء القديم يظهر عنيفاً وحاداً عندما نعود ونفتح صفحات مؤرخي وجدليي العهود الوسطى. وهكذا فإننا ما إن نبدأ بتتبع أحداث الحروب الصليبية حتى نجد أنفسنا منساقين وراء حقد لاهوتي وعنصري - تعمقه ولاشك صراعات أخرى وتزيده حدة - حتى إننا نكاد نرى "العدو" متربصاً هناك، أي في الطرف الآخر:

في معسكر سليمان وآرغانت^[1] والذي لم يكن إلا لأبيات الشعر وحدها أن تنتزع كلوريندا^[2] منه لتأتي وتموت في معسكرنا مطمئنة هائلة في حنايا عقيدتنا.

إن رؤيةً تاريخيةً مثاليةً تسعى للإحاطة بالجانبين معاً ستستفيد على الأرجح من عملية التعرف عن قرب على الأشكال الأصلية لعقلية ومثل وطرق الحياة والحرب لدى أعداء الصليبيين، أعداء لا يبدون في صفحات مؤرخيهم أقل قيمة، في الكم والكيف، من أولئك الغربيين. وسترينا هذه الصفحات بالطبع أن

لوحة القيم قد انعكست، فمقابل "الكلاب المسلمين"^[3] سنجد "الخنازير المسيحيين"، ومقابل التطلع نحو كنيسة القيامة هناك تطلع نحو الصخرة المقدسة حيث وضع النبي قدمه في معجزة إسرائه الليلي، وعوضاً عن التقى كندفرى هناك الورع صلاح الدين.

إننا سنبتعد هنا عن الأحكام ذات الطابع الديني والأخلاقي، لأن ما يهمنا تقديمه للمؤرخ أو لهاوي التاريخ هي معلومات تدور حول الطرف الآخر،

وتكمل اللوحة التي تقدمها لنا عادة المصادر الغربية. لقد أصابت الغزوات الصليبية الإسلام في لحظة حرجة من لحظات تاريخه، أي في وقت كانت الموجة العربية فيه قد بدأت ومن زمن بعيد تنحسر، أو أنها بدأت تتراجع إلى مواقع الدفاع، بينما كانت الموجة التركية في طريقها لتدعيم نفسها وتنظيم مواقعها في أحضان الأوطان الإسلامية والأوطان المجاورة، ذلك قبل أن تنتقل بأسلوب منظم إلى مواقع الهجوم ضد العالم المسيحي.

كان الإسلام قد عرف فيما مضى هجمات مضادة قام بها الجانب المسيحي خلال الحروب المزمنة ضد البيزنطيين، خاصة عندما نشطوا خلال القرن العاشر: لكن هجوم قوى الغرب اللاتيني - الذي تم صراحة تحت شعارات دينية حربية واضحة - باغت على حين غرة مجتمعا إسلاميا منقسما من الناحية السياسية على نفسه وغير مستعد أو مهيا لمجابهة حملة منظمة فعالة.

^[4] على هذا الأساس نرى أن المعادلة التي طرحها Grousset عن بروز فوضى (أناركية) إسلامية مقابل نظام ملكي إفرنجي، توضّح إلى حد بعيد معالم الوضع الذي كان قائما في سورية بين نهاية القرن الحادي عشر وأولى عقود القرن الثاني عشر: حيث تجزأت البلاد في إمارات تركية متناحرة فيما بينها، يتزعمها أتاك السلاجوقيين وعساكرهم وأتباعهم، هذا بينما كان حكم فاطمي مصر يترنح في فلسطين. أما في بغداد فقد خضع الخليفة العباسي لإمرة السلطان التركي وأصبح مجرد ظلٍ لسؤدد الإسلام الذي ظهر أيام المنصور والمأمون.

وبهذا تفشت الحروب الصليبية تفشيّ بقعة الزيت رغم أن أمراء سورية الشمالية وولاة الفاطميين في القدس والمدن الساحلية حاولوا أن يقاوموها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا - أي أنهم فشلوا. أما الحملة التي انتظروها على غير طائل من بغداد قد أظهرت منذ البداية وهناً وعجزاً.

لكن ما إن أطل العقد الرابع من القرن الثاني عشر حتى بدأت المقاومة الإسلامية تشتد، وحدث هذا بفضل "آرتوق" ماردين و"طغتكين" دمشق، بل وقبل الجميع، بفضل آتابكة الموصل الزنكي ونور الدين، اللذين أوقفا تقدم حملة كونت الرها قبل أن يضعا الشام نصب عيونهما ويعملا على تحقيق هدفهما المزدوج الساعي إلى توحيد البلاد تحت سيادتهما ودفع الفرنجة نحو البحر.

بدأت العروبة حينها تتراجع إلى الخط الخلفي من حيث هي قوة سياسية، مخلفة المجال للأسر التركية في تزعم حركة المقاومة. ومع أن هذا حدث ضمن محيطٍ بيئيٍّ عربيٍّ من الناحية الثقافية فقد كان لهذه صبغة تركية من الناحيتين العسكرية والاجتماعية.

ولم يكن لوصول صلاح الدين إلى الحكم إلا أن يؤدي إلى إيقاف عملية التتريك هذه، لكن من ناحية معينة فقط، إذ أنه عمل من ناحية أخرى على استمرارها: فهذا الأيوبي العظيم - كردي الأصل، تركي/عربي اللغة والتربية، المسلم السني في عقيدته وأفعاله - جعل من مصر مركز سلطانه وأعاده للمذهب السني، كما أنه أعاد للعروبة هيبتها من جديد.

وعندما تلاقت المملكتان سقط على صعيد حطين تاج القدس اللاتيني. لكن الحملة الصليبية الثالثة أتت لتسد الطريق على الهجوم الإسلامي ولتدعم وضع الدويلات الصليبية المتداعية في الساحل.

ومع هذا فقد استطاع الأيوبيون بفضل العادل والكامل أن يحافظوا بالطرق الدبلوماسية حيناً وبالطرق الحربية حيناً آخر، على توازن دام بين الفريقين نصف قرن من الزمان: فهم دحروا الحملة الخامسة، وحيدوا فردريك الثاني، لكنهم لم يفلحوا في مجابهة الدويلات الساحلية الصليبية المتبقية مجابهة فعالة. أما من أفلح في الأمر فكانوا سلاطين المماليك، وهم عبيد أتراك من أهالي روسيا الجنوبية والقوقاز، كان من جملة نجاحاتهم أن تمكنوا في منتصف القرن الثالث عشر من أن يحلوا محل آخر الأيوبيين عندما بدأوا يتضعضون في مصر. بل إن الإسلام مدين لهؤلاء الجنود الخشنيين الأفظاظ بصد الغزو المنغولي (بعدما خلصوا سورية بانتزاعهم النصر في موقعة عين جالوت عام 1260) ويتصفية الصليبيين أيضاً. حقق المماليك هذا كله بعد أن تمكنوا من تطوير النظام الإقطاعي العسكري الذي أدخله السلجوقيون وواصل الأيوبيون العمل به.

أما على الجانب الآخر فنجد أن الغرب لم يعد قادراً على مواصلة دعمه للكيانات التي اصطنعها في ما وراء البحار: فالبابوية - التي جنحت خلال الحملات الصليبية الأولى بالدافع الديني السامي وحولته نحو مطامعها في ترسيخ هيمنة أوربا وسيطرتها، والتي استخدمت الصليب راية لقوات مسيحية حاربت قوات مسيحية أخرى معمدة مثلها (حملة صليبية ضد الألبج، محاربة

الهوهنشتاوفن^[5]) - كان عليها، أي على هذه البابوية، أن تراقب وهي مكتوفة الأيدي احتضار كل من أنطاكية وطرابلس وعكا، أي على المراحل الثلاث المهمة من سيطرة المسلمين على الساحل خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر. كما بدا أن دفاع جماعة الديوية في الأراضي المقدسة عن أنفسهم كان يعبر أيضاً وإن بطريقة غير مباشرة عن بداية المأساة التي تعرضوا لها في الغرب.

كان هذان قرنان مليئان بالتاريخ، تاريخ يتعلق بصورة متساوية بمصائر كل من المسيحية اللاتينية والرومية الشرقية (التي كانت ضحية سلبية وبريئة للذنوب والأخطاء اللاتينية)، ومصير الإسلام فوق أراضٍ يعتبرها منذ خمسة قرون أراضيه الخاصة. وكان لأحداث هذين القرنين أن انعسكت انعكاساً كافياً

على التأريخ الإسلامي (الستوريوغرافيا الإسلامية) في ذلك العهد بل وفيما تلاه مباشرة من قرون.

قلنا التأريخ الإسلامي ولم نقل العربي وذلك اعتباراً للأصول غير العربية التي كان ينحدر منها بعض مؤلفيه ومؤرخيه، لكن يمكننا أن نسميه عربياً دون شك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار اللغة المستعملة (فالتأريخ بالفارسية وماتبعه من تأريخ بالتركية لا يضيفان شيئاً لتأريخ الحروب الصليبية) وأن نسميه أيضاً عربياً-إسلامياً عندما نعتبر قوى العقيدة والفكر التي تحركه وتكمن وراءه. ولا يمنع هذا وجود بعض المساهمات الثانوية مما قدمه عربٌ مصر المسيحيين. إن غزو الفرنجة (كما كان العرب يسمون مسيحيي الغرب لتمييزهم عن الروم البيزنطيين) وما ألحقوه بالإسلام من دمار ومذابح وأضرار، ثم المقاومة التي أبدتها هذا الأخير والتي تكللت في النهاية بالنصر، لم تكن من المواضيع التي عالجها التأريخ الإسلامي في العصر الوسيط بصورة منفصلة ضمن دراسات منفردة. فرغم أن ذلك التأريخ كان يعطي أهمية عظيمة لتلك الظواهر، فإنه كان على الدوام يضعها ضمن إطار الصيغ الأدبية التي اعتاد أن يفهم الأمور من خلالها وأن يعرضها بواسطة، مما يجعلها تضيع ضمن سجلات السيرة والحوليات المسروقة، أو تتلخص ضمن إطار معالجات لا تركز بالطبع على أفعال الأعداء بل على بعض الشخصيات أو السلالات الإسلامية التي تُتصَبُّ هنا وهناك قيمة على حماية الدين والعقيدة. هذا مما يجعل عبثاً البحث في التأريخ الإسلامي عن تاريخ واحد ومنظم يستعرض الحروب ضد الفرنجة ويدور بصورة كاملة حول مواضيعها.

على أنه باستطاعتنا نحن أن نعيد الآن صياغة مثل تلك المواضيع صياغة افتراضية بواسطة موازنة ومقارنة ودمج المواد الموجودة في مختلف أنواع المؤلفات المتعلقة بتاريخ ذاك العهد. إننا نتكلم عن مؤلفات التاريخ العام التي تتناول العالم الإسلامي، كمؤلف ابن الأثير الكلاسيكي المشهور أو مؤلفات أخرى أقل شهرة كالتى كتبها سبط ابن الجوزي وابن الفرات، أو التصنيفات المتأخرة أو أخبار المدن والأقاليم كمؤلفات ابن القلانسي أو كمال الدين المتعلقة بسورية الشمالية ومنطقة ما بين النهرين، أو حتى مؤلفات تتعلق بالأخبار المحلية والسلالات الحاكمة، كمؤلف ابن واصل والمقرزي، أو تلك الخاصة بالسلالة الحاكمة كتصنيف أبو شامة، أو في النهاية ككتب السير البيوغرافية المحضة، أو تلك التي تركز على مآثر بطل ما، مثلما هو الحال مع مؤرخي صلاح الدين أي بهاء الدين وإمام الدين، ثم كتب السيرة الرسمية لأوائل سلاطين المماليك، كمؤلفات ابن عبد الزاهر.

هناك أيضاً كتاب السيرة الذاتية اللامعة لمؤلفه أسامة وهو كتاب فريد من نوعه من الناحية الأدبية، بل حتى من الناحية التاريخية كما سنرى لاحقاً. تختلف هذه المؤلفات فيما بينها بالشكل - الجامد المهمل أحياناً، أو المنتفخ بقرعات السجع أحياناً أخرى - أو بالنوع التاريخي، أو بالذكاء والدقة، أو

بالسطحية السقيمة والتصنيفية السلبية التي يتصف بها مختلف المؤلفين. لكن وكما هو متوقع فإنها تشترك كلها رغم تلك الاختلافات في موقفها العدائي الذي يزدري الغريب الكافر الذي أتى ليغزو بلاد الإسلام مدفوعاً بتعصبه الأعمى (لأن كل طرف يرى تعصب الطرف الآخر).

لكنه من النادر أن نجد مناقشات أو تحليلات للأهداف الحربية العملية التي يبيتها العدو، فهذه المناقشات لم تظهر إلا خلال مشاورات الصلح أثناء الحملة الثالثة.

إن وجود الكافر مسلحاً فوق الأراضي الإسلامية هو أمر لا يمكن مجابهته إلا بالسلاح - بل إن للمسلم من الناحية النظرية حقاً شرعياً في حمل السلاح إلى بلاد الكفار ومقاتلتهم حتى الموت أو حتى يشهروا إسلامهم أو يخضعوا للدين الحق. لهذا لا يمكن أصلاً التحدث عن إقامة أي سلام مع الإفرنج أو مع الكفرة بصورة عامة، لكنه يمكن التحدث عن هدنة مؤقتة عندما تدعو الحاجة إليها. لهذا فقد عارض كثيرون في المعسكر الإسلامي الصلح أو الهدنة الشهيرة التي إنعقدت عام 1192 بين ريتشارد وصلاح الدين. هذا كله من الناحية النظرية البحتة، أما من الناحية العملية، فلم يكن من المستطاع أن تنقضي مئتا عام من الحملات الصليبية في حرب دائمة مستمرة، وهكذا فإنه لم يكن لدينا فترات هدنة وحسب، بل إننا وجدنا في القرن الثاني عشر "تحالفات ضالة" عقدت بين مسلمين وصليبيين ضد أتباع نفس الدين من هؤلاء وأولئك، ممن كانوا في وقت معين أعداء مشتركين (وقد وضّعنا ابن القلانسي بكل صراحة على مجرى أحداث أكثر تلك التحالفات فضيحة أي تحالف أبناء جلدته الدمشقيين مع الفرنجة من أجل صد غزو زنكي عام 1140).

لكن فترات السلم ليست موضوعاً مفضلاً من قبل التاريخ الإسلامي، وربما من قبل أي تاريخ كان، وهكذا فلم يكن التاريخ الإسلامي للحروب الصليبية إلا مقارعة متواصلة للسلاح وتتابعاً مستمراً للمعارك، يجري أغلب الأحيان على ذات الوتيرة، وليس إلا مناوشات ومحاصرات وغزوات. لذلك فإن أفعالاً مثل "قَتْلَ"، "نَهَبَ"، "اقتحم" كانت هي الأفعال الأكثر تصريحاً في مجرى حكاية الحروب المقدسة المتبادلة. وكانت الأدوار هي التي تتغير فقط، فالمؤرخون الأقدمون كتبوا عن استسلام مدن الساحل السوري الإسلامية لحصار الفرنجة وعن المذابح والنهب والحرق، وكذلك فقد تكررت في الطرف المقابل نفس المناظر لكن بأدوار معكوسة، بل إن التعبير جرى أحياناً بنفس الكلمات خلال الحديث عن مراحل الفتح الإسلامي. "لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف

يهلكون" [6]. ومع هذا فإن الشجاعة والتضحية بتقيان مكرمتين يعجب بهما الطرفان ولا ينقصا أيّاً منهما.

في قمة الأمثلة، أي في الحملة الثالثة، تجابهت شخصيات بارزة من كلا الجانبين، وتطورت المعارك تطوراً مأساوياً واسعاً (حطين، حصار عكا)، وبينما

كانت سيرة الوقائع العسكرية تسير على وتيرة واحدة، فإنها انفتحت بعد ذلك بنقسي أرحب، لتقدم لنا أوصافاً تتشجح أحياناً بشاعرية دينية وهي ترسم يوم طبرية والصدامات العنيفة تحت أسوار عكا وكّر صلاح الدين وفرّه. وقد كانت مهمة أيضاً، وإن كانت مملة في تفاصيلها المضطربة والمتناقضة غالباً، سجلات المشاورات الطويلة التي تدور حول ذلك السلام، ومن المؤسف ألا يكون النص الأصلي قد بقي، كما بقيت فصول أخرى عن معاهدات السلام أو الهدنة بعد أن حفظها مؤرخو المماليك حتى عهد متأخرة (معاهدات قلاوون).

كانت إذن حرباً مستمرة لكن من الناحية النظرية البحتة، لأن كثيراً من الهدن الهشة قد تداخلت بينها: هذه هي صورة الوضع الرسمية التي سادت خلال قرنين من تعايش الإسلام والنصرانية في الأرض المقدسة. وقد انعكست الصورة بالطبع على التاريخ الإسلامي لتُمدّد أفقه على وتيرة واحدة. انعدم كذلك لدى المؤرخين المسلمين أي اهتمام بالتنظيم في الدول الإفرنجية وبحياتهم الاقتصادية والاجتماعية وثقافتهم.

لكننا نعثر من حين إلى آخر على توثيق لبعض الحالات، التي لاندري إن كانت قد سُجّلت إعجاباً أو ازدراءً، والتي نشاهد فيها أن الثقافة والعادات الإسلامية قد أثرت بالعدو، ذلك كما حدث مع أمير شقيف عرنون الذي أخبرنا مؤرخو صلاح الدين أنه كان يتكلم العربية ويهتم بالأدب العربي والشرع الإسلامي، رغم أنه حاول أيضاً استغلال معارفه لخداع العدو (وقد اكتفى الكريم صلاح الدين بسجنه). كما أننا لا نجد أي اهتمام بعادات وأفكار وحياة العدو لدى كبار المؤرخين، هذا وإن كان باستطاعتنا أن نجد ملامح لهذا الاهتمام لدى مؤرخ غير تقليدي مثل اسامة، لهذا حاولنا هنا الاستشهاد بفقرات من مؤلفاته.

أما عندما يتكلم المسلمون عن المسيحية وعن العقيدة والطقوس النصرانية، فإنهم يقدمون صورة كرنفالية مشوهة (ولنقرأ صفحات عماد الدين حول نهاية القدس الصليبية)، لا يمكن مقارنتها إلا بالصورة الأخرى التي تعرضها علينا نصوصنا الدينية التي كتبت في القرون الوسطى عن الطقوس والعقيدة الإسلامية. هذا مما يخولنا اختصار القول وتأكيد أن كل جهة كانت تكافئ الأخرى بنفس العملة، وأن الحروب الصليبية لم تكن أبداً ذات جدوى في تعريف المسيحيين والمسلمين بما في العقيدتين من نواح نبيلة سامية.

لكن إن نحن عدنا إلى ذلك التداخل المادي والروحي الذي لاشك أنه كان موجوداً، وإذا ماراجعنا المصادر الإسلامية فسنعرف أن لأمجال لمقارنة ما عرف وما أراد الإسلام أخذه عن الفرنجة مع ماأخذه الفرنج عن الشرقيين. فصاحب طرابلس الإفرنجي المدعو غوليلم تعلم العربية وأخذ عن مصادر عربية تأريخه المفقود والمعروف باسم تاريخ الشرق، وأصبح ظاهرة ليس لها مثيل في الجانب المقابل. لكن المؤرخين العرب للحروب الصليبية لم يهتموا

بالعدو فقط، بل انصب اهتمامهم بصورة أساسية على المقاومة الإسلامية وأبطالها. وهذا مايسمح لنا دون شك أن نجد جانباً يتمم التاريخ الغربي. لقد أشار العرب أنفسهم وبكل وضوح إلى أن انقساماتهم كانت هي السبب الأساسي في انتصار الحملة الصليبية الأولى (وهناك إشارة مريرة في كتاب لكمال الدين تبيين أن الأمراء المتنافسين في سورية قد رحبوا بالتدخل الإفرنجي، بل إن أنانيتهم العمياء دفعتهم لاستغلاله لمصالحهم الخاصة)، لكنهم أبدوا بعدها ارتياحاً كبيراً، تشوبه أحياناً شيء من الخيبة بحسب تباين الخلفيات، عندما شاهدوا بروز أبطال كبار استطاعوا توحيد المقاومة ضد الصليبيين، ذلك مثل طغتكين وزنكي ونور الدين وصلاح الدين.

في هذا السياق برزت المقاومة الرائعة التي أبدتها دمشق ضد حصار عام 1148 لتكون فصلاً مشرفاً من فصول مقاومة الغزو اللاتيني بل من أكثر الحروب البلدية أو المحلية تشريفاً. بعدها مباشرة بل وقبل ذلك أحياناً، أخذ الزنكيون والأيوبيون والمماليك على عاتقهم توحيد المقاومة، وهذا ماكان من واجب خليفة بغداد أن يفعله، من الناحية النظرية على أقل تقدير. لكن هذا الخليفة أصبح مجرد مظهر شكلي وتلاشت هيبته بشكل مهين خلال الحروب الصليبية بالذات عندما لم يتمكن القيام بأي دور سوى إلقاء الخطب وإقامة الصلوات ورفع الأدعية وإرسال رسائل التهئة إلى الأبطال المنتصرين من أهل السنة. لذلك فإن من استحق أمجاد محاربة الصليبيين كانت دويلات وأسر إسلامية ذكرناها أو أخرى أقل شأنًا دعمت جميعها الحرب المقدسة عن قناعة أو لأسباب سياسية، بل إن هناك من تفاني وكرس كل حياته في ذلك السبيل. ونفهم أن إيمان مؤرخي تلك الدويلات والأسر واخلاصهم لها واعترافهم بجميل حكامهم زاد من تبجيل أولئك الحكام وتكليلهم من ثمة بأكاليل النصر. لكن صورة صلاح الدين ارتفعت عالية فوق الجميع، حتى أنها فرضت إعجاب العدو بالذات. فهو بأصوله البسيطة وبمسيرته التي لم تخلُ أولى فتراتهما من الغموض والعنف استطاع أن يجسّد فيما بعد خلال انتصاراته وغيرها هبةً وإنسانية وفروسية الحضارة الوسطى في الشرق، ذلك إلى جانب رفعه عالياً وبتصميم بالغ لواء العقيدة والسنة. وقد ترك لنا كل من يهاء الدين وعماد الدين صورة واضحة تمثل صلاح الدين أميراً مسلماً مثالياً يتمتع بصفات ترميها المسحة الانسانية أكثر من الفروسيّة. رغم هذا كله فإن الصورة التي رسموها لا تستطيع أن تبرر تبريراً كاملاً المحبة الكبيرة التي كنّها لذلك الرجل المعاصرون والمتأخرون في المعسكر الإسلامي أو في المعسكر المعادي

على السواء. بيد أن الأسطورة التي أعطته مكاناً في البرزخ الدائتي ^[7] وفي أشعار وروايات غربية عديدة بقيت بكماء عنه في أرضه التي كَرّمت من كان

أدنى منه درجات من الناحية الإنسانية، أي بيبرس ^[8]. نجد على كل أن المصادر

التاريخية العربية احتفظت لبطلاني الجهاد الإسلامي هذين بذكرى حية ذلك كما فعلت مع زنكي ونور الدين والكامل والآخرين من كبار خصوم الفرنجة. والحقيقة أن أنبل فضائل التاريخ الإسلامي نجدها في أمانة وروعة تصنيفاته، التي تترتمي أحياناً - وإن بمشاعر معادية - على صفات مهمة لشخصيات من المعسكر الآخر. وهكذا فإننا نقرأ عن دهاء بالدوين الثاني وشجاعة قلب الأسد وإقدام كونراد وديلوماسية فريدريك الثاني وشكوكه الساخرة وذلك ضمن بعض الملاحظات البارزة في صفحات المؤرخين المسلمين. غير أنا إن قبلنا بهذه الصفات فنحن أقل استعداداً لقبول وتأكيد أوصاف أخرى كالـ "ماكر الخبيث" التي وصف بها الملك القديس لويس التاسع (ومع هذا فما أجمل ماقاله ابن واصل عنه حين صوّره بكل ودّه وأنسه في صورة حية خلال حوارهِ مع المبعوث المصري في سجن المنصورة. أما أن يقال عنه إنه خبيث محنك؟ وهو الذي ذهب في قيظ الصيف مع الحملة الطائشة على تونس لينهي حياة اتصفت بالإيمان المتقشف والمثالية الدونكيشوتية!

إن غنى مواد التاريخ العربي للحروب الصليبية وكثرة بياناته التاريخية (وإن لن تكن متسقة دائماً فيما بينها، ولا متطابقة على الدوام مع المصادر الغربية) ثم روعة وصفه وتصنيفاته تؤهله حقاً للتفوق عند مقارنته بالتاريخ المسيحي المعاصر له. من ناحية أخرى نحن لانرغب في أن نطالب هذا التاريخ بالموضوعية وتفهم العدو ولا بأصالة أو عمق الرؤى أي بالصفات التي كان يحتاج إليها بصورة عامة التاريخ العربي في العصر الوسيط، الذي كان يتأرجح بين البراغمية العملية وبين ثيولوجية إيمانية آلية. لكن هناك شخصية مؤرخ حقيقي قد تبرز بين العديد من شخصيات المؤرخين المجتهدين، ألا وهي شخصية ابن الأثير، رغم أن هذا المؤرخ لم يحظ، من ناحية أخرى، بسمعة ملائمة لدى مستشرقى العهد الحديث كمؤرخ للحروب الصليبية، وذلك بسبب استعماله المزاجي والتمحيز للمصادر التي أخذ عنها. لكن إن دعنا هذه الملاحظة لعدم الاعتماد عليه كثير الاعتماد من الناحية التوثيقية، فهي تؤكد لنا على أصالته كمؤرخ عبقري يبرز بين سلبية المصنفين البالغة. يفتقد الجانب العربي إذن في هذه الحقبة إلى شخصية مميزة كشخصية غوليلم صاحب صيدا، لكننا إذا تركنا هذه الشخصية النادرة جانباً فإن متوسط مستويات المؤرخين العرب للحروب الصليبية يبدو أعلى من مستوى المؤرخين الإفرنج. لكن الآخرين يتمتعون، في كثير من الحالات، بتجربة مهنية أعظم، أي بما يمكننا تسميته بالضمير المهني الخبير. خاصة وأن التاريخ الإسلامي من جهته ليس، في أغلب الأحوال، وكما أسلفنا، إلا جانباً من معالجة تاريخية ومن تجربة عامة أوسع.

إن محاولة عرض تاريخ الحروب الصليبية من خلال وجهة نظر "الجهة الأخرى" ليست بالمحاولة الجديدة في الغرب. فمنذ أكثر من قرن مضى، وبعد انتهاء Reinaud لـ Bibliotheque des croisades Michaud فإن الأستاذ الضليع

أستاذ Michele Amari قد وضع مؤلفاً اسمه Chroniques arabes (باريس 1829)، جمع فيه ضمن نص متتابع بعض الإصدارات والنصوص المجددة المأخوذة عن المؤرخين العرب لتلك الفترة، خاصة وأن كثيراً من تلك النصوص لم تكن آنذاك مطبوعة، بل كانت محفوظة في "Bibliothèque du Roi". غير أن ذلك العمل الريادي، الذي ما زال يحتفظ حتى اليوم بفائدته الكبيرة بالنسبة للمؤرخين غير المستشرقين، كان يهدف إلى تقديم رواية متكاملة عن الأحداث مستقاة من مصادر شرقية للحروب الصليبية، ذلك بدلاً من تقديم تلك المصادر المتبعثرة بملامحها المميزة. وهذا ما تم اقتراحه خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر في باب Historiens orientaux في Recueil des Historiens des Croisades والذي نُشر برعاية Accademie des Inscriptions et Belles Lettres واعتنى بأجزائه الشرقية Barbier de Meynard، وهو يحتوي في مجلداته الخمسة المطبوعة (باريس 1872-1906) على نصوص وأقوال لمختلف المؤرخين، كابن الأثير وبهاء الدين وأبو الشامة وأبو الفداء.. الخ.. لكن هذا العمل الرائع (وإن كان غير عملي وغير ملائم للقراءة المتواصلة) كثيراً ما تم انتقاده بسبب الخيارات غير الموفقة وغير الآمنة للنصوص بل بسبب بعض أخطاء التفسير أيضاً، ومع هذا فإنه يبقى مرجعاً دراسياً مهماً يستعمله المستشرقون والمختصون بالقرون الوسطى على السواء.

يعتبر عملنا هذا شديد التواضع أمام العاملين اللذين استشهدنا بهما للتو. وإذا كنا قد استفدنا في محاولتنا هذه من كلا المؤلفين، فإن مراجعنا الأساسية هي النصوص المختلفة، التي أصبح أكثرها منشوراً الآن، أما تلك التي لم تنشر بعد فيمكن مراجعتها بسهولة ضمن المجموعات الفوتوغرافية المصورة للمخطوطات التاريخية المحفوظة في "مؤسسة كايثاني للدراسات الإسلامية" Fondazione Caetani Per gli studi musulmani في روما. النصوص التي استشهدنا بها مأخوذة عن سبعة عشر مؤلف، وهي إن لم تشكل كل المصادر الإسلامية التاريخية عن الحروب الصليبية، فإنها تشمل أكثرها أهمية، وتشكل محاولة لتقديم إطار متكامل بما فيه الكفاية يستعرض مختلف النماذج والاتجاهات التاريخية والأدبية مما قدمنا عنه لمحات سريعة... أما الأحكام التي اتبعناها في اختيار النصوص فكانت تراعي، كما هو بدهي، أهمية الموضوع التاريخية من ناحية، ثم البحث من ناحية أخرى عن طابع إنساني وأدبي يكون حيوياً وذا شأن ضمن الوتيرة العامة للمصادر. أي عن بعض التفاصيل التصويرية البارزة، التي وإن لم تكن ذات أهمية تاريخية فائقة فإنها تنطبع بسهولة في الذاكرة وتبقى حية فيها. والحقيقة أن العديد من المؤرخين الشرقيين يميلون لمثل هذه التفاصيل التي اعترف أنها امتلكت مشاعر مصنفهم الحالي أيضاً. نجد على ضوء هذا أن القسم الثاني المخصص لصلاح الدين والحملة الثالثة قد نال بين ما اخترناه حصة الأسد، وكان هذا

بسبب أحد الحكمين المستشهد بهما رغم أنه يتمتع بالحق الأدنى في ذلك. بيد أن ما أمله هو أن تبرز من خلال هذه الصفحات الرؤية العامة والتفاصيل التي أعطانا إياها المسلمون عن ذلك العهد، وكذلك توجهات كل منهم، حيثما وجدت، وخصائص أساليبهم.

والآن، وبعد تصوّر مشهور عديدة قضيتها في صفة مؤرخي الحروب الصليبية أولئك، وبعد معاودتي سماع أصوات حادة النبرة، مغالية في عدائها لعقيدة أبائنا، شديدة الغيرة الدينية وعميقة المحبة لتقاليدهم المتوارثة، قوية التعاطف مع ذكرياتها والإعجاب بإبطالها الشهداء الذين ضحوا في سبيل الدفاع عنها، بعد كل هذا فليُسمَح لجامع هذه النصوص بأن يعترف بمحبة واحترام حضارة كُرس سنوات طويلة من عمره لدراستها، رغم أنه لم يتمكن من الاقتراب منها كما يجب وتفهمها في أعماقه حق التفهم. ومع هذا فإنها لم تظهر له أبداً قبل هذا الحين بكل ما فيها من قوة تلهم الصبر وتكريس الذات والتضحية ومرونة فائقة ومقدرة على الانبعاث، ساعة تعاكسها الأقدار، وإيماناً حديداً صلباً لا يلين بالملكوت السامي المطلق، هذا إلى جانب ما فيها من عيوب وسلبات ليس هناك الآن ضرورة للإصرار عليها. أما وقد اعتدنا أن نصيغ كل المزايا المذكورة بتعابير توحى بالعيوب والنواقص والمساوئ عندما نعرف أنها تتعلق بـ "الجهة الأخرى"، فلنعمل الآن إذن على تسميتها ولو لمرة واحدة بإسمها الحقيقي على ألا ننكر شيئاً من أهميتها وبدون أي تورع أو خوف.

ف.غ.
روما، أيلول/سبتمبر 1957

تم في هذه الطبعة الثالثة من الكتاب تصويب بعض الأخطاء وتحديث بعض بيانات المراجع.

ف.غ.
روما، آب/أوغست 1969

مقدمة المعرب

ألّحت علي فكرة إعداد هذا الكتاب بالعربية منذ معرفتي به للمرة الأولى بالإيطالية. وفكرت أنّه سيكون كتاباً "قديمًا" و"حديثًا" في آن واحد، كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخي العهد وقد لبس لباس عصرنا وتحلى بروح حلته. وقد قرانا أن غابرييلي قال في مقدمته إنه عمل على إعادة صياغة مواضيع عمله صياغة افتراضية، فوازي وقارن ودمج مواد مختلف المؤلفات التي كتبها مسلمون في ذلك العهد عن تاريخ ذلك العهد. هذا بهدف (مساعدة القارئ الغربي على النظر إلى فترة الحروب الصليبية من "الجانب الآخر"، أي من وجهة نظر الخصم آنذاك). لهذا اعتقدت إن إخراج هذا الكتاب بالعربية سيساعد القارئ العربي هذه المرة على معرفة شيء عن الرؤية الغربية المعاصرة حول مجمل الأمر: كتاب عن الحروب الصليبية بقلم مؤرخين عرب لتلك الحقبة إذن، لكنه منسق ومنظم بطريقة علمية حديثة، ومن قبل غربيّ يحاول أن يكون موضوعيا في رؤيته وعمله.

وتكلمت آنئذ مع الأستاذ غابرييلي، وبدأت بالعمل. ولم يكن بالسهولة التي تخيلتها بادئ ذي بدء: لكن بالعمل يمكن تجاوز كل صعوبة.

وقد وجهني الأستاذ غابرييلي آنئذ إلى أمين مكتبة كايثاني (الذي أصبح بعدها عميد كلية الدراسات الاسلامية في المعهد الشرقي في جامعة روما) وذلك لأتمكن من الحصول على صور للصفحات ذات الصلة في المخطوطات والمجلدات. كان من السهل تصوير بعض الكتب والمخطوطات بأجهزة الفوتوكوبي، لكن استعمال الميكروفيلم كان ضرورياً لتصوير بعضها الآخر. كان علي إيجاد الكتب والمخطوطات المعنية في إرشيف المكتبة الضخم، ثم البحث في كل منها عن الصفحات التي تهمني والتي أشار إليها غابرييلي في كتابه الذي نقلت عنه. خرجت بعدها بمصنف واسع يضم صوراً لكل الصفحات الأصلية فجمعتها ورتبتها بحسب ماوردت في كتاب غابرييلي الإيطالي. وترجمت بالطبع كل ماكتبه غابرييلي من مقدمات وهوامش وفهارس وأضفتها إلى ذلك المصنف. كما أضفت إلى النصوص العربية المقتطفة التواريخ الميلادية التي وضعها غابرييلي إلى جانب التواريخ الهجرية الموجودة في النصوص الأصلية.

أورد في نهاية هذا الكتاب نماذج من صور طبق الأصل (فوتوكوبي) وميكروفيلم التي شكلت اساس المصنف المذكور وقوامه أكثر من 300 صفحة. وهي نماذج عن صور الصفحات الأصلية التي جمعتها ورتبتها بحسب ماوردت في كتاب غابرييلي الإيطالي.

لم يكن يمكن لأي ناشر أن يقبل تقييم الكتاب على أساس مصنف يجمع صوراً تصعب في كثير من الأحيان قراءة مافيها. وهكذا كان لابد من تنضيد

الكتاب من جديد. طال بي الزمان وأنا على هذه الحال إلى أن توفر في العالم الكمبيوتر ومن بعده الانترنت. فحاولت منذ فترة قريبة استعمال هذه التسهيلات وتمكنت من العثور على كثير من المواد المصنفة في مواقع الانترنت، وهكذا بدأت رحلة ثانية أقل صعوبة من الأولى لكنها ليست أقل تعقيداً. بحثت ووجدت ملفات كثيرة للكتب المعنية، وكان علي أن أستخلص من كل منها المقاطع المطلوبة. بعد لأي تمكنت من تجميع كثير من تلك المقاطع، لكن كثيراً منها أيضاً لم يكن موجوداً على الانترنت، أو أنها كانت موجودة بطريقة لا يمكن النسخ عنها أي بصورة PDF. وهكذا فإنه لم يكن أمامي إلا العمل على تنضيد المقاطع الناقصة^[9] انطلاقاً من صور المصنف القديم.

ذكرت في الهوامش أسماء أهم المواقع التي أخذت عنها المقاطع المعنية^[10]. وعلي هنا أن أسجل أن صفحات مقاطع الانترنت تختلف عن تلك الأصلية المستشهد بها. يتناول الاختلاف كلمات وعبارات بل وجمالاً كاملة تزيد هنا أو تنقص هناك. ويبدو أن الطباعات التي أخذت عنها بعض مواقع الانترنت تختلف عن تلك التي نقل عنها غابرييلي كتابه. لذلك لابد أن تكون أرقام الصفحات التي أوردها غابرييلي، ونقلتها أنا بالطبع في هذا الكتاب، تختلف عن بعض الذي أخذته هنا أيضاً عن الانترنت. لكن المهتم بمزيد من المتابعة عليه أن يعتمد الطباعات التي استشهد بها غابرييلي.

لقد بدأت باعداد هذا الكتاب في روما خلال سبعينيات القرن الماضي وتحت اشراف مؤلفه الأستاذ غابرييلي، وعادت العمل فيه على فترات متقطعة، إلا أنه لم يتح لي أن انهيه إلا الآن وأنا في دمشق التي تشهد اليوم فترة عصيبة لاتخلو من بعض امتدادات ذاك الغزو الافرنجي الذي نحن بصددده، والذي عاد منذ فترة ليست قصيرة ليناوش كثيراً من بلداننا العربية. ومن هنا - مرة أخرى - أهمية مثل هذا الكتاب في هذه الفترة من التاريخ.

الأعزل

صورة للرسالة التي كتبها لي البروفسور فرانشييسكو غابرييلي عام 1972 حول مقابلة أجريتها معه ونشرت في حينه. أسوقها هنا مع ترجمة لها بالعربية، مع أنه يؤسفني أنني لم أتمكن من العثور على نص المقابلة. أشير إلى أن تعابير اللكنة المستحبة والأعزل التي أثار إليها وردت في سياق المقابلة المذكورة.

الترجمة:

معهد الشرق

روما

مكتب الرئيس روما 14.9.1972

عزيزي نبيل

استلمت الثقافة وقرأت بسرور بالغ مقابلتك (وقد أسفت حول اللكنة حتى لو كانت مستحبة، لأن المستعرب لن يتمكن أبداً من التحدث بلهجة العربي الأصل...). لقد أعجبت بدقة وأمانة نقلك وتعبيرك حتى عن أدق تفاصيل محادثتنا. أشكرك لذلك مع ودي الصادق. أرجو أن نجتمع في لقاءات أخرى، وأحييك بكل ودي
فرانشييسكو غابرييلي
الأعزل

ISTITUTO PER L'ORIENTE

ROMA (I)

VIA A. CARONCINI, 10

IL PRESIDENTE

ROMA,
TELEF. 864.328

Roma, 14 IX 72

Caro Nabil,

ho ricevuto la Thagafa, ho letto con gran piacere la sua intervista (vi ha solo mortificato un po' la lukna, sia pur mustahabba; ma è fatale che un musta'rib non possa mai parlare come un 'arsabi puro...). Ho ammirato la precisione e fedeltà con cui Lei ha raccolto e reso sin nelle sfumature quella nostra conversazione; e La ringrazio perciò con vera cordialità.

Spero in altre occasioni di incontro, e La saluto intanto amichevolmente

con affetto
F. V.

ملاحظات ببليوغرافية (1)

هناك كتابان تاريخيان كاملان وحديثا العهد يدوران حول الحروب الصليبية، دون أن يكون واضعا هما من المستشرقين، لكنهما اعتمدا على أي حال على Reinaud وRecueil وهما:

1- R.GROUSSET, Histoire des Croisades et du royaume franc de Jerusalem, Paris 1943-36.

2- ST.RUNCIMAN, A History of the Crusades, Cambridge 1951-54.

يقع كل من هذين المؤلفين في ثلاثة مجلدات تحتوي على ببليوغرافية واسعة (وقد قدم R.GROUSSET نفسه ملخصاً عاماً سهلاً في L'epopee des Croisades طبعة باريس 1939). أما عن كتاب History of the Crusades الواسع والذي أتمه العديد من المساعدين بإشراف La Monte وSetton، فلم يصدر منه حتى الآن إلا جزءان في The first hundred years وThe later Crusades 1189-1311، فيلاديلفيا 1955-1962. كما أن هناك كتاب عن السطوريوغرافية الإسلامية وأشكالها المختلفة لـ F.ROSENTHAL وهو A History of Muslim Historiography طبعة Leiden 1952، لكن الاستعراض والتقييم العميقين للمؤرخين العرب للحروب الصليبية نجدهما لدى CL.CAHEN في كتاب:

'La syrie du Nord a l'époque des Croisades et la principauté francque d' Antioche, (Les sources arabes 1940، الطبعة باريس 1940، الصفحات 33 - 93

وهناك معالجة محدثة أجراها CAHEN نفسه في مقالة Croisades في الصفحات 64-67 من الطبعة الثانية لـ 1961. Encyclopedie de l'Islam-من الممكن أيضاً مراجعة مقالاتنا في الصفحات 98-107 فصل Historiography of the Crusades من مجلد Historians of the Middle East أو كسفورد 1962. وكذلك مقالاتنا بالإيطالية L'Islam nella storia طبعة باري 1966 الصفحات 193-209. ونرى أنه من غير المفيد إيراد ببليوغرافية دقيقة وخصوصية جداً عن كل المؤلفين وعن كل المواضيع على انفراد، ولذلك فإننا سنذكر فقط الدراسات الثلاث المهمة لـ H.A.R.GIBB ألا وهي:

-Note on the arabic materials for the history of the early Crusades- الموجودة في (Bulletin of the school of Oriental Studies)، العدد السابع (1935)، الصفحات 739 - 754

-The arabic sources for the life of Saladin- في (speculum)، العدد 25 (1950)، الصفحات 58 - 72

The achievement of Saladin, (Bulletin of the John Rylands-
Library) العدد 35 (1952)، الصفحات 44 - 60
وفيما يتعلق بصلاح الدين تمكن مراجعة ما كتبناه عنه في كتاب Storia e
civiltà musulmana، طبعة نابولي 1947 وثم طبعة فلورنسة 1948 Firenze،
ثم J.KRAEMER في der Darstellung في (583 - 1187) Der Sturz des
Imad ad-din al 1952 Wiesbaden -Konigraiches Jerusalem
B.Lewis The sources for the history of the Syrian ثم Katib al Isfahani
في (Speculum) 27 (1952) الصفحات 475 - 89 ثم F.GABRIELI،
Gli Ospitalieri di S.Giovanni negli storici musulmani delle Crociate
56 - 345 الصفحات ((annuario delle R.scuola archeological di Atene
9 - 8 (1929)

ملاحظات ببليوغرافية (2)

- رأيت أن أورد هنا الإضافات الببليوغرافية التي وردت في الطبعة الثالثة الإيطالية للكتاب عام 1969
- صدرت ترجمة إيطالية لكتاب L'epopee des Croisades السابق الذكر - ميلانو 1968
- صدر لـ A.WASS كتاب Freiburg - Geschechte der Kreuzzuge الجزء الثاني 1956
- F.cognasso- Storia delle crociate ميلانو 1967
- Z.OLDENBOURG- Histoire des Croisades باريس 1967
- صدر الجزء الثاني من The first hundred years the Later Crusades 1311-1109 فيلادلفيا 1962
- صدرت طبعة ثانية من كتاب A History of Muslim Historiography ليدن 1968
- معالجة لـ CAHEN السابق الذكر في المقال Croisades in Encyclopedie del' Islam ص ص. 64 - 76 الطبعة الثانية 1961
- وهناك فصل لغابرييلي نفسه في كتاب Historiens of the Middle East أوكسفورد 1962 ص ص. 98 - 107
- وفي الإيطالية في كتاب Bari - L'Islam nella storia باري 1966 ص ص. 195 - 209
- وكتاب The Assassins - لندن 1967

المؤلفون والكتب

[11]

ابن القلانسي

هو أبو يعلى حمزة بن أسد التميمي، المشهور بابن القلانسي (دمشق، حوالي 465/1073 - 555/1160). وهو أقدم مؤرخ عربي تناول الحروب الصليبية وذلك في تاريخه المشهور بـ "ذيل تاريخ دمشق" (إشارة لتاريخ يحمل نفس العنوان لـ هلال الصابي).

يذهب هذا التاريخ الذي وصلنا عبر مخطوطة فريدة - من عام 363/974 وحتى عام 555/1160، أي نفس العام الذي توفي فيه المؤلف، وقد روى فيه أحداث بلاد ما بين الرافدين، ولكن، وقبل كل شيء، تاريخ سوريا ودمشق حيث تقلد ابن القلانسي مناصب إدارية وبلدية. وقد تناول في تاريخه، المأخوذ عن مصادر مباشرة، الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية وذلك حتى أوائل العهد الذي دخل فيه نور الدين إلى دمشق.

الجدير بالذكر أن روايته شاملة محيطية وأمنية وتحتوي على بعض التفاصيل حول أمراء دمشقيين من أسرة طغتكين، وهي مكتوبة بأسلوب جاف وموضوعي، عدا عن بعض الفصول حيث يوجد نثر مزخرف. يتسم تاريخ ابن القلانسي بالموضوعية عامة، كما أن معاصرة المؤلف للحوادث المروية ووجود بعض الوثائق في الكتاب تجعل من هذا التاريخ مرجعاً أساسياً حول أقدم عهد من عهود الحروب الصليبية.

النص: طبعة 1908 Leiden, Amedroz

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

45-52، 55-56، 58-64، 67-69، 72-75.

ابن الأثير

هو عز الدين ابن الأثير (جزيرة ابن عمر 555/1160 - الموصل 630/1233)، أشهر إخوة ثلاثة من عائلة كانت تقطن بلاد ما بين الرافدين، واشتهرت بثقافتها العربية الإسلامية. أهم أعماله هو "كامل التواريخ"، وهو تاريخ لكل العالم الإسلامي يبدأ بالأسطورة والتاريخ العربي - العبري السابق لرسالة محمد، وحتى عام 628/1231. يكرر بشكل عام في قسمه القديم (حتى أوائل القرن العاشر بعد الميلاد) الأحداث الواردة في المجموعة التاريخية الكبرى لابن الطبري، لكنه يعتبر مصدراً مهماً جداً فيما يتعلق بالقرون الثلاثة الأخيرة وعلى الأخص بالنسبة للحقبة التي عاصرها المؤلف. ويتميز الكتاب بشمولية الرؤية وتوازن البنيان وغنى المواد المجمعة، وأخيراً وليس آخراً، بوجود رؤية تاريخية صلبة وشخصية واضحة متميزة. يجعل هذا من ابن الأثير "المؤرخ

الحقيقي الوحيد" العربي في هذا العهد. لكن هذه الشخصية الفذة ولدت عيوباً وهنات مثل تعاطفه أحياناً مع العائلة الزنكية العراقية (زنكي ونور الدين وأتباعهما)، كما أنه يبدو أحياناً آخرى غير دقيق في معالجة مصادره. ولكن رغم هذه التحفظات فإن بنية كتابه تدعو للإعجاب، فهو مؤلف يحيط بكامل العالم الإسلامي بدءاً من بلاد ما وراء النهر وحتى بلاد المغرب وأسبانيا. كما نرى أنه يتابع أسباب الأحداث وروابطها، ويجيد تصنيفها في عرض واضح فعال وذلك رغم هيكلية الحوليات المتبعة. أما فيما يتعلق بتاريخ الحروب الصليبية فإن ابن الأثير كان شاهد عيان، ولم يكن دائم الإعجاب بفنائل صلاح الدين، واعتمد في بحوثه على مصادر مثل ابن القلانسي وبهاء الدين وإمام الدين (راجع عنهم الصفحات التالية). وقد كان لوضوح أسلوبه الذي يقصد جوهر الأحداث بعيداً عن وحشي الكلام ومزخرفه أن ساهم في جعله مؤرخاً رئيسياً لأوائل العهد المتوسط الإسلامي.

النص، طبعة Tornberg، المجلدات 10 - 11 - 12، 1853 Leiden - 64

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

63-65، 69-70، 75-77، 103-110، 117-122، 138-148، 152-153، 158-160،

179، 187-193.

كمال الدين

هو كمال الدين ابن العديم (حلب 588/1192 - القاهرة 660/1262) كان مؤرخاً لمدينة مولده، وخاصة من خلال مؤلف ضخمة ذي طابع وصفي، وهو "بغية الطلب" الذي لم يصلنا منه إلا قسم ما زال غير منشور. قام بعدها بتجميع المواد ضمن تاريخ محلي هو "زبدة الحلب في تاريخ حلب"، والذي يصل حتى عام 641/1243، ويشكل هذا الكتاب بالنسبة لحلب في القرنين الثاني والثالث عشر ما شكله بالنسبة لدمشق في القرن الثاني عشر تاريخ ابن القلانسي. أما فيما يتعلق بتاريخ الحروب الصليبية، فإن هذا الكتاب يهمل قبل كل شيء كشهادة عربية حول حوادث سوريا الشمالية.

النص، طبعة سامي الدهان، الجزء الثاني، دمشق 1954

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

53-55

أسامة

هو أسامة بن منقذ، أمير شيزر (شيزر 488/1095 - دمشق 584/1188)، من أهم شخصيات العروبة السورية في عهد الحروب الصليبية. رجل سياسة وأدب، فارس وصياد، رجل قول وفعل، سياسي مختل قليل الوسوس، أمضى حياته الطويلة في علاقاته مع الفرنج وأمراء سورية وخلفاء مصر

الفاطميين، مات بعدها ميتة غامضة في قمة انتصارات صلاح الدين. تعود شهرته لكتاب عن سيرته الذاتية عنوانه "كتاب الاعتبار"، والذي وصلنا ناقصاً عبر مخطوطة عن الايسكوريال، وهو عبارة عن صورة صادقة عنه نفسه، كما أنه كنز من الأخبار الخفية الخاصة ببعض معاصريه من الإسلام والفرنج. ولم يصلنا من إنتاجه الأدبي والفني إلا الجزء اليسير، ومن بينه "كتاب العصا"، وهو مجموعة كتبت بالطريقة العربية وضمت النوادر والقصائد والشعارات والأمثال حول العصي. وعنه أخذنا آخر مقتطفاتنا.

النص طبعة Derenbourg باريس 1886 (والقسم الأخير، H. Derenbourg: Ousama ibn Mounkidh; Un emir syrien au premier siecle des Croisades (528/29 .PP -1893 I Paris

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

78-84

بهاء الدين

هو بهاء الدين بن شداد (الموصل 539/1145 - حلب 632/1234)، دخل عام 1188 في خدمة صلاح الدين الذي عينه قاضياً للجيش، وبقي مخلصاً له حتى وفاته. وقد أصبح، تحت حكم أوائل من خلفوه، كبير قضاة حلب. وسيرته عن صلاح الدين "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية" (يوسف هو الاسم الشخصي لصلاح الدين) إنما هي من أجود المصادر التاريخية والتصنيفية، وقد أملاها عليه تقاه الصادق وإعجابه الخالي من أي خنوع أو محاباة أو مDAHنة. وهي تعتمد في قسم كبير منها على التجربة المباشرة المملأة بأسلوب سهل خال من المحسنات الأدبية، كما أنها تعطينا صورة كاملة عن هذا البطل من الجانب الإسلامي، فضلاً عن كونها تاريخ حي عن الحملة الصليبية الثالثة.

النص في، Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux, الجزء الثالث، باريس 1884.

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

182-185, 169-174, 162-168, 160-161, 158, 153-155, 148-152, 86-102.

عماد الدين

وهو إمام الدين الأصفهاني (أصفهان 519/1125 - 597/1201)، كان كاتب نور الدين ومن بعده صلاح الدين، وقد كان يعمل تحت إمرته القاضي الفاضل في ديوان الكتابة. وهو أديب وخطيب فحل، ألف كتاباً فيه مختارات قيمة من الشعراء العرب في القرن الثاني عشر، فضلاً عن مؤلفات تاريخية مختلفة، كتبها بأسلوب منمق مطرز بالبديع وبشر مسجوع وموزون، وعبر سلسلة متواصلة من التشابه والصور والتلاعب بالألفاظ. لكن هذا الأسلوب الصعب

والغث سرعان مادفع بعض المصنفين كأبي الشامة (راجع الصفحة التالية) لاستخلاص الأحداث من ضمن القشور المزخرفة المجودة في الأصل، لكنه علينا أن نعود دائماً إلى ذاك الأصل كلما أردنا أن نعرف أموراً تاريخية مهمة يصعب العثور عليها في ملخصات التصنيف. وقد وصل إلينا كاملاً، وهو الآن مطبوع، مؤلفه عن فتح القدس والذي يصل حتى وفاة صلاح الدين، وهو "الفتح القسي في الفتح القدسي" (نرى أن التلاعب بالألفاظ بدأ منذ العنوان)، أما كتاب "البرق الشامى" فلم يصل إلينا كاملاً كما أنه مازال غير مطبوع، وهو يتناول حياة ومكارم صلاح الدين منذ عام 1175. على أن الدراسات الحديثة بدأت تجد تحت شكل هذين المؤلفين الذي لا يطاق مصدراً واسعاً لسيرة الأيوبي الكبير وللحوادث التي كان هو يطلعها في سوريا وما بين النهرين، كما أنها رأت في إمام الدين مؤلفاً قيماً دقيقاً وأميناً وغنياً بالمعلومات المهمة. لكننا سنرى في المقاطع التي اعتمدناها كيف أن المعطيات البسيطة مغمورة في بحر مرعب من الثثرات.

النص طبعة 1888 Leiden-Landberg

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

110-117، 122-137، 155-157، 174-176.

أبو شامة

هو شهاب الدين أبو القاسم أبو شامة (دمشق 599/1203 - 665/1267)، باحث ومعلم، كان مصنفاً "مكتبياً"، جمع في مؤلفه "كتاب الروضتين" (الذي يدور حول أسرتي نور الدين وصلاح الدين) كثيراً من المواد التاريخية التي نعرف الآن أكثرها من خلال مصادرها الأساسية. كان كثير الاستشهاد بالمصادر المأخوذة عن ابن القلانسي وإمام الدين (بعد وضعه في شكل سهل مقبول) وبهاء الدين وابن الأثير.. إلخ.. وبهنا أكثر ما يهمننا فيه استشهاده بمؤلفات مفقودة للمؤرخ الشيعي الحلبي ابن أبي الطي، الذي ألف هو أيضاً كتاباً عن سيرة صلاح الدين. وقد حفظ لنا "كتاب الروضتين" وثائقاً كثيرة كانت في ديوان السلطان صلاح الدين، جمعها كاتبه الأول القاضي الفاضل والذي قام أيضاً بتنسيق مجموعات خاصة للرسائل.

النص، طبعة القاهرة 1287/1870

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

162

مناقب رشيد الدين

نشير تحت هذا العنوان إلى مؤلف فريد من نوعه أتانا عن طائفة الاسماعيليين في سورية (الحشاشين). وهو عبارة عن مجموعة من الذكريات

والنوادير عن "الشيخ الأعظم" رشيد الدين سنان، الذي عاصر صلاح الدين وتزعم الطائفة في سورية عندما كانت على جانب كبير من الهيبة. نجد في الكتاب مواد عن القيم والأخلاقيات أكثر من المواد التاريخية التي يمكن الاعتماد عليها. وقد جمعها كلها عام 1324 أحد أتباع الطائفة المجهولين، وهو الشيخ أبو فراس من مأنقة، كانت قوة الاسماعيليين في ذلك الوقت قد شارفت منذ حين بعيد على الغياب. ويمكننا أن نرى في النص الذي اقتطفناه شيئاً عن مقتل ملك فرنسا "ريدا فرنس كونراد" لكن تحت كثيرٍ من التلوين البلاغي.

النص في: سلسلة Journal Asiatique، الجزء السابع، الصفحات 324 -

489

(S.GUYARD, Un grand Maître des Assassins au temps de Saladin).

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

179-181

ابن واصل

وهو جمال الدين بن واصل (حماة 604/1207 - 697/1298)، حصل على مناصب عديدة في أواخر عهد الأيوبيين وأوائل عهد المماليك، عُيِّن عام 1261 سفيراً لبيبرس لدى منفريد، ثم أصبح كبيراً لقضاة مسقط رأسه حماه. أهم مؤلفاته "مفرج الكروپ في أخبار بني أيوب" الذي يدور حول أسيرة صلاح الدين، ولكنه تناول أيضاً من سبقها من السلالة الزنكية، ومن تلاها من الأسيرة المملوكية وذلك حتى عام 680/1282. لهذا يعتبر الكتاب من أهم المصادر حول الحروب الصليبية في القرن الثاني عشر (الحملة الخامسة، رحلة فردريك الثاني، حملة سان لويس)، وعنه أخذ أواخر المصنفين. لكن هذا الكتاب لم ينل ما يستحقه من اهتمام خلال وقت طويل من الزمان وبقي غير مطبوع، حتى

[12]

تم نشره منذ زمن قريب .

النص: مخطوطة عربية - ms.Ar. باريس 1702 (صور طبق الأصل في مكتبة كايثاني).

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

193-198، 200-203، 206-216

سبط ابن الجوزي

وهو حفيد (سبط) المؤرخ ابن الجوزي، كان خطيباً مرموقاً، عاش مدة طويلة في دمشق في قصور الأيوبيين (بغداد 582/1186 - دمشق 654/1256). وصل إلينا مؤلفه الشامل الضخم والدقيق "مرآة الزمان" في نسختين، وتعود أهميته، قبل كل شيء، لمؤلفه ولما يذكره عن الحوادث في سوريا: فبفضله

على سبيل المثال تعرفنا إلى التفاصيل المهمة حول زيارة فردريك إلى القدس، وتعرفنا كذلك إلى تفاصيل تصويرية تعود إلى القرن الأسبق وتدور حول حصار دمشق أيام الحملة الثانية.

النص: طبعة ناقصة Jewett، شيكاغو 1907 (495 - 654 هـ). أما النص حول حصار دمشق، فيطلب في هامش في كتاب ابن القلانسي، طبعة Amedroz وردت المقتطفات في الصفحات التالية: 199-200، 70-71.

تأريخ المنصوري

تأريخ يصل حتى عام 631/1233، لمؤلف مغمور من حاشية أمراء الأيوبيين في سورية، وهو أبو الفضل من حماة. الكتاب مكرس للملك المنصور ملك حمص (وهذا ما يدل عليه عنوان الكتاب). وهو مهم بسبب ما فيه من أخبار عن فردريك الثاني في الأراضي المقدسة، ونص رسائله العربية بعد أن عاد إلى إيطاليا مباشرة، وكذلك عن آخر أخبار المسلمين في صقلية، والتي وصلت إلى الشرق مع مهاجرين ومبعوثين عرب - صقليين. وقد نشر ميكيل أماري MICHELE AMARI هذه المقتطفات الثمينة المأخوذة من المخطوطة الفريدة غير المطبوعة والم محفوظة في المتحف الآسيوي في بطرسبرغ (لينيغراد).

النص في الملحق الثاني لـ Biblioteca Arabo-Sicula, Seconda 1887 Appendice, Leipzig وردت المقتطفات في الصفحات التالية: 203-205

ابن عبد الزاهر

وهو محي الدين بن عبد الزاهر (القاهرة 620/1233 - 692/1293)، كان كاتباً عند السلطانين المملوكيين بيبرس وقلاوون، ومدوناً للأحداث الرسمية في ديوانهم، ومن ثم أصبح مؤرخهم ومدون سيرهم من معلومات جمعها. لكنه لم يبق لنا من سيرة بيبرس المسماة "سيرة الملك الظاهر" إلا بعض الفصول الأصلية فضلاً عن ملخص لها حرره شافع العسقلاني قريب المؤلف. وهناك قسم كبير من سيرة قلاوون في "تشریف الأيام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور". كتب ابن عبد الزاهر أيضاً سيرة ابن قلاوون، الأشرف وهو فاتح عكا، ولم ينشر منه حتى الآن إلا جزء يسير. وكل ما تبقى من أعمال الكاتب ما زال حتى الآن غير منشور، ذلك رغم ماله من أهمية كشاهد مباشر عن الأحداث المروية، وناشر لوثائق رسمية قيمة (رسائل، أخبار... الخ..). يبقى على أي حال أمراً طبعياً أن تدفعنا مواقفه ومديحه لسلطينه إلى التمهّل في الاستفادة التاريخية منه.

النص: "مختصر شافع حول حياة بيبرس"، مخطوطة عربية ms.an باريس 1707 وتشریف (حياة قلاوون) مخطوطة عربية ms.ar باريس 1704 (عن صور طبق الاصل في مكتبة كايثاني).
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:
221-224، 226، 231-235.

تشریف

(راجع ابن عبد الزاهر)

المقرزي

وهو تقي الدين المقرزي (القاهرة 766/1364 - 845/1442)، باحث وعالم ضليع يهتم بالأثریات، جمع مواداً هامة حول تضاريس مصر التاريخية. له أهمية خاصة بالنسبة للفترة التي نحن بصدها بفضل أحد كتبه التاريخية، الذي يكاد يعتمد كلية على تصنيف مقتطفات من: (ابن واصل، سبط ابن الجوزي، ابن عبد الزاهر، ومصادر أخرى أقل أهمية)، ويبقى كذلك مهماً وضرورياً على مانعرف حالياً، بفضل كتابه الآخر: "كتاب السلوك في معرفة تاريخ الملوك"، الذي يتناول تاريخ الأيوبيين والمماليك منذ عام 577/1181 حتى عام 840/1436. ولهذا الكتاب أهمية خاصة لتناوله الحملتين الصليبيتين على مصر والانتصارات المملوكية النهائية في سورية.

النص: طبعة م. زيادة، الجزء الأول، القاهرة 1934
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:
216-219، 241-242.

ابن الفرات

وهو نصر الدين بن الفرات (القاهرة 735/1334 - 807/1405)، يعتبر مثله مثل المقرزي وأكثر المعاصرين مصنفاً كبيراً. تنبع أهميته عن أهمية المصادر التي نقل عنها. أما مؤلفه "تاريخ الدول والملوك" فلم يصلنا كاملاً ومازال قسم كبير منه غير مطبوع وهو يصل حتى القرن الرابع عشر، وفيه مواد مهمة تتناول عهد أوائل المماليك. من مزايا ابن الفرات الأخرى المعترف بها منذ حين أنه استشهد - مثلما فعل أبو شامة - بالمؤلف المفقود لابن أبي طي حول عهد صلاح الدين.

النص: مخطوطة عربية - فيينا ms.Ar. - 814 A.F. - المجلدين 4,5 (عن صورة طبق الأصل في مكتبة كايثاني)
وردت المقتطفات في الصفحات التالية:
225-226، 227-229، 236-237.

العينى

وهو بدر الدين العينى (عنتاب 762/1360 - القاهرة 855/1451) سياسى وموظف لدى المماليك، عالم ودارس للتشريعات السنية، ألف تاريخاً عاماً "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، تنبع أهميته - كالعادة - بسبب المصادر التي أخذ عنها، سواء لم تكن معروفة بعد أو غير متوفرة.

النص في: *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Orientaux*

الجزء الثاني، باريس 1887

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:
229-230.

أبو الفداء

وهو أبو الفداء إمام الدين اسماعيل بن علي الأيوبي، وهو (أبو الفدا) لدى مستعري القرنين الثامن والتاسع عشر (دمشق 672/1273 - حماة 732/1331) أمير أديب ظريف، يذكرنا بعض الشيء بأسامة. وهو أحد أفراد العائلة الأيوبية، برز عندما بدأت تفقد قوتها الذاتية المستقلة، وبعد أن هزمها المماليك في كل من مصر وسورية. لكنه انتزع اعتراف العائلة به ليعمل تحت سلطتهم سيداً على مدينة أجداده حماه، وقد حكمها تحت لقب الملك المؤيد حتى وفاته. أهم مؤلفاته كتاب "مختصر تاريخ البشر" التاريخي، وكتاب "تقويم البلدان" الجغرافي، وكان هذان الكتابان من أوائل الكتب الأدبية العربية التي عرفت ونشر بعضها في أوروبا منذ بداية عهد الاستشراق الحديث. هذا مما أدى إلى إعطاء هذين التصنيفين أهمية أكبر مما يستحقان، إلا أن هذا بقي أمراً مؤقتاً زال بعد التعرف إلى كتب أقدم وأكثر أصالة. أهم ما في تاريخه هو ما كتبه عن أحداث عاصرها هذا المؤلف الذي ساهم منذ صباه في حروب المماليك ضد طرابلس وعكا، فكان شاهد عيان للخاتمة المأساوية للحروب الصليبية.

النص في: *Recueil des Historiens des Croisades, historiens orientaux*

الجزء الأول، باريس 1872

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:
241-244.

أبو المحاسن

وهو أبو المحاسن بن طغر بيدردي (القاهرة 813/1411 - 874/1469)، وهو أيضاً من جملة العلماء في عهد المماليك. ويعتبر تاريخه "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" أوسع تاريخ عام عن بلده منذ الفتح العربي حتى عام

857/1453، لكن هذا الكتاب أيضاً يقوم على التصنيف. إن كتاب أبو الفداء، ثم ما أملاه لنا أبو المحاسن عن حصار ومجزرة عكا تحت قيادة الأشرف (الذي يعتمد بكل تأكيد على مصادر معاصرة) يعتبر أهم نص إسلامي وصلنا حول هذا الحدث، خاصة وأن الأمر لم يذكر في القسم المطبوع من سيرة ابن عبد الزاهر عن ذاك السلطان.

النص: مخطوطة عربية - ms.Ar باريس 1873(عن صور طبق الأصل في

[13]

مكتبة كايثاني)

وردت المقتطفات في الصفحات التالية:

244-246.

المؤرخون العرب للحروب الصليبية

القسم الأول: من كندفري إلى صلاح الدين

ابن القلانسي وابن الأثير هما المصدران الرئيسيان في روايتنا هذه عن الحملة الصليبية الأولى. سنلاحظ أن المؤرخ الدمشقي يكتفي بتقديم رواية إخبارية عن الأحداث، بينما يعمل ابن الأثير على ربط ظاهرة الحملات الصليبية بحركة الهجوم المسيحي على الإسلام (من تطورات /استعادة اسبانيا إلى استيلاء النورماند على صقلية). على هذا الأساس يقدم لنا مؤرخ مابين النهرين، وبطريقة شاملة وفعالة ومباشرة، رواياته عن سقوط أنطاكية والقدس في أيدي الصليبيين ثم تقدمهم في الأراضي المقدسة وكذلك ردات الفعل الإسلامية الأولى.

استيلاء الفرنجة على أنطاكية

[14]

ابن الأثير (188-10/185)

كَانَ ابْتِدَاءُ طُحُورِ دَوْلَةِ الْفَرَنْجِ، وَاسْتِدَادِ أَمْرِهِمْ، وَخُرُوجِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَاسْتِيلَانِهِمْ عَلَى بَعْضِهَا، سَنَةً ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ، (1085-1086م) فَمَلَكُوا مَدِينَةَ طَلَيْطَلَةَ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الْأَنْدَلُسِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ. ثُمَّ قَصَدُوا سَنَةً

[15]

أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (1091م) جَزِيرَةَ صِقْلِيَّةَ وَمَلَكُوهَا ، وَقَدْ ذَكَرْتُهُ أَيْضًا، وَتَطَرَّفُوا إِلَى أَطْرَافِ إِفْرِيقِيَّةَ، فَمَلَكُوا مِنْهَا شَيْئًا وَأَخَذَ مِنْهُمْ، ثُمَّ مَلَكُوا غَيْرَهُ عَلَى مَا تَرَاهُ. فَلَمَّا كَانَ سَنَةً تِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (1097م) خَرَجُوا إِلَى بِلَادِ الشَّامِ،

[16]

وَكَانَ سَبَبُ خُرُوجِهِمْ أَنَّ مَلِكَهُمْ بَرْدُوبَلٍ جَمَعَ جَمْعًا كَثِيرًا مِنَ الْفَرَنْجِ، وَكَانَ تَسِيَّبَ رُجَّارِ الْفَرَنْجِيِّ الَّذِي مَلَكَ صِقْلِيَّةَ فَأَرْسَلَ إِلَى رُجَّارٍ يَقُولُ لَهُ: "قَدْ جَمَعْتُ جَمْعًا كَثِيرًا، وَأَنَا وَاصِلٌ إِلَيْكَ، وَسَائِرُ مَنْ عِنْدِكَ إِلَى إِفْرِيقِيَّةَ أَفْتَحُهَا، وَأَكُونُ مُجَاوِرًا لَكَ. فَجَمَعَ رُجَّارٌ أَصْحَابَهُ، وَاسْتَشَارَ فِي ذَلِكَ، وَقَالُوا: وَحَقَّ الْإِنْجِيلِ هَذَا حَيْثُ لَنَا وَلَهُمْ، وَتُضِيحُ الْبِلَادُ بِلَادَ النَّصْرَانِيَّةِ". فَرَفَعَ رِجْلَهُ وَحَبَقَ حَبَقَةً عَظِيمَةً

[17]

وَقَالَ: "وَحَقُّ دِينِي، هَذِهِ خَيْرٌ مِنْ كَلَامِكُمْ"! قَالُوا: "وَكَيْفَ ذَلِكَ؟" قَالَ: "إِذَا وَصَلُوا إِلَيَّ اخْتَأَجُ إِلَى كُلِّفَةٍ كَثِيرَةٍ، وَمَرَائِبَ تَحْمِلُهُمْ إِلَيَّ إِفْرِيقِيَّةَ، وَعَسَاكِرَ مِنْ عِنْدِي أَيْضًا، فَإِنْ فَتَحُوا الْبِلَادَ كَانَتْ لَهُمْ، وَصَارَتْ الْمَثُوتَةُ لَهُمْ مِنْ صِقْلِيَّةَ وَتَنْقَطِعُ عَنِّي مَا يَصِلُ مِنَ الْمَالِ مِنْ ثَمَنِ الْعَلَاتِ كُلِّ سَنَةٍ، وَإِنْ لَمْ يُفْلِحُوا رَجَعُوا

[18]

إِلَى بِلَادِي، وَتَأَذَّبْتُ بِهِمْ، وَيَقُولُ تَمِيمٌ: عَذَرْتُ بِي، وَتَقَصْتُ عَهْدِي، وَتَنْقَطِعُ الْيُوسُلَةُ وَالْأَسْفَارُ بَيْنَنَا، وَبِلَادُ إِفْرِيقِيَّةَ بَاقِيَةٌ لَنَا، مَتَى وَجَدْنَا قُوَّةً أَخَذْنَاهَا". وَأَخْضَرَ رَسُولُهُ، وَقَالَ لَهُ: "إِذَا عَزَمْتُمْ عَلَى جِهَادِ الْمُسْلِمِينَ، فَأَفْضَلُ ذَلِكَ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، تَخْلُصُوتُهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَكُونُ لَكُمْ الْقُحْرُ، وَأَمَّا إِفْرِيقِيَّةُ فَبَيْنِي

وَبَيْنَ أَهْلِهَا إِيْمَانٌ وَعُھُودٌ". فَتَجَهَّزُوا، وَخَرَجُوا إِلَى الشَّامِ وَقِيلَ: إِنَّ أَصْحَابَ مِصْرَ مِنَ الْعَلَوِيِّينَ، لَمَّا رَأَوْا قُوَّةَ الدَّوْلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ، وَتَمَكَّنَتْهَا وَاسْتَيْلَآهَا عَلَى بِلَادِ الشَّامِ إِلَى غَرَّةٍ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مِصْرَ وَلَايَةٌ أُخْرَى تَمْنَعُهُمْ، وَدُخُولَ

أَفْسِيسَ ^[19] إِلَى مِصْرَ وَحَصْرَهَا؛ خَافُوا، وَأَرْسَلُوا إِلَى الْفَرَنْجِ يَدْعُوهُمْ إِلَى

الخُرُوجِ إِلَى الشَّامِ لِيَمْلِكُوهُ، وَيَكُونُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. (وَاللَّهُ أَعْلَمُ). ^[20]

فَلَمَّا عَزَمَ الْفَرَنْجُ عَلَى قَصْدِ الشَّامِ، وَسَارُوا إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ لِيَعْبُرُوا الْمَجَارَ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسِيرُوا فِي الْبَرِّ، فَيَكُونَ أَسْهَلَ عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا مَنَعَهُمْ مَلِكُ الرُّومِ مِنَ الْاجْتِيَاظِ بِبِلَادِهِ، وَقَالَ: "لَا أَمَكُّكُمْ مِنَ الْعُبُورِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ حَتَّى تَخْلِفُوا لِي أَنْتُمْ تُسَلِّمُونَ إِلَيَّ أَنْطَاكِيَّةً"، وَكَانَ قَصْدُهُ [أَنْ] يَخْتَنِمَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، طَبَّأًا مِنْهُ أَنْتَهُمْ أَتْرَاكَ لَا يُبْقُونَ مِنْهُمْ أَحَدًا، لَمَّا رَأَى مِنْ صَرَامَتِهِمْ وَمَلِكِهِمْ الْبِلَادَ. فَأَجَابُوهُ إِلَى ذَلِكَ، وَعَبَرُوا الْخَلِيجَ عِنْدَ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ سَنَةَ تِسْعِينَ [وَأَرْبَعِمِائَةٍ] (1097م)، وَوَصَلُوا إِلَى بِلَادِ قَلِيحَ أَرْسِلَانَ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ قُتْلُمِشَ، وَهِيَ قُورُنَةُ وَعَيْرُهَا، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهَا لَقِيَهُمْ قَلِيحُ أَرْسِلَانَ فِي جُمُوعِهِ، وَمَنَعَهُمْ، فَقَاتَلُوهُ فَهَزَمُوهُ فِي رَجَبِ سَنَةِ تِسْعِينَ ^[21]

وَأَرْبَعِمِائَةٍ (تموز - لولية 1097م)، وَاجْتَاثُوا فِي بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ ابْنِ الْأَرْمَنِ، فَسَلَكُوها، وَخَرَجُوا إِلَى أَنْطَاكِيَّةِ فَحَصَرُوها.

وَلَمَّا سَمِعَ صَاحِبُهَا يَإْغِي سَيَّانَ يَتَوَجَّهُهُمْ إِلَيْهَا، خَافَ مِنَ النَّصَارَى الَّذِينَ يَهَا، فَأَخْرَجَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِهَا، لَيْسَ مَعَهُمْ عَيْزُهُمْ، وَأَمَرَهُمْ بِحُفْرِ الْخَنْدَقِ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنَ الْعَدِ النَّصَارَى لِعَمَلِ الْخَنْدَقِ أَيْضًا، لَيْسَ مَعَهُمْ مُسْلِمٌ، فَعَمِلُوا فِيهِ إِلَى الْعَصْرِ، فَلَمَّا أَرَادُوا دُخُولَ الْبَلَدِ مَنَعَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: "أَنْطَاكِيَّةُ لَكُمْ تَهَبُوتُهَا لِي حَتَّى أَظْهَرَ مَا يَكُونُ مِنَّا وَمِنَ الْفَرَنْجِ"، فَقَالُوا لَهُ: "مَنْ يَحْفَظُ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا؟" فَقَالَ: "أَنَا أَخْلُقُكُمْ فِيهِمْ"، فَأَمْسَكُوا، وَأَقَامُوا فِي عَسْكَرِ الْفَرَنْجِ، فَحَصَرُوها تِسْعَةَ أَشْهُرٍ.

وَظَهَرَ مِنْ شَجَاعَةِ يَإْغِي سَيَّانَ، وَجَوْدَةِ رَأْيِهِ، وَحَزْمِهِ، وَاجْتِيَاظِهِ مَا لَمْ يُشَاهَدُ مِنْ غَيْرِهِ، فَهَلَكَ أَكْثَرُ الْفَرَنْجِ (مَوْتًا)، وَلَوْ بَقُوا عَلَى كَثَرَتِهِمْ الَّتِي خَرَجُوا فِيهَا لَطَبَّقُوا بِلَادَ الْإِسْلَامِ، وَحَفِظَ يَإْغِي سَيَّانُ أَهْلَ نَصَارَى أَنْطَاكِيَّةِ الَّذِينَ أَخْرَجَهُمْ، وَكَفَّ الْأَبْدِيَّ الْمُتَطَرِّقَةَ إِلَيْهِمْ.

فَلَمَّا طَالَ مُقَامُ الْفَرَنْجِ عَلَى أَنْطَاكِيَّةِ رَاسَلُوا أَحَدَ الْمُسْتَخْفِظِينَ لِلْأَبْرَاجِ، وَهُوَ زَرَّادُ بُعْرَفُ بَرْوَرِيَّةِ، وَبَدَّلُوا لَهُ مَالًا وَأَقْطَاعًا، وَكَانَ يَتَوَلَّى حِفْظَ بُرْجِ يَلِي الْوَادِي، وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى شِبَاكٍ فِي الْوَادِي، فَلَمَّا تَقَرَّرَ الْأَمْرُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَذَا الْمَلْعُونِ الزَّرَّادِ، جَاءُوا إِلَى الشِّبَاكِ فَفَتَحُوهُ، وَدَخَلُوا مِنْهُ، وَصَعِدَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ بِالْجِبَالِ، فَلَمَّا رَأَتْ عِدَّتُهُمْ عَلَى جَمْسِمَائَةٍ صَرَبُوا الْبُوقَ، وَذَلِكَ عِنْدَ الْبَحْرِ، وَقَدْ تَعَبَ النَّاسُ مِنْ كَثَرَةِ السَّهْرِ وَالْجَرَّاسَةِ، فَاسْتَيْقَظَ يَإْغِي سَيَّانُ، فَسَأَلَ عَنْ الْحَالِ، فَقِيلَ: إِنَّ هَذَا الْبُوقَ مِنَ الْقَلْعَةِ، وَلَا شَكَّ أَنَّهَا قَدْ مُلِكِبَتْ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ

الْقَلْعَةَ، وَإِنَّمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ الْبُرْجِ، فَدَخَلَهُ الرَّعْبُ، وَفَتَحَ بَابَ الْبَلَدِ، وَخَرَجَ هَارِبًا فِي ثَلَاثِينَ غَلَامًا عَلَى وَجْهِهِ، فَجَاءَ تَائِبُهُ فِي حِفْظِ الْبَلَدِ، فَسَالَ عَنْهُ، فَقِيلَ إِنَّهُ هَرَبَ، فَخَرَجَ مِنْ بَابٍ آخَرَ هَارِبًا، وَكَانَ ذَلِكَ مَعُونَةً لِلْفَرَنْجِ، وَلَوْ تَبَتِ سَاعَةً لَهَلَكُوا. ثُمَّ إِنَّ الْفَرَنْجَ دَخَلُوا الْبَلَدَ مِنَ الْبَابِ، وَتَهَبُّوهُ، وَقَتَلُوا مَنْ فِيهِ مِنْ

[22]

الْمُسْلِمِينَ، وَذَلِكَ فِي جُمَادَى الْأُولَى. (نيسان-أيار/أبريل-ماي 1098 م 491/)

وَأَمَّا يَأْغِي سَيَانُ فَإِنَّهُ لَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ النَّهَارُ رَجَعَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ، وَكَانَ كَالْوَلْهَانِ، فَرَأَى [23] نَفْسَهُ وَقَدْ قَطَعَ عِدَّةَ فَرَايِخَ، فَقَالَ لِمَنْ مَعَهُ: "أَيْنَ أَنَا؟" فَقِيلَ: "عَلَى أَرْبَعَةِ فَرَايِخَ مِنْ أَنْطَاكِيَّةَ"، فَتَدِمَ كَيْفَ خَلَصَ سَالِمًا، وَلَمْ يُقَاتِلْ حَتَّى يُزِيلَهُمْ عَنِ الْبَلَدِ أَوْ يُقَاتِلَ، وَجَعَلَ يَتَلَهَّفُ، وَيَسْتَرْجِعُ عَلَى تَرْكِ أَهْلِهِ وَأَوْلَادِهِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَلَيْشِدَّةً مَا لِحَقَّهُ سَقَطَ عَنْ قَرَسِهِ مَغْشِيًا عَلَيْهِ، فَلَمَّا سَقَطَ إِلَى الْأَرْضِ أَرَادَ أَصْحَابُهُ أَنْ يُزَكِّبُوهُ، فَلَمْ يَكُنْ فِيهِ مُسْكَنَةٌ [فَإِنَّهُ كَانَ] قَدْ قَارَبَ الْمَوْتَ فَتَرَكَوهُ وَيَسَارُولُوهُ عَنْهُ، وَاجْتَنَبَ بِهِ إِنْسَانٌ أَرْمَنِيٌّ كَانَ يَقْطَعُ الْخَطْبَ، وَهُوَ بِآخِرِ رَمَقٍ، فَقَتَلَهُ وَأَخَذَ رَأْسَهُ وَحَمَلَهُ إِلَى الْفَرَنْجِ بِأَنْطَاكِيَّةَ. وَكَانَ الْفَرَنْجُ قَدْ كَاتِبُوا صَاحِبَ خَلْبِ، وَدِمَشْقَ، بِأَنَّ لَا تَقْصِدُ غَيْرَ الْبِلَادِ الَّتِي كَاتَتْ بِبَيْدِ الرُّومِ، لَا تَطْلُبُ سِوَاهَا، مَكْرًا مِنْهُمْ وَخَدِيعَةً، حَتَّى لَا يُسَاعِدُوا صَاحِبَ أَنْطَاكِيَّةَ.

ذِكْرُ مَسِيرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْفَرَنْجِ وَمَا كَانَ مِنْهُمْ

(ابن الأثير 10/188-190)

لَمَّا سَمِعَ قِوَامُ الدَّوْلَةِ كَرْبُوقًا [24] بِخَالِ الْفَرَنْجِ، وَمُلْكِهِمْ أَنْطَاكِيَّةَ، جَمَعَ الْعَسَاكِرَ وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَأَقَامَ بِمَرْجٍ دَائِقٍ، وَاجْتَمَعَتْ مَعَهُ عَسَاكِرُ الشَّامِ،

[25]

تُرْكُهَا وَعَرَبُهَا سِوَى مَنْ كَانَ بِخَلْبِ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ دُقَاقُ بْنُ ثُثَشٍ وَطُغْتِكِينَ أَتَابِكُ، وَجَنَاحُ الدَّوْلَةِ، وَصَاحِبُ حِمَصَ، وَأَرْسِلَانُ تَاشٍ، صَاحِبُ سِنْجَارَ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ أَرْئُقَ، وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْأَمْرَاءِ مِمَّنْ لَيْسَ مِنْهُمْ، فَلَمَّا سَمِعَتْ الْفَرَنْجُ عَظَمَتِ الْمُصِيبَةِ عَلَيْهِمْ، وَخَافُوا لِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْوَهْنِ، وَقَلَّةِ الْأَقْوَاتِ عِنْدَهُمْ، وَسَارَ الْمُسْلِمُونَ، فَتَنَزَّلُوهُمْ عَلَى أَنْطَاكِيَّةَ، وَأَسَاءَ كَرْبُوقًا السَّيْرَةَ، فَيَمْنُ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَغْضَبَ الْأَمْرَاءَ وَتَكَبَّرَ عَلَيْهِمْ طَنًّا مِنْهُ أَنَّهُمْ يُقِيمُونَ مَعَهُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، فَأَغْضَبَهُمْ ذَلِكَ، وَأَضْمَرُوا لَهُ فِي أَنْفُسِهِمُ الْعَدْرَ، إِذَا كَانَ قِتَالٌ، وَعَزَمُوا عَلَى إِسْلَامِهِ عِنْدَ الْمَضِدُّوقَةِ. وَأَقَامَ الْفَرَنْجُ بِأَنْطَاكِيَّةَ، بَعْدَ أَنْ مَلَكَوْهَا، اثْنَيْ عَشَرَ يَوْمًا لَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَهُ، وَتَقَوَّتِ الْأَقْوِيَاءُ بِدَوَابِّهِمْ، وَالضَّعِيفَاءُ بِالْمَيْتَةِ وَوَرَقِ الشَّجَرِ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ أَرْسَلُوا إِلَى كَرْبُوقَا يَطْلُبُونَ مِنْهُ الْأَمَانَ لِيَخْرُجُوا مِنَ الْبَلَدِ، فَلَمْ يُعْطِهِمْ مَا طَلَبُوهُ، وَقَالَ: "لَا تَخْرُجُونَ إِلَّا بِالسَّيْفِ". وَكَانَ مَعَهُمْ مِنَ

[26]

الْمُلُوكِ بَرْدُوبِلُ، وَصَنْجِيلُ، وَكُنْدُفِرِي، وَالْقَمَصُ، (لاحقاً) صَاحِبُ الرَّهَا

وَيُؤْمِنُ، صَاحِبُ اِنْطَاكِتَه، وَهُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ مَعَهُمْ رَاهِبٌ مُطَاعٌ فِيهِمْ، وَكَانَ ذَاهِيَةً مِنَ الرِّجَالِ، فَقَالَ لَهُمْ: "إِنَّ الْمَسِيحَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، كَانَ لَهُ حَزْبَةٌ

مَذْقُونَةٌ بِالْقِسْيَانِ الَّذِي بِأَنْطَاكِتَه"، وَهُوَ بِنَاءٌ عَظِيمٌ ^[27]، "قَالُوا وَجَدْتُمُوهَا قَائِكُمْ تَطْفَرُونَ، وَإِنْ لَمْ تَجِدُوهَا قَالَهُلَاكُ مُتَحَقِّقٌ".

وَكَانَ قَدْ دَقَّنَ قَبْلَ ذَلِكَ حَزْبَةً فِي مَكَانٍ فِيهِ، وَعَقَّبَ أَتْرَهَا، وَأَمَرَهُمْ بِالصَّوْمِ وَالتَّوْبَةِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الرَّابِعُ أَذْخَلَهُمُ الْمَوْضِعَ جَمِيعَهُمْ، وَمَعَهُمْ غَامَتُهُمْ، وَالصَّنَاعُ مِنْهُمْ، وَحَفَرُوا فِي جَمِيعِ الْأَمَاكِينِ فَوَجَدُوهَا كَمَا

ذَكَرَ ^[28]، فَقَالَ لَهُمْ: "أَبَشِّرُوا بِالطَّقَرِ"، فَخَرَجُوا فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنَ الْبَابِ مُتَفَرِّقِينَ مِنْ خَمْسَةِ، وَسِتَّةٍ، وَتَخَوُ ذَلِكَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ لِكَرْبُوقَا: "يَتَّبِعِي أَنْ تَقِفَ عَلَى الْبَابِ، فَتَقْتُلِي كُلَّ مَنْ يَخْرُجُ، فَإِنَّ أَمْرَهُمُ الْآنَ، وَهُمْ مُتَفَرِّقُونَ، سَهْلٌ" فَقَالَ "لَا تَفْعَلُوا! أَمْهَلُوهُمْ حَتَّى يَتَّكَمَلَ خُرُوجُهُمْ فَتَقْتُلِيهِمْ"، وَلَمْ يُمْكِنُ مِنْ مُعَاجَلَتِهِمْ، فَقَتَلَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةً مِنَ الْخَارِجِينَ، فَجَاءَ إِلَيْهِمْ هُوَ بِنَفْسِهِ، وَمَتَّعَهُمْ، وَنَهَاهُمْ. فَلَمَّا تَكَامَلَ خُرُوجُ الْفَرَنْجِ، وَلَمْ يَبْقَ بِأَنْطَاكِتَه أَحَدٌ مِنْهُمْ، صَرَبُوا مَصَافًا عَظِيمًا، قَوْلَى الْمُسْلِمُونَ مُنْهَزِمِينَ، لِمَا غَامَلَهُمْ بِهِ كَرْبُوقَا أَوَّلًا مِنَ الْإِسْتِهَاتَةِ بِهِمْ وَالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ، وَثَانِيًا مِنْ مَنَعِهِمْ عَنْ قَتْلِ الْفَرَنْجِ، وَتَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَصْرَبْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَيْفٍ، وَلَا طَعَنَ بِرُمْحٍ، وَلَا رَمَى بِسَهْمٍ، وَآخِرُ مَنْ انْهَزَمَ سُفْمَانُ بْنُ أَرْثَقَ، وَجَنَاحُ الدَّوْلَةِ، لِأَنَّهَا كَانَتْ فِي الْكَمِينَ، وَانْهَزَمَ كَرْبُوقَا مَعَهُمْ. فَلَمَّا رَأَى الْفَرَنْجُ ذَلِكَ طَلَّوهُ مَكِيدَةً، إِذْ لَمْ يَجْرُ قِتَالُ بُنْهَزَمَ مِنْ مِثْلِهِ، وَخَافُوا أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ، وَتَبَتِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُجَاهِدِينَ، وَقَاتَلُوا حِسْبَةً، وَطَلَبًا لِلشَّهَادَةِ، فَقَتَلَ الْفَرَنْجُ مِنْهُمْ أَلْقَا، وَغَنِمُوا مَا فِي الْعَسْكَرِ مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَثَاثِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَسْلِحَةِ، فَصَلَحَتْ خَالَهُمْ، وَعَادَتْ إِلَيْهِمْ قُوَّتُهُمْ.

ذَكَرَ مَلِكُ الْفَرَنْجِ مَعَرَّةَ النُّعْمَانِ

(ابن الأثير 10/190)

لَمَّا فَعَلَ الْفَرَنْجُ بِالْمُسْلِمِينَ مَا فَعَلُوا بِسَارُوا إِلَى مَعَرَّةِ النُّعْمَانِ، فَتَارَلُوهَا، وَحَصَرُوهَا، وَقَاتَلَهُمْ أَهْلُهَا قِتَالًا شَدِيدًا، وَرَأَى الْفَرَنْجُ مِنْهُمْ شِدَّةً وَنِكَايَةً، وَلَقُوا مِنْهُمْ الْجَدَّ فِي حَزْبِهِمْ، وَالْإِجْتِهَادَ فِي قِتَالِهِمْ، فَعَمِلُوا عِنْدَ ذَلِكَ بُرْجًا مِنْ حَشَبِ بُقَارِي سُورِ الْمَدِينَةِ، وَوَقَعَ الْقِتَالُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَصُرَّ الْمُسْلِمِينَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ خَافَ قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَتَدَاخَلَهُمُ الْفَسَلُ وَالْهَلُجُ، وَطَلَبُوا أَنْهُمْ إِذَا تَحَصَّنُوا يَبْتَغِ الدُّورَ الْكِبَارَ امْتَنَعُوا بِهَا، فَتَزَلُّوا مِنَ السُّورِ وَأَخْلَوْا الْمَوْضِعَ الَّذِي كَانُوا يَحْفَظُونَهُ، فَزَاهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى فَفَعَلُوا كَفْعَلِهِمْ، فَخَلَا مَكَانُهُمْ أَيْضًا مِنَ السُّورِ. وَلَمْ تَزَلْ تَتَّبِعُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ الَّتِي تَلِيهَا فِي النَّزُولِ، حَتَّى خَلَا السُّورُ، فَصَعِدَ الْفَرَنْجُ إِلَيْهِ عَلَى السَّلَالِيمِ، فَلَمَّا عَلَوْهُ تَحَيَّرَ الْمُسْلِمُونَ، وَدَخَلُوا دُورَهُمْ، فَوَضَعَ الْفَرَنْجُ فِيهِمُ السَّيْفَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَقَتَلُوا مَا يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفٍ، وَسَبَّوْا

السَّبِيءَ الْكَثِيرَ، وَمَلَكَوهُ، وَأَقَامُوا أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَسَارُوا إِلَى عِرْقَةٍ فَحَصَرُوهَا أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، وَتَقَبُّوا سُورَهَا عِدَّةَ نَفُوسٍ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، وَرَاسَلَهُمْ مُنْقِدًا، صَاحِبُ شَيْزَرٍ، فَصَالَحَهُمْ عَلَيْهَا، وَسَارُوا إِلَى حِمَصٍ وَحَصَرُوهَا، فَصَالَحَهُمْ صَاحِبُهَا جَنَاحَ الدَّوْلَةِ، وَخَرَجُوا عَلَى طَرِيقِ النَّوَافِرِ إِلَى عَكَا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا.

ذَكَرَ مُلْكُ الْفَرَنْجِ، لَعَنَهُمُ اللَّهُ، الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ

(ابن الأثير 193/10-195)

^[29] كَانَ الْبَيْتُ الْمُقَدَّسُ لِنَاجِ الدَّوْلَةِ تُشْنُ ، وَأَقْطَعَهُ لِلْأَمِيرِ سُقْمَانَ بْنِ أَرْثُوقِ التُّرْكُمَانِيِّ، فَلَمَّا طَفَرَ الْفَرَنْجُ بِالْأَتْرَاكِ عَلَى أَنْطَاكِيَّةَ، وَقَتَّلُوا فِيهِمْ، ضَعُفُوا، وَتَفَرَّقُوا، فَلَمَّا رَأَى الْمِصْرِيُّونَ ضَعْفَ الْأَتْرَاكِ سَارُوا إِلَيْهِ، وَمُقَدَّمُهُمُ الْأَفْضَلُ بْنُ

بَذْرِ الْجَمَالِيِّ ^[30] ، وَحَصَرُوهُ، وَبِهِ الْأَمِيرُ سُقْمَانُ، وَإِلْغَارِي ابْنُ أَرْثُوقِ، وَابْنُ عَمِّهِمَا سُؤجُ، وَابْنُ أَخِيهِمَا يَاقُوتِي، وَنَصَبُوا عَلَيْهِ تَيْقًا وَأَرْبَعِينَ مَنْجَنِيْقًا، فَهَدَمُوا مَوَاضِعَ مِنْ سُورِهِ، وَقَاتَلَهُمْ أَهْلُ الْبَلَدِ، فَدَامَ الْقِتَالُ وَالْحِصَارُ تَيْقًا وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَمَلَكَوهُ

يَا الْأَمَانَ فِي شَعْبَانَ تِسْعٍ وَتَمَانِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (آب/أوغست 1096). ^[31] أَحْسَنَ الْأَفْضَلُ إِلَى سُقْمَانَ وَإِلْغَارِي وَمَنْ مَعَهُمَا، وَأَجَزَلَ لَهُمُ الْعَطَاءَ، وَسَيَّرَهُمْ فَسَارُوا إِلَى دِمَشْقَ، ثُمَّ عَبَرُوا الْفُرَاتَ، فَأَقَامَ سُقْمَانُ بِبَلَدِ الرَّهَا وَسَارَ إِلْغَارِي إِلَى الْعِرَاقِ، وَاسْتَنَابَ الْمِصْرِيُّونَ فِيهِ رَجُلًا يُعْرَفُ بِإِفْتِخَارِ الدَّوْلَةِ، وَبَقِيَ فِيهِ إِلَى الْآنِ.

فَقَصَدَهُ الْفَرَنْجُ، بَعْدَ أَنْ حَصَرُوا عَكَا، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهَا، فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَيْهِ حَصَرُوهُ تَيْقًا وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَنَصَبُوا عَلَيْهِ بُرْجَيْنِ أَحَدُهُمَا مِنْ تَاجِيَّةٍ صَهِيُونٍ، وَأَخْرَقَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَقَتَّلُوا كُلَّ مَنْ بِهِ. فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ إِخْرَاقِهِ أَتَاهُمُ الْمُسْتَعِيثُ بِأَنَّ الْمَدِينَةَ قَدْ مُلِكَتْ مِنَ الْجَانِبِ الْآخَرِ، وَمَلَكَوَهَا مِنْ جِهَةِ الشَّامِ مِنْهُ صَحْوَةٌ نَهَارَ الْجُمُعَةِ لِسَبْعِ بَقِيَّةٍ مِنْ شَعْبَانَ (15 تموز/لولية 1099م/492)، وَرَكِبَ النَّاسُ السَّيْفَ، وَلَيْتَ الْفَرَنْجُ فِي الْبَلَدَةِ أَسْبُوعًا يَقْتُلُونَ فِيهِ الْمُسْلِمِينَ، وَاخْتَمَى

جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمُخْرَابِ دَاوُدَ ^[32] ، فَأَغْيَصَمُوا بِهِ، وَقَاتَلُوا فِيهِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَبَدَلَ لَهُمُ الْفَرَنْجُ الْأَمَانَ، فَسَلَمُوهُ إِلَيْهِمْ، وَوَقَّى لَهُمُ الْفَرَنْجُ، وَخَرَجُوا لَيْلًا إِلَى عَسْقَلَانَ فَأَقَامُوا بِهَا. وَقَتَلَ الْفَرَنْجُ بِالْمَسْجِدِ الْأَفْصَى، مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ أَلْفًا، مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعُلَمَائِهِمْ، وَعُبَادِهِمْ، وَزُهَّادِهِمْ،

^[33] مِمَّنْ فَارَقَ الْأَوْطَانَ وَجَاوَرَ بِذَلِكَ الْمَوْضِعِ الشَّرِيفِ، وَأَخَذُوا مِنْ عِنْدِ الصَّخْرَةِ تَيْقًا وَأَرْبَعِينَ قِنْدِيلًا مِنَ الْفِصَّةِ، وَزُنُّ كُلِّ قِنْدِيلٍ ثَلَاثَةُ آلَافٍ وَسِتِّمِائَةٍ دِرْهَمٍ، وَأَخَذُوا مِنَ الْقِنَادِيلِ الصَّغَارِ مِائَةً وَخَمْسِينَ قِنْدِيلًا نُفْرَةً، وَمِنْ الذَّهَبِ تَيْقًا وَعِشْرِينَ قِنْدِيلًا، وَغَنِمُوا مِنْهُ مَا لَا يَبْقَى عَلَيْهِ الْإِحْصَاءُ.

وَوَرَدَ الْمُسْتَنْفِرُونَ مِنَ الشَّامِ، فِي رَمَضَانَ، إِلَى بَعْدَادَ ضُحْبَةُ الْقَاضِي أَبِي
 سَعْدٍ الْهَرَوِيِّ^[34]، فَأُورِدُوا فِي الدِّيَّانِ كَلَامًا أَبْكَى الْعُيُونَ، وَأَوْجَعَ الْقُلُوبَ،
 وَقَامُوا بِالْجَامِعِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَاسْتَعَاثُوا، وَبَكَوْا وَأَبْكُوا، وَذَكَرَ مَا دَهَمَ الْمُسْلِمِينَ
 بِذَلِكَ الْبَلَدِ الشَّرِيفِ الْمُعْظَمِ مِنْ قَتْلِ الرِّجَالِ، وَسَبْيِ الْحَرِيمِ وَالْأَوْلَادِ، وَتَهْبِ
 الْأَمْوَالِ، فَلَيْشِدَّةَ مَا أَصَابَهُمْ أَفْطَرُوا.
 وَاخْتَلَفَ السَّلَاطِينُ عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ، فَتَمَكَّنَ الْفَرَنْجُ مِنَ الْإِلَادِ، فَقَالَ أَبُو
 الْمُظَفَّرِ الْأَبْيُورْدِيُّ، فِي هَذَا الْمَعْنَى، أَبْيَاتًا مِنْهَا:

مَرَجْنَا دِمَاءَ بِالدُّمُوعِ السَّوَاجِمِ
 فَلَمْ يَبْقَ مِنَّا غُرْضَةٌ لِلْمَرَاجِمِ
 وَبَشَّرَ سِلَاحُ الْمَرْءِ دَمْعٌ يُفِيضُهُ
 إِذَا الْحَرْبُ شَبَّتْ تَارَهَا بِالصَّوَارِمِ
 قَائِمًا، بَيْنِي الْإِسْلَامُ، إِنَّ وَرَاءَكُمْ
 وَقَائِعَ يُلْجِفْنَ الذَّرَى بِالْمَنَاسِمِ
 أَنَّهُوِيْمَةُ فِي ظِلِّ أَمْنٍ وَغَبْطَةٍ
 وَعَيْشٍ كَنُورِ الْخَمِيلَةِ تَاعِمِ
 وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلءَ جُفُونِهَا
 عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمِ
 وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْجِي مَقِيلُهُمْ
 طُهُورَ الْمَذَاكِبِ، أَوْ يُطَوِّنَ الْقَسَائِمِ
 تَسْوُمُهُمُ الرُّومُ الْهَوَانَ، وَأَنْتُمْ
 تَجْرُونَ ذَبَلِ الْخَفْضِ فِعْلَ الْمُسَالِمِ
 وَكَمْ مِنْ دِمَاءٍ قَدْ أَيْبَحَتْ، وَمِنْ دُمَى
 تَوَارَى حَيَاءً حُسْنُهَا بِالْمَعَاصِمِ
 يَحْيَتْ السُّيُوفُ الْبَيْضُ مُخَمَّرَةُ الطَّبَى
 وَسُمُرُ الْعَوَالِي دَامِيَاتُ اللَّهَادِمِ
 وَبَيْنَ اخْتِلَاسِ الطُّغْنِ وَالصَّرْبِ وَفَقَّةِ
 تَطَلُّ لَهَا الْوِلْدَانُ شَيْبَ الْقَوَادِمِ
 وَتِلْكَ خُرُوبٌ مَنْ يَغْبُ عَنْ غِمَارِهَا
 لَيْسَلِمَ، يَفْرَعُ بَعْدَهَا سَنَ تَادِمِ
 سَلَّلَنَ بِأَيْدِي الْمُسْرِكِينَ قَوَاصِبًا
 سَتَعْمَدُ مِنْهُمْ فِي الطَّلَى وَالْجَمَاجِمِ
 يَكَادُ لَهُنَّ الْمُسْتَجِرُّ بِطَيْبَةِ يُتَادِي

[35]

يَا عَلِيَّ الصَّوْتِ يَا آلَ هَاشِمٍ
 أَرَى أُمَّتِي لَا يَشْرَعُونَ إِلَى الْعِدَى

رَمَاحَهُمْ، وَالذِّينَ وَاهِبِ الدَّعَائِمِ
وَيَجْتَنِبُونَ النَّارَ حَوْفًا مِنَ الرَّدَى
وَلَا يَخْسَبُونَ الْعَارَ صَرْبَةً لَازِمَ
أَتْرَضَى صَنَادِيدُ الْأَعَارِيبِ بِالْأَدَى
وَيُعْضِي عَلَى ذُلِّ كُمَاهُ الْأَعَاجِمِ

ذَكَرُ ظَفَرِ الْمُسْلِمِينَ بِالْفَرَنْجِ -
الظفر ببيمند صاحب أنطاكية

(ابن الأثير 10/203-204)

فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ (أيلول/سبتمبر 1100م/493). لَقِيَ كُشْتِكِينُ
بْنُ الدَّائِشْمَنْدِ طَائِلُو، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ ابْنُ الدَّائِشْمَنْدِ لِأَنَّ أَبَاهُ كَانَ مُعَلِّمًا لِلتُّرْكَمَانَ
وَتَقَلَّبَتْ بِهِ الْأَحْوَالُ، حَتَّى مَلَكَ، وَهُوَ صَاحِبُ مَلَطِيَّةَ وَسَيُوسَانَ وَغَيْرِهِمَا، يَمُنُّدُ
الْفَرَنْجِيَّ، وَهُوَ مِنْ مُقَدِّمِي الْفَرَنْجِ، قَرِيبَ مَلَطِيَّةَ، وَكَانَ صَاحِبُهَا (السَّابِقُ) قَدْ
كَاتَبَهُ، وَاسْتَفْدَمَهُ إِلَيْهِ، فَوَرَدَ عَلَيْهِ فِي خَمْسَةِ آلَافٍ، فَلَقِيَهُمْ ابْنُ الدَّائِشْمَنْدِ،
فَانْهَزَمَ يَمُنُّدُ وَأَسْرَ. ثُمَّ وَصَلَ مِنَ الْبَحْرِ سَبْعَةَ قِمَاصَةٍ مِنَ الْفَرَنْجِ، وَأَرَادُوا
تَخْلِصَ يَمُنُّدَ، فَأَتَوْا إِلَى قَلْعَةٍ تُسَمَّى أَنْكُورِيَّةَ، فَأَخَذُوهَا وَقَتَلُوا مَنْ فِيهَا مِنَ
الْمُسْلِمِينَ، وَسَارُوا إِلَى قَلْعَةٍ أُخْرَى فِيهَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ الدَّائِشْمَنْدِ، وَحَصَرُوهَا،
فَجَمَعَ ابْنُ الدَّائِشْمَنْدِ جَمْعًا كَثِيرًا، وَلَقِيَ الْفَرَنْجِ، وَجَعَلَ لَهُ كَمِيًّا، وَقَاتَلَهُمْ،
وَخَرَجَ الْكَمِينَ عَلَيْهِمْ، فَلَمْ يُفْلِتْ أَحَدٌ مِنَ الْفَرَنْجِ، وَكَانُوا ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفٍ (!)، غَيْرَ
ثَلَاثَةِ آلَافٍ هَزَبُوا لَيْلًا وَأَفْلَتُوا مَجْرُوحِينَ. وَسَارَ الدَّائِشْمَنْدُ إِلَى مَلَطِيَّةَ، فَمَلَكَهَا
وَأَسْرَ صَاحِبَهَا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَيْهِ عَشْكَرُ الْفَرَنْجِ مِنْ أَنْطَاكِيَّةَ، فَلَقِيَهُمْ وَكَسَرَهُمْ،
وَكَانَتْ هَذِهِ الْوَقَائِعُ فِي شَهْرِ قَرِيْبَةٍ.

ذَكَرُ مَا مَلَكَ الْفَرَنْجُ مِنَ الشَّامِ -
موت كندفري وانتصارات إفرنجية أخرى

(ابن الأثير 10/222)

فِيهَا (1100م/493). سَارَ كُنْدُفَرِي، مَلِكُ الْفَرَنْجِ بِالشَّامِ، وَهُوَ صَاحِبُ الْبَيْتِ
الْمُقَدَّسِ، إِلَى مَدِينَةِ عَمَّا، بِبَنَاجِلِ الشَّامِ، فَحَصَرَهَا، فَأَصَابَهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ ^[36]،
وَكَانَ قَدْ عَمَّرَ مَدِينَةَ يَاقَا وَسَلَّمَهَا إِلَى قُمَّصٍ مِنَ الْفَرَنْجِ اسْمُهُ: طَنْكِرِي، فَلَمَّا
قُتِلَ كُنْدُفَرِي سَارَ أَخُوهُ بَعْدُوبُنُ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ فِي خَمْسِمِائَةِ فَارِسٍ
وَرَاجِلٍ، قَبْلَ الْمَلِكِ دُقَاقَ، صَاحِبِ دِمَشْقَ، خَبَرَهُ، فَتَهَضَّ إِلَيْهِ فِي عَشْكَرِهِ،
وَمَعَهُ الْأَمِيرُ جَتَاخُ الدَّوْلَةِ (صاحب حمص) فِي جُمُوعِهِ، فَقَاتَلَهُ، فَصَبَرَ عَلَى
الْفَرَنْجِ.

وَفِيهَا مَلِكُ الْفَرَنْجِ مَدِينَةَ سَرُوجَ مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْفَرَنْجَ كَانُوا قَدْ مَلَكُوا مَدِينَةَ الثُّرَا بِمُكَاتِبَةٍ مِنْ أَهْلِهَا لِأَنَّ أَكْثَرَهُمْ أَرْمَنٌ، وَلَيْسَ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا الْقَلِيلُ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ جَمَعَ سُقْمَانُ بِسَرُوجَ جَمْعًا كَثِيرًا مِنَ الثُّرُكْمَانِ، وَزَحَفَ إِلَيْهِمْ، فَلَقَوْهُ وَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمُوهُ فِي رَبِيعِ الْأَوَّلِ (كَانُونَ الثَّانِي- شَبَاطُ/يَنَائِر-فَبْرَائِسَ)، فَلَمَّا تَمَّتِ الْهَزِيمَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ سَارَ الْفَرَنْجُ إِلَى سَرُوجَ، فَحَصَرُوهَا وَتَسَلَّمُوهَا، وَقَتَلُوا كَثِيرًا مِنْ أَهْلِهَا وَسَبَوُا حَرِيمَهُمْ، وَتَهَبُّوا أَمْوَالَهُمْ، وَلَمْ يَسْلَمْ إِلَّا مَنْ مَضَى مُنْهَرِمًا.

وَفِيهَا مَلِكُ الْفَرَنْجِ مَدِينَةَ حَيْفَا، وَهِيَ بِالْقُرْبِ مِنْ عَكَّةَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ، مَلَكُوهَا عَنُوءٌ، وَمَلَكُوا أَرَشُوفَ بِالْأَمَانِ، وَأَخْرَجُوا أَهْلَهَا مِنْهَا. وَفِيهَا، فِي رَجَبِ (أَيَّار/مَآيُو)، مَلَكُوا مَدِينَةَ قَيْسَارِيَّةَ بِالسَّيْفِ، وَقَتَلُوا أَهْلَهَا، وَتَهَبُّوا مَا فِيهَا.

ذِكْرُ حَالِ صَنْجِيلِ الْفَرَنْجِيِّ وَمَا كَانَ مِنْهُ فِي حِصَارِ طَرَابُلُسَ

(ابن الأثير 10/236-237)

كَانَ صَنْجِيلُ الْفَرَنْجِيِّ ^[37]، لَعَنَهُ اللَّهُ، قَدْ لَقِيَ قِلَجَ أَرْسِلَانَ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ قُتْلُمِشَ، صَاحِبَ قُونِيَّةَ، وَكَانَ صَنْجِيلُ فِي مِائَةِ أَلْفِ مُقَاتِلٍ، وَكَانَ قِلَجُ أَرْسِلَانَ فِي عَدَدٍ قَلِيلٍ، فَاقْتَتَلُوا، فَأُتْهِزَمَ الْفَرَنْجُ وَقُتِلَ مِنْهُمْ كَثِيرٌ، وَأَسِرَ كَثِيرٌ وَعَادَ قِلَجُ أَرْسِلَانَ بِالْعَتَائِمِ، وَالطُّغْرُ الَّذِي لَمْ يَحْسَبْهُ.

وَمَضَى صَنْجِيلُ مَهْزُومًا فِي ثَلَاثِمِائَةٍ، فَوَصَلَ إِلَى الشَّامِ، فَأَرْسَلَ قُحْرَ الْمُلِكِ بْنِ عَمَّارٍ، صَاحِبُ طَرَابُلُسَ، إِلَى الْأَمِيرِ يَاحِزَ، خَلِيفَةِ جَنَاحِ الدَّوْلَةِ عَلَى حِمَصَ، قَالِي الْمَلِكِ (عَلَى دِمَشْقَ) دُقَاقَ بْنَ ثُنَّشَ، يَقُولُ: "مِنَ الصَّوَابِ أَنْ يُعَاجَلَ صَنْجِيلُ إِذْ هُوَ فِي هَذِهِ الْعِدَّةِ الْقَرِيبَةِ"، فَخَرَجَ الْأَمِيرُ يَاحِزُ بِنَفْسِهِ، وَسَيَّرَ دُقَاقَ أَلْفَيْ مُقَاتِلٍ، وَأَتَتْهُمْ الْأَمْدَادُ مِنْ طَرَابُلُسَ، فَاجْتَمَعُوا عَلَى بَابِ طَرَابُلُسَ، وَصَافَوْا صَنْجِيلَ هُنَاكَ، فَأَخْرَجَ مِائَةً مِنْ عَسْكَرِهِ إِلَى أَهْلِ طَرَابُلُسَ، وَمِائَةً إِلَى عَسْكَرِ دِمَشْقَ، وَخَمْسِينَ إِلَى عَسْكَرِ حِمَصَ، وَبَقِيَ هُوَ فِي خَمْسِينَ. فَأَمَّا عَسْكَرُ حِمَصَ فَأَتَتْهُمْ أَنْكَسَرُوا عِنْدَ الْمُشَاهِدَةِ، وَوَلُّوا مُنْهَرِمِينَ، وَتَبِعَهُمْ عَسْكَرُ دِمَشْقَ. وَأَتَاهُ أَهْلُ الْجَيْلِ فَأَعَانُوهُ عَلَى حِصَارِهَا، وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّوَادِ، وَأَكْثَرُهُمْ تَصَارِي، فَقَاتَلَ مِنْ بَيْنِهَا أَشَدَّ قِتَالٍ، فَقُتِلَ مِنَ الْفَرَنْجِ ثَلَاثِمِائَةٍ، ثُمَّ إِنَّهُ هَادَتْهُمْ عَلَى مَالٍ وَخَيْلٍ، فَرَحَلَ عَنْهُمْ إِلَى مَدِينَةِ أَنْطَرُشُوسَ، وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُسَ، فَحَصَرَهَا، وَفَتَحَهَا، وَقَتَلَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَرَحَلَ إِلَى حِصْنِ الطُّوْبَانِ وَهُوَ يُقَارِبُ رَفْنِيَّةَ، وَمُقَدَّمُهُ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْعَرِيضِ، فَقَاتَلَهُمْ، فَتَصَرَّ عَلَيْهِ أَهْلُ الْحِصْنِ، وَأَسَرَ ابْنُ الْعَرِيضِ مِنْهُ قَارِسًا مِنْ أَكَابِرِ فُرْسَانِيَّةِ، فَبَدَّلَ صَنْجِيلُ فِي فِدَائِهِ

عَشْرَةَ آلَافٍ دِينَارٍ ^[39] وَأَلْفَ أَسِيرٍ، فَلَمْ يُجِبْهُ ابْنُ الْعَرِيضِ إِلَى ذَلِكَ.

تحرير بيمند وانكسار بالدوين في الرملة وذكر ما فعله الفرنج

(ابن الأثير 10/237-238)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1102م/495). أَطْلَقَ الدَّائِشْمَنْدُ بِيْمُنْدَ الْفِرْنَجِيَّ، صَاحِبَ أَنْطَاكِيَّةَ، وَكَانَ قَدْ أَسْرَهُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ ذَلِكَ، وَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَشَرَطَ عَلَيْهِ إِطْلَاقَ ابْنَتِهِ يَإْغِي سَيَّانَ الَّذِي كَانَ صَاحِبَ أَنْطَاكِيَّةَ، وَكَانَتْ فِي أَسْرِهِ. وَلَمَّا خَلَصَ بِيْمُنْدُ مِنْ أَسْرِهِ عَادَ إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ، فَقَوِيَتْ نُفُوسُ أَهْلِهَا بِهِ، وَلَمْ يَسْتَقِرُّ حَتَّى أُرْسَلَ إِلَى أَهْلِ الْعَوَاصِمِ وَقَبَائِلِهِنَّ وَمَا جَاوَرَهَا يُطَالِبُهُمْ بِالْإِثَاوَةِ، فَوَرَدَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ مَا طَمَسَ الْمَعَالِمَ الَّتِي بَنَاهَا الدَّائِشْمَنْدُ.

وَفِيهَا سَارَ صَنْجِيلُ إِلَى حِصْنِ الْأَكْرَادِ^[40] فَحَصَرَهُ، فَجَمَعَ جَنَاحُ الدَّوْلَةِ عَسْكَرَهُ لِيَسِيرَ إِلَيْهِ وَيَكْبِسَهُ، فَقَتَلَهُ بَاطِينِي^[41] بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ (فِي حِمص)، فَقِيلَ: إِنَّ الْمَلِكَ رِضْوَانَ رَبِيبَهُ وَصَّعَ عَلَيْهِ مِنْ قَتْلِهِ، فَلَمَّا قُتِلَ صَبَّحَ صَنْجِيلُ حِمصَ مِنَ الْعَدِ، وَتَازَلَهَا، وَحَصَرَ أَهْلَهَا، وَمَلَكَ أَعْمَالَهَا.

وَنَزَلَ الْقُمَّصُ عَلَى عَكَّةَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ السَّنَةِ (نَيْسَانَ/أَبْرِيلَ 1102م)، وَصَبَّقَ عَلَيْهَا، وَكَادَ يَأْخُذُهَا، وَتَصَبَّ عَلَيْهَا الْمَنْجَبِقَاتُ وَالْأَبْرَاجُ، وَكَانَ لَهُ فِي الْبَحْرِ سِتُّ عَشْرَةَ قِطْعَةً، فَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ سَائِرِ السَّوَاغِلِ، وَأَتَوْا إِلَى مَنَجَبِقَاتِهِمْ، وَأَبْرَاجِهِمْ، فَأَخْرَفُوهَا، وَأَخْرَفُوا سُفَّتَهُمْ أَيْضًا، وَكَانَ ذَلِكَ تَضَرًّا عَاجِبًا أَذَلَّ اللَّهُ بِهِ الْكُفَّارَ.

وَفِيهَا صَارَ الْقُمَّصُ الْفِرْنَجِيَّ، صَاحِبُ الرُّهَا إِلَى يَثْرُوتَ مِنْ سَاحِلِ الشَّامِ، وَحَصَرَهَا وَصَابَقَهَا، وَأَطَالَ الْمُقَامَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَرِ فِيهَا طَمَعًا فَرَحَلَ عَنْهَا. وَفِيهَا، فِي رَجَبِ (أَبَار/مَآيُو 1102م). خَرَجَتْ عَسَاكِرُ مِصْرَ إِلَى عَسْقَلَانَ لِيَمْتَنِعُوا الْفِرْنَجَ عَمَّا بَقِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مِنَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ، فَسَمِعَ بِهِمْ بَرْدَوِيلُ، صَاحِبُ الْقُدْسِ، فَسَارَ إِلَيْهِمْ فِي سَبْعِمِائَةِ فَارِسٍ، وَقَاتَلَهُمْ، فَتَصَرَّ اللَّهُ الْمُسْلِمِينَ، وَانْهَزَمَ الْفِرْنَجُ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِيهِمْ، وَانْهَزَمَ بَرْدَوِيلُ، فَأَخْتَفَى فِي أَجْمَةِ قَصَبٍ، فَأَخْرَقَتْ تِلْكَ الْأَجْمَةُ، وَلَحِقَتْ النَّارُ بَعْضَ جَسَدِهِ، وَتَجَا مِنْهَا إِلَى الرَّمْلَةِ، فَتَبِعَهُ الْمُسْلِمُونَ، وَأَخَاطُوا بِهِ فَتَنَكَرَ، وَخَرَجَ مِنْهَا إِلَى يَافَا، وَكَثُرَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ فِي أَصْحَابِهِ.

ذِكْرُ مُلْكِ الْفِرْنَجِ جُبَيْلًا وَعَكَا مِنَ الشَّامِ

(ابن الأثير 10/255)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (1103-1104م/497). وَصَلَتْ مَرَائِبُ مِنْ بِلَادِ الْفِرْنَجِ إِلَى مَدِينَةِ اللَّادِقِيَّةِ، وَفِيهَا التُّجَّارُ، وَالْأَجْتَادُ، وَالْحُجَّاجُ، وَعَيَّرُ ذَلِكَ، وَاسْتَعَانَ بِهِمْ صَنْجِيلُ الْفِرْنَجِيَّ عَلَى حِصَارِ طَرَابُلُسَ، فَحَصَرُوهَا مَعَهُ بَرًّا وَبَحْرًا، وَصَابَقُوهَا،

وَقَاتِلُوهَا أَيَّامًا، فَلَمْ يَرَوْا فِيهَا مَطْمَعًا، فَرَجَلُوا عَنْهَا إِلَى مَدِينَةِ جُبَيْلٍ، فَحَصَرُوهَا،
وَقَاتِلُوا عَلَيْهَا قِتَالًا شَدِيدًا، فَلَمَّا رَأَى أَهْلُهَا عَجَزَهُمْ عَنِ الْفَرَنْجِ أَخَذُوا أَمَانًا،
وَسَلَّمُوا الْبَلَدَ إِلَيْهِمْ، فَلَمْ تَفِ الْفَرَنْجُ لَهُمْ بِالْأَمَانِ، وَأَخَذُوا أَمْوَالَهُمْ، وَاسْتَنْقَذُوهَا
بِالْعُقُوبَاتِ وَأَنْوَاعِ الْعَذَابِ. فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنْ جُبَيْلٍ سَارُوا إِلَى مَدِينَةِ عَكَا،
اسْتَنْجَدَهُم الْمَلِكُ بَعْدَوِيٌّ، مَلِكُ الْفَرَنْجِ، صَاحِبُ الْقُدْسِ عَلَى حِصَارِهَا،
فَنَازَلُوهَا، وَحَصَرُوهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ.

وَكَانَ الْوَالِي بِهَا اسْمُهُ بَتَا، وَيُعْرَفُ بِزَهْرِ الدَّوْلَةِ الْجُيُوشِيِّ، نِسْبَةً إِلَى مَلِكِ
الْجُيُوشِ الْأَفْضَلِ، فَقَاتَلَهُمْ أَشَدَّ قِتَالٍ، فَرَحَقُوا إِلَيْهِ غَيْرَ مَرَّةٍ، فَعَجَزَ عَنْ حِفْظِ
الْبَلَدِ، فَخَرَجَ مِنْهُ، وَمَلَكَ الْفَرَنْجُ الْبَلَدَ بِالسَّيْفِ قَهْرًا، وَفَعَلُوا بِأَهْلِهِ الْأَفْعَالَ
الْبَشِيعَةَ، وَسَارَ الْوَالِي بِهِ إِلَى دِمَشْقَ، فَأَقَامَ بِهَا، ثُمَّ عَادَ إِلَى مِصْرَ، وَاعْتَذَرَ إِلَى
الْأَفْضَلِ فَقَبِلَ عُذْرَهُ.

نُقلت الصفحات التالية عن ابن

الأثير أيضاً، وأهميتها أنها تروي نجاحات ردة الفعل الإسلامية على قيام الفرنجة بالمرأهنة على حَرَّان، ثغر ما بين النهرين على طريق بغداد. لكن أهميتها الأكبر تبرز بسبب ماتبع ذلك من تحالف قوى إسلامية - فرنجية كانت تتقاتل فيما بينها: ذلك

أن عدوى ترجيح المصالح الخاصة لدى المسلمين، والتي سهلت انتصار الفرنجة، انتقلت

إلى المنتصرين أنفسهم. وهكذا رأينا كيف أن بالدوين الرها وطنكري أنطاكية لم يترددا

عن المشاركة في التحالفات المتصارعة التي أقامها الأمراء المسلمون المتخاصمون.

ذِكْرُ

عَزَوْ سُقْمَانَ وَجَكَزْمَشَ الْفِرْنَجِ

(ابن الأثير 10/257-256)

لَمَّا اسْتَطَالَ الْفِرْنَجُ،

حَذَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، بِمَا مَلَكَوهُ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ،

وَاتَّفَقَ لَهُمْ اسْتِغَالُ عَسَاكِرِ الْإِسْلَامِ وَمُلُوكِهِ، يَفْتَالِ

بَعْضُهُمْ بَعْضًا، تَفَرَّقَتْ حَيْثُ نَزَّ بِالْمُسْلِمِينَ الْأَرَاءُ،

وَاخْتَلَفَتْ الْأَهْوَاءُ، وَتَمَرَّقَتْ الْأَمْوَالُ. وَكَانَتْ حَرَّانُ

لِمَمْلُوكٍ مِنْ مَمَالِكِ مَلِكْنَشَاهُ اسْمُهُ قُرَاجَةُ، فَاسْتَخْلَفَ
عَلَيْهَا إِنْسَانًا يُقَالُ لَهُ مُحَمَّدُ الْأَضْبَهَانِيُّ، وَخَرَجَ فِي
الْعَامِ الْمَاضِي، فَعَصَى الْأَضْبَهَانِيَّ عَلَى قُرَاجَةَ، وَأَعَانَهُ
أَهْلُ الْبَلَدِ لِطُلْمِ قُرَاجَةَ. وَكَانَ الْأَضْبَهَانِيُّ جَلْدًا،
شَهْمًا، فَلَمْ يَتْرُكْ يَحْرَانَ مِنْ أَصْحَابِ قُرَاجَةَ سِوَى غُلَامٍ
تُرْكِيٍّ يُعْرَفُ بِجَاوَلِي، وَجَعَلَهُ أَصْفَهَسَلَارَ الْعَسْكَرِ، وَأَنَسَ
بِهِ، فَجَلَسَ مَعَهُ يَوْمًا لِلشُّرْبِ، فَاتَّفَقَ جَاوَلِي مَعَ خَادِمٍ لَهُ
عَلَى قَتْلِهِ فَقَتَلَاهُ وَهُوَ سَكْرَانٌ. فَعِنْدَ ذَلِكَ سَارَ الْفَرَنْجُ
إِلَى حَرَّانَ وَحَصَرُوهَا.
فَلَمَّا سَمِعَ مُعِينٌ

[42] الدَّوْلَةَ سُقْمَانُ، وَشَمْسُ الدَّوْلَةِ جَكَزْمِشُ ذَلِكَ،
وَكَانَ بَيْنَهُمَا حَرْبٌ، وَشُقْمَانُ يُطَالِبُ بِقَتْلِ ابْنِ أَخِيهِ،
وَكُلُّ مِنْهُمَا يَسْتَعِدُّ لِلِقَاءِ صَاحِبِهِ، وَأَنَا أَذْكَرُ سَبَبَ
قَتْلِ جَكَزْمِشَ لَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، أَرْسَلَ كُلُّ مِنْهُمَا
إِلَى صَاحِبِهِ يَدْعُوهُ إِلَى الْاجْتِمَاعِ مَعَهُ لِتَلَاوِيهِ أَمْرِ
حَرَّانَ، وَيُعْلِمُهُ أَنَّهُ قَدْ بَدَّلَ نَفْسَهُ لِلَّهِ تَعَالَى،
وَتَوَابِهِ، فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا أَجَابَ صَاحِبَهُ إِلَى مَا طَلَبَ
مِنْهُ، وَسَارَا فَاجْتَمَعَا عَلَى الْخَابُورِ، وَتَخَالَفَا، وَسَارَا إِلَى
لِقَاءِ الْفَرَنْجِ. وَكَانَ مَعَ شُقْمَانُ سَبْعَةُ آلَافٍ قَارِسٍ مَعَ

النَّزَكَمَانِ، وَمَعَ جَكَزْمَشَ ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَارِسٍ مِنَ النَّزَكِ،
وَالْعَرَبِ، وَالْأَكْرَادِ، فَالتَّقَوْا عَلَى نَهْرِ الْبَلِيخِ، وَكَانَ
الْمَصَافُ بَيْنَهُمْ هُنَاكَ، فَاقْتَتَلُوا، (أيار/مايو
1104م). فَأَظْهَرَ

الْمُسْلِمُونَ الْإِنْهَزَامَ، فَتَبِعَهُمُ الْفَرَنْجُ نَحْوَ فَرْسَخَيْنِ،
فَعَادَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَقَتَلُوهُمْ كَيْفَ شَاءُوا، وَامْتَلَأَتْ
أَيْدِي النَّزَكَمَانِ مِنَ الْعَنَائِمِ، وَوَصَلُوا إِلَى الْأَمْوَالِ الْعَظِيمَةِ،
لَأنَّ سَوَادَ الْفَرَنْجِ كَانَ قَرِيبًا، وَكَانَ يَمُنُّدُ، صَاحِبُ
أَنْطَاكِيَّةَ، وَطَنْكِرِي، صَاحِبُ السَّاجِلِ، قَدْ انْفَرَدَا وَرَاءَ جَبَلٍ
لِيَأْتِيَا الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ ظُهُورِهِمْ، إِذَا اسْتَدَّتِ
الْحَرْبُ، فَلَمَّا خَرَجَا رَأَى الْفَرَنْجُ مُنْهَزِمِينَ، وَسَوَادَهُمْ
مَنْهُوَبًا، فَأَقَامَا بِاللَّيْلِ، وَهَرَبَا، فَتَبِعَهُمَا الْمُسْلِمُونَ،
وَقَتَلُوا مِنْ أَصْحَابِهِمَا كَثِيرًا، وَأَسْرَوْا كَذَلِكَ، وَأَقْلَنَّا فِي
سِتَّةِ فُرْسَانٍ. وَكَانَ الْقُمَّصُ بَرْدَوِيلُ، صَاحِبُ الرَّهَا، قَدْ
انْهَزَمَ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ قَمَامِصَتِهِمْ، وَخَاضُوا نَهْرَ الْبَلِيخِ،
فَوَجَلَتْ خِيُولُهُمْ، فَجَاءَ النَّزَكَمَانِيُّ مِنْ أَصْحَابِ سُقْمَانَ
فَأَخَذَهُمْ، وَحَمَلَ بَرْدَوِيلَ إِلَى خِيَمِ صَاحِبِهِ، وَقَدْ سَارَ فِيْمَنْ
مَعَهُ لِاتِّبَاعِ يَمُنُّدَ، فَرَأَى أَصْحَابَ جَكَزْمَشَ أَنَّ أَصْحَابَ
سُقْمَانَ قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَى مَالِ الْفَرَنْجِ، وَيَرْجِعُونَ هُمْ مِنَ
الْبَغِيْمَةِ بِغَيْرِ طَائِلٍ، فَقَالُوا لِحَكَزْمَشَ: "أَيُّ مَنْزِلَةٍ

تَكُونُ لَنَا عِنْدَ النَّاسِ، وَعِنْدَ التَّرَكَمَانِ إِذَا انْصَرَفُوا
بِالْعَتَائِمِ دُوتًا؟" وَحَسَّنُوا لَهُ أَخَذَ الْقُمَّصَ، فَأَتَقَدَّ
فَأَخَذَ الْقُمَّصَ مِنْ خِيَمِ سُقْمَانَ، فَلَمَّا عَادَ سُقْمَانُ شَقَّ
عَلَيْهِ الْأَمْرَ، وَرَكَبَ أَصْحَابُهُ لِلْقِتَالِ، فَرَدَّهُمْ، وَقَالَ
لَهُمْ: "لَا يَقُومُ فَرَحُ الْمُسْلِمِينَ فِي هَذِهِ الْعَرَاةِ
يَعْمَهُمْ بِاخْتِلَافِنَا، وَلَا أُؤَيِّرُ شِقَاءَ غَيْطِي بِسَمَائِهِ
الْأَعْدَاءِ بِالْمُسْلِمِينَ". وَرَحَلَ لِوُفْتِهِ، وَأَخَذَ سِلَاحَ
الْفِرْنِجِ، وَرَايَاتِهِمْ، وَالْتَبَسَ أَصْحَابُهُ لُبْسَهُمْ، وَأَرْكَبَهُمْ
حَيْلَهُمْ، وَجَعَلَ يَأْتِي حُضُونَ شَيْحَانَ، وَبِهَا الْفِرْنِجُ،
فَيَخْرُجُونَ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ أَصْحَابَهُمْ نُصِرُوا، فَيَقْتُلُهُمْ
وَيَأْخُذُ الْحِصْنَ مِنْهُمْ، فَعَلَ ذَلِكَ بَعْدَهُ حُضُونٌ. وَأَمَّا
جَكَرْمِشُ فَإِنَّهُ سَارَ إِلَى حَرَّانٍ، فَتَسَلَّمَهَا، وَاسْتَخْلَفَ بِهَا
صَاحِبَتَهُ. وَسَارَ إِلَى الرَّهَا، فَحَصَرَهَا خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، وَعَادَ
إِلَى الْمَوْصِلِ وَمَعَهُ الْقُمَّصُ الَّذِي أَخَذَهُ مِنْ خِيَامِ سُقْمَانَ،
فَقَادَاهُ بِخَمْسَةِ وَثَلَاثِينَ دِينَارًا، وَمِائَةِ وَسِيَّتَيْنِ أَسِيرًا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ عِدَّةُ الْقَتْلَى مِنَ الْفِرْنِجِ يُقَارِبُ
اِثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ قَتِيلٍ.

بالدوين

الرها وطنكري أنطاكية

(ابن الأثير 326/10-321)

لَمَّا هَرَبَ إِلِغَارِي مِنْ

[43]

جَاوِلِي سَارَ

جَاوِلِي إِلَى الرَّحْبَةِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى مَاكِسِينَ أَطْلَقَ
الْقُمْصَ الْفَرْنَجِيَّ، الَّذِي كَانَ أَسِيرًا بِالْمَوْصِلِ، وَأَخَذَهُ
مَعَهُ، وَاسْمُهُ بَزْدَوِيلُ، وَكَانَ صَاحِبَ الرُّهَا وَسُرُوجَ وَغَيْرِهِمَا،
وَبَقِيَ فِي الْحَبْسِ إِلَى الْآنِ (1108م/501)،

وَبَدَلَ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ، فَلَمْ يُطْلَقْ، فَلَمَّا كَانَ الْآنَ
أُطْلِقَهُ جَاوِلِي، وَخَلَعَ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُقَامُهُ فِي السَّجْنِ مَا

[44]

يُقَارِبُ خَمْسَ سِنِينَ ،

وَقَرَّرَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْدِيَ نَفْسَهُ بِمَالٍ، وَأَنْ يُطْلَقَ أَسْرَى
الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ فِي سِجْنِهِ، وَأَنْ يُنْصَرَهُ مَتَى أَرَادَ ذَلِكَ
مِنْهُ بِنَفْسِهِ وَعَسْكَرِهِ وَمَالِهِ. فلما اتفقا على ذلك سِيرَ الْقُمْصُ إِلَى
قَلْعَةِ جَعْبَرٍ، وَسَلَّمَهُ إِلَى صَاحِبِهَا سَالِمِ بْنِ مَالِكٍ، حَتَّى وَرَدَ عَلَيْهِ ابْنُ
خَالَتِهِ جُوسَلِينَ، وَهُوَ مِنْ فُرْسَانَ الْفَرْنَجِ وَشُجْعَانِيهَا، وَهُوَ
صَاحِبُ تَلِّ بَاشَرٍ وَغَيْرِهِ، وَكَانَ أَسِيرَ مَعَ الْقُمْصِ فِي تِلْكَ
الْوَقْعَةِ، فَقَدَى نَفْسَهُ بِعِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَلَمَّا وَصَلَ
جُوسَلِينَ إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرٍ أَقَامَ رَهِيْنَةً عِوَضَ الْقُمْصِ،
وَأُطْلِقَ الْقُمْصُ، وَسَارَ إِلَى أُنْطَاكِيَّةَ، وَأَخَذَ جَاوِلِي
جُوسَلِينَ مِنْ قَلْعَةِ جَعْبَرٍ فَأُطْلِقَهُ، وَأَخَذَ عِوَضَهُ أَخَا

رَوْجَتِهِ، وَأَخَا رَوْجَةِ الْقُمَصِ، وَسَيَّرَهُ إِلَى الْقُمَصِ لِيَقْوَى
بِهِ، وَلِيُحِثَّهُ عَلَى إِطْلَاقِ الْأَسْرَى، وَإِنْقَاضِ الْمَالِ وَمَا
صَمِنَتْهُ، فَلَمَّا وَصَلَ جُوسِلِينَ إِلَى مَنِيحِ أَغَارِ عَلَيْهَا
وَنَهَبَهَا، وَكَانَ مَعَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِ جَاوَلِي، فَأَتَكَّرُوا
عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَتَسَبَّوْهُ إِلَى الْعَذْرِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ
الْمَدِينَةُ لَيْسَتْ لَكُمْ.

(ذِكْرُ مَا جَرَى بَيْنَ هَذَا

الْقُمَصِ وَبَيْنَ صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةِ)

لَمَّا أُطْلِقَ الْقُمَصُ

وَسَارَ إِلَى أَنْطَاكِيَّةِ أَعْطَاهُ طَنْكِرِي صَاحِبُهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ
دِينَارٍ، وَخَيْلًا، وَثِيَابًا، وَغَيْرَ ذَلِكَ، وَكَانَ طَنْكِرِي قَدْ أَخَذَ
الرُّهَا مِنْ أَصْحَابِ الْقُمَصِ حِينَ أُسِرَ، فَخَاطَبَهُ الْآنَ فِي
رَدِّهَا عَلَيْهِ، فَلَمْ يَفْعَلْ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ إِلَى تَلٍّ بِأَشِيرَ
فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِ جُوسِلِينَ، وَقَدْ أَطْلَقَهُ جَاوَلِي، سَرَّهُ
ذَلِكَ، وَفَرِحَ بِهِ. وَسَارَ إِلَيْهِمَا طَنْكِرِي، صَاحِبُ أَنْطَاكِيَّةِ،
يَعْسَاكِرِهِ لِيُخَارِبَهُمَا، قَبْلَ أَنْ يَقْوَى أَمْرُهُمَا، وَيَجْمَعَا
عَسْكَرًا، وَيُلْحَقَ بِهِمَا جَاوَلِي وَيُنْجِدَهُمَا، فَكَانُوا
يَقْتَتِلُونَ، فَإِذَا فَرَعُوا مِنَ الْقِتَالِ اجْتَمَعُوا وَأَكَلَ بَعْضُهُمْ

[45]

مَعَ بَعْضٍ وَتَحَادَثُوا.

وَأَطْلَقَ الْقُمَّصَ مِنْ

الْأَسْرَى الْمُسْلِمِينَ مِائَةً وَسِتِّينَ أَسِيرًا كُلُّهُمْ مِنْ سَوَادِ حَلَبَ،
وَكَسَاهُمْ وَسَيَّرَهُمْ. وَعَادَ طَنْكَرِي إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ مِنْ غَيْرِ
فَضْلِ خَالٍ فِي مَعْنَى الرُّهَا، فَسَارَ الْقُمَّصُ وَجُوسَلِينَ وَأَغَارَا
عَلَى حُضُونِ طَنْكَرِي صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةَ، وَالتَّجَا إِلَى وِلَايَةِ
كَوَاسِيلَ، وَهُوَ رَجُلٌ أَرْمِينِيٌّ وَمَعَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ
الْمُرْتَدِّينَ وَغَيْرِهِمْ، وَهُوَ صَاحِبُ رَعْبَانَ، وَكَيْسُومَ،
وَعَبْرَةَ هَمَا مِنَ الْقِلَاعِ، شَمَالِيَّ حَلَبَ، فَأَتَجَدَ الْقُمَّصَ
يَأْلَفِ فَارِسٍ مِنَ الْمُرْتَدِّينَ، وَالْقَيْ رَاجِلٍ، فَقَصَدَهُمْ
طَنْكَرِي، فَتَنَازَعُوا فِي أَمْرِ الرُّهَا، فَتَوَسَّطَ بَيْنَهُمُ الْبِطْرُكُ
الَّذِي لَهُمْ، وَهُوَ عِنْدَهُمْ كَالْإِمَامِ الَّذِي لِلْمُسْلِمِينَ، لَا
يُخَالِفُ أَمْرُهُ، وَشَهِدَ جَمَاعَةً مِنَ الْمَطَارِيَةِ وَالْقِسِّيَّاتِ: أَنَّ بَيْمُنْدَ خَالَ طَنْكَرِي
قَالَ لَهُ، لَمَّا أَرَادَ رُكُوبَ الْبَحْرِ،
وَالْعُودَ إِلَى بِلَادِهِ، لِيُعِيدَ الرُّهَا إِلَى الْقُمَّصِ، إِذَا خَلَصَ
مِنَ الْأَسْرِ، فَأَعَادَهَا عَلَيْهِ طَنْكَرِي تَاسِعَ صَفَرٍ (29 أَيْلُول 1108م) (501/،
وَعَبَرَ الْقُمَّصُ الْفُرَاتَ، لِيُسَلَّمَ إِلَى أَصْحَابِ جَاوَلِي الْمَالِ،
وَالْأَسْرَى، فَأَطْلَقَ فِي طَرِيقِهِ خَلْقًا كَثِيرًا مِنَ الْأَسْرَى مِنْ
حَرَّانَ وَغَيْرِهَا. وَكَانَ يَسْرُوجُ ثَلَاثِمِائَةَ مُسْلِمٍ صَغْفَى،
فَعَمَّرَ أَصْحَابُ جَاوَلِي مَسَاجِدَهُمْ، وَكَانَ رَئِيسُ سُرُوجِ مُسْلِمًا
قَدِ ارْتَدَّ، فَسَمِعَهُ أَصْحَابُ جَاوَلِي يَقُولُ فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا

شَيْعًا، فَصَرَّبُوهُ، وَجَرَى بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفِرْنَجِ سَبَبٌ
نِزَاعٌ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلْقُمَصِ، فَقَالَ: هَذَا لَا يَصْلُحُ لَنَا وَلَا
لِلْمُسْلِمِينَ، فَقَتَلَهُ.

(ذِكْرُ الْحَرْبِ بَيْنَ جَاوَلِي

وَالْفِرْنَجِ)

... وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي

صَفَرٍ (أَيْلُول 1109م/502)،

كَانَ الْمُصَافُّ بَيْنَ جَاوَلِي سَقَاوُو وَبَيْنَ طَنْكَرِي الْفِرْنَجِيِّ،
صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةَ. وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْمَلِكَ رِضْوَانَ (صَاحِبَ حَلَبِ) كَتَبَ إِلَى
طَنْكَرِي، صَاحِبِ أَنْطَاكِيَّةَ، يُعَرِّفُهُ مَا هُوَ جَاوَلِي
عَلَيْهِ مِنَ الْعُدْرِ، وَالْمَكْرِ، وَالْخِدَاعِ، وَبُحْذَرُهُ مِنْهُ،
وَيُعْلِمُهُ أَنَّهُ عَلَى قَصْدِ حَلَبِ، وَأَنَّهُ إِنْ مَلَكَهَا لَا يَبْقَى
لِلْفِرْنَجِ مَعَهُ بِالشَّامِ مَقَامٌ، وَطَلَبَ مِنْهُ التُّصْرَةَ
وَالِاتِّفَاقَ عَلَى مَنَعِهِ. فَأَجَابَهُ طَنْكَرِي إِلَى مَنَعِهِ وَبَرَّرَ
مِنْ أَنْطَاكِيَّةَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رِضْوَانُ سِتِّمَائَةَ فَارِسٍ،
فَلَمَّا سَمِعَ جَاوَلِي الْخَبَرَ أَرْسَلَ إِلَى الْقُمَصِ، صَاحِبِ الرُّهَا،
يَسْتَدْعِيهِ إِلَى مُسَاعَدَتِهِ، وَأَطْلَقَ لَهُ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْ
مَالِ الْمُقَادَاةِ، فَسَارَ إِلَى جَاوَلِي فَلِحَقَ بِهِ، وَهُوَ عَلَى
مَنْبِجٍ، فَوَصَلَ الْخَبَرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، بِأَنَّ

[46]

الْمَوْصِلَ قَدْ اسْتَوْلى عَلَيْهَا السُّلْطَانُ ،

وَمَلَكَوْا خَزَائِنَهُ وَأَمْوَالَهُ، فَاسْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ، وَقَارَقَهُ
كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنْهُمْ أَتَاكَ زَيْكِيُّ بْنُ أَفْسُونُفَرٍ،
وَبِكْتَّاشُ النَّهَاطِيذِيِّ، وَبَقِيَّ جَاوَلِي فِي أَلْفِ قَارِسٍ، وَانْصَمَّ
إِلَيْهِ خَلْقٌ مِنَ الْمُطَوَّعَةِ، فَتَرَلَّ يَتَلَّ بِاشِرَ. وَقَارِبَهُمْ
طَنَكِرِي، وَهُوَ فِي أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ قَارِسٍ مِنَ الْفِرْنِجِ،
وَسِتِّمِائَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْمَلِكِ رِضْوَانَ، سِوَى الرَّجَالَةِ،
فَجَعَلَ جَاوَلِي فِي مِئْمَتِيهِ الْأَمِيرَ أَفْسِيَانِ، وَالْأَمِيرَ
الْثَوْتَّاشَ الْأَبْرِيَّ، وَغَيْرَهُمَا، وَفِي الْمَيْسَرَةِ الْأَمِيرَ
بَذْرَانَ بْنَ صَدَقَةَ، وَأَصْبَهَبَذَ صَبَاوَةَ، وَسُنْفَرَ دِرَازَ، وَفِي
الْقَلْبِ الْقُمَّصَ بَعْدُودِينَ، وَجُوسْلِينَ الْفِرْنِجِيِّينَ، وَوَقَعَتِ
الْحَرْبُ، فَحَمَلَ أَصْحَابُ أَنْطَاكِيَةِ عَلَى الْقُمَّصِ، صَاحِبِ الرُّهَا،
وَاسْتَدَّ الْقِتَالُ، فَأَرَاخَ طَنَكِرِي الْقَلْبَ عَنْ مَوْضِعِهِ،
وَحَمَلَتْ مَيْسَرَةُ جَاوَلِي عَلَى رَجَالِهِ صَاحِبِ أَنْطَاكِيَةِ،
فَقَتَلَتْ مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ هَزِيمَةٍ صَاحِبِ
أَنْطَاكِيَةِ، فَحَبِطَ عَمَدُ أَصْحَابِ جَاوَلِي إِلَى جَنَائِبِ
الْقُمَّصِ، وَجُوسْلِينَ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْفِرْنِجِ، فَرَكِبُوها
وَأَنهَزُوهَا، فَمَضَى جَاوَلِي وَرَاءَهُمْ لِيَتَرَدَّهُمْ، فَلَمْ يَرْجِعُوا،
وَكَانَتْ طَاعَتُهُ قَدْ رَأَتْ عَنْهُمْ حِينَ أُخِذَتِ الْمَوْصِلُ مِنْهُ،
فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُمْ لَا يَعُودُونَ مَعَهُ أَهَمَّهُ تَفْسُهُ، وَخَافَ
مِنَ الْمُقَامِ، فَأَنهَزَهُمْ، وَأَنهَزَهُمْ بَاقِي عِسْكَرِهِ. فَأَمَّا

أَصْبَهْتُ صَبَاوَةَ فَسَارَ نَحْوَ الشَّامِ، وَأَمَّا بَدْرَانُ بْنُ
صَدَقَةَ فَسَارَ إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرٍ، وَأَمَّا ابْنُ جَكْرِمِشْ فَقَصَدَ
جَزِيرَةَ ابْنِ عُمَرَ، وَأَمَّا جَاوِلِي فَقَصَدَ الرَّحْبَةَ، وَقُتِلَ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ خَلْقٌ كَثِيرٌ، وَنَهَبَ صَاحِبُ أَنْطَاكِيَّةَ أَمْوَالَهُمْ
وَأَتَقَالَهُمْ، وَعَظُمَ الْبَلَاءُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفِرْنِجِ، وَهَرَبَ
الْقُمَّصُ وَجُوسَلِينُ إِلَى تَلٍّ بَاشِرٍ وَالتَّجَا خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ، فَقَعَلَا مَعَهُمُ الْجَمِيلَ، وَدَاوَيَا الْجَرْحَى وَكَسَوَا
الْعُرَاةَ، وَسَيَّرَاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ.

تُبرز الصفحات التالية المنقولة عن ابن القلانسي تفاصيل حية ومباشرة عن سقوط مدن الساحل السوري (طرابلس، بيروت، صيدا، كما عن الحصار القائم على صور)، وكذلك عن ردود الفعل التي حدثت داخل عاصمة الإسلام الروحية بغداد على الغزو الإفرنجي وتوسعه. خاصة وأن الرأي العام الإسلامي قد ثار بتأثير من اللاجئين السوريين وبدأ يطالب بعمل عسكري مناسب تقوم به السلطات المركزية (أي الخليفة والسلطان السلجوقي)، التي عادة ما "تعد خيراً".

سقوط طرابلس

(ابن القلانسي 163-164)

وفي شعبان من هذه السنة (502/آذار/مارس 1109م) وصل ريمند بن صنجيل^[47] الذي كان نازلاً على طرابلس من بلاد الإفرنج في جملة ستين مركباً في البحر مشحوناً بالافرنج والجنويين. فنزل على طرابلس ووقع بينه وبين السرداني ابن أخت صنجيل مشاجرة، ووصل طنكري صاحب انطاكية إليه لمعاونته للسرداني، ووصل الملك بغدوين صاحب بيت المقدس في عسكره فأصلح بينهم. وعاد السرداني إلى عرقة ووجد بعض الافرنج في زرعها، فأراد ضربه فضربه الافرنجي فقتله. ولما بلغ الخبر ريمند بن صنجيل، وجّه من تسلم عرقة من أصحابه. ونزل الافرنج بجموعهم وحشدهم على طرابلس، وشرعوا في قتالها ومضايقه أهلها منذ أول شعبان إلى الحادي عشر من ذي الحجة من السنة (6 آذار/مارس-12 آب/أوغست 1109)، وأسندوا أبرجهم إلى السور. فلما شاهد الجند والمقاتلة أهل البلد، سقط في أيديهم وأيقنوا بالهلاك وذلت نفوسهم، لاشتغال اليأس من تأخر وصول الاصطول المصري في البحر والميرة والنجدة. وقد كانت غلة الاصطول أزيحت وسير الريح ترده لما يريد الله تعالى من نفاذ الأمر المقضي. فشدد الافرنج القتال عليها وهجموها من الأبراج فملكوها بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة ليلة خلت من ذي الحجة من السنة (12 تموز/لولية 1109م)، ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر^[48] دار علمها وما كان منها في خزائن أربابها ما لا يحده عدده ولا يحصر فيذكر. وسلم الوالي بها، وجماعة من جنده كانوا التمسوا الأمان قبل فتحها. فلما ملكت أطلقوا ووصلوا إلى دمشق بعد أيام من فتحها، وعوقب أهلها واستصفيت أموالها واستثيرت ذخائرهم من مكانها ونزل بهم أشد البلاء ومؤلم العذاب.

وتقرر بين الافرنج والجنوبيين على أن يكون للجنوبيين الثلاث من البلد وما نهب منه والثلاثان لريمند بن صنجيل وأفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضي به.

وكان طنكري لما لم ينل ما أراد من نصرة السرداني قد عاد ونزل بانياس وافتتحها وأمن أهلها في شوال من السنة (آيار/مايو 1109) ونزل على ثغر جبيل^[49]

وفيه فخر الملك ابن عمار (أمير طرابلس) والقوت فيه نزر قليل. فلهم يزل مضيقاً له ولأهله إلى يوم الجمعة الثاني والعشرين من ذي الحجة (23 تموز/لولية 1109م) فراسلهم وبذل لهم الأمان بينهما. (وبهذا خرج فخر الملك سالماً)، وقد وعده باحسان النظر والاقطاع.

ووصل عقيب ذلك الاصطول المصري ولم يكن خرج للمصريين فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلل لحماية طرابلس وتقويتها بالغلة الكثيرة والرجال والمال لمدة سنة مع تقوية ما في المملكة المصرية من ثغور الساحل وأهله ووصل إلى صور في يوم الثامن من فتح طرابلس وقد فات الأمر فيها للقضاء النازل بأهلها. وأقام بالساحل مدة وفرقت الغلة في جهاتها وتمسك به أهل صور وصيدا وبيروت وشكوا أحوالهم وضعفها عن محاربة الافرنج ولم يمكن الاصطول المقام فأقلع عائداً عند استقامة الريح إلى مصر.

سقوط بيروت

(ابن القلانسي 167-168)

وفي هذه السنة (1109/503-1110) خرج طنكري من أنطاكية في حشده ولقيفه المخدول إلى الثغور الشامية فملك طرسوس وما والاها وأخرج صاحب ملك الروم منها وعاد إلى أنطاكية ثم خرج إلى شيزر وقرر عليها عشرة آلاف دينار مقاطعةً تحمل إليه بعد أن عاث في عملها ونزل على حصن الأكراد فتسلمه من أهله وتوجه إلى عرقة وكان الملك بغدوين وابن صنجيل قد نزلا على ثغر بيروت براً وبحراً فعاد طنكري إلى أنطاكية وسار جوسلين صاحب تل باشر إلى ثغر بيروت لمعاونة النازلين عليه من الافرنج ويستنجد بهم على عسكر الأمير مودود النازلين على الرها. وشرع الافرنج في عمل البرج ونصبه على سور بيروت فحين نجز وزحفوا به كسر بحجارة المناجيق وأفسد فشرعوا في عمل غيره وعمل ابن صنجيل برجاً آخر.

ووصل في الوقت من اصطول مصر في البحر تسعة عشر مركباً حربية فظهروا على مراكب الافرنج وملكوا بعضها ودخلوا بالميرة إلى بيروت فقويت

^[50]

بها نفوس من فيها من الرعية. وأنفذ الملك بغدوين إلى السويدية يستنجد بمن فيها من الجنوية في مراكبهم فوصل منها إلى بيروت أربعون مركباً مشحنةً بالمقاتلة فزحف الافرنج في البر والبحر إليها بأسرهم في يوم الجمعة

21 شوال (13 أيار/مايو 1110)، و[نصبوا] أعلى السور برجين واشتدوا في القتال فقتل مقدم الاصطول المصري وخلق كثير من المسلمين ولم ير الافرنج من ما تقدم وتأخر أشد من حرب هذا. وانخذل الناس في البلد وأيقنوا بالهلاك فهجم الافرنج على البلد آخر نهار هذا اليوم فملكوه بالسيف قهراً وغلبةً. وهرب الوالي الذي كان فيه في جماعة من أصحابه وحمل إلى الافرنج فقتل ومن كان معه وغنموا ما كان استصحبه من المال ونهب البلد وسبي من كان فيه وأسر واستُصفيت أموالهم وذخائرهم. ووصل عقيب ذلك من مصر ثلاثمائة فارس نجدةً لبيروت فحين حصلوا بالاردن خرجت عليهم فرقة من الافرنج يسيرة العدد فانهزموا منهم إلى الجبال فهلك منهم جماعة. فلما تقرر أمر بيروت رحل الملك بغدوين في الافرنج ونزل على ثغر صيدا وراسل أهله يلتمس منهم تسليمه فاستمهلوه مدة عینوها فأجابهم إلى المهلة بعد أن قرر عليهم ستة آلاف دينار تحمل إليه مقاطعةً وكانت قبل ذلك ألفي دينار ورحل عنها إلى بيت المقدس للحج.

سقوط صيدا

(ابن القلانسي 171)

[51]

ووردت الأخبار فيها (1109/503-1110) بوصول بعض ملوك الافرنج في البحر ومعه نيف وستون مركباً مشحونة بالرجال لقصد الحج والغزو في بلاد الاسلام فقصد بيت المقدس وتوجه إليه بغدوين واجتمع معه وتقرر بينهما قصد البلاد الاسلامية. فلما عادا من بيت المقدس نزلا على ثغر صيدا في ثالث شهر ربيع الآخر سنة 504 (19 تشرين أول/أكتوبر 1110) وضابقوه براً وبحراً. وكان الاسطول المصري مقيماً على ثغر صور ولم يتمكن من انجاد صيدا فعملوا البرج وزحفوا به إليها وهو ملبس بحطب الكرم في عدة أيام متفرقة فإذا كان يوم الحرب وقرب من السور زحفوا به وفيه الماء والخل لطفي النار وآلة الحرب.

فلما عاين من بصيدا هذا الأمر ضعفت نفوسهم وأشفقوا من مثل نوبة بيروت فأخرج إليها قاضيتها وجماعة من شيوخها وطلبوا من بغدوين الأمان فأجابهم إلى ذلك وأمنهم العسكرية معهم على النفوس والأموال واطلاق من أرد الخروج منها إلى دمشق واستحلفوه على ذلك وتوثقوا منه وخرج الوالي والزماد وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من أهل البلد وتوجهوا إلى دمشق لعشر بقين من جمادى (الأولى) سنة 504 (4 كانون أول/ديسمبر 1110) وكانت مدة الحصار سبعةً وأربعين يوماً. ورتب بغدوين الأحوال بها والحافظين لها وعاد إلى بيت المقدس ثم عاد بعد مدة يسيرة إلى صيدا فقرر على من

أقام بها نيفاً وعشرين ألف دينار فأفقرهم واستغرق أحوالهم وصادر من علم أن له بقية منهم.

أثر أحداث الشام في بغداد

(ابن القلانسي 173)

وفيها (504/1110) وصل السلطان غياث الدنيا والدين محمد بن ملك شاه من همذان إلى بغداد في جمادى الأولى منها ووردت الكتب والرسائل إليه من الشام بانتهاء الحال وما جرى من الإفرنج بعد عودهم عن الفرات ونوبة صيدا والأثارب وأعمال حلب. ولما كان أول جمعة من شعبان حضر رجل من الأشراف الهاشميين من أهل حلب وجماعة من الصوفية والتجار والفقهاء إلى جامع السلطان ببغداد فاستغاثوا وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسّروه وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج وقتل الرجال وسبي النساء والأطفال، ومنعوا الناس من الصلاة، والخدم والمقدمون يعدونهم عن السلطان، بما يسكنهم من انفاذ العساكر والانتصار للإسلام من الإفرنج والكفار. وعادوا في الجمعة الثانية، المصير إلى جامع الخليفة وفعلوا مثل ذلك من كثرة البكاء والضجيج والاستغاثة والنحيب. ووصلت عقيب ذلك الخاتون السيدة أخت السلطان زوجة الخليفة إلى بغداد من أصفهان ومعها من التجميل والجواهر والأموال والآلات وأصناف المراكب والدواب والأثاث وأنواع الملابس الفاخرة والخدم والغلمان والجوار والحواشي ما لا يدركه حزر فيحصر ولا عد فيذكر، واتفقت هذه الاستغاثة فتكدر ما كان صافياً من الحال والسرور بمقدمها. وأنكر الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين ما جرى وعزم على طلب من كان الأصل والسبب ليوقع به المكروه، فمنعه السلطان من ذلك وعذر الناس فيما فعلوه، وأوعز إلى الأمراء والمقدمين بالعود إلى أعمالهم والتأهب للمسير إلى

[52]

جهاد أعداء الله الكفار .

وفي جمادى الآخرة منها (كانون أول/ديسمبر 1110-كانون ثاني/يناير 1111)

[53]

وصل رسول متملك الروم بهدايا وتحف ومراسلات مضمونها البعث على قصد الإفرنج والإيقاع بهم والاجتماع على طردهم من هذه الأعمال وترك التراخي في أمرهم واستعمال الجد والاجتهاد في الفتك بهم قبل افعال خطبهم واستفحال شرهم، ويقول أنه قد منعهم من العبور إلى بلاد المسلمين وحاربهم، فإن طمعوا فيها بحيث تتواصل عساكرهم وامدادهم إلى البلاد الإسلامية احتاج إلى مداراتهم وإطلاق عبورهم ومساعدتهم على مقاصدهم واغراضهم للضرورات القائدة إلى ذلك ويبالغ في الحث والتحريض على الاجتماع على حربهم وقلعهم من هذه الديار بالاتفاق عليهم.

حصار صور

(ابن القلانسي 178-181)

وفي هذه السنة (1111/505-1112) جمع بغدوين الملك من أمكته جمعه من الافرنج وقصد ثغر صور فبادر عز الملك واليه وأهل البلد بمراسلة ظهير الدين أتابك بدمشق يستصرخون به ويستنجدونه ويبدلون تسليم البلد إليه ويستلونه المبادرة والتعجيل بانفاذ عدة وافرة من الأتراك تصل إليهم سرعة لمعونتهم وتقويتهم وإن تأخرت المعونة عنهم قادتهم الضرورة إلى تسليمه إلى الافرنج

[54]

ليأسهم من نصرة الأفضل صاحب مصر فبادر أتابك بانفاذ جماعة وافرة من الأتراك بالعدد الكاملة تزيد على المائتين فرساناً رماة أبطالاً فوصلت إليهم وأتت أهل صور رجالة كثيرة من صور وجبل عاملة، رغبوا في ذلك مع رجالة من دمشق وصلوا إليهم وحصلوا عندهم وشرع أتابك في إنفاذه عدة أخرى. فحين عرف بغدوين ما تقرر بين أتابك وأهل صور بادر النزول عليها فيمن جمعه وحشده في اليوم الخامس وعشرين من جمادى الأولى سنة 505 (29 تشرين ثاني/نوفمبر 1111) وتقدم بقطع الشجر والنخل وبنى بيوت الإقامة عليها وزحف إليها فقاتلها عدة دفعات ويعود خاسراً لم ينل منها غرضاً وقيل أن أهل صور رشقوا في بضع أيام مقاتلتها في يوم واحد بعشرين ألف سهم.

وخرج ظهير الدين من دمشق حين عرف نزولهم على صور وخيم ببانياس وبث سراياه ورجاله الحرامية في أعمال الافرنج وأطلق لهم النهب والقتل والسلب والأخواب والحرق طلباً لازعاجهم وترحيلهم عنها فتدخل العدة الثانية إلى صور فلم يتمكن من الدخول. ونهض ظهير الدين إلى الحبيس الذي في السواد، وهو حصن منيع لا يُرام، فشد القتال عليه وملكه بالسيف قهراً، وقتل من كان فيه قسراً، وشرع الافرنج في عمل برج خشب للزحف بهما إلى سور صور، وزحف ظهير الدين إليهم عدة دفعات ليشغله بحيث يخرج عسكر صور فيحرق البرجين. وعرف الافرنج قصده في ذلك وخذلوا عليهم من جميع الجهات ورتبوا على الخندق الرجال بالسلاح لحفظه وحفظ الأبراج، ولم يحفلوا بما يفعل وما يجري على أعمالهم من الغارات عليها والفتك بمن فيها. وهجم الشتاء فلم يضر بالافرنج لأنهم كانوا نزولاً في أرض رملية صلبة والأتراك بالصد من ذلك قد كابدوا من مقامهم شدة عظيمة ومشقة مؤلمة إلا إنهم لا يخلون من غارة وفائدة وقطع ميرة عن الافرنج ومادة وأخذ ما يحمل إليهم.

وقطع الأتراك الجسر الذي كان يُعبر عليه إلى صيدا ليقطع المادة أيضاً عنها فعدلوا عند ذلك إلى استدعاء الميرة في البحر من جميع الجهات ففطن ظهير الدين لذلك ونهض في فريق من العسكر إلى ناحية صيدا وغار على ظاهرها فقتل جماعة من البحرية وأحرق تقدير عشرين مركباً على الشط وهو

مع ذلك لا يهمل إصدار الكتب إلى أهل صور بتقوية قلوبهم وتحريضهم على استعمال المصابرة للافرنج والجد في قتالهم.

وتم عمل البرجين وكباشهما التي تكون فيهما في تقدير خمسة وسبعين يوماً وشرع في تقديمهما والزحف بهما في عاشر شعبان (11 شباط/فبراير) وقربا من سور البلد واشتد القتال عليهما وكان طول البرج الصغير منهما نيّفاً وأربعين ذراعاً والكبير يزيد على الخمسين ذراعاً. ولما كان أول شهر رمضان (2 آذار/مارس) خرج أهل صور من الأبراج بالنفط والحطب والقطران وآلة الحرق فلم يتمكنوا من الوصول إلى شيء منهما فألقوا النار قريباً من البرج الصغير بحيث لم يتمكن الافرنج من دفعها فهبت ريح وألقت النار على البرج الصغير فاحترق بعد المحاربة الشديدة عليه والمكافحة العظيمة عنه ونهب

[55]

منه زرديات كثيرة وطوارق وغير ذلك واتصلت النار بالبرج الكبير. واتصل الخبر بالمسلمين بأن الافرنج قد هجروا حربة البلد للاشتغال بحريق البرج واثنوا عن المقاتلة على الأبراج، وشد الافرنج عليهم وكشفوهم عن البرج واطفأوا ما علق به من النار ورتبوا عدة وافرة من أبطالهم لحفظ البرج والمنجنيقات من جميع الجهات.

وواظبوا الزحف إليها إلى آخر شهر رمضان، وقربوا البرج إلى بعض أبراج البلد وطموا الثلاثة الخنادق التي أمامه، وعمد أهل البلد إلى تعليق حائط البرج

[56]

الذي بإزاء برج الافرنج وأطلقوا النار فيه، فاحترق التعليق وسقط وجه الحائط في وجه البرج، فمنع من تقديمه إلى السور والزحف به وصار الموضع الذي قصدوه قصيراً، وأبراج البلد تحكم عليه، وبطل تقديمه من ذلك الوجه، وكشف الافرنج الردم وجروه إلى برج آخر من أبراج البلد ودفعوه إليه وقربوه من سور البلد، وصدموا بالكباش التي فيه السور، فزعزعوه، ووقع منه شيء من الحجارة، وأشرف أهل البلد على الهلاك. فعمد رجل من مقدمي البحرية، عارف بالصناعة من أهل طرابلس له فهم ومعرفة بأحوال الحرب، إلى عمل كلاليب حديد لمسك الكباش إذا نطج به السور من رأسه ومن جانبه، بحبال يجذبها الرجال حتى يكاد البرج الخشب يميل من شدة جذبهم بها، فتارةً تكسره الافرنج خوفاً من البرج، وتارةً يميل أو يفسد، وتارةً ينكسر بصخرتين تلقيان عليه من البلد مشدودة احدهما إلى الاخرى. فعملوا عدة من الكباش وهي تكسر على هذه الصفة واحداً بعد واحد، وكان طول كل واحد منها ستين ذراعاً معلقاً في البرج الخشب بحبال، في رأس كل واحد من الكباش حديد يزيد وزنه على عشرين رطلاً. فلما طال تجديد الكباش وقربوا البرج من السور عمد هذا الرجل البحري المقدم ذكره إلى خشبة طويلة جافية قوية أقامها في برج البلد الذي بإزاء برج الافرنج وفي رأسها خشبة على شكل

[57]

الصليب طولها أربعون ذراعاً تدور على بكر بلولب كيف ما أراد متوليها على

مثال ما يكون في الصواري البحرية وفي طرف الخشبة التي تدور سهم حديد وفي طرفها الآخر حبال مدارة بها على ما يريد متوليها، وكان يرفع فيها جرار الكدر والنجاسة ليشغلهم بطرح ذلك عليهم في البرج عن الكباش. وضاق الأمر بالناس وشغلهم ذلك عن أمورهم وأشغالهم وعمد البحري المذكور إلى سلال العنب والقفاف فيجعل فيها الزيت والقيرو السراقة والقلفونية وقشور القصب ويطلق فيها النار فإذا علقت بذلك وقع ذلك في الآلة المذكورة حتى يوازي برج الافرنج فتقع النار في أعلى البرج فيبادروا باطفائها بالخل والماء، فيبادر برفع أخرى، ومع هذا يرمي أيضاً بالزيت المغلي في قدور صغار على البرج فيعظم الوقيد. فلما كثرت النار وحمل بعضها بعضاً وقويت قهرت الرجلين المتولين لرأس البرج، وقتل أحدهما وانهزم الآخر ونزل منه فتمكنت النار من رأسه ونزلت إلى الطبقة الثانية من رأسه ثم إلى الوسطى وعملت في الخشب وقهرت من كان حوله في الطبقات وعجزوا عن اطفائها، وهرب كل من فيه وحوله من الافرنج، وخرج أهل صور إليه فنهبوا ما فيه وغنموا من السلاح والآلات والعدد ما لا يحده وصف.

فعند ذلك وقع يأس الافرنج منه وشرعوا في الرحيل عنه وأحرقوا البيوت التي كانوا قد عمروها في المنزل لسكناهم وأحرقوا كثيراً من المراكب التي كانت لهم على الساحل لأنهم كانوا أخذوا صواريخها وأرجلها وآلاتها للأبراج وكانت عدتهم تقدير مائتي مركب كباراً وصغاراً منها تقدير ثلاثين مركباً حربية وحملوا في بعضها ما خف من أثقالهم ورحلوا في العاشر من شوال من السنة (10 نيسان/ابريل 1112) وكانت مدة إقامتهم على محاصرة صور أربعة أشهر ونصف شهر. وقصدوا عكا وتفرقوا إلى أعمالهم. وخرج أهل صور وغنموا ما ظفروا به منهم، وعادت الأتراك المندوبون لاسعادهم إلى دمشق، وقد فقد

[58]

منهم في الحرب نحو عشرين رجلاً وكان لهم فيها الجراية^[58] والواجب في كل شهر. ولم يتم على برج من أبراج الافرنج في القديم والحديث مثل ما تم على هذا البرج من إحراقه من رأسه إلى أسفله والذي أعان على هذا هو تساوي

[59]

البرجين في الارتفاع ولو طال أحدهما على الآخر لهلك أقصرهما. وكان عدد المفقودين من أهل صور أربعمائة نفس ومن الافرنج في الحرب أيضاً على ما حكى الحاكي العارف تقدير ألفي نفس. ولم يف أهل صور بما كانوا بذلوه لظهير الدين أتابك من تسليم البلد إليه ولم يظهر لهم في ذلك قولاً وقال: "إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين لا لرغبة في مال ولا مملكة". فكثر الدعاء له والشكر بحسن فعله ووعدهم أنه متى دهمهم خطب مثل هذا سارع إليه وبألف في المعونة عليه، وعاد إلى دمشق بعد مكابدة المشقة في مقابلة الافرنج إلى أن فرج الله عن أهل صور. وشرع أهل صور في ترميم ما شعثه

الافرنج من سورها وأعادوا الخنادق إلى حالها ورسّمها بعد طمتها وحصنوا البلد
وتفرّق من كان فيه من الرجال^[60] .

لكن اول ضربة قاسية على الفرنجة لم تأت من بغداد، بل جاءت بعد ان تحرك كل من إيلغازي امير ماردين وأتابك دمشق طغتكين. فقد فاجأ إيلغازي عام 1911 في بلاط (أو سرمدا شرق حلب) الأمير النورماندي روجر صاحب انطاكية فهزمه شر هزيمة وقتله. وفيما يلي رواية حول هذه الحادثة كتبها المؤرخ الحلبي كمال الدين، وهو الذي تابع أحداثها بصورة مباشرة وقدم لنا صدى صادقاً عنها. نورد بعد ذلك رواية ابن القلانسي الذي لم يفته أن يشير إلى عدم انتهاز المسلمين فرصة استعادة انطاكية رغم أنها كانت آنئذ سهلة المنال.

(كمال الدين 190-2/187)

هزيمة سرجال صاحب إنطاكية وموته

(وقعة تل عفرين)

وتوجه إيلغازي إلى ماردين ومعه أتابك (طغتكين)، وراسلا من بَعْدَ وقْرُب من عساكر المسلمين والتركماني، فجمعوا عسكرياً عظيماً، وتوجه إيلغازي في عسكر يزيد عن أربعين ألفاً في سنة ثلاث عشرة وخمسمائة، وقطع الفرات من عُبْرٍ بدايا وسنجة .

وامتدت عساكره في أرض تل باشر وتل خالد وما يقاربهما، يقتل وينهب ويأسر، وغنموا كل ما قدروا عليه. ووصل من رسل حلب من يستحثه على الوصول لتواصل غارات الفرنج من جهة الأثارب، وأياس أهلها من أنفسهم، فسار إلى مرج دابق ثم إلى المسلمية، ثم إلى قنسرين في أواخر صفر من سنة ثلاث عشرة وخمسمائة (حزيران/يونية 1119).

وسارت سراياه^[62] في أعمال الروج والفرنج يقتلون ويأسرون، وأخذوا

حصن قسطنطين في الروج، وجمع سرجال^[63] صاحب أنطاكية الفرنج والأرمن وغيرهم، وخرج إلى جسر الحديد (على العاصي)، ثم رحلوا ونزلوا بالبلاط بين

جبلين، مما يلي درب سرمدا^[64] ، شمالي الأثارب، وذلك في يوم الجمعة التاسع من شهر ربيع الأول (20 حزيران/يونية 1119).

وضجر الأمراء من طول المقام، وإيلغازي ينتظر أتابك طغتكين ليصل إليه ويتفقا على ما يفعلانه، فاجتمعوا وحثوا إيلغازي على مناجزة العدو فجدد إيلغازي الأيمان على الأمراء والمقدمين أن يناصحوا في حربهم، ويصابروا في

قتال العدو، وأنهم لا ينكلون ويبذلون مهجهم في الجهاد، فحلفوا على ذلك بنفوس طيبة.

وسار المسلمون جرايد، وخلفوا الخيام بقنسرين، وذلك في يوم الجمعة السادس عشر من شهر ربيع الأول (27 حزيران/يونية 1119)، فباتوا قريباً من الفرنج وقد شرعوا في عمارة حصن مطل على تل عفرين والفرنج يتوهمون أن المسلمين ينزلون الأثارب أو زُرْدَنَا، فما شعروا عند الصبح إلا ورايات المسلمين قد أقبلت، وأحاطوا بهم من كل جانب.

وأقبل القاضي أبو الفضل بن الخشاب يحرض الناس على القتال، وهو راكب على حجر ويده رمح، فرآه بعض العسكر فازدراه وقال: "إنما جئنا من بلادنا تبعاً لهذا المعمم"^[65]! فأقبل على الناس، وخطبهم خطبة بليغة استنهض فيها عزائمهم، واسترهدف همهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم.

ودار طغان أرسلان بن دملاج^[66] من ورائهم ونزل في خيامهم، وقتل من فيها ونهبها، وألقى الله النصر على المسلمين، وصار من انهزم من الفرنج وقصد الخيام قُتل.

وحمل الترك بأسرهم حملة واحدة من جميع الجهات صدقوهم فيها، وكانت السهام كالجراد، ولكثرة ما وقع في الخيل والسواد من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها، وطحنت الرجالة والأتباع والغلمان بالسهام، وأخذوهم بأسرهم أسرى.

وقتل سرجال في الحرب^[67]، وفقد من المسلمين عشرون نفرًا (فقط!) منهم سليمان بن مبارك بن شبل، وسلم من الفرنج مقدار عشرين نفرًا لا غير، وانهزم جماعة من أعيانهم وقتل في المعركة ما يقارب خمسة عشر ألفاً من الفرنج، وكانت الوقعة يوم السبت (28 حزيران/يونية). وقت الظهر، فوصل البشير إلى حلب بالنصر، والمصاف قائم، والناس يصلون صلاة الظهر بجامع حلب، سمعوا صيحة عظيمة بذلك من نحو الغرب، ولم يصل أحد من العسكر إلى نحو صلاة العصر.

وأحرق أهل القرى القتلى من الفرنج، فوجد في رماد فارس واحدٍ أربعون نصل نشاب، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال، وحمل إليه المسلمون ما غنموه، فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه لملوك الإسلام، ورد عليهم ما حملوه بأسره.

ولما حضر الأسرى بين يدي إيلغازي، كان فيهم رجل عظيم الخلقة مشتهراً بالقوة، وأسرته رجل ضعيف قصير قليل السلاح، فلما حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان: أما تستحي بأسرك مثل هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد. فقال: والله ما أخذني هذا، ولا هو مولاي وإنما أخذني رجل عظيم

أعظم مني وأقوى، وسلمني إلى هذا وكان عليه ثوب أخضر وتحتة فرس
أخضر.^[68]

(ابن القلانسي 1/200)

ولما وصل ظهير الدين أتابك إلى حلب للاجتماع مع نجم الدين (إيلغازي) على الأمر المقرر بينهما بعد مضي الأجل المعين عليه بتدبيرهما وجد التركمان قد اجتمعوا إليه من كل فج وكل صوب في الأعداد الدثرة الوافرة والقوة الظاهرة كأنهم الأسود تطلب فريسها والشواهين إذا حامت على مكاسرها. ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب انطاكية منها في من جمعه وحشده من طوائف الافرنج ورجالة الأرمن من سائر أعمالهم وأطرافهم بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل سوى الأتباع وهو العدد الكثير في أتم عدة وأكمل شبكة وإنهم قد نزلوا في الموضع المعروف بشرمدا، وقيل دانيث البقل بين انطاكية وحلب. فحين عرف المسلمون ذلك طاروا إليهم بأجنحة الصقور إلى حماية الوكور، فما كان بأسرع من وقوع العين، وتقارب الفريقين حتى حمل المسلمون عليهم وأحاطوا بهم من جميع الجهات وسائر الجنبات، ضرباً بالسيوف ورشقاً بالسهام. ومنح الله تعالى -وله الحمد - حزب الاسلام النصر على المردة الطغام، ولم تمض ساعة من نهار يوم السبت السابع من شهر ربيع الأول من سنة 513 (28 حزيران/يونية 1118) إلا والافرنج على الأرض سطحةً واحدةً فارسهم وراجلهم بخيلهم وسلاحهم بحيث لم يفلت منهم شخص يخبر خبرهم، ووجد مقدمهم روجير صريعاً بين القتلى. ولقد حكي جماعةً من المشاهدين لهذه الواقعة إنهم طافوا في مكان هذه المعركة لينظروا آية الله تعالى الباهرة وإنهم شاهدوا بعض الخيول مصرعةً كالقنافذ من كثرة النشاب الواقع فيها. وكان هذا الفتح من أحسن الفتوح والنصر الممنوح لم يتفق مثله للاسلام في سالف الأعوام ولا الآنف من الأيام. وبقيت انطاكية شاغرة خاليةً من حمايتها ورجالها خاوية من كماتها وأبطالها فريسة الواهب نهزة الطالب، فوقع التغافل عنها لغيبة ظهير الدين أتابك عن هذه الواقعة لتسرع التركمان إليها من غير تأهب لها للأمر النافذ والقدر النازل واشتغال الناس باحراز الغنائم التي امتلأت بها الأيدي وقويت بها النفوس وسرت بحسنها القلوب فتلك بيوتهم خاويةً^[69] والحمد لله رب العالمين.

صفات بغدوين الثاني وموته

(ابن القلانسي 233)

في هذه السنة (1131-526/1132) ورد الخبر من ناحية الافرنج بهلاك بغدوين الرويس ملك الافرنج صاحب بيت المقدس بعكا في يوم الخميس^[70]

الخامس والعشرين من شهر رمضان منها (8 آب/اغسطس 1132) وكان شيخاً قد عرّكه الزمان بحوادثه وعانى الشدائد من نوائبه وكوارثه ووقع في أيدي المسلمين عدة وقعات أسيراً في محارباته ومصافاته، وهو يتخلص منهم بحيله المشهورة، وخدعه المخبورة، ولم يخلف فيهم بعده صاحب رأي صائب^[71] ولا تدبير صالح. وقام فيهم بعده الملك القومص الجديد الكندايجور^[71]، الواصل إليهم في البحر من بلادهم، فلم يتسدد في رأيه، ولا أصاب في تدبيره، فاضطربوا لفقده واختلفوا من بعده.

بدأ الهجوم الإسلامي المعاكس بصورة

فعلية حقيقية عندما دخل مسرح الأحداث اتابك الموصل وحلب نور الدين زنكي، التركي

الأصل، (والذي حكم بين 1129-1146).

وقد لقيت مواقف أبي نور الدين الحربية أصداء احتفالية لدى ابن الأثير الذي كان

موظفاً ومؤرخاً مخلصاً للسلالة الزنكية التي لم يطل حكمها في بلاد ما بين النهرين

وسورية: لقد هيأت الأقدار لزنكي- بحسب الرؤية الدينية الأثيرية للتاريخ - وراثه

طغتكين دمشق الذي توفي عام 1128 بعد أن كان أول خصم معتبر للصليبيين.

زنكي،

قائد هَيْئَتِهِ الأقدار لنصرة الإسلام في سورية

(ابن

الأثير 10/458)

وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى

مَنْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِمُلْكٍ أَتَابِكَ بِلَادِ الشَّامِ، لَمَلَكَهَا

الْفِرْنَجُ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْضُرُونَ بَعْضَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ،

وَإِذَا عَلِمَ ظَهِيرُ الدِّينِ طُغْتَكِينَ بِذَلِكَ جَمَعَ عَسَاكِرَهُ،

وَقَصَدَ بِلَادَهُمْ وَحَصَرَهَا، وَأَغَارَ عَلَيْهَا، فَيَصْطَلُّ الْفَرِجُ
إِلَى الرَّجِيلِ لِدَفْعِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ، فَقَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى
أَنَّهُ تُؤَقَّبُ هَذِهِ السَّنَةُ (522/1128)،

فَحَلَّ لَهُمُ الشَّامُ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ مِنْ رَجُلٍ يَقُومُ بِضَرَةِ
أَهْلِهِ، فَلَطَفَ اللَّهُ بِالْمُسْلِمِينَ بِوِلَايَةِ عِمَادِ الدِّينِ (زُكِّي)،
فَفَعَلَ بِالْفَرِجِ مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

ذَكَرَ مُلْكُ زُكِّي قَلْعَةَ

بَغْرَيْنَ (حصن الفرنجة) وَهَزِيمَةَ الْفَرِجِ

(ابن

الأثير 11/3334) وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي

سَوَّالٍ (531/تموز/لولية

1137) سَارَ أَتَابَكُ

[72]

زُكِّي مِنَ الْمُوصِلِ إِلَى الشَّامِ، وَحَصَرَ قَلْعَةَ بَغْرَيْنَ ،
وَهِيَ ثِقَارِبُ مَدِينَةِ حَمَاةَ، وَهِيَ مِنْ أَمْنِ مَعَاقِلِ الْفَرِجِ،
وَأَخَصَّنَهَا، فَلَمَّا تَزَلَّ عَلَيْهَا قَاتِلُهَا وَرَحَفَ إِلَيْهَا،

فَجَمَعَ الْفَرِجُ فَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ، وَسَارُوا فِي قَصْبِهِمْ
وَقَضِيضِهِمْ وَمُلُوكِهِمْ وَقَمَامِصَتِهِمْ وَكُنُودِهِمْ إِلَى أَتَابَكُ
زُكِّي لِيُرْخِّلُوهُ عَنْ بَغْرَيْنَ، فَلَمْ يَرْحَلْ، وَصَبَرَ لَهُمْ إِلَى
أَنْ وَصَلُوا إِلَيْهِ، فَلَقِيَهُمْ وَقَاتَلَهُمْ أَشَدَّ قِتَالٍ رَأَهُ

النَّاسُ، وَصَبَرَ الْفَرِيقَانِ، ثُمَّ أَجَلَّتِ الْوَقْعَةُ عَنْ هَزِيمَةِ
الْفَرِيقِ، وَأَخَذَتْهُمْ سُيُوفُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ،

[73] وَاحْتَمَى مُلُوكُهُمْ ،

وَفُزَّ سَائِهِمْ بِحِصْنِ بَغْرَيْنَ لِقُرْبِهِ مِنْهُمْ، فَحَصَرَهُمْ زُنْكِى
فِيهِ، وَمَنَعَ عَنْهُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْأَخْبَارِ، فَكَانَ مَنْ يَه
مِنْهُمْ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ بِلَادِهِمْ لِشِدَّةِ صَبْطِ
الطَّرِيقِ وَهَيْبَتِهِ عَلَى جُنْدِهِ.

ثُمَّ إِنَّ الْقُسُوسَ

وَالرُّهْبَانَ دَخَلُوا بِلَادَ الرُّومِ وَبِلَادَ الْفَرِيقِ وَمَا وَالَاهَا
مُسْتَنْفِرِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَأَعْلَمُوهُمْ أَنَّ زُنْكِى إِنْ أَخَذَ
قَلْعَةَ بَغْرَيْنَ وَمِنْ فِيهَا مِنَ الْفَرِيقِ مَلَكَ جَمِيعَ بِلَادِهِمْ
فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسَ لَهُمْ هِمَّةٌ إِلَّا قَصْدُ
الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَحِينَئِذٍ اجْتَمَعَتِ النَّصْرَانِيَّةُ، وَسَارُوا

[74] عَلَى الصَّغْبِ وَالذَّلُولِ، وَقَصَدُوا الشَّامَ ،

وَكَانَ مِنْهُمْ مَا تَذَكَّرُهُ. وَأَمَّا زُنْكِى فَإِنَّهُ جَدَّ فِي قِتَالِ
الْفَرِيقِ فَصَبَرُوا، وَقَلَّتْ عَلَيْهِمُ الدَّخِيرَةُ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا
غَيْرَ مُسْتَعِدِّينَ، وَلَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَحَدًا يَقُومُ
عَلَيْهِمْ، بَلْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ مُلْكَ بَاقِي الشَّامِ، فَلَمَّا
قَلَّتِ الدَّخِيرَةُ أَكَلُوا دَوَابَّهُمْ، وَأَذَعُوا بِالنَّسْلِيمِ

لِيُؤْمِنُوا بِهِمْ وَيُنْزِلُ اللَّهُ سُلُوكَهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ، فَلَمْ يُجِبْهُمْ
إِلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا سَمِعَ بِاجْتِمَاعِ مَنْ بَقِيَ الْفَرِيجُ، وَوُضُولِ
مَنْ قَرَّبَ إِلَيْهِمْ، أُعْطِيَ لِمَنْ فِي الْحِصْنِ الْأَمَانُ، وَقَرَّرَ
عَلَيْهِمْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ يَحْمِلُونَهَا إِلَيْهِ، فَأَجَابُوهُ
إِلَى ذَلِكَ فَأَطْلَقَهُمْ، فَخَرَجُوا وَسَلَّمُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا
فَارَقُوهُ بَلَغَهُمْ اجْتِمَاعُ مَنْ اجْتَمَعَ بِسَبَبِهِمْ، فَتَدِمُوا عَلَى
النَّسْلِيمِ حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدَمُ، وَكَانَ لَا يَصِلُهُمْ شَيْءٌ
مِنَ الْأَخْبَارِ الْبَتَّةَ؛ فَلِهَذَا سَلَّمُوا.

وَكَانَ رُكْبِي فِي مُدَّةٍ

مُقَامِهِ عَلَيْهِمْ قَدْ فَتَحَ الْمَعَرَّةَ وَكَفَرَطَابَ مِنَ الْفَرِيجِ
فَكَانَ أَهْلُهُمَا وَأَهْلُ سَائِرِ الْوِلَايَاتِ الَّتِي بَيْنَ حَلَبَ
وَحِمَاةَ مَعَ أَهْلِ بَغْرَيْنَ فِي الْخَرْي؛ لِأَنَّ الْحَرْبَ بَيْنَهُمْ
قَائِمَةٌ عَلَى سَاقٍ، وَالنَّهْبُ وَالْقَتْلُ لَا يَزَالُ بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا
مَلَكَهَا أَمِنَ النَّاسُ، وَعَمِرَتِ الْبِلَادُ، وَعَظُمَ دَخْلُهَا، وَكَانَ
فَتْحًا مُبِينًا، وَمَنْ رَأَاهُ عِلِمَ صِحَّةَ قَوْلِي. وَمِنْ أَحْسَنِ
الْأَعْمَالِ وَأَعْدَلِهَا مَا عَمِلَهُ رُكْبِي مَعَ أَهْلِ الْمَعَرَّةِ،
فَإِنَّ الْفَرِيجَ لَمَّا مَلَكَوا الْمَعَرَّةَ كَانُوا قَدْ أَخَذُوا
أَمْوَالَهُمْ وَأَمْلاكَهُمْ، فَلَمَّا فَتَحَهَا رُكْبِي الْآنَ حَصَرَ مَنْ
بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا وَمَعَهُمْ أَغْقَابُ مَنْ هَلَكَ، وَطَلَبُوا
أَمْلاكَهُمْ، فَطَلَبَ مِنْهُمْ كُتُبَهَا، فَقَالُوا: إِنَّ الْفَرِيجَ

أَحْذُوا كُلَّ مَا لَنَا، وَالْكَتَبَ الَّتِي لِلْأَمْلَاقِ فِيهَا. فَقَالَ: اطْلُبُوا دَقَائِرَ حَلَبَ، وَكُلَّ مَنْ عَلَيْهِ خَرَاخٌ عَلَى مِلْكٍ

يُسَلِّمُ إِلَيْهِ، فَفَعَلُوا ذَلِكَ، وَأَعَادَ عَلَى النَّاسِ أَمْلَاكَهُمْ،
وَهَذَا مِنْ أَحْسَنِ الْأَفْعَالِ وَأَعْدَلِهَا.

التحالف

الإفرنجي - الدمشقي ضد زنكي

(ابن

القلانسي 73-270)

وفي أول هذه السنة المباركة مستهل

المحرم (1139/534-1140)^[75] ورد

الخبر بفراغ عماد الدين أتابك من ترتيب أمر بعلبك وقلتها وترميم ما تشعث منها

وشروعه في التأهب للنزول على مدينة دمشق لمضايقتها وورد عقيب ذلك الخبر برحيله

عنها في العسكر ونزوله في البقاع^[76] في

شهر ربيع الأول منها (تشرين أول/أكتوبر

1139) وأنفذ رسوله إلى

الأمير جمال الدين محمد بن تاج الملوك بوري بن أتابك^[77] صاحبها

في التماس تسليم البلد إليه ويعوض عنه بما يقع الاختيار والاقتراح عليه فلم يجب

إلى ما رغب فيه فرحل عن البقاع ونزل على داريا ظاهر دمشق في يوم
الأربعاء ثالث عشر

ربيع الآخر منها (6 كانون ثاني/يناير).

وكان عند نزوله على داريا قد التفت الطلائع فظفر بجماعة وانهزم الباقون
إلى البلد

وزحف بعد ذلك إلى البلد في عسكر من ناحية المصلى^[78] في

يوم الجمعة الثامن وعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة فظفر بجماعة
وأفرة من أحداث

البلد والغوطة وأطلق السيف فيهم فممنهم من مضى قتيلاً وأسيراً ومنهم من
عاد إلى

البلد سالماً وجريحاً وأشرف البلد في هذا اليوم على الهلاك لولا لطف الله
تعالى

وعاد إلى مخيمه بمن أسر بعد من قتل وأمسك أياماً عن الحرب^[79].

وتابع المراسلة والتلطف في تسليم البلد وأخذ العوض عنه بعلمك وحمص وما
يقترح معهما

فأثر جمال الدين محمد بن تاج الملوك الدخول في هذا الأمر لما فيه من
الصلاح وحقن

الدماء وعمارة الأعمال وسكون الدهماء وإبادة غيره عند الاستشارة فيه
وجعل يزحف

بعسكره في أيام متفرقة بحيث لم يصدق في القتال ولا بالغ في التضيق
والنزال

اشفاقاً من سفك الدماء كالكاف المسالم والمتأنى في الوقائع والمغانم.
وابتداً بجمال

الدين محمد ابن تاج الملوك مرض اتصل به في جمادى الأولى من السنة
فصار يخف تارة

ويثقل ويمضي ويعود ويقل ويزيد إلى أن اشتد به اشتداداً وقع اليأس معه منه
ولم يكن

له فيه طيب ولا راق ولم يزل على هذه الحال إلى أن قضى محتوم نحبه وصار
إلى رحمه

ربه في ليلة الجمعة الثامن من شعبان منها (29 آذار/مارس

1140) في الوقت الذي أصيب

فيه أخوه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك رحمهما الله فعجب الناس من
ذلك واتفاق

الوقت والساعة وسبحوا الله وقدموه وجهز ودفن في تربة جدته
بالفراديس .^[80]

فاجتمع رأي المقدمين وأصحاب الأمر

من بعده على سد ثلثة فقدمه بنصب ولده الأمير عضد الدولة أبي سعيد آبق بن
جمال الدين

محمد في مكانه وأخذت له بذلك الوعود المؤكدة بالايامن المشددة على
الاخلاص في

الطاعة والصدق في الخدمة والمناصحة فاستقام الأمر وصلاح التدبير وزال
الخلف وسكنت

الأمر بعد اضطرابها وقرت النفوس بعد استيحاشها. وحين عرف عماد الدين
أتاك هذه

القضية زحف في عسكره إلى البلد طامعاً في خلف يجري بين المقدمين
بوفاته فينال به

بعض طلباته فكان الأمر بالضد مما أمل والحال بالعكس فيما ظن ولم يصادف من أجناد

دمشق وأحداثها إلا الثبات على القراع والصبر على المناوشة والمصاع فعاد منكفئاً

إلى عسكره وقد ضعفت نفسه وضاق لهذا الأمر صدره. وقد كان تقرر الأمر مع الافرنج على

الاتفاق والاعتضاد والمؤازرة والاسعاد والامتزاج في دفعه والاختلاط في صده عن

مراده ومنعه ووقعت المعاهدة على ذلك بالأيمان المؤكدة والضمان للوفاء بما بذلوه

والتمسوا على ذلك مالا معيناً يحمل إليهم ليكون عوناً لهم على ما يحاولونه وقوة

ورهاناً تسكن بها نفوسهم وأجيبوا إلى ذلك وحمل إليهم المال والرهائن من أقارب

المقدمين وشرعوا في التأهب للانجاد والاستعداد للمؤازرة والاسعاد وكاتب بعضهم

بعضاً بالبعث على الاجتماع من سائر المعاقل والبلاد على ابعاد أتابك وصده عن نيل

الأرب من دمشق والمراد قبل استفحال أمره واعضال خطبه وقوة شوخته واستظهاره على عصب

الافرنج وقصد بلادهم.

فحين تيقن صورة الحال في هذا العزم

وتجمعهم لقصده مع عسكر دمشق رحل عن منزله بداريا في يوم الأحد الخامس من شهر رمضان

طالباً ناحية حوران للقاء الافرنج إن قربوا منه وطلبهم إن بعدوا عنه وأقام على هذا

[81] الاعتزام مدةً ثم عاد إلى ناحية غوطة دمشق ونزل

بعذراء يوم الأربعاء لست بقين من شوال (12 حزيران/يونية)

فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة إلى حرسنا التين ورحل يوم السبت تالي متشاملاً

حين تحقق نزول الافرنج بالمدان في جموعهم. وكان الشرط مع الافرنج أن يكون في جملة

المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغت وتسليمها إليهم فاتفق أن

ابراهيم بن طرغت واليه كان قد نهض من أصحابه إلى ناحية صور للاغارة عليها فصادفه

[82] ريمند صاحب

أنطاكية في قصده واصلاً إلى اسعاد الافرنج على انجاد أهل دمشق فالتقيا فكسره وقتل

في الوقعة ومعه نفر يسير من أصحابه وعاد من بقي منهم إلى بانياس فتحصنوا بها

وجمعوا إليها رجال وادي التيم وغيرهم ومن أمكن جمعه من الرجال للذب عنها والمراعاة

[83] دونها فنهض إليها الأمير معين الدين في

عسكر دمشق ونزل عليها ولم يزل محارباً بالمنجنقات ومضايقاً لها بأنواع المحاربات

ومعه فريق وافر من عسكر الافرنج عامة شوال (ايار-حزيران/مايو-يونية

وورد الخبر بأن الأمير عماد الدين

أتاك قد نزل على بعلبك وأنفذ يستدعي التركمان من مطانهم كذا في شوال
لقصد بانياس

ودفع المنازلين لها عنها ولم تزل الجالية جارية على هذه القضية إلى آخر ذي
الحجة

من السنة.

... ولم تزل بانياس على حالها في

المضايقة والمحاصرة إلى أن نفذت منها الميرة وقل قوت المقاتلة فسلمت
إلى معين

الدين وعوض عنها الوالي الذي كان بها بما أرضاه من الاقطاع والاحسان
وسلمها إلى

الافرنج ووفى لهم بالشروط ورحل عنها منكفئاً إلى دمشق ظافراً بأمله خامداً
لعمله

في أواخر شهر شوال.

وفي صبيحة يوم السبت السابع من ذي

القعدة من السنة (22 حزيران/يونية)

حصل عماد الدين أتابك بعسكره جريدةً بظاهر دمشق ووصل المصلى وقرب
من سور البلد ولم

يشعر به أحمد لكون الناس في أعقاب نومهم فلما تبج الصباح وعرف خبره
علت الجلبة

والصياح ونفر الناس واجتمعوا إلى الأسوار وفتح الباب وخرجت الخيل
والرجالة وكان قد

فرق عسكره إلى حوران والغوطة والمرج وسائر الأطراف للغارة ووقف هو
في خواصه بازاء

عسكر دمشق بحيث لا يمكن أحداً من أصحابه في اتباع أحد من خيله المغيرة
ونشبت الحرب

بينه وبين عسكر دمشق وخرج من الفريقين جملة وافرة وأحجم عنهم
لاشتغاله بمن بثه من

سراياه في الغارات وحصل في أيديهم من خيول الجشار^[84] والأغنام

والأحمال والأبقار والأثاث ما لا يحصى كثرةً لأنهم جاءوا على غفلة وغرة ونزل
من

يومه بمرج راهط إلى أن اجتمعت الرجال والغنائم وسار عائداً على الطريق
الشمالية

بالغنائم الدثرة المتناهية في الكثرة.

بعد أن خاب أمله في دمشق استعاد زنكي

الرجاء بفتح الرها (1144) وتحطيم مقاطعتها المحلية، فأصبحت أول مازال من الدويلات النصرانية الأربع التي

نشأت خلال الحملة الأولى. نورد في البداية صفحات من ابن القلانسي ثم من ابن الأثير

الذي، وإن كتب بأسلوب الحكايات والنوادر، فإنه ينطلق هنا أيضاً من الحوادث اليومية

المحلية ليلقي نظرة شاملة أوسع على مسرح الصراع القائم بين الغرب والاسلام. غير أن

زنكي مالبث أن قُتل بعد عامين على تحقيق ذاك الانتصار وهو يحارب ضد غيره من

المسلمين. وقد ورث برنامجه السياسي-العسكري ابنه نور الدين سلطان حلب. نرى هنا أن

مدائح ابن الأثير لزنكي تبين- بعيداً عن الظلال العاطفية- السمات التاريخية الهامة

التي كانت تميز هذه الشخصية العظيمة.

زنكي

يفتح الرها

(ابن القلانسي 80-279)

وفي هذه السنة (539/1144) وردت الأخبار من ناحية الشمال بأن الأمير عماد الدين أتابك افتتح مدينة الرها

بالسيف مع ما هي عليه من القوة والحصانة والامتناع على قاصديها والحماية على

طالبها من العساكر الجمة ومنازلتها، وأن السبب في ذلك أن الأمير عماد الدين أتاك

لم يزل لها طالباً وفي تملكها راعياً ولانتهاز الفرصة فيها مترقباً لا يبرح ذكرها جائلاً في خلدته وسره وأمرها ماثلاً في خاطره وقلبه إلى أن عرف أن جوسلين (الثاني) صاحبها

قد خرج منها في جل رجاله وأعيان حماته وإبطاله لأمر اقتضاه وسبب من أسباب إلى

البعد عنها دعاه للأمر المقضي والقدر النازل فحين تحقق ذاك بادر بقصدها وسارع إلى

النزول في العسكر الدثر عليها لمضايقتها والحصار لمن فيها وكاتب طوائف التركمان

بالاستدعاء لهم للمعونة عليها والاسعاد وأداء فريضة الجهاد فوصل إليه منهم الخلق

الكثير والجم الغفير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات وحالوا بينها وبين ما يصل

إليها من المير والأقوات والطائر لا يكاد يقرب منها خوفاً على نفسه من صوائب سهام

منازلها ويقظة المضيقين عليها ونصب على أسوارها المناجيق ترمي عليها دائماً

والمحاربة لأهلها مضرراً ومواظباً. وشرع الخراسانيون والحلبيون العارفون بمواضع

النقوب الماضون فيها فنقبوا في عدة مواضع عرفوا أمرها وتيقنوا نفعها وضررها ولم

يزالوا على هذه الحال في الايغال في النقب والتمادي في بطن الأرض إلى أن وصلوا إلى

تحت أساس أبراج السور فعلقوه بالأخشاب المحكمة والآلات المنتخبة وفرغوا من ذلك ولم

يبق غير اطلاق النار فيها. فاستأذنوا عماد الدين أتابك في ذلك فأذن لهم بعد أن دخل

في النقب وشاهد حاله واستعظم كونه وهاله. فلما أطلقت النار في تعليق النقوب، تمكنت

من أخشابها وبادتها فوق السور في الحال وهجم المسلمون البلد بعد أن قتل من

الجهتين الخلق الكثير على الهدم وقتل من الافرنج والأرمن وجرح ما أوجب هزيمتهم عنه

وملك البلد بالسيف في يوم السبت سادس وعشرين من جمادى الآخرة منها (23 كانون أول/ديسمبر

[85]
(1144) ضحوة النهار. وشرع

في النهب والقتل والأسر والسبي وامتلات الأيدي من المال والأثاث والدواب والغنائم

والسبي ما سرت به النفوس وابتهجت بكثرتة القلوب وشرع عماد الدين أتابك بعد أن أمر

برفع السيف والنهب في عمارة ما انهدم وترميم ما تشعث ورتب من رآه لتدبير أمرها

وحفظها والاجتهاد في مصالحها وطيب بنفوس أهلها ووعدهم باجمال السيرة فيهم وبسط

المعدلة في أقاصيهم وأدانيهم. ورحل عنها وقصد سروج وقد هرب الافرنج منها فملكها

وجعل لا يمر بعمل من أعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه إلا سلم إليه
في

الحال.

(ابن الأثير 66/11-64)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ سَادِسَ

[86]

جُمَادَى الْآخِرَةِ ،

فَتَحَ أَتَابُكَ عِمَادُ الدِّينِ رَنْكِي بُنْ أَفْسُنُقُرْ مَدِينَةَ الرُّهَا
مِنَ الْفَرْنَجِ، وَفَتَحَ غَيْرَهَا مِنْ حُصُونِهِمْ بِالْجَزِيرَةِ أَيْضًا،
وَكَانَ صَرَرُهُمْ قَدْ عَمَّ يَلَادَ الْجَزِيرَةِ، وَشَرُّهُمْ قَدْ اسْتَطَارَ
فِيهَا، وَوَصَلَتْ غَارَاتُهُمْ إِلَى أَدَانِيهَا وَأَقَاصِيهَا، وَتَلَعَتْ
أَمِدًا، وَتَصَيَّبِينَ وَرَأْسَ عَيْنٍ، وَالرَّقَّةَ. وَكَانَتْ مَمْلَكَتُهُمْ
يَهَذِهِ الدِّيَارِ مِنْ قَرِيبِ مَارِدِينَ إِلَى الْفَرَاتِ مِثْلَ الرُّهَا،
وَسَرُوجَ، وَالْبِيرَةِ، وَسِنَّ ابْنِ عُطَيَّرٍ، وَحِمْلِينَ، وَالْمُؤَزَّرِ،
وَالْقَرَادِيَّ وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ مَعَ غَيْرِهَا
مِمَّا هُوَ غَرِبُ الْفَرَاتِ لِحُوسَلِينَ، وَكَانَ صَاحِبَ رَأْيِ الْفَرْنَجِ
وَالْمُقَدَّمِ عَلَى عَسَاكِرِهِمْ، لِمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّجَاعَةِ
وَالْمَكْرِ. وَكَانَ أَتَابُكَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَى قَصَدَ حَصْرَهَا
اجْتَمَعَ فِيهَا مِنَ الْفَرْنَجِ مَنْ يَمْتَنِعُهَا، فَيَتَعَذَّرُ عَلَيْهِ
مُلْكُهَا لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَصَانَةِ، فَاسْتَعْلَ بِدِيَارِ بَكْرِ
لِيُوْهِمَ الْفَرْنَجَ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَقَرِّغٍ لِقَصْدِ يَلَادِهِمْ. فَلَمَّا

رَأَوْا أَنَّهُ غَيَّرَ قَادِرٍ عَلَى تَرْكِ الْمُلُوكِ الْأَرْتَقِيَّةِ
 وَغَيْرِهِمْ مِنْ مُلُوكِ دِيَارِ بَكْرِ، حَيْثُ إِنَّهُ مُحَارِبٌ لَهُمْ،
 اطْمَأَنَّنُوا، وَفَارَقَ جُوسَلِينَ الرَّهَّاءَ وَعَبَرَ الْفُرَاتَ إِلَى بِلَادِ
 الْعَرَبِيَّةِ، فَجَاءَتْ غُيُوثُ أَتَابِكَ إِلَيْهِ فَأَخْبَرَتْهُ فَنَادَى
 فِي الْعَسْكَرِ بِالرَّحِيلِ، وَأَنْ لَا يَتَخَلَّفَ عَنِ الرَّهَّاءِ أَحَدٌ مِنْ
 عَدِ يَوْمِهِ، وَجَمَعَ الْأَمْرَاءَ عِنْدَهُ، وَقَالَ: قَدِّمُوا الطَّعَامَ؛
 وَقَالَ: "لَا يَأْكُلُ مَعِيَ عَلَى مَا يَدَّتِي هَذِهِ إِلَّا مَنْ يَطْعَنُ
 عَدَا مَعِيَ عَلَى بَابِ الرَّهَّاءِ"، فَلَمْ يَتَقَدَّمْ إِلَيْهِ غَيْرُ
 (أَمِيرٍ) وَاحِدٍ وَصَبِيٍّ لَا يُعْرِفُ، لَمَّا يَعْلَمُونَ مِنْ إِقْدَامِهِ
 وَشَجَاعَتِهِ، وَأَنَّ أَحَدًا لَا يَقْدِرُ عَلَى مُسَاوَاتِهِ فِي الْحَرْبِ.
 فَقَالَ الْأَمِيرُ لِذَلِكَ الصَّبِيِّ: "مَا أَنْتَ فِي هَذَا الْمَقَامِ؟"
 فَقَالَ أَتَابِكَ: "دَعْنِي، فَوَاللَّهِ إِنِّي أَرَى وَجْهَهَا لَا
 يَتَخَلَّفُ عَنِّي". وَسَارَ وَالْعَسَاكِرُ مَعَهُ، وَوَصَلَ إِلَى
 الرَّهَّاءِ، وَكَانَ هُوَ أَوَّلَ مَنْ حَمَلَ عَلَى الْفَرِجِ وَمَعَهُ ذَلِكَ
 الصَّبِيُّ، وَحَمَلَ فَارِسٌ مِنْ خِيَالِهِ الْفَرِجِ عَلَى أَتَابِكَ
 عَرَضًا، فَأَعْتَرَصَهُ ذَلِكَ الْأَمِيرُ فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ،
 وَسَلِمَ الشَّهِيدُ، وَتَارَلَ الْبَلَدُ، وَقَاتَلَهُ ثَمَانِيَّةٌ وَعِشْرِينَ
 يَوْمًا، فَزَحَفَ إِلَيْهِ عِدَّةٌ دَفْعَاتٍ، وَقَدَّمَ النَّقَّابِينَ
 فَنَقَبُوا سُورَ الْبَلَدِ، وَلَجَّ فِي قِتَالِهِ خَوْفًا مِنْ اجْتِمَاعِ

الْفِرْنَجِ وَالْمَسِيرِ إِلَيْهِ وَاسْتِنْقَازِ الْبَلَدِ مِنْهُ، فَسَقَطَتْ
الْبَدَنَةُ الَّتِي تَقْبَهَا النَّعَابُونَ، [وَأَخَذَ] الْبَلَدَ عَنْوَةً
وَقَهْرًا، وَحَصَرَ قَلْعَتَهُ فَمَلَكَهَا أَيْضًا، وَتَهَبَ النَّاسُ
الْأَمْوَالَ وَسَبَّوْا الذُّرِّيَّةَ وَقَتَلُوا الرِّجَالَ. فَلَمَّا رَأَى
أَتَابُكُ الْبَلَدَ أَعْجَبَهُ، وَرَأَى أَنَّ تَخْرِيبَ مِثْلِهِ لَا يَجُوزُ
فِي السِّيَاسَةِ، فَأَمَرَ فُئُودِيَّ فِي الْعَسَاكِرِ بِرَدِّ مَنْ أَخَذُوهُ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ إِلَى بُيُوتِهِمْ، وَإِعَادَةِ مَا
عَنِمُوهُ مِنْ أَثَاثِهِمْ وَأَمْتِعَتِهِمْ، فَرَدُّوا الْجَمِيعَ عَنْ آخِرِهِ
لَمْ يُفَقَدْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، إِلَّا الشَّادَّ النَّادِرَ الَّذِي أُخِذَ،
وَفَارَقَ (مَنْ أَخَذَهُ) الْعَسْكَرَ، فَعَادَ الْبَلَدُ إِلَى حَالِهِ
الْأَوَّلِ، وَجَعَلَ فِيهِ عَسْكَرًا يَحْفَظُهُ، وَتَسَلَّمَ مَدِينَةَ سُرُوجَ
وَسَائِرَ الْأَمَاكِينِ الَّتِي كَانَتْ بِيَدِ الْفِرْنَجِ شَرْقِيَّ الْفُرَاتِ،
[88]
مَا عَدَا الْبِيرَةَ ،

فَأَيْتَهَا حَصِينَتُهُ مَنِيْعَةٌ وَعَلَى شَاطِئِ الْفُرَاتِ، فَسَارَ إِلَيْهَا
وَحَصَرَهَا، وَكَانُوا قَدْ أَكْثَرُوا مِيرَتَهَا وَرِجَالَهَا، فَبَقِيَ عَلَى
حِصَارِهَا إِلَى أَنْ رَحَلَ عَنْهَا، عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى.

حُكِيَ أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ

بِالْأَنْسَابِ وَالتَّوَارِيخِ قَالَ: كَانَ صَاحِبُ جَزِيرَةِ صِفْلِيَّةٍ قَدْ أَرْسَلَ

سَرِيَّةً فِي الْبَحْرِ إِلَى طَرَابُلُسَ الْعَرَبِ وَتِلْكَ الْأَعْمَالِ،
فَتَهَبُوا وَقَتَلُوا؛ وَكَانَ بِصِغْلِيَّةَ إِنْسَانٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ
الْمُسْلِمِينَ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الصَّلَاحِ، وَكَانَ صَاحِبُ صِغْلِيَّةَ
يُكْرِمُهُ وَيَخْتَرِمُهُ، وَيَرْجِعُ إِلَى قَوْلِهِ، وَيُقَدِّمُهُ عَلَى مَنْ
عِنْدَهُ مِنَ الْفُسُوسِ وَالرُّهْبَانِ؛ وَكَانَ أَهْلُ وَلَاتِيهِ يَقُولُونَ
إِنَّهُ مُسْلِمٌ بِهِذَا السَّبَبِ.

فَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ كَانَ

جَالِسًا فِي مَنْظَرَةٍ لَهُ تُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ، وَإِذْ قَدْ أَقْبَلَ
مَرْكَبٌ لَطِيفٌ، وَأَخْبَرَهُ مَنْ فِيهِ أَنَّ عَسْكَرَهُ دَخَلُوا بِلَادَ
الْإِسْلَامِ، وَغَنِمُوا وَقَتَلُوا وَظَفِرُوا؛ وَكَانَ الْمُسْلِمُ إِلَى
جَانِبِهِ وَقَدْ أَعْفَى، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا فُلَانُ! أَمَا تَسْمَعُ
مَا يَقُولُونَ؟ قَالَ: لَا! قَالَ: إِنَّهُمْ يُخْبِرُونَ بِكَذَا وَكَذَا.
أَيِّن كَانَ مُحَمَّدٌ عَنْ تِلْكَ الْبِلَادِ وَأَهْلِهَا؟ فَقَالَ لَهُ: كَانَ
قَدْ غَلِبَ عَنْهُمْ، وَشَهِدَ فَتْحَ الرُّهَا، وَقَدْ فَتَحَهَا الْمُسْلِمُونَ
الْآنَ؛ فَصَحِكَ مِنْهُ مَنْ هُنَاكَ مِنَ الْفَرَنْجِ، فَقَالَ الْمَلِكُ: لَا
تُصْحِكُوا، فَوَاللَّهِ مَا يَقُولُ إِلَّا الْحَقُّ؛ فَبَعْدَ أَيَّامٍ وَصَلَتْ

[89]

الْأَخْبَارُ مِنْ فَرَنْجِ الشَّامِ بِفَتْحِهَا .

وَحَكَى لِي جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالصَّلَاحِ أَنَّ إِنْسَانًا
صَالِحًا رَأَى الشَّهِيدَ فِي مَتَامِهِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ؟

قَالَ: غَفَرَ لِي بِفَتْحِ الرَّهَا.

ذَكَرُ

قَتَلَ أَتَابِكَ عِمَادِ الدِّينِ رَنْكِي وَشَيْءٍ مِنْ سِيرَتِهِ

(ابن الأثير 72-11/74)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (541)،

لِخَمْسٍ مَصْنَعٍ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ (14 أيلول/سبتمبر

1146)، قُتِلَ أَتَابِكَ

الشَّهِيدُ ^[90] عِمَادُ

الدِّينِ رَنْكِي بْنُ أَفْسُونُفَرٍ، صَاحِبُ الْمَوْصِلِ وَالشَّامِ، وَهُوَ

يُحَاصِرُ قَلْعَةَ جَعْبَرٍ، عَلَى مَا ذَكَرْتَاهُ، قَتَلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ

مَمَالِيكِهِ لَيْلًا غِيلَةً، وَهَرَبُوا إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرٍ، فَصَاحَ مَنْ

بِهَا إِلَى الْعَسْكَرِ يُعْلِمُونَهُمْ بِقَتْلِهِ، وَأَظْهَرُوا الْفَرَحَ،

فَدَخَلَ أَصْحَابُهُ، فَأَذْرَكُوهُ وَبِهِ رَمَقٌ. حَدَّثَنِي وَالِدِي عَنْ

بَعْضِ خَوَاصِّهِ، قَالَ: "دَخَلْتُ إِلَيْهِ فِي الْحَالِ وَهُوَ حَيٌّ،

فَحِينَ رَأَيْتُ ظَنًّا أَنِّي أُرِيدُ قَتْلَهُ، فَأَشَارَ إِلَيَّ بِإِصْبَعِهِ

السَّبَابَةِ يَسْتَعْطِفُنِي، فَوَقَعْتُ مِنْ هَيْبَتِهِ، فَقُلْتُ: يَا

مَوْلَايَ مَنْ فَعَلَ بِكَ هَذَا؟ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْكَلَامِ، وَقَاصَتْ

تَفْسُهُ لَوْفَتِهِ، رَجَمَهُ اللَّهُ".

قَالَ: وَكَانَ حَسَنَ الصُّورَةِ،

أَسْمَرَ اللَّوْنِ، مَلِيحَ الْعَيْنَيْنِ، قَدْ وَخَطَهُ الشَّيْبُ، وَكَانَ
قَدْ زَادَ عُمرُهُ عَلَى سِتِّينَ سَنَةً؛ لِأَنَّهُ كَانَ لَمَّا قُتِلَ

[91]
وَالِدُهُ صَغِيرًا،

كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ، وَلَمَّا قُتِلَ دُفِنَ بِالرَّفْقَةِ. وَكَانَ شَدِيدَ
الْهَيْبَةِ عَلَى عَسْكَرِهِ وَرَعِيَّتِهِ، عَظِيمَ السِّيَاسَةِ، لَا يَقْدِرُ
الْقَوِيُّ عَلَى ظُلْمِ الضَّعِيفِ، وَكَانَتْ الْبِلَادُ، قَبْلَ أَنْ
يَمْلِكَهَا خَرَابًا مِنَ الظُّلْمِ، وَتَتَّقِلُ الْوُلَاةَ، وَمُجَاوِرَةَ
الْفِرْنِجِ، فَعَمَّرَهَا، وَامْتَلَأَتْ أَهْلًا وَسُكَّانًا. حَكَى لِي
وَالِدِي قَالَ: رَأَيْتُ الْمَوْصِلَ وَأَكْثَرَهَا خَرَابًا، يَحِثُّ يَقِفُ
الْإِنْسَانُ فُرْتَبَ مَحَلَّةِ الطَّبَّالِينَ وَبَرَى الْجَامِعِ الْعَتِيقِ،
وَالْعَرَصَةِ، وَدَارِ السُّلْطَانِ، لَيْسَ بَيْنَ ذَلِكَ عِمَارَةٌ؛ وَكَانَ
الْإِنْسَانُ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ إِلَى الْجَامِعِ الْعَتِيقِ إِلَّا
وَمَعَهُ مَنْ يَحْمِيهِ، لِبُعْدِهِ عَنِ الْعِمَارَةِ، وَهُوَ الْآنَ فِي وَسْطِ
الْعِمَارَةِ، وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْبِقَاعِ الْمَذْكُورَةِ كُلِّهَا أَرْضُ
يَرَاخٍ، وَحَدَّثَنِي أَيْضًا أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى الْجَزِيرَةِ فِي الشِّتَاءِ،
فَدَخَلَ الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ الدُّبَيْسِيُّ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ
أَمْرَائِهِ، وَمِنْ جُمْلَةِ أَقْطَاعِهِ مَدِينَةَ دُقُوقَا، وَتَزَلَ فِي دَارِ
إِنْسَانٍ يَهُودِيٍّ، فَاسْتَعَاثَ الْيَهُودِيَّ إِلَى أَتَابِكَ، وَأَنْتَهَى
حَالُهُ إِلَيْهِ، فَتَنَظَّرَ إِلَى الدُّبَيْسِيِّ فَتَأَخَّرَ، وَدَخَلَ الْبَلَدَ

وَأُخْرِجَ بَرْكُهُ وَخِيَامُهُ. قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ غِلْمَاتَهُ
يَتَصَبُّونَ خِيَامَهُ فِي الْوَحْلِ، وَقَدْ جَعَلُوا عَلَى الْأَرْضِ تَبَتًّا
يَقِيهِمُ الطَّيْنُ، وَخَرَجَ فَنَزَلَهَا، وَكَانَتْ سِيَّاسَتُهُ إِلَى هَذَا
الْحَدِّ.^[92] وَكَانَتْ

الْمَوْصِلُ مِنْ أَقْلِ بِلَادِ اللَّهِ فَاكِهَةً، فَصَارَتْ فِي أَيَّامِهِ،
وَمَا بَعْدَهَا، مِنْ أَكْثَرِ الْبِلَادِ قَوَاكِيهَ وَرَبَاجِينَ وَعَوَّيرَ
ذَلِكَ. وَكَانَ أَيْضًا شَدِيدَ الْغَيْرَةِ وَلَا سِيَّمًا عَلَى نِسَاءِ
الْأَجْتَادِ، وَكَانَ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تَحْفَظْ نِسَاءَ الْأَجْتَادِ
بِالْهَيْبَةِ، وَإِلَّا فَسَدَنَ لِكثَرَةِ غَيْبَةِ أَرْوَاجِهِنَّ فِي
الْأَسْفَارِ. وَكَانَ أَشْجَعَ خُلُقِ اللَّهِ، أَمَّا قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَ
فَيَكْفِيهِ أَنَّهُ حَصَرَ مَعَ الْأَمِيرِ مَوْدُودٍ صَاحِبِ الْمَوْصِلِ
مَدِينَةَ طَبْرِبَّةَ، وَهِيَ لِلْفَرْنَجِ، فَوَصَلَتْ طَعْنَتُهُ بَابَ
الْبَلَدِ وَاتَّزَرَ فِيهِ، وَحَمَلَ أَيْضًا عَلَى قَلْعَةِ عُقْرَ
الْحُمَيْدِيَّةِ، وَهِيَ عَلَى جَبَلٍ عَالٍ، فَوَصَلَتْ طَعْنَتُهُ إِلَى
سُورِهَا، إِلَى أَشْيَاءَ أُخَرَ. وَأَمَّا بَعْدَ الْمُلْكِ فَقَدْ كَانَ
الْأَعْدَاءُ مُخْدِقِينَ بِبِلَادِهِ، وَكُلُّهُمْ يَقْصِدُهَا، وَبُرِيدُ
أَخْذَهَا، وَهُوَ لَا يَقْنَعُ بِحِفْظِهَا، حَتَّى إِنَّهُ لَا يَنْقَضِي
عَلَيْهِ عَامٌ إِلَّا وَيَفْتَحُ مِنْ بِلَادِهِمْ. فَقَدْ كَانَ الْحَلِيفَةُ
الْمُسْتَرْشِدُ بِاللَّهِ مُجَاوِرَهُ فِي تَاجِيَةِ تَكْرِيتَ، وَقَصَدَ

الْمَوْصِلَ وَحَصَرَهَا، ثُمَّ إِلَى جَانِبِهِ، مِنْ تَاجِيَةِ شَهْرُزُورَ
وَتِلْكَ التَّاجِيَةِ السُّلْطَانُ مَسْعُودٌ؛ ثُمَّ ابْنُ سُقْمَانَ صَاحِبُ
خِلَاطٍ؛ ثُمَّ دَاوُدُ بْنُ سُقْمَانَ صَاحِبُ حِصْنٍ كَيْفَا؛ ثُمَّ صَاحِبُ
أَمَدَ وَمَارِدِينَ؛ ثُمَّ الْفَرْنَجُ مِنْ مُجَاوَرَةِ مَارِدِينَ إِلَى
دِمَشْقٍ؛ ثُمَّ أَصْحَابُ دِمَشْقٍ، فَهَذِهِ الْوِلَايَاتُ قَدْ أَحَاطَتْ
بِوِلَايَتِهِ مِنْ كُلِّ جِهَاتِهَا، فَهُوَ يَقْصِدُ هَذَا مَرَّةً وَهَذَا
مَرَّةً، وَيَأْخُذُ مِنْ هَذَا وَيُصَانِعُ هَذَا، إِلَى أَنْ مَلَكَ مِنْ كُلِّ
مَنْ يَلِيهِ طَرَفًا مِنْ بِلَادِهِ، وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى أَحْبَارِهِ فِي
كِتَابِ "الْبَاهِرِ" فِي تَارِيخِ دَوْلَتِهِ وَدَوْلَةِ أَوْلَادِهِ ^[93] ،
فَيُطْلَبُ مِنْ هُنَاكَ.

كان حصار دمشق القصير والفاشل (1148) أبرز ما حدث خلال الحملة الصليبية الثانية التي لم تُظهر أي جدارة خاصة وأنها بدأت

تحت وهم يقول بسقوط الرها. نرى هنا أن رواية شاهد العيان ابن القلانسي تؤكد رواية

ابن الأثير وتكملها، ونجد أيضاً صفحات بلاغية أخرى كتبها مؤرخ متأخر آخر هو ابن

الجوزي. كما نقرأ كيف ترمز ميتة الفندلاوي الفقيه الشيخ الكبير شهيداً في سبيل

الدين والوطن إلى المقاومة الاسلامية في مظهرها الأنبل والأشد صرامة.

الحملة

الثانية وحصار دمشق

(ابن القلانسي 297-300)

وفي أوائلها (543/1148) تواترت الأخبار من سائر الجهات بوصول مراكب الافرنج المقدم ذكرهم إلى ساحل البحر

وحصولهم على سواحل الثغور الساحلية صور وعكا واجماعهم مع من كان بها من الافرنج

ويقال إنهم بعد ما فني منهم بالقتل والمرض والجوع تقدير مائة ألف عنان وقصدوا بيت

المقدس وقضوا مفروض حجههم وعاد بعد ذلك من عاد إلى بلادهم في البحر. وقد هلك منهم

[94]

بالموت والمرض الخلق العظيم وهلك من ملوكهم من هلك وبقي المان أكبر

ملوكهم ومن هو دونه واختلفت الآراء بينهم فيما يقصدون منازلته من البلاد الاسلامية

والأعمال الشامية إلى أن استقرت الحال بينهم على منازل مدينة دمشق وحدثتهم نفوسهم

الخبينة بملكها وتبايعوا ضياعها وجهاتها. وتواصلت الأخبار بذلك وشرع متولي أمرها

الأمير معين الدين أنر في التأهب والاستعداد لحربهم ورفع شرهم وتحصين ما يخشى من

الجهات وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ وقطع مجاري الميرة إلى منازلهم وطم

الآبار وعفى المناهل وصرفوا أعنتهم إلى ناحية دمشق في حشدتهم وحدهم وحديدهم في

الخلق الكثير على ما يقال تقدير الخمسين ألف من الخيل والرجل ومعهم من السواد

والجمال والأبقار ما كثروا به العدد الكثير ودنوا من البلد وقصدوا المنزل المعروف

بمنازل العساكر فصادفوا الماء معدوماً فيه مقطوعاً عنه فقصدوا ناحية المزة فخيّموا

عليها لقربها من الماء وزحفوا إليه بخيلهم ورجلهم. ووقف المسلمون بإزائهم في يوم

السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة 43 (24 آب/اغسطس

1148) ونشبت الحرب بين

الفريقين واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك القتال وأحداث البلد والمطوعة والغزاة

الجم الغفير واشتجر القتل بينهم واستظهر الكفار على المسلمين بكثرة الأعداد والعدد

وغلّبوا على الماء وانتشروا في البساتين وخيموا فيها وقربوا من البلد وحصلوا منه

بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديماً ولا حديثاً منه. واستشهد في هذا اليوم

الفقيه الامام يوسف الفندلاوي المالكي رحمه الله ^[95] قريب

الربوة على الماء لوقوفه في وجوهم وترك الرجوع عنهم اتباعاً لأوامر الله تعالى في

كتابه الكريم ^[96] وكذلك

عبد الرحمن الحلولي الزاهد رحمه الله جرى أمره هذا المجرى.

وشرعوا في قطع الأشجار والتحسين

بها وهدم القناطر وباتوا تلك الليلة على هذه الحال وقد لحق الناس من الارتياح لهول

ما شاهدوه والروع بما عاينوه ما ضعفت به القلوب وخرجت معه الصدور وباكروا الظهور

إليهم في غد ذلك اليوم وهو يوم الأحد تاليه وزحفوا إليهم ووقع الطراد بينهم

واستظهر المسلمون عليهم وأكثروا القتل والجراح فيهم. وأبلى الأمير معين الدين في

حربهم بلاءً حسناً وظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره بحيث لا ينبي

في ذياتهم ولا يُفثنى عن جهادهم ولم تزل رحى الحرب دائرةً بينهم وخيل الكفار

محجمةً عن الحملة المعروفة لهم إلى أن تنهيا الفرصة لهم إلى أن مالت الشمس إلى

الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة وعاد كل منهم إلى مكانه وبات الجند

بإزائهم وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم.

وكانت المكاتبات قد نفذت إلى ولاة

الأطراف بالاستصراخ والاستنجد وحصلت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتتابع

وباكرهم المسلمون وقد قويت نفوسهم وزال روعهم وثبتوا بإزائهم وأطلقوا فيهم السهام

ونبل الجرح بحيث تتبع في مخيمهم في راجل أو فارس أو فرس أو جمل.

ووصل في هذا اليوم من ناحية البقاع

وغيرها رجالة كثيرة من الرماة فزادت بهم العدة وتضاعفت العدة وانفصل كل فريق إلى

مستقره هذا اليوم وباكروهم من غدٍ يوم الثلاثاء كالبراة إلى تعاقيب الجبل

والشواهيـن إلى مطار الحجل وأحاطوا بهم في مخيمهم وحول مجثمهم وقد تحصنوا بأشجار

البساتين وأفسدوها رشقاً بالنشاب وحذفاً بالأحجار. وقد أحجموا عن البروز وخافوا

وفشلوا ولم يظهر منهم أحد وظن بهم إنهم يعملون مكيدةً ويدبرون حيلةً ولم يظهر منهم

إلا النفر اليسير من الخيل والرجل على سبيل المكاردة والمناوشة خوفاً من
المهاجنة

إلى أن يجدوا لحملتهم مجالاً أو يجدون لفرهم احتيلاً وليس يدنو منهم أحد إلا
صرع

برشقة أو طعنة وطمع فيهم نفر كثير من رجاله الأحداث والضياغ، وجعلوا
يرصدونهم في

المسالك وقد انثنوا فيقتلون من ظفروا به ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز
عنها وحصل من

رؤوسهم العدد الكثير وتواترت إليهم أخبار العساكر الإسلامية بالخفوف إلى
جهادهم

والمسارعة إلى استئصالهم فأيقنوا بالهلاك والبوار وحلول الدمار واعملوا
الآراء

بينهم فلم يجدوا لنفوسهم خلاصاً من الشبكة التي حضلوا فيها والهوة التي
ألقوا

بنفوسهم إليها غير الرحيل سحراً يوم الأربعاء المتالي مجفلين والهرب
مخدولين مغلولين.

وحين عرف المسلمون ذلك وبانت لهم آثارهم في الرحيل برزوا لهم في بكرة
هذا اليوم

وسارعوا نحوهم في آثارهم بالسهام بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال
والخيول والدواب

العدد الكثير ووجد في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتلاهم^[97] وفاخر

خيولهم ما لا عدد له ولا حصر يلحقه بحيث لها أرائج من جيدهم تكاد تصرع
الطيور في

الجو وكانوا قد أحرقوا الربوة والقبة الممدودة في تلك الليلة واستبشر الناس
بهذه

النعمة التي أسبغها الله عليهم وأكثروا من الشكر له تعالى ما أولاهم من إجابة دعائهم الذي واصلوه في أيام هذه الشدة فله على ذلك الحمد والشكر.

ذَكَرَ حَضِرُ الْفِرْنَجِ دِمَشْقَ

وَمَا فَعَلَ سَيْفُ الدِّينِ عَازِي بَنُ رَنْكِي

(ابن الأثير 85-11/86)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (543/1148) سَارَ مَلِكُ الْأَلَمَانِ مِنْ بِلَادِهِ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ وَجَمْعٍ عَظِيمٍ

مِنَ الْفِرْنَجِ عَازِمًا عَلَى قَصْدِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَهُوَ لَا يَتَشَكُّ فِي مُلْكِهَا بِأَيْسَرِ قِتَالٍ لِكَثْرَةِ جُمُوعِهِ، وَتَوْفُّرِ أَمْوَالِهِ وَغَدِيدِهِ، فَلَمَّا وَصَلَ إِلَى الشَّامِ قَصَدَهُ مَنْ يَهِي مِنَ الْفِرْنَجِ وَخَدَمُوهُ، وَامْتَثَلُوا أَمْرَهُ وَتَهْيَتَهُ، فَأَمَرَهُمْ بِالْمَسِيرِ مَعَهُ إِلَى دِمَشْقَ لِيَخْضَرَهَا وَيَمْلِكَهَا بِرِغْمِهِ، فَسَارُوا مَعَهُ وَتَارَ لُوحَا وَحَصَرُواهَا.

وَكَانَ صَاحِبُهَا مُجِيرٌ

الدِّينِ أَبَقُ بَنُ بُورِي بْنِ طُعْدِكِينَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَإِنَّمَا الْحُكْمُ فِي الْبَلَدِ لِمُعِينِ الدِّينِ أُتْرَ، مَمْلُوكِ جَدِّهِ طُعْدِكِينَ، وَهُوَ الَّذِي أَقَامَ مُجِيرَ الدِّينِ؛ وَكَانَ مُعِينُ الدِّينِ عَاقِلًا، وَعَادِلًا، خَيْرًا، حَسَنَ السَّيَرَةِ، فَجَمَعَ الْعَسَاكِرَ وَحَفِظَ الْبَلَدَ. وَأَقَامَ الْفِرْنَجُ يُحَاصِرُونَهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ رَحَفُوا سَادِسَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ (24 تموز/يولية)

يَقَارِسِهِمْ وَرَاجِلِهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ الْبَلَدِ وَالْعَسْكَرُ
فَقَاتَلُوهُمْ، وَصَبَرُوا لَهُمْ، وَفِيْمَنْ خَرَجَ لِلْقِتَالِ الْقَقِيَّةُ
حُجَّةُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ دِي تَاسِ الْقَنْدَلَاوِيِّ الْمَغْرِبِيِّ،
وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا، فَقِيهًا عَالِمًا، فَلَمَّا رَأَاهُ مُعِينُ الدِّينِ،
وَهُوَ رَاجِلٌ، قَصَدَهُ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ، وَقَالَ لَهُ: يَا شَيْخُ، أَنْتَ
مَعْدُورٌ لِكَبْرِ سِتِّكَ، وَتَحْنُ تَقُومُ بِالدَّبِّ عَنِ الْمُسْلِمِينَ،
وَسَأَلَهُ أَنْ يَعُودَ، فَلَمْ يَفْعَلْ وَقَالَ لَهُ: قَدْ يِعْثُ وَاشْتَرَى
مِنِّي، فَوَاللَّهِ لَا أَقْلُئُهُ وَلَا اسْتَقْلُئُهُ، فَعَتَى قَوْلَ اللَّهِ
تَعَالَى: [إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ

وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ] [التوبة 111]

وَتَقَدَّمَ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ عِنْدَ النَّيْرَبِ نَحْوَ نِصْفِ فَرَسِيخٍ
عَنْ دِمَشْقَ.

وَقَوِيَ الْفِرْنَجُ وَضَعُفَ

الْمُسْلِمُونَ، فَتَقَدَّمَ مَلِكُ الْأَلَمَانِ حَتَّى تَرَلَ بِالْمِيدَانِ
الْأَخْضَرِ، فَأَيَقَنَ النَّاسُ بِأَنَّهُ يَمْلِكُ الْبَلَدَ. وَكَانَ مُعِينُ
الدِّينِ قَدْ أُرْسِلَ إِلَى سَيْفِ الدِّينِ عَازِي بْنِ أَتَابَكَ رُكْبِي
يَدْعُوهُ إِلَى نُصْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَفَّ الْعَدُوَّ عَنْهُمْ، فَجَمَعَ
عَسَاكِرَهُ وَسَارَ إِلَى الشَّامِ، وَاسْتَصْحَبَ مَعَهُ أَخَاهُ ثَوْرَ الدِّينِ
مَحْمُودًا مِنْ حَلَبَ، فَتَنَزَّلُوا بِمَدِينَةِ حِمَصَ، وَأُرْسِلَ إِلَى مُعِينِ
الدِّينِ يَقُولُ لَهُ: قَدْ حَصَرْتُ وَمَعِيَ كُلُّ مَنْ يَحْمِلُ السَّلَاحَ فِي

يَلَادِي، قَارِيذُ أَنْ يَكُونَ نُؤَايِي بِمَدِينَةِ دِمَشْقَ لِأَحْضَرِ
وَأَلْقَى الْفَرِيحَ، فَإِنْ انْهَزَمْتُ دَخَلْتُ أَنَا وَعَسْكَرِي الْبَلَدَ وَاحْتَمَيْنَا
بِهِ، وَإِنْ طَفِرْتُ قَالْبَلَدُ لَكُمْ لَا أَتَارِعُكُمْ فِيهِ. فَأَرْسَلَ
إِلَى الْفَرِيحِ بِتَهْدِيدِهِمْ إِنْ لَمْ يَرْحَلُوا عَنِ الْبَلَدِ، فَكَفَّ
الْفَرِيحُ عَنِ الْقِتَالِ خَوْفًا مِنْ كَثَرَةِ الْجِرَاحِ، وَزُبْمَا
اضْطُرُّوا إِلَى قِتَالِ سَيْفِ الدِّينِ، فَأَبْقَوْا عَلَى نَفْسِهِمْ،
فَقَوِيَ أَهْلُ الْبَلَدِ عَلَى حِفْظِهِ، وَاسْتَرَاخُوا مِنْ لُزُومِ
الْحَرْبِ، وَأَرْسَلَ مُعِينُ الدِّينِ إِلَى الْفَرِيحِ الْغُرَبَاءَ: إِنَّ
مَلِكَ الْمَشْرِقِ قَدْ حَصَرَ، فَإِنْ رَحَلْتُمْ، وَإِلَّا سَلَّمْتُ الْبَلَدَ
إِلَيْهِ، وَحِينَئِذٍ تَتَدَمُّونَ؛ وَأَرْسَلَ إِلَى فَرِيحِ الشَّامِ يَقُولُ
لَهُمْ: يَا أَيُّ عَقْلٍ تُسَاعِدُونَ هَؤُلَاءِ عَلَيْنَا، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
أَنْهُمْ إِنْ مَلَكَوا دِمَشْقَ أَخَذُوا مَا بِيَدَيْكُمْ مِنَ الْبِلَادِ
السَّاحِلِيَّةِ، وَأَمَّا أَنَا فَإِنْ رَأَيْتُ الضَّعْفَ عَنْ حِفْظِ الْبَلَدِ
سَلَّمْتُهُ إِلَى سَيْفِ الدِّينِ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مَلِكُ
دِمَشْقَ لَا يَبْقَى لَكُمْ مَعَهُ مَقَامٌ فِي الشَّامِ، فَأَجَابُوهُ إِلَى
النَّحْلِيِّ عَنْ مَلِكِ الْأَلَمَانِ، وَبَدَّلَ لَهُمْ تَسْلِيمَ حِصْنِ
بَانِيَّاسَ إِلَيْهِمْ. وَاجْتَمَعَ السَّاحِلِيُّهُ بِمَلِكِ الْأَلَمَانِ،
وَحَوَّفُوهُ مِنْ سَيْفِ الدِّينِ وَكَثَرَةِ عَسَاكِرِهِ وَتَتَائِعِ
الْأَمْدَادِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ زُبْمَا أَخَذَ دِمَشْقَ وَتَضَعُفُ عَنْ
مُقَاوَمَتِهِ، وَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى رَحَلَ عَنِ الْبَلَدِ،

وَتَسَلَّمُوا فَلَعَةً بَأْتِيَّاسَ، وَعَادَ الْفِرْنَجُ الْأَلْمَانِيَّةُ إِلَى
يَلَادِهِمْ مِنْ وَرَاءِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
شَرَّهُمْ. وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ عَسَاكِرٍ فِي
تَارِيخِ دِمَشْقَ: أَنَّ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ حَكَى لَهُ أَنَّهُ رَأَى
الْقُنْدَلَاوِيَّ فِي الْمَتَامِ، فَقَالَ لَهُ: مَا فَعَلَ اللَّهُ بِكَ: وَأَيْنَ أَنْتَ؟ فَقَالَ: غَفَرَ لِي، وَأَنَا
فِي جَنَاتٍ عَذْنٍ عَلَى سُورٍ

[98]

مُتَقَابِلِينَ.

(سبط ابن الجوزي، 300)

... وكان زمان الفواكه، فنزل

الفرنج وأكلوا منها شيئاً كثيراً، فأحلت أجوافهم ومات منهم خلق كثير، ومرض
الباقون. ولما ضاق بأهل دمشق الحال، أخرجوا الصدقات بالأموال، على قدر
أحوالهم،

واجتمع الناس في الجامع، الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف

[99]

عثمان وحثوا

الرماد على رؤوسهم وبكوا وتضرعوا، فاستجاب الله لهم. فكان مع الإفرنج
قسيس كبير

طويل اللحية يقتدون به، فأصبح في اليوم العاشر على نزولهم دمشق، فركب
حماره وعلق

في عنقه صليباً، وجعل بين يديه صليبين، وعلق في رأس حماره صليباً، وجمع
بين يديه

الأناجيل والصلبان والكتب، والخيالة والرجالة، ولم يتخلف من الفرنجية أحد إلا
من

يحفظ الخيام. وقال لهم القسيس... "قد وعدني المسيح أنني أفتح اليوم". وفتح

المسلمون الأبواب واستسلموا للموت، وغاروا للإسلام وحملوا حملة رجل واحد، وكان

يوماً لم يرَّ في الجاهلية والإسلام مثله، وقصد واحد من أحداث دمشق القسيس، وهو في

أول القوم، فضربه فأبان رأسه وقتل حماره، وحُمِلَ الباقيون فانهزم الإفرنج. وقتلوا

منهم عشرة آلاف وأحرقوا الصلبان والخيالة بالنفط، وتبعوهم إلى الخيام وحال بينهم

الليل، فأصبحوا وقد رحلوا ولم يبق لهم أثر.

بعد مضي ستة أعوام على المقاومة الناجحة التي أبدتها دمشق ضد الصليبيين حقق نور الدين ابن زنكي في عام 1154 حلم أبيه القديم ومَلَكَ العاصمة السورية دون منازلة ولا حرب. انطلق نور الدين من دمشق وكذلك من حلب- قاعدة أسلافه، وبدأ بتنظيم قوى جديدة يقاوم بها الصليبيين، وقد امتدت هذه المقاومة حوالي عشرين سنة بين نجاح وفشل، ثم إنه مات بعدها عام 1174. لكنه عندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة كان نجم صلاح الدين أحد ضباط جيشه المجهولين قد سطع بالفعل لينتشر منذ بعض الوقت في أنحاء مصر ويتوجَّ قِرْنًا من صراع المسلمين المبرير ضد الغزاة الصليبيين. نرى أن ابن الأثير سطر عن نور الدين صفحات خلاصة ذلك كما فعل من قبل مع أبيه. ونضيف نحن هنا أن نور الدين كان يتمتع على خلاف زنكي بروحانية أشد صفاء وبقدر أعمق من الإنسانية.

انتصارات نور الدين وفوزه بدمشق

(ابن القلانسي، 340-342)

[100]

ووصل نور الدين إلى البلد المحروس في يوم الخميس السابع والعشرين من شهر ربيع الأول (552/أيار/مايو 1157) لتقرير الأمر في إخراج آلات الحرب وتجهيزها إلى العسكر بحيث يقيم أياماً يسيرةً ويتوجه في الحال إلى ناحية العساكر المجتمعة من التركمان والعرب للجهاد في الكفرة الأضداد والله يسهل أسباب الإدالة منهم ويعجل البوار والهلاك لهم إن شاء الله تعالى. وفي وقت وصوله شرع في انجاز ما وصل لأجله وأمر بتجهيز ما يحتاج إليه من المناجيق والسلاح إلى العسكر المنصور بالنداء في البلد المحروس في الغزاة والمجاهدين والأحداث المتطوعة من فتيان البلد والغرباء بالتأهب والاستعداد لمجاهدة الأفرنج أولي الشرك والالحاد. وبادر بالمسير في الحال إلى عسكره المنصور مغذاً غير متلوم ولا مترتب في يوم السبت انسلاخ شهر ربيع الأول، وتبعه بين الأحداث والمتطوعة والفقهاء والصوفية والمتدينين العدد الكثير، الدثر المباهي في الوفور والكثرة، فالله تعالى يقرن آراءه وعزماته بالنصر المشرق المنار والظفر باخواب المردة الكفار ويعجل لهم أسباب الهلاك والبوار بحيث لا تبقى لهم باقية ولا يرى لهم رائحة ولا غادية، وما ذلك على الله تعالى القادر القاهر بعزیز.

ولما كان يوم السبت السابع من شهر ربيع الآخر (18 أيار/مايو) تالي اليوم المقدم ذكره عقيب نزول الملك العادل نور الدين على بانياس في عسكره

[101]

المنصور ومضايقته لها بالمنجنيقات والحرب سقط الطائر من العسكر

المنصور بظاهر بانياس، يتضمن كتابه الاعلان بورود المبشر من معسكر أسد

[102]

الدين بناحية هونين في التركمان والعرب بأن الافرنج خذلهم الله أنهضوا سريةً من أعيان مقدميهم وأبطالهم تزيد على مائة فارس سوى أتباعهم لكبس المذكورين ظناً منهم إنهم في قل ولم يعلموا إنهم في ألوف فلما دنوا منهم وثبوا إليهم كالليوث إلى فرائسها فأطبقوا عليهم بالقتل والأسر والسلب ولم يفلت منهم إلا اليسير ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى وعددهم من الخيول المنتخبة والطوارق والقناريات إلى البلد في اليوم الاثنين تالي اليوم المذكور وطيف بهم فيه، فسُرت القلوب بمشاهدتهم وأكثروا الشكر لله على هذه النعمة المسهلة بعد الأولى المتكلمة، والله المأمول لتعجيل هلاكهم وبوارهم، وما ذلك على الله بعزیز. وتتلو هذه الموهبة المجددة سقوط الطائر من المعسكر المحروس ببانياس في يوم الثلاثاء يتلو المذكور، بذكر افتتاح مدينة بانياس بالسيف قهراً، على مضي أربع ساعات من يوم الثلاثاء المذكور، عند تناهي النقب واطلاق النار فيه وسقوط البرج المنقوب، وهجوم الرجال فيه، وبذل السيف في قتل من فيه، ونهب ما حواه، وانهزام من سلم إلى القلعة وانحصارهم بها، وإن أخذهم بمنية الله تعالى لا يبطئ والله يسهله ويعجله.

واتفق بعد ذلك للأقضية المقدرة إن الافرنج تجمعوا من معاقلهم عازمين

[103]

على استنقاذ الهنغري صاحب بانياس ومن معه من أصحابه الافرنج المحصورين بقلعة بانياس وقد أشرفوا على الهلاك وبالغوا في السؤال للأمان للمولى نور الدين ويسلمون ما في أيديهم من القلعة وما حوته لينجوا سالمين

[104]

فلم يجبههم إلى ما سألوه ورغبوا فيه. فلما وصل ملك الافرنج في جمعه من الفارس والراجل من ناحية الجبل على حين غفلة من العسكرين النازلين على بانياس لحصارها، والنازل على الطريق لمنع الواصل إليها، واقتضت السياسة الاندفاع عنها بحيث وصلوا إليها واستحصلوا من كان فيها، فحين شاهدوا ما عم بانياس من خراب سورها ومنازل سكانها، يثسوا من عمارتها بعد خرابها، وذلك في أيام من العشر الأخير من شهر ربيع الآخر (أوائل حزيران/يونية 1157) وفي يوم الأربعاء التاسع من جمادى الأولى (19 حزيران/يونية) سقطت الأطيوار بالكتب من المعسكر المحروس النوري تتضمن الأعلام بأن الملك العادل نور الدين، أعز الله نصره، لما عرف إن معسكر الكفرة الافرنج على الملاحة بين طبرية وبانياس نهض في عسكره المنصور من الأتراك والعرب وجدّ في السير. فلما شارفهم وهم غازون، وشاهدوا راياته قد أظلمتهم، بادروا بلبس السلاح والركوب واقترقوا أربع فرق وحملوا على المسلمين، فعند ذلك ترجل الملك نور الدين وترجلت معه الأبطال وأرهقوهم بالسهم وخرصان الرماح، فما كان إلا كلا ولا، حتى تزلزلت بهم الأقدام

ودهمهم البوار والحمام، وأنزل الله العزيز القهار نصره على الأولياء الأبرار وخذلانه على المردة الكفار، وتمكّنا من فرسانهم قتلاً وأسرّاً واستأصلت السيوف الرجال، وهم العدد الكثير والجم الغفير، ولم يفلت منهم على ما حكاه الخبير الصادق غير عشرة نفر ممن ثبطه الأجل وأطار قلبه الوجل، وقيل إن ملكهم لعنهم الله فيهم وقيل إنه في جملة القتلى ولم يعرف له خبر والطلب مجدّ له، والله المعين على الأظفار به، ولم يفقد من عسكر الاسلام سوى رجلين: أحدهما من الأبطال المذكورين قتل أربعة من شجعان الكفرة، وقُتل عند حضور أجله وانتهاء مهله، والآخر غريب لا يُعرف، فكل منهما مضى شهيداً مثاباً مأجوراً رحمهما الله. وامتلات أيدي العسكرية من خيولهم وعددهم وكراعهم وأثاث سوادهم الشيء الذي لا يحصى كثرةً وحصلت كنيستهم في يد الملك نور الدين بالاتها المشهورة، وكان فتحاً من الله القادر الناصر، عزيزاً ونصراً مبيناً أعز الله بهما الاسلام وأهله وأذل الشرك وحزبه.

ووصلت الأسرى ورؤوس القتلى إلى دمشق في يوم الأحد تالي يوم الفتح وقد ربّوا على كل جمل فارسين من أبطالهم ومعهما راية من راياتهم منشورة، وفيها من جلود رؤوسهم بشعرها عدة، والمقدمون منهم وولاة المعامل والأعمال كل واحد منهم على فرس، وعليه الزردية والخوذة وفي يده

راية والرجال من السرجندية والدركيولية ^[105] كل ثلاثة وأربعة وأقل وأكثر في حبل، وخرج من أهل البلد الخلق الذي لا يحصى لهم عدد من الشيوخ والشبان والنسوان والصبيان لمشاهدة ما منح الله تعالى ذكره كافة المسلمين من هذا النصر المشرق الأعلام وأكثروا من التسبيح ومواصلة التقديس لله تعالى، مولى النصر لأوليائه ومديلهم من أعدائه، وواصلوا الدعاء الخالص للملك العادل نور الدين المحامي عنهم والمرامي دونهم والثناء على مكارمه والوصف لمحاسنه ونظم في ذلك أبيات في هذا المعنى وهي:

مثل يوم الفرنج حين عليتهم
 ذلة الأسر والبلا والشقاء
 وبراياتهم على العيس زفوا
 بين ذل وحسرة وعناء
 بعد عزّ لهم وهيبة ذكر
 في مصافّ الحروب والهيّجاء
 هكذا هكذا هلاك الأعادي
 عند شنّ الاغارة الشعواء
 شؤم أخذ الجشار وكان وبالاً
 عمّمهم في صباحهم والمساء
 نقضوا هدنة الصلاح بجهل
 بعد تأكيدها بحسن الوفاء

فلقوا بغيهم بما كان فيه
 من فساد يجلهم واعتداء
 لا حمى الله شملهم من شتاتٍ
 بمواض تفوق حدّ المضاء
 فجزاء الكفور قتلٌ وأسر
 وجزاء الشكور خير الجزاء
 فلربّ العباد حمدٌ وشكرٌ
 دائمٌ مع تواصل النعماء

وَقَاةِ نُورِ الدِّينِ مَحْمُودِ بْنِ رُكَيْي - رَحِمَهُ اللَّهُ

(ابن الأثير 264/11-267)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (569/1174) تُوفِّيَ نُورُ الدِّينِ مَحْمُودُ بْنُ رُكَيْي بْنِ أَفْسُنُقَر،
 صَاحِبُ الشَّامِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَمِصْرَ، يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ حَادِي عَشَرَ شَوَّالَ (15 آيار/
 مايو)، بِعِلَّةِ الْخَوَانِيْقِ، وَدُفِنَ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ، وَنُقِلَ مِنْهَا إِلَى الْمَدْرَسَةِ الَّتِي
 أَنْشَأَهَا بِدِمَشْقَ، عِنْدَ سُوقِ الْخَوَاصِيْنَ. وَمِنْ عَجِيبِ الْإِتِّفَاقِ أَنَّهُ رَكِبَ ثَانِيَةَ
 شَوَّالٍ وَإِلَى جَانِبِهِ بَعْضُ الْأَمَرَاءِ الْأَخْيَارِ، فَقَالَ لَهُ الْأَمِيرُ: "سُبْحَانَ مَنْ يَعْلَمُ هَلْ
 تَجْتَمِعُ هُنَا فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ أَمْ لَا؟" فَقَالَ نُورُ الدِّينِ: "لَا تَقُلْ هَكَذَا بَلْ سُبْحَانَ
 مَنْ يَعْلَمُ هَلْ تَجْتَمِعُ بَعْدَ شَهْرٍ أَمْ لَا؟" فَمَاتَ نُورُ الدِّينِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْدَ أَحَدِ
 عَشَرَ يَوْمًا، وَمَاتَ الْأَمِيرُ قَبْلَ الْحَوْلِ، فَأَخِذَ كُلُّ مِنْهُمَا بِمَا قَالَهُ. وَكَانَ قَدْ شَرَعَ

بِتَجْهُّزٍ لِلدُّخُولِ إِلَى مِصْرَ لِأَخِذِهَا مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ يُوسُفَ بْنِ أَيُّوبَ ^[106]، فَإِنَّهُ رَأَى
 فُتُورًا فِي عَزْوِ الْفَرَنْجِ مِنْ تَاجِيَتِهِ، وَكَانَ يَعْلَمُ أَنَّهُ إِنَّمَا يَمْتَنِعُ صَلَاحُ الدِّينِ مِنَ
 الْعَزْوِ الْخَوْفُ مِنْهُ وَمِنْ الْاجْتِمَاعِ بِهِ، فَإِنَّهُ يُؤَيِّرُ كَوْنَ الْفَرَنْجِ فِي الطَّرِيقِ لِيَمْتَنِعَ
 بِهِمْ عَلَى نُورِ الدِّينِ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْمُؤَصِّلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَدِيَارِ بَكْرِ يَطْلُبُ
 الْعَسَاكِرَ لِلْعَزَاةِ، وَكَانَ عَزْمُهُ أَنْ يَتْرُكَهَا مَعَ ابْنِ أَخِيهِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي، صَاحِبِ
 الْمُؤَصِّلِ بِالشَّامِ، وَيَسِيرُ هُوَ بِعَسَاكِرِهِ إِلَى مِصْرَ، فَبَيَّتَمَا هُوَ بِتَجْهُّزٍ لِذَلِكَ أَتَاهُ أَمْرٌ
 مِنَ اللَّهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ.

حَكَى لِي طَبِيبٌ يُعْرِفُ بِالطَّبِيبِ الرَّحِيْبِ وَهُوَ كَانَ يَخْدُمُ نُورَ الدِّينِ، وَهُوَ مَنْ
 خَذَّاقِ الْأَطِبَّاءِ، قَالَ: اسْتَدْعَانِي نُورُ الدِّينِ فِي مَرَضِهِ الَّذِي تُوفِّيَ فِيهِ مَعَ غَيْرِي
 مِنَ الْأَطِبَّاءِ، فَدَخَلْنَا إِلَيْهِ وَهُوَ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ، وَقَدْ تَمَكَّنَتْ
 الْخَوَانِيْقُ مِنْهُ، وَقَارَبَ الْهَلَكَ، فَلَا يَكَادُ يُسْمَعُ صَوْتُهُ، وَكَانَ يَخْلُو فِيهِ لِلتَّعَبُّدِ،
 فَأَبْتَدَأَ بِهِ الْمَرَضُ، فَلَمْ يَنْتَقِلْ عَنْهُ، فَلَمَّا دَخَلْنَا وَرَأَيْنَا مَا بِهِ قُلْتُ لَهُ: "كَانَ يَنْبَغِي
 أَنْ لَا تُؤَخَّرَ إِخْصَارَتَا إِلَى أَنْ يَشْتَدَّ بِكَ الْمَرَضُ الْآنَ، وَيَنْبَغِي أَنْ تُعَجَّلَ الْإِتِّفَاقُ
 مِنْ هَذَا الْمَوْضِعِ إِلَى مَكَانٍ فَسِيحٍ مُضِيٍّ، فَلَهُ أَثَرٌ فِي هَذَا الْمَرَضِ". وَشَرَعْنَا

فِي عِلَاجِهِ، وَأَشْرَتَا بِالْقَصْدِ، فَقَالَ ابْنُ سَيِّئِينَ: لَا يُفْتَصَدُّ، وَامْتَنَعَ مِنْهُ، فَعَالَجَتْهُ يَغْيِرُهُ، فَلَمْ يَنْجَعْ فِيهِ الدَّوَاءُ، وَعَظُمَ الدَّاءُ، وَمَاتَ - رَحِمَهُ اللَّهُ وَرَضِيَ عَنْهُ - وَكَانَ أَسَمَرَ، طَوِيلَ الْقَامَةِ، وَلَيْسَ لَهُ لِحْيَةٌ إِلَّا فِي حَنَكِهِ، وَكَانَ وَاسِعَ الْجَبْهَةِ، حَسَنَ الصُّورَةِ، خُلُوَ الْعَيْنَيْنِ، وَكَانَ قَدِ اتَّسَعَ مُلْكُهُ جِدًّا، وَخُطِبَ لَهُ

^[107] بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَبِالْيَمَنِ لَمَّا دَخَلَهَا شَمْسُ الدَّوْلَةِ بْنُ أَبِيوبَ وَمَلَكَهَا ، وَكَانَ مَوْلِدُهُ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةَ (1117)، وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ الْأَرْضَ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ. وَقَدْ طَالَعَتْ سِيرَتِ الْمُلُوكِ الْمُتَقَدِّمِينَ، فَلَمْ أَرِ فِيهَا بَعْدَ الْخُلَفَاءِ

^[108] الرَّاشِدِينَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ أَحْسَنَ مِنْ سِيرَتِهِ، وَلَا أَكْثَرَ تَحَرُّبًا مِنْهُ

^[109] لِلْعَدْلِ. وَقَدْ أَتَيْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ "الْبَاهِرِ" مِنْ أَخْبَارِ دَوْلَتِهِمْ ، وَلِتَذْكُرَ هَهُنَا نُبْدَةَ مُخْتَصَرَةٍ لَعَلَّ يَفْقَهُ عَلَيْهَا مَنْ لَهُ حُكْمٌ فَيَقْتَدِي بِهِ: فَمِنْ ذَلِكَ زُهْدُهُ وَعِبَادَتُهُ وَعِلْمُهُ، فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَأْكُلُ وَلَا يَلْبَسُ إِلَّا مَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ الَّذِي يَخُصُّهُ [إِلَّا] مِنْ مِلْكٍ كَانَ لَهُ قَدْ اشْتَرَاهُ مِنْ سَهْمِهِ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَمِنْ الْأَمْوَالِ الْمُرَصَّدَةِ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَقَدْ شَكَتْ إِلَيْهِ زَوْجَتُهُ مِنَ الصَّائِقَةِ، فَأَعْطَاهَا ثَلَاثَ ذَكَائِينَ فِي جَمْعٍ كَاتِبٍ لَهُ، مِنْهَا يَخْضُلُ لَهُ فِي السَّنَةِ تَحْوُ عِشْرِينَ دِينَارًا، فَلَمَّا اسْتَقْلَنَهَا قَالَ: لَيْسَ لِي إِلَّا هَذَا، وَجَمِيعُ مَا يَبْدِي أَنَا فِيهِ خَازِنٌ لِلْمُسْلِمِينَ لَا أُخُونُهُمْ فِيهِ، وَلَا أُخَوِّضُ تَارَ جَهَنَّمَ لِأَجْلِكَ. وَكَانَ يُصَلِّي كَثِيرًا بِاللَّيْلِ، وَلَهُ فِيهِ أَوْرَادٌ حَسَنَةٌ، وَكَانَ كَمَا قِيلَ:

^[110] جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالْخُشُوعَ لِرَبِّهِ مَا أَحْسَنَ الْمِحْرَابِ فِي الْمِحْرَابِ وَكَانَ غَارِقًا بِالْفَقْهِ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، لَيْسَ عِنْدَهُ فِيهِ تَعْصِبٌ، وَسَمِعَ الْحَدِيثَ، وَأَسْمَعَهُ طَلَبًا لِلْآخِرِ. وَأَمَّا عَدْلُهُ، فَإِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ فِي بِلَادِهِ، عَلَى سِعَتِهَا، مَكْسًا وَلَا عُشْرًا بَلْ أَطْلَقَهَا جَمِيعَهَا فِي مِصْرَ وَالشَّامَ وَالْجَزِيرَةَ وَالْمَوْصِلَ، وَكَانَ يُعْظَمُ الشَّرِيعَةُ، وَيَقْفُ عِنْدَ أَحْكَامِهَا، وَأَخْصَرَهُ إِنْسَانٌ إِلَى مَجْلِسِ الْحُكْمِ، فَمَضَى مَعَهُ إِلَيْهِ، وَأُرْسِلَ إِلَى الْقَاضِي كَمَالِ الدِّينِ بْنِ الشَّهْرَزُورِيِّ يَقُولُ: "قَدْ جِئْتُ مُحَاكِمًا، فَاسْلُكْ مَعِيَ مَا تَسْلُكُ مَعَ الْخُصُومِ"، وَظَهَرَ الْحَقُّ لَهُ، فَوَهَبَهُ الْخِصَمَ الَّذِي أَخْصَرَهُ، وَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ أَتْرُكَ لَهُ مَا يَدَّعِيهِ، إِنَّمَا خِفْتُ أَنْ يَكُونَ الْبَاعِثُ لِي عَلَى ذَلِكَ الْكِبَرُ وَالْأَتَقَةُ مِنَ الْخُصُومِ إِلَى مَجْلِسِ الشَّرِيعَةِ، فَخْصَرْتُ، ثُمَّ وَهَبْتُهُ مَا يَدَّعِيهِ". وَبَنَى دَارَ الْعَدْلِ فِي بِلَادِهِ، وَكَانَ يَجْلِسُ هُوَ وَالْقَاضِي فِيهَا يُنْصَفُ الْمَظْلُومُ، وَلَوْ أَنَّهُ يَهُودِيٌّ، مِنَ الظَّالِمِ وَلَوْ أَنَّهُ بَوْلَدُهُ أَوْ أَكْبَرُ أَمِيرٍ عِنْدَهُ. وَأَمَّا شَجَاعَتُهُ، فَلِإِنَّهَا النَّهَائَةُ، وَكَانَ فِي الْحَرْبِ يَأْخُذُ قَوْسَيْنِ

^[111] وَتَرَكْسَيْنِ لِيُقَاتِلَ بِهَا، فَقَالَ لَهُ الْقُطُبُ النَّسَاوِيُّ الْفَقِيهُ: "بِاللَّهِ عَلَيْكَ لَا تُخَاطِرَ بِنَفْسِكَ بِالإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ أَصَبْتَ فِي مَعْرَكَةٍ لَا يَبْقَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا أَخَذَهُ السَّيْفُ". فَقَالَ لَهُ نُوْرُ الدِّينِ: "وَمَنْ مَحْمُودٌ حَتَّى يُقَالَ

لَهُ هَذَا؟ مِنْ قَبْلِي مَنْ حَفِظَ الْبِلَادَ وَالْإِسْلَامَ؟ ذَلِكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ". وَأَمَّا مَا فَعَلَهُ مِنَ الْمَصَالِحِ، فَإِنَّهُ بَنَى أَسْوَارَ مُدُنِ الشَّامِ جَمِيعَهَا وَقِلَاعَهَا، فَمِنْهَا دِمَشْقُ وَحِمَصُ وَحِمَاةُ وَخَلْبُ وَشَيْرُزُ وَبَغْلَبُكُ وَغَيْرُهَا، وَبَنَى الْمَدَارِسَ الْكَثِيرَةَ لِلْجَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ، وَبَنَى الْجَامِعَ الثُّورِيِّ بِالْمَوْصِلِ، وَبَنَى الْبَيْمَارِسْتَانَاتِ وَالْخَاتَانَاتِ فِي الطُّرُقِ، وَبَنَى الْخَانِكَاهَاتِ لِلصُّوفِيَّةِ فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ، وَوَقَفَ عَلَى الْجَمِيعِ الْوُفُوفَ الْكَثِيرَةَ. سَمِعْتُ أَنَّ حَاصِلَ وَفْقِهِ كُلَّ شَهْرٍ تِسْعَةُ آلَافٍ دِينَارٍ صُورِيٍّ. وَكَانَ يُكْرِمُ الْعُلَمَاءَ وَأَهْلَ الدِّينِ وَيُعْظِمُهُمْ وَيُعْطِيهِمْ وَيَقُومُ إِلَيْهِمْ وَيُجْلِسُهُمْ مَعَهُ، وَيَتَبَسَّطُ مَعَهُمْ، وَلَا يَزُدُّ لَهُمْ قَوْلًا، وَيُكَاتِبُهُمْ بِحَطِّ يَدِهِ، وَكَانَ وَقُورًا مَهِيبًا مَعَ تَوَاضُعِهِ، وَبِالْجُمْلَةِ فَحَسَنَاتُهُ كَثِيرَةٌ وَمَنَاقِبُهُ غَزِيرَةٌ لَا يَحْتَمِلُهَا هَذَا الْكِتَابُ.

يمكن أن نعطي للصفحات التالية عنواناً مثل "مشاهد وعادات افرنجية بمنظور أحد المسلمين"، وكلها عدا واحدة منها مأخوذة من سيرة أسامة بن منقذ، أمير شيزر الفارس المثقف الذي عايش تقريباً هذا القرن من الحروب الصليبية. سنجد في هذه المذكرات المشوشة لكن الغنية بالنوادر والإشارات التاريخية المهمة كثيراً من الأخبار عن العلاقات التي أقامها مع الإفرنج في أزمان الحرب والسلام والتي توحى بمشاعر العداوة والفضول والمحبة التي تظهر حسب اختلاف الظروف. تتعارض هذه المشاهد المليئة أحياناً بالمفارقات اللطيفة مع رتبة مقارعات السلاح التي تسود في معظم صفحات المؤرخين المحترفين.

فروسية إفرنجية

(أسامة، 48)

والإفرنج خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدم ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكمة، وقد حاكمتهم مرة على قطعان غنم أخذها صاحب بانياس من الشعراء وبيننا وبينهم صلح، وأنا إذ ذاك بدمشق.

[112] فقلت للملك فلك بن فلك "هذا تعدى علينا وأخذ دوابنا، وهو وقت ولاد الغنم، فولدت وماتت أولادها وردّها علينا بعد أن أتلّفها. "فقال الملك لستة سبعة من الفرسان: "قوموا أعملوا له حكماً"، فخرجوا من مجلسه وأعتزلوا وتشاوروا حتى اتفق رأيهم كلهم على شيء واحد وعادوا إلى مجلس الملك فقالوا: "قد حكمنا أن صاحب بانياس عليه غرامة ما أتلّف من غنمهم"، فأمره الملك بالغرامة فتوسل إلي وثقل علي وسألني حتى أخذت منه أربع مائة دينار. وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الأفرنج يغيّره ولا ينقضه، فالفرس أمر عظيم عندهم. ولقد قال لي الملك: "يا فلان وحق ديني لقد فرحت البارحة فرحاً عظيماً. وما كنت اعتقد أنك فارس".

[113] قلت: "يا مولاي أنا فارس من جنسي وقومي". وإذا كان الفارس دقيقاً عظيماً كان أعجب لهم.

قرصنة افرنجية

(أسامة، 25-26)

ثم اتصلت بخدمة الملك العادل نور الدين رحمه الله وكاتب الملك الصالح^[114] في تسير أهلي وأولادي الذين تخلفوا بمصر وكان محسناً إليهم. فرد الرسول واعتذر بأنه يخاف عليهم من الإفرنج، وكتب إلي يقول " ترجع إلى

مصر^[115] وأنت تعرف ما بيني وبينك، وإن كنت مستوحشاً من أهل القصر فتصل إلى مكة وأنفذ لك كتاباً بتسليم مدينته أسوان إليك، وأمدك بما تتقوى به على محاربة الحبشة، فأسوان ثغر من ثغور المسلمين، واسير أهلك وأولادك". ففاوضت الملك العادل واستطلعت أمره فقال "يا فلان، ما صدقت متى تخلص من مصر وفتنتها، تعود إليها! العمر أقصر من ذلك. أنا أنفذ أخذ لأهلك الأمان من ملك الإفرنج أسير من يحضرهم"، فأنفذ رحمه الله أخذ أمان الملك وصليبه في البر والبحر. وسيرت الأمان مع غلام لي وكتاب الملك العادل^[116]

وكتابي إلى الملك الصالح، فسيرهم في عُشاري من الخاص إلى دمياط، وحمل لهم كل ما يحتاجونه من النفقات والزاد ووصى بهم. واقلعوا من دمياط في بطسه من بطس الإفرنج، فلما دنوا من عكار والملك، لا رحمه الله، فيها، نفَّذ قوماً في مركب صغير كسروا البطسه بالفؤوس، وأصحابي يرونهم، وركب ووقف على الساحل نهب كل ما فيه. فخرج إليه غلام لي سباحةً والأمان معه وقال له "يا مولاي الملك، ما هذا أمانك؟" قال "بلى، ولكن هذا رسم المسلمين إذا انكسر لهم مركب على بلد نهيه أهل ذلك البلد." قال "فتسببنا؟" قال "لا"، وانزلهم -لعنه الله- في دار، وفتش النساء حتى أخذ كل ما معهم. وقد كان في المركب حلي اودعه النساء وكسوات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضه بنحو من ثلاثين ألف دينار، فأخذ الجميع ونفذ لهم خمس مائه دينار، وقال "توصلوا بهذه إلى بلادكم". وكانوا رجالاً ونساء في خمسين نسمة. وكنت آنذاك مع الملك العادل في بلاد الملك^[117]

مسعود رعبان وكيسون. فهوّن علي سلامة أولادي وأولاد أخي، وحرمتنا ذهاب ما ذهب من المال إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة، فإن ذهابها حزاة في قلبي ما عشت.

الطب الافرنجي

(أسامة، 97- 98)

ومن عجيب طبهم ان صاحب المنيطرة^[118] كتب إلى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل إليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له: "ما أسرع ما داويت المرضى!" قال "أحضروا عندي فارساً قد طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف،

فعملت للفارس لبخة ففتحت الدملة فصلحت، فحميت المرأة ورطبت مزاجها فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم "هذا ما يعرف شيئاً يداويهم". وقال للفارس "أيا أحب لك أن تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟" قال: "أعيش برجل واحدة". قال "أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً". حضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس "أضرب رجله بالفأس ضرباً واحداً واقطعها"، فضربه وأنا أراه ضربة واحداً ما انقطعت، فضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته. أبصر المرأة فقال "هذه المرأة في رأسها شيطان قد عشقها، احلقوا شعرها"، فحلقوه وعادت تأكل من مأكلم الثوم والخردل فزاد بها النشاف، فقال "الشيطان قد دخل في رأسها". فأخذ موسى وشق رأسها صليباً وسلخ وسطه، حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت من وقتها. فقلت لهم "بقي لكم إلي حاجة؟"

[119]

قالوا "لا". فجئت وتعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه .

الفرنجة والغيرة الزوجية

(أسامة، 101-100)

وليس عندهم شيء من النخوة والغيرة، يكون الرجل منهم يمشي هو وامراته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى. ومما شاهدت من ذلك أني كنت إذا جئت إلى نابلس أنزل في دار رجل يقال له معز داره عمارة المسلمين لها طاقات تفتح إلى الطريق، يقابلها من جانب الطريق الآخر دار لرجل إفرنجي يبيع الخمر للتجار، يأخذ في قنينة من النبيذ

[120]

وينادي عليه، ويقول فلان التاجر قد فتح بئيه من هذا الخمر، من أراد منها شيئاً فهي من موضع كذا وكذا، وأجره عن بداية النبيذ الذي في تلك القنينة، فجاء يوماً ووجد رجلاً مع امرأته في الفراش فقال له "أي شيء أدخلك عند امرأتي؟" قال "كنت تعبان، دخلت أستريح"، قال "كيف دخلت إلى فراشي"، قال "وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه" قال "والمرأة نائمة معك؟" قال "الفراش لها كنت أقدر أن أمنعها من فراشها؟" قال "وحق ديني إن عدت فعلتها تخاصمت أنا وأنت" فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته. ومن ذلك أنه كان عندنا رجل حمامي يقال له سالم من أهل المعرة في حمام لوالدي رحمه الله قال "فتحت حماماً في المعرة أتعيش فيها، فدخل إليها فارس منهم، وهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمام، فمد يده وجذب مئزري من وسطي، رماه، فرآني وأنا قريب عهد بحلق عانتني، فقال سالم فتقربت منه، فمد يده على عانتني وقال "سالم، جيد!" وحق ديني أعمل لي كذا واستلقي على ظهره وله مثل لحيته في ذلك الموضع، فحلقته فمر يده عليه

فاستوطأه، فقال سالم " بحق دينك اعمل للداما " والداما بلسانهم الست يعني امرأته. وقال لغلام له قل للداما تجيء. فمضى الغلام أحضرها وأدخلها، فاستلقت على ظهرها وقال أعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني فشكرني ووهبني حق خدمتي. فانظروا إلى هذا الاختلاف العظيم ما فيهم الغيرة والنخوة وفيهم الشجاعة العظيمة، وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والأنفة من سوء الأحداث.

فرنج مستشرقون

(أسامة، 103-104)

ومن الإفرنج قوم قد تلبدوا وعاشروا المسلمين فهم أصلح من القريبين العهد ببلادهم، ولكنهم شاذ لا يقاس عليه. فمن ذلك أنني نفذت صاحباً إلى

[121]

إنطاكية في شغل، وكان بها الرئيس نادر بن الصفي وبينني وبينه صداقة، وهو نافذ الحكم في أنطاكية. فقال لصاحبي يوماً: "قد دعاني صديق لي من الإفرنج، تجيء معي حتى ترى زيمهم" قال "فمضيت معه فجئنا إلى دار فارس من الفرسان العتق الذين خرجوا في أول خروج الإفرنج، وقد اعتفى من الديوان والخدمة، وله بإنطاكية ملك يعيش منه، فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة، ورأني متوقفاً عن الأكل فقال " كل طيب النفس، فأنا ما أكل من طعام الإفرنج ولي طبابخات مصريات لا أكل إلا من

[122]

طبخهن، ولا أدخل داري لحم خنزير . فأكلت وأنا محترز وانصرفنا. فأنا بعد مجتازاً في السوق وامرأة إفرنجية تعلقت بي وهي تبربر بلسانهم وما أدري ما تقول. فاجتمع علي خلق من الإفرنج فأيقنت من الهلاك. وإذا ذلك الفارس قد أقبل فرأني، فجاء فقال لتلك المرأة "مالك ولهذا المسلم"؟ قالت " هذا قتل أخي عرس"، وكان هذا عرس فارساً بأفامية قتله بعض جند حماة. فصاح عليهم وقال " هذا رجل برجاسي أي تاجر لا يقاتل ولا يحضر قتال"، وصاح على أولئك المجتمعين، فتفرقوا وأخذ يدي ومضى، فكان تأثير تلك المواقلة خلاصي من القتل.

الديوية في القدس

(أسامة، 99)

فمن جفاء أخلاقهم قبحهم الله، أنني إذا زرت بيت المقدس دخلت إلى المسجد الأقصى، وفي جانبه مسجد صغير جعله الإفرنج كنيسة. فكنت إذا دخلت المسجد الأقصى وفيه الداوية وهم أصدقائي، يخلون لي ذلك المسجد

[123]

الصغير أصلي فيه. فدخلت يوماً، كبرت ووقفت في الصلاة، فهجم علي

واحداً من الإفرنج مسكني ورد وجهي إلى الشرق، وقال "كذا صلي" فتبادر إليه قوم من الداوية أخذوه أخرجوه عني، وعدت أنا إلى الصلاة، فأغفلهم وعاد هجم علي ذلك بعينه ورد وجهي إلى الشرق وقال "كذا صلي"! فعاد الداوية دخلوا إليه وأخرجوه واعتذروا إلي وقالوا "هذا غريب وصل من بلاد الإفرنج هذه الأيام، وما رأى من يصلي لغير الشرق". فقلت "حسبي من الصلاة"! فخرجت وكنت أعجب من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته وما لحقه من

[124]

نظر الصلاة إلى القبلة .
ورأيت واحداً منهم جاء إلى الأمير معين الدين رحمه الله وهو في الصخرة فقال "تريد تبصر الله صغير"؟ قال "نعم". فمشى بين أيدينا حتى أوراننا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها. فقال "هذا الله صغير" -تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً.

[125]

شراء الأسرى

(أسامة، 60-62)

كنت أتردد إلى ملك الأفرنج في الصلح بينه وبين جمال الدين محمد بن تاج الملوك رحمه الله ^[126] ليد كانت للوالد رحمه الله على بغدوين الملك والد

[127]

الملكة امرأة الملك فلك بن فلك ، فكان الإفرنج يسوقون أساراهم إلي لأشترهم، فكنت أشتري منهم من سهّل الله تعالى خلاصه. فخرج شيطان منهم يدعى كليام جيباً في موكب له يغزي، فأخذ مركباً فيه حجاج من المغاربة نحو أربع مائة نفس رجال ونساء. فكان يجيئني أقوام مع مالهم فأشتري منهم من قدرت على شراؤه، وفيهم رجل شاب يسلم ويقعد لا يتكلم، فسألت عنه فقيل لي "هو رجل زاهد صاحبه دباغ". فقلت له "بكم تبيعني هذا"، قال وحق ديني ما أبيعه إلا هو وهذا الشيخ جملة كما أشتريتهما بثلاثة وأربعين ديناراً"، فأشتريتهما واشتريت لي منهم نفراً، واشتريت للأمير معين الدين

[128]

رحمه الله منهم نفراً بمائة وعشرين ديناراً ووزنت ما كان معي وضمنت علي بالباقي. وجئت إلى دمشق فقلت للأمير معين الدين رحمه الله "لقد اشتريت لك أسارى أختصك بهم، وما كان معي ثمنهم. والآن قد وصلت إلى بيتي إن أردتهم وزنت ثمنهم وإلا وزنته أنا". قال "لا بل أنا أزن والله ثمنهم وأنا أرغب الناس في ثوابهم". وكان رحمه الله أسرع الناس إلى فعل خير وكسب مثوبة ووزن ثمنهم. وعدت بعد أيام إلى عكا. وقد بقي من الأسرى عند كليام جيباً ثمانية وثلاثون أسيراً وفيهم امرأة لبعض الذين خلصهم الله تعالى على يدي فاشتريتها منه، وما وزنت ثمنها، فركبت إلى داره لعنه الله، وقلت

"تبيعني منهم عشرة"؟ قال "وحق ديني ما أبيع إلا الجميع". قلت "ما معي ثمن الجميع، وأنا أشتري بعضهم، والنوبة الأخرى أشتري الباقي". قال "ما أبيعك إلا الجميع". فأنصرفت وقدر الله سبحانه أنهم هربوا في تلك الليلة جميعهم وسكان ضياع عكا كلهم من المسلمين إذا وصل إليهم الأسير آخفوه وأوصلوه إلى بلاد الإسلام. وتطلبهم ذلك الملعون فما ظفر منهم بأحد وأحسن الله سبحانه خلاصهم، وأصبح يطالبني بثمان المرأة التي كنت أشتريتها قبل أن تهرب. وألزمني بوزن ثمنها، فوزنته وهان ذلك علي لمسرتي بخلاص أولئك المساكين.

عرض لإرسال ابن إلى أوربا

(أسامة، 97)

[129] كان في العسكر الملك قُلك بن قُلك فارس محتشم إفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود، فأنس بي وصار ملازمي ويدعوني أخي وبيننا المودة والمعاشرة فلما عزم على التوجه في البحر إلى بلاده قال لي يا أخي أني سائر إلى بلادي، وأريدك تنفذ معي أبني، وكان ابني معي وهو ابن أربعة عشر سنة، إلى بلادي يبصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية. وإذا رجع كان مثل رجل عاقل. فطرق سمعي كلام ما يخرج من رأس عاقل. فإن ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج. فقلت له "وحياتك هذا الذي كان في نفسي. لكن منعني من ذلك أن جدته تحبه وما تركته يخرج معي حتى استحلقتني أن أردّه إليها" قال "أمك تعيش"؟ قلت "نعم". قال "لا تخالفها". [130]

باز عكا الكبير

(أسامة، 142-143)

وكنيت قد مضيت مع الأمير معين الدين رحمه الله إلى عكا إلى عند ملك الإفرنج قُلك بن قُلك فرأينا رجلاً من الجنوية وقد وصل من بلاد الإفرنج ومعه باز كبير مقرنص يصيد الكركي ومعه كلبة صغيرة إذا أرسل الباز على الكركي عدت تحته، فإذا أخذ الكركي وحطه عضته فلا يقدر على الخلاص منها. وقال لنا ذلك الجنويان الباز عندنا إذا كان ذنبه ثلاثة عشر ريشة اصطاد الكركي. فعددنا ذنب ذلك الباز فكان كذلك. فطلب الأمير معين الدين رحمه الله فأخذه من ذلك الجنوي هو والكلبة وأعطاه للأمير معين الدين فجاء معه، فرأيت في الطريق يثب على الغزلان كما يثب إلى اللحم، ووصلنا به إلى دمشق، فما طال عمره بها ولا صاد شيئاً ومات.

الخشوع الإسلامي والخشوع المسيحي

(أسامة، كتاب العصا، 528-529)

[131] زرت قبر يحيى بن زكريا، عليهما السلام بقريّة يقال لها سبسطية من أعمال نابلس، فلما صليت خرجت إلى ساحة بين يدي الموضع الذي فيه القبر، محوّط عليها، وإذا باب مردود ففتحته ودخلت، وإذا كنيسة فيها نحو من عشرة

[132] شيوخ رؤوسهم مكشوفة كأنها القطن المندوف، وقد استقبلوا الشرق وفي صدورهم عصي في رؤوسها عوارض معوجة على قدر صدر الرجل، وهم

[133] معهدون عليها، ويمنح بين أيديهم بقراد ، فرأيت منظرًا يرق له القلب، وساءني وأسفني أني لم أر في المسلمين من هو على مثل اجتهادهم. فمضت على ذلك مدة فقال لي يوماً معين الدين أنر، رحمه الله، وأنا وهو نسير عند

[134] دار الطواويس ، أشتهي أنزل أزور دور المشايخ، قلت الأمر كذلك، فنزلنا ومشينا إلى منزل عرضي طويل، فدخلنا وأنا أظن أن ما فيه أحدا، وإذا فيه نحو من مائة سجادة رجل من الصوفية، عليهم السكينة، والخشوع عليهم ظاهر. فسرني ما رأيت منهم وحمدت الله عز وجل، ورأيت في المسلمين من هم أكثر اجتهاداً من أولئك القسوس. لم أكن قبل ذلك رأيت الصوفية في دارهم ولا عرفت طريقتهم.

القسم الثاني: صلاح الدين والحمة الثالثة

أهم المصادر الإسلامية الأساسية التي تتحدث عن شخصية صلاح الدين ومنجزاته هم موظفوه وأقرباؤه أمثال عماد الدين وبهاء الدين. كتب الأول تاريخ فتح القدس (حتى موت السلطان)، لكن التكلف البلاغي يطغى على أسلوب شاهد العيان ذي الأهمية المتزايدة. أما الثاني فقد كتب سيرة البطل بأسلوب سهل بسيط يسوده دفاء محبب وإخلاص لا يصل البتة إلى الإفراط في التقريظ. هناك مصدر ثالث يشار إليه في معرض الحديث عن صلاح الدين نجده في قسم خصص لهذا الموضوع في "كتاب الحديقتين" لمؤلفه أبو شامة وهو في الحقيقة تصنيف لمقاطع مقتبسة من عماد الدين (بعد تجريدها من أسلوبها الزاهي) وبهاء الدين وابن الأثير، هذا مع وجود مقاطع ذات قيمة معينة أنقذها المؤلف من الضياع بعد أن اقتبسها من مصادر مفقودة (ابن أبي الطي) فضلاً عن فصول ووثائق ديوان السلطان. أما ابن الأثير فرغم تحيزه الواضح ضد صلاح الدين بسبب ارتباطاته المحلية فإن أعماله تحتفظ بقيمتها المعتادة التي تعكس الأحداث بطريقة صافية وتستعمل المصادر الأولية برؤية حيادية. أما أفضل صورة شاملة لبطل الإسلام الكبير فهي تلك التي يفتتح بها بهاء الدين سيرته والتي نقدمها الآن كاملة.

صورة صلاح الدين الأخلاقية

(بهاء الدين، 7-41)

ذكر ما شاهدناه من مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية.

[135] ورد في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: بني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج إلى بيت الله الحرام. وكان رحمة الله عليه حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء وفهم من ذلك ما يحتاج إلى تفهمه بحيث كان إذا جرى الكلام بين يديه يقول فيه قولاً حسناً وإن لم يكن بعبارة الفقهاء فتحصل من ذلك سلامة عقيدته عن كدر التشبيه. غير مارق سهم النظر إلى التعطيل والتمويه جارية على نمط الاستقامة موافقة لقانون النظر الصحيح مرضية عند أكابر العلماء، وكان قد جمع له الشيخ قطب الدين النيسابوري عقيدة تجمع جميع ما يحتاج إليه في هذا الباب. وكان من شدة حرصه عليها يعلمها الصغار من أولاده حتى ترسخ في أذهانهم في الصغر ورأيته وهو يأخذها عليهم وهم يلقونها من حفظهم بين يديه.

وأما الصلاة فإنه كان رحمه الله تعالى شديد المواظبة عليها بالجماعة حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة. وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة. وكان يواظب على السنن الرواتب،

وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليل ^[136] وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح ولم يكن يترك الصلاة ما دام عقله عليه. ولقد رأيتُه قدس الله روحه يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه. وكان إذا أدركته الصلاة وهو سائر نزل وصلى. وأما الزكاة فإنه مات رحمه الله تعالى ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ما ملكه من الأموال فإنه ملك ما ملك ولم يخلف في خزانته

من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية ^[137] وجرماً واحداً ذهباً ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك.

وأما صوم رمضان فإنه كان عليه منه فوائت بسبب أمراض تواترت عليه

في رمضانات متعددة وكان القاضي الفاضل ^[138] قد تولى ثبت تلك الأيام وشرع رحمه الله في قضاء تلك الفوائت بالقدس الشريف في السنة التي توفي فيها وقد واطب على الصوم مدة حتى بقيت عليه فوائت رمضانين شغلته الأمراض وملازمة الجهاد عن قضائها ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها لأن القاضي كان غائباً وكان الطبيب يلوم وهو لا يسمع ويقول "لا أعلم ما يكون" فكأنه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى.

وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه وناوياً له سيما في العام الذي توفي فيه فإنه صمم العزم عليه وأمر بالتأهب وعملنا الرفادة ولم يبق إلا المسير فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله فأخر إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى وهذا شيء اشترك في العلم به الخاص والعام. وكان رحمه الله تعالى يحب سماع القرآن العظيم ويستجيد إمامه ويشترط أن يكون عالماً بعلم القرآن العظيم متقناً لحفظه. وكان يستقرئ من يحرسه في الليل وهو في برجه الجزئين والثلاثة والأربعة وهو يسمع. وكان يستقرئ وهو في مجلسه العام من جرت عادته بذلك الآية والعشرين والزائد على ذلك ولقد اجتاز على صغير بين يدي أبيه وهو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته فقربه وجعل له حظاً من خاص طعامه ووقف عليه وعلى أبيه جزءاً من مزرعة.

وكان رحمه الله تعالى خاشع القلب رقيقه غزير الدمعة إذا سمع القرآن يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته. وكان رحمه الله شديد الرغبة في سماع الحديث ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير فإن كان ممن

يحضر عنده استحضره وسمع عليه فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالاً له. وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن

[139]

الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه. تردد إلى الحافظ الأصفهاني بالإسكندرية حرسها الله تعالى وروى عنه أحاديث كثيرة. كان رحمه الله تعالى يحب أن يقرأ الحديث بنفسه وكان يستحضرني في خلوته ويحضر شيئاً من كتب الحديث ويقرأها هو فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ودمعت عينه.

وكان رحمة الله عليه كثير التعظيم لشعائر الدين يقول يبعث الأجسام ونشورها ومجازاة المحسن بالجنة والمسيء بالنار مصداقاً بجميع ما وردت به الشرائع منشراحاً بذلك صدره مبعوضاً للفلاسفة والمعتلة ومن يعاند الشريعة ولقد أمر ولده صاحب حلب الملك الظاهر عز الله أنصاره بقتل شاب نشأ

[140]

يقال له السهروردي قيل عنه أنه كان معانداً للشرائع مبطلاً وكان قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره وعرف السلطان به فأمره بقتله فطلبه أياماً فقتله.

كان قدس الله روحه حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه عظيم الإنابة إليه. ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه. وذلك أن الفرنج خذلهم الله كانوا نازلين ببית نوبة وهو موضع قريب من القدس الشريف حرسها الله تعالى بينهما بعض مرحلة وكان السلطان بالقدس وقد أقام يزكاً على العدو محيطاً به وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته وتركيب القنابل عليه واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة وشاورهم في الإقامة بالقدس فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها وأصر الجميع على أن لا مصلحة في إقامته بنفسه فإنها مخاطرة بالإسلام وذكروا أنهم يقصدونهم ويخرج هو رحمه الله بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكا ويكون هو ومن معه بصدر منع ميرتهم أو التضيق عليهم ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه وانفصل مجلس المشورة على ذلك وهو مصر على أن يقيم بنفسه علماً منه أنه إن لم يقم لم يقم أحد فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم خبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأمرون بأمره فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة وضاق صدره وتقسم فكره واشتدت فكرته، ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة وكانت ليلة الجمعة من أول الليل إلى أن قارب الصبح وكان الزمان شتاءً وليس معنا ثالث إلا الله تعالى ونحن نقسم أقساماً ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني

الإشفاق عليه والخوف على مزاجه فإنه كان يغلب عليه اليأس فشغفت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة فقال رحمه الله لعلك جاءك النوم ثم نهض فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأنني إلا وأذن المؤذن وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه فقال ما أخذني النوم أصلاً فقلت قد علمت فقال من أين فقلت لأنني ما نمت وما بقي وقت للنوم ثم اشتغلنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه فقلت له قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى فقال وما هو فقلت له الإخلاق إلى الله تعالى والإنابة إليه. والاعتماد في كشف الغمة عليه. فقال: وكيف نصنع فقلت اليوم الجمعة يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالأقصى موضع مسرى النبي صلى الله عليه وسلم ويقدم المولى التصديق بشيء خفية على يد من يثق به ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ويدعو الله في سجوده فقد ورد فيه حديث صحيح وتقول في باطنك: إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ولم يبق إلا الإخلاق إليك والاعتصام بحبك والاعتماد على فضلك أنت حسبي ونعم الوكيل. فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ففعل ذلك كله وصليت إلى جانبه على العادة وصلى الركعتين بين الأذان والإقامة ورأيت ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ثم على سجدته ولا أسمع ما يقول فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من عز الدين جرديك وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ثم عادوا إلى خيامهم وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنهم بمثل ذلك. ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا فذهبت الفرنسية إلى أنهم لا بد لهم من محاصرة القدس وذهب الأنكتار وأتباعه إلى أنه لا يخاطر بدين النصرانية ويرميهم في الجبل مع عدم المياه فإن السلطان كان قد أفسد جميع ما حول القدس من المياه أنهم خرجوا للمشورة ومن عادتهم أنهم يتشاورون للحرب على ظهور الخيل وأنهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم فأبشروا به لا يخالفونهم ولما كانت بكرة الاثنين جاء المبشر يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة فهذا ما شهدته من آثار استنباطه وإخلاقه إلى الله تعالى رحمه الله.

ذكر عدله رحمه الله تعالى

[141] روى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الوالي العادل ظل الله في أرضه فمن نصحه في نفسه أو في عباده أظله الله تحت عرشه يوم لا ظل إلا ظله ومن خانته في نفسه أو في عباده خذله الله يوم القيامة، يرفع للوالي العادل في كل يوم عمل ستين صديقاً كلهم عابد مجتهد لنفسه.

ولقد كان رحمه الله عادلاً رؤوفاً رحيماً ناصراً للضعيف على القوي. وكان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير وعجوز هرمة وشيخ كبير وكان يفعل ذلك سفيراً وحضراً.

على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ويفتح باب العدل ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات. وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو في النهار ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ولم يرد قاصداً أبداً أو منتحلاً ولا طالب حاجة وهو مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه. ولقد كان رؤوفاً بالرعية ناصراً للدين مواظباً على تلاوة القرآن العزيز عالماً بما فيه عاملاً به لا يعدوه أبداً رحمة الله عليه. وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته. ولقد رأيت واستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له ابن زهير على تقي الدين ابن أخيه فأنفذ إليه ليحضر إلى مجلس الحكم وكان تقي الدين من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ولكنه لم يحابه في الحق.

وأعظم من هذه الحكاية مما يدل على عدله قضية جرت له مع إنسان تاجر يدعى عمر الخلاطي وذلك أنني كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل على شيخ حسن تاجر معروف يسمى عمر الخلاطي معه كتاب حكمي يسأل فتحه فسألته من خصمك فقال "خصمي السلطان وهذا بساط العدل وقد سمعنا أنك لا تحابي أحد" قلت "وفي أي قضية هو خصمك" فقال "إن سنقر الخلاطي كان مملوكي ولم يزل على ملكي إلى أن مات وكان في يده أموال عظيمة كلها لي ومات عنها واستولى عليها السلطان وأنا مطالبه بها" فقلت له "يا شيخ وما أقعدك إلى هذه الغاية" فقال "الحقوق لا تبطل بالتأخر وهذا الكتاب الحكمي ينطق بأنه لم يزل في ملكي إلى أن مات". فأخذت الكتاب منه وتصفحت مضمونه فوجدته يتضمن حلية سنقر الخلاطي وأنه قد اشتراه من فلان التاجر بأرجيش اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وأنه لم يزل في ملكه إلى أن شذ عن يده في سنة كذا وما عرف شهود هذا الكتاب خروجه عن ملكه بوجه ما وتم الشرط إلى آخره فتعجبت من هذه القضية وقلت للرجل "لا ينبغي سماع هذا بلا وجود الخصم وأنا أعرفه وأعرفك ما عنده في ذلك"، فرضي الرجل بذلك واندفع. فلما اتفقي المثل بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القضية فاستبعد ذلك استبعاداً عظيماً وقال "كنت نظرت في الكتاب" فقلت "نظرت فيه ورأيت متصل الورود والقبول إلى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكمي من دمشق وشهد به على يد قاضي دمشق شهود معروفون" فقال مبارك "نحن نحضر الرجل ونحاكمه ونعمل في القضية ما يقضيه الشرع". ثم اتفق بعد ذلك جلوسه معي خلوة فقلت له: "هذا الخصم يتردد ولا بد أن نسمع دعواه" فقال "أقم عني وكيلا يسمع الدعوى ثم تقيم الشهود شهادتهم وأخر فتح الكتاب إلى حين حضور الرجل ها

هنا"، ففعلت ذلك ثم أحضر الرجل واستدناه حتى جلس بين يديه وكنت إلى جانبه ثم نزل من طراحته حتى ساواه وقال "إن كان لك دعوى فاذكرها" فحرر الرجل الدعوى على معنى ما شرح أولاً، فأجابه السلطان أن سنقر هذا كان مملوكي ولم يزل على ملكي حتى أعتقته وتوفي وخلف ما خلفه لورثته، فقال الرجل "لي بينة تشهد بما ادعيت" ثم سأل فتح كتابه ففتحه فوجدته كما شرحه، فلما سمع السلطان التاريخ قال لي "عندي من يشهد أن سنقر هذا في هذا التاريخ كان في ملكي وفي يدي بمصر وأناي اشتريته مع ثمانية أنفس في تاريخ متقدم على هذا التاريخ بسنة وأنه لم يزل في يدي وملكلي إلى أن أعتقته"، ثم استحضر جماعة من أعيان الأمراء والمجاهدين فشهدوا بذلك وذكروا القصة كما ذكرها والتاريخ كما ادعاه، فابلس الرجل فقلت له "يا مولاي هذا الرجل ما فعل ذلك إلا طلباً لمراحم السلطان وقد حضر بين يدي المولى ولا يحسن أن يرجع خائب القصد" فقال: "هذا باب آخر"، وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة قد شذ عني مقدارها. فانظر إلى ما في طي هذه القضية من المعاني الغريبة العجيبة والتواضع والانقياد إلى الحق وإرغام النفس والكرم في موضع المؤاخذه مع القدرة التامة، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ذكر طرف من كرمه رحمه الله

قال صلى الله عليه وسلم إذا عثر الكريم فإن الله أخذ بيده وفي الكرم أحاديث، وكرمه قدس الله روحه، كان أظهر من أن يسطر، وأشهر من أن يذكر لكن نبهت عليه جملة، وذلك أنه ملك ما ملك ومات ولم يوجد في خزانته من الفضة إلا سبعة وأربعون درهماً ناصرية ومن الذهب إلا جرم واحد صوري ما علمت وزنه، وكان رحمه الله يهب الأقاليم وفتح آمد^[142] وطلبها منه ابن قره أرسلان^[143] فأعطاه إياه.

ورأيت قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ولم يكن في الخزانة ما يعطى للوفود، فلم أزل أخاطبه في معناتهم، حتى باع أشياء من بيت المال، وفرضنا ثمنها عليهم ولم يفضل منه درهم واحد. وكان رحمه الله يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة. وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم معهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه، وسمعتة يقول في معرض حديث جري: "يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب" فكانه بذلك أراد نفسه، رحمه الله تعالى.

وكان يعطي فوق ما يؤمل الطالب فما سمعته قط يقول أعطينا لفلان. وكان يعطي الكثير ويبسط وجهه للعطاء بسطه لمن لم يعطه شيئاً. وكان

رحمه الله يعطي ويكرم أكثر مما يعطي وكان قد عرفه الناس فكانوا يستزيدونه في كل وقت وما سمعته قط يقول قد زدت مراراً فكم أزيد.
وأكثر الرسائل كانت تكون في ذلك على لساني ويدي وكنت أخجل منه من كثرة ما يطلبون ولا أخجل منه من كثرة ما أطلبه لهم لعلمي بعدم مؤاخذته في ذلك، وما خدمه أحد إلا وأغناه عن سؤال غيره.
أما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلاً وقد سمعت من صاحب ديوانه يقول لي قد تجارينا عطاياه فحصرنا عدد ما وهب من الخيل بمرج عكا فكان عشرة آلاف فرس. ومن شاهد مواهبه يستقل هذا القدر. اللهم إنك ألهمته الكرم وأنت أكرم منه فتكرم عليه برحمتك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

ذكر شجاعته قدس الله روحه

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية.

ولقد كان رحمه الله تعالى من عظماء الشجعان قوي النفس شديد البأس عظيم الثبات لا يهوله أمر ولقد رأيته يعطي دستوراً في أوائل الشتاء ويبقى

[144]

في شردمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير وقد سألت باليان بن بارزان وهو من كبار ملوك الساحل وهو جالس بين يديه، رحمه الله، يوم انعقاد الصلح عن عدتهم، فقال الترجمان عنه أنه يقول "كنت أنا وصاحب صيدا وكان أيضاً من ملوكهم وعقلائهم قاصدين عسكرنا من صور، فلما أشرفنا عليه تجاوزناه فحزرهم هو خمس مائة ألف وحزرتهم أنا بستمائة ألف أو قال عكس ذلك" قلت "فكم هلك منهم" فقال "أما بالقتل فقريب من مائة ألف وأما بالموت والغرق فلا نعلم وما رجع من هذا العالم إلا الأقل".

وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين إذا كنا قريباً منهم. وكان رحمه الله تعالى إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد على يده جنيب ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ويرتب الأطلاب ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها. وكان يشارف العدو ويجاوره رحمه الله. ولقد قرئ عليه جزآن من الحديث بين الصفين وذلك أنني قلت له قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ولم ينقل أنه سمع بين الصفين فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً فأذن في ذلك فأحضر جزءه كما أحضر من له به سماع فقرأ عليه ونحن على ظهور الدواب بين الصفين نمشي تارة ونقف أخرى.

وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط، وكان مع ذلك في حال التفكير والتدبير تذكر بين يديه الأقسام كلها، ويرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حدة ولا غضب يعتريه. ولقد انهزم المسلمون في يوم

[145] المصاف الأكبر بمرج عكا، حتى القلب ورجاله، ووقع الكؤوس والعلم، وهو -رضي الله عنه - ثابت القدم في نفر يسير، حتى انحاز إلى الجبل بجميع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم، وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس، ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة، إلى أن ظهر له ضعف المسلمين، فصالح وهو مسؤول من جانبهم، فإن الضعف والهلاك كان فيهم أكثر، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ونحن لا نتوقعها، وكانت المصلحة في

[146] الصلح، وظهر ذلك لما أبدت الأقضية الإلهية والأقدار ما في مكنونها . وكان رحمه الله يمرض ويصح وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط، وتترأى

[147] الناران ونسمع منهم صوت الناقوس ويسمعون منا صوت الأذان إلى أن انقضت الواقعة على أحسن حال وأيسره، قدس الله روحه ونور ضريحه. [148]

ذكر اهتمامه بأمر الجهاد

قال الله تعالى: {والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا وإن الله لمع

[149] المحسنين} ونصوص الجهاد كثيرة. ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه. ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً بحيث ما كان له حديث إلا فيه ولا نظر إلا في آله ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه. ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر بلاده وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة. ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة رحيمة على مرج عكا فلو لم يكن في البرج لقتلته ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتماماً. كان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد وأنا ممن جمع له فيه كتاباً جمعت فيه آدابه وكل آية وردت فيه وكل حديث روي في فضله وشرحت غريبها.

وكان رحمه الله كثيراً ما يطالعه، حتى أخذه منه ولده الملك الأفضل عز

[150] نصره، ولأحكي عن ما سمعته منه، وذلك أنه كان قد أخذ كوكب في ذي القعدة سنة أربع وثمانين وخمسمائة (كانون ثاني/يناير 1189) وأعطى العسكر

[151] دستوراً ، وأخذ عسكر مصر في العود إلى مصر، وكان مقدمها أخاه الملك

[152] العادل عز نصره، فسار معه ليودعه ويحظى بصلاة العيد في القدس

الشريف حرسه الله تعالى وسرنا في خدمته. ولما صلى العيد في القدس وقع له أن يمضي إلى عسقلان ويودعهم بعسقلان ثم يعود على طريق الساحل يتفقد البلاد الساحلية إلى عكا ويرتب أحوالها، فأشاروا عليه أن يفعل فإن العساكر إذا فارقتنا نبقى في عدة يسيرة والفرنج كلهم بصور، وهذه مخاطرة عظيمة، فلم يلتفت رحمه الله، وودع أخاه والعسكر بعسقلان، ثم سرنا في خدمته إلى الساحل طالبي عكا. وكان الزمان شتاء والبحر هائجاً شديداً،

[153]

وموجه كالجبال ، كما قال تعالى، وكنت حديث عهد برؤية البحر فعظم أمر البحر عندي حتى خيل لي أنني لو قال لي: إن جرت في البحر ميلاً واحداً ملكتك الدنيا، لما كنت أفعل، واستسختت رأي من ركب البحر رجاء دينار أو درهم،

[154]

واستحسننت رأي من لا يقبل شهادة راكب بحر ، هذا كله خطر لي لعظم الهول الذي شاهدته من حركة البحر، فبينما أنا في ذلك إذ التفت إلي رحمه الله، وقال "أما أحكي لك شيئاً في نفسي أنه متى يسر الله تعالى فتح بقية الساحل قسمت البلاد وأوصيت وودعت وركبت هذا البحر إلى جزائره واتبعتهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت" فعظم وقع هذا الكلام عندي حيث ناقض ما كان خطر لي وقلت له "ليس في الأرض أشجع نفساً من المولى، ولا أقوى منه نية في نصرته دين الله تعالى". فقال "فكيف" فقلت "أما الشجاعة فلأن مولانا ما يهوله أمر هذا البحر وهوله. وأما نصرته دين الله فهو أن المولى ما يقنع بقلع أعداء الله من موضع مخصوص في الأرض حتى تطهر جميع الأرض منهم"، واستأذنت أن أحكي له ما كان خطر لي فحكيت له ثم قلت "ما هذه إلا نية جميلة ولكن المولى يسير في البحر العساكر وهو سور الإسلام ومنعته فلا ينبغي له أن يخاطر بنفسه"، فقال "أنا أستفتيك ما أشرف الميئات؟" فقلت "الموت في سبيل الله" فقال "غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميئات". فانظر إلى هذه الطوبة ما أطهرها وإلى هذه النفس ما أشجعها وأجرأها، رحمة الله عليه. اللهم إنك تعلم أنه بذل جهده في نصرته دينك، وجاهد رجاء رحمتك، فارحمه.

صبره واحتسابه رحمة الله عليه

قال الله سبحانه وتعالى: {ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور

[155]

رحيم} . ولقد رأيته رحمه الله بمرج عكا وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماويل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرق على الناس. وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبياً القتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب،

يطوف على الأطلاب، صابراً على شدة الألم، وقوة ضربان الدمامل، وأنا أعجب من ذلك فيقول "إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل" وهذه عناية ربانية.

[156] ولقد مرض -رحمه الله- ونحن على الخرنوبة وكان قد تأخر عن تل الحجل بسبب مرضه، فبلغ الإفرنج فخرجوا طمعاً في أن ينالوا شيئاً من المسلمين، وهي نوبة النهر فخرجوا في مرحلة الآبار التي تحت التل. فأمر

[157] رحمه الله بالثقل حتى يتجهز بالرحيل والتأخر عن جهة الناصرة. وكان عماد الدين صاحب سنجار متمرصاً أيضاً فأذن له أن يتأخر مع الثقل، وأقام هو، ثم رحل العدو في اليوم الثاني بطلبنا، فركب على مضض ورتب العسكر للقاء القوم تعبئة الحرب، وجعل طرف الميمنة الملك العادل وطرف الميسرة تقي الدين وجعل ولده الملك الظاهر والملك الأفضل -عز نصرهما - في القلب ونزل هو وراء القوم يطلبهم. وأول ما نزل من التل أحضر بين يديه أفرنجي قد أسر من القوم، فأمر بضرب عنقه بين يديه بعد عرض الإسلام عليه وإبائه عنه، وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة، ثم ينزل يستريح ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً. ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر ونزل هو قبالتهم على تل مطل عليهم، إلى أن دخل الليل. ثم أمر العساكر المنصورة إن عادت إلى محل المصابرة وأن يبيتوا تحت السلاح، وتأخر هو ونحن في خدمته إلى قمة الجبل، فضربت له خيمة لطيفة، وبتنا تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشأغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى حتى لاح الصباح، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت العساكر، وأحدقت بالعدو ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة. وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب وعارض الجيش والغلمان بأيديهم الأعلام والبيارق لا غير، فيظن الرائي لها عن بعد أن تحتها خلقاً عظيماً. ولم يزل العدو سائراً والقتل يعمل فيهم وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح منهم رجل حملوه حتى لا يبقى بعدهم من يعلم قتله وجرحه وهم سائرون ونحن نشاهدهم حتى اشتد بهم الأمر، ونزلوا عند الجسر، وكان الإفرنج متى نزلوا إلى الأرض آيس المسلمون من بلوغ غرض منهم لأنهم يجتمعون في حالة النزول جماعة عظيمة. وبقي رحمه الله في موضعه، العساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم. وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية وعاد العسكر في الصباح إلى ما كان عليه بالأمس من مضايقة العدو، ورحل العدو، وسار على ما مضى من

القتل والقتال حتى دنا إلى خيامه وخرج إليه منها من أنجده حتى وصلوا إلى خيامهم. فانظر إلى هذا الصبر والاحتساب وإلى أي غاية بلغ هذا الرجل. اللهم إنك ألهمته الصبر والاحتساب ووفقته فلا تحرمه ثوابه يا أرحم الراحمين.

ولقد رأيته رحمه الله تعالى وقد جاءه خبر وفاة ولد له بالغ يسمى إسماعيل فوقف على الكتاب ولم يعرف أحداً ولم يعرف حتى سمعناه من غيره ولم يظهر عليه شيء من ذلك سوى أنه لما قرأ الكتاب دمعت عينه. ولقد رأيته ليلة على صفد وهو يحاصرها وقد قال لا ننام الليلة حتى تنصب لنا خمس مناجيق، ورتب لكل منجنيق قوماً يتولون نصبه، وكنا طول الليل في خدمته، قدس الله روحه- في ألد مفاكهة وأرغد عيش، والرسول تتواصل تخبره بأن قد نصب من المنجنيق الفلاني كذا ومن المنجنيق الفلاني كذا، حتى أتى الصباح وقد فرغ منها ولم يبق إلا تركيب خنازيرها عليها، وكانت من أطول الليالي وأشدّها برداً ومطرأً. ورأيته وقد وصل إليه خبر وفاة تقي الدين ابن أخيه ونحن في مقابلة الإفرنج جريدة على الرملة وبيننا وبينهم شوط فرس لا غير، فأحضر الملك العادل وعلم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين، وأمر بالناس فطردوا من قريب الخيمة بحيث لم يبق حولها أحد زيادة عن غلوة سهم، ثم أظهر الكتاب ووقف عليه وبكى بكاءً شديداً حتى أبكنا من غير أن نعلم السبب، ثم قال -رحمه الله - والعبرة تخنقه، "توفي تقي الدين" فاشتد بكاءؤه وبكاء الجماعة ثم عدت إلى نفسي فقلت "استغفروا الله تعالى من هذه الحالة وانظروا أين وفيم أنتم وأعرضوا عما سواه" فقال رحمه الله "نعم أستغفر الله"، وأخذ يكررها ثم قال "لا يعلم أحد" واستدعى بشيء من الماورد فغسل عينيه ثم أشخص الطعام وحضر الناس ولم يعلم بذلك أحد حتى عاد العدو إلى يافا وعدنا نحن إلى النطرون وهو مقر ثقلنا.

وكان رحمه الله شديد الشغف والشفقة بأولاده الصغار وهو صابر على مفارقتهم راض ببعدهم، وكان صابراً على مر العيش وخشوته مع القدرة التامة على غير ذلك احتساباً لله تعالى. اللهم إن ترك ذلك ابتغاء مرضاتك فارض عنه وارحمه.

ذكر نبذ من حلمه وعفوه رحمه الله

[158]

قال الله سبحانه وتعالى: {والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} . لقد كان متجاوزاً قليل الغضب ولقد كنت في خدمته بمرج عيون قبل خروج الإفرنج إلى عكا -يسر الله فتحها- وكان من عادته أن يركب في وقت الركوب، ثم ينزل فيمد الطعام ويأكل مع الناس، ثم ينهض إلى خيمة خاصة له ينام فيها، ثم يستيقظ من منامه، ويصلي ويجلس خلوة وأنا في خدمته نقرأ شيئاً من الحديث أو شيئاً من الفقه، ولقد قرأ علي كتاباً مختصراً تصنيف الرازي يشتمل على الأرباع الأربعة من الفقه. ونزل يوماً على عادته ومد الطعام بين يديه ثم

عزم على النهوض فقبل له أن "وقت الصلاة قد قرب" فعاد إلى الجلوس وقال "نصلي وننام" ثم جلس يتحدث حديث متضجر وقد أخلا المكان إلا ممن لزم. فتقدم إليه مملوك كبير محترم عنده وعرض عليه قصة لبعض المجاهدين فقال "هل أنا الآن ضجران آخرها ساعة"، فلم يفعل، وقدم القصة إلى قريب من وجهه الكريم بيده وفتحها بحيث يقرأها فوقف على الاسم المكتوب في رأسها فعرفه، فقال "رجل مستحق" فقال "يوقع المولى له" فقال "ليست

[159]

الدواة حاضرة الآن" وكان - رحمه الله - جالساً في باب الخركاه بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليها والدواة في صدرها والخركاه كبيرة، فقال له المخاطب "هذه الدواة في صدر الخركاه"، وليس لهذا معنى إلا أمره إياه بإحضار الدواة لا غير، فالتفت - رحمه الله - فرأى الدواة فقال "والله لقد صدق" ثم امتد على يده اليسرى ومد يده اليمنى فأحضرها ووقع له. فقلت قال الله تعالى في حق نبيه صلى الله عليه وسلم {وإنك لعلی خلق

[160]

عظيم} . وما أرى المولى إلا قد شاركه في هذا الخلق فقال "ما ضرنا شيئاً قضينا حاجته وحصل الثواب"، ولو وقعت هذه الواقعة لأحاد الناس وأفرادهم لقام وقعد ومن الذي يقدر أن يخاطب أحداً هو تحت حكمه بمثل ذلك وهذا

[161]

غاية الإحسان والحلم {والله لا يضيع أجر المحسنين}. ولقد كانت طراحته تداس عند التزاحم عليه لعرض القصص، وهو لا يتأثر لذلك. ولقد نفرت يوماً بغلتي من الجمال، وأنا راكب في خدمته، فزحمت وركه حتى آلمته، وهو يتبسم - رحمه الله. ولقد دخلت بين يديه في يوم ربح مطير إلى القدس الشريف، وهو كثير الوحل فنضحت البغلة عليه من الطين، حتى أتلفت جميع ما كان عليه، وهو يتبسم، وأردت التأخر عنه بسبب ذلك فما تركني.

ولقد كان يسمع من المستغيثين والمتظلمين أغلظ ما يمكن أن يسمع ويلقى ذلك بالبشر والقبول. وهذه حكاية يندر أن يسطر مثلها: وذلك أنه كان قد اتجه أخو ملك الإفرنج (خذلهم الله) إلى يافا، فإن العسكر كان قد رحل عنهم، وبعد وتراجع إلى النطرون، وهو مكان بينه وبين يافا للعسكر مرحلتان للمجد وثلاث معتادة، وجمع - رحمه الله - العسكر ومضى إلى قيسارية يلتقي نجدتهم عساه يبلغ منهم غرضاً، وعلم الإفرنج الذين كانوا بيافا ذلك وكان بها

[162]

الأنكثار ومعه جماعة، فجهز معظم من كان عنده في المراكب إلى قيسارية خشية على النجدة أن يتم عليها أمر، وبقي الأنكثار في نفر يسير لعلمهم ببعده - رحمه الله - عنهم، وبعد العسكر، ولما وصل - رحمه الله - إلى قيسارية ورأى النجدة قد وصلت إلى البلد واحتمت به وعلم أنه لا ينال منهم غرضه، سرى من ليلته في أول الليل إلى آخره حتى أتى يافا صباحاً. والأنكثار

في سبعة عشر فارساً وثلاثمائة راجل، نازل خارج البلد في خيمة له، فصبحه العسكر صباحاً. فركب الملعون، وكان شجاعاً بأسلاً صاحب رأي في الحرب، وثبت بين يدي العسكر ولم يدخل البلد. فاستدار العسكر الإسلامي بهم إلا من جهة البحر، وتعبى العسكر تعبى القتال. وأمر السلطان العسكر بالحملة انتهازاً للفرصة، فأجابه بعض الأكراد بكلام فيه خشونة حاصلة، فعتب لعدم التوفير في إقطاعه. فعطف - رحمه الله - عنان فرسه كالمغضب، لعلمه أنهم لا يعملون في ذلك اليوم شيئاً، وتركهم وانصرف راجعاً، وأمر بخيمته التي كانت منصوبة أن قلعته. وانفضوا متيقنين أن السلطان في ذلك اليوم ربما صلب جماعة. ولقد حكى لي ولده الملك الظاهر (أعز الله أنصاره) أنه خاف منه في ذلك اليوم، حتى أنه لم يتجاسر أن يقع في عينيه مع أنه حمل في ذلك اليوم وأوغل، إلى أن منعه - رحمه الله. ولم يزل سائراً حتى نزل بيازور، وهي مرحلة لطيفة، فضربت له خيمة لطيفة هناك، ونزل بها ونزل العسكر في منازلهم تحت صوارنيات لطيفة، كما جرت العادة في مثل ذلك. وما من أمراء إلا من يرعد خيفة منه ومن يعتقد أنه مأخوذ مسخوط عليه. قال "ولم تحدثني نفسي بالدخول عليه خيفة منه، حتى استدعاني، قال "فدخلت عليه وقد وصله من دمشق المحروسة فأكهة كثيرة، فقال "اطلبوا الأمراء حتى يأكلوا شيئاً" قال "فسرني عني ما كنت أجده وطلبت الأمراء فحضروا وهم خائفون فوجدوا من بشره وانبساطه ما أحدث لهم الطمأنينة والأمن والسرور، وانصرفوا على عزم الرحيل كأن لم يجر شيء أصلاً. فانظر إلى هذا الحلم الذي لا يتأتى في مثل هذا الزمان ولا يحكى عمن تقدم من الملوك.

ذكر محافظته على أسباب المروءة

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق). وكان صلى الله عليه وسلم إذا صافحه الرجل لا يترك يده حتى يكون الرجل هو التارك الذي يبدأ بذلك. ولقد كان السلطان كثير المروءة ندي اليد كثير الحياء مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده ولا يخاطبه بشيء إلا وينجزه، وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً. ولقد وفد عليه البرنس، صاحب إنطاكية، فما أحس به إلا وهو واقف على باب خيمته، بعد وقوع الصلح في شهر شوال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة (تشرين الثاني/نوفمبر 1192) عند منصرفه من القدس إلى دمشق، عرض له في الطريق وطلب منه شيئاً، فأعطاه العمق، وهي بلاد كان أخذها منه عام فتح الساحل وهو سنة أربع وثمانين (1188-1189). ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب صيدا بالناصره فاحترمه وأكرمه وأكل معه الطعام، ومع ذلك عرض عليه الإسلام، فذكر له طرفاً من محاسنه وحته عليه.

وكان يكرم من يرد عليه من المشايخ وأرباب العلم والفضل وذوي الأقدار،

وكان يوصينا بأن لا تغفل عمن يجتاز بالخيم من المشايخ^[163] المعروفين حتى يحضرهم عنده وينالهم من إحسانه.

ولقد مر بنا سنة أربع وثمانين وخمسة مائة رجل جمع بين العلم والتصوف وكان من ذوي الأقدار وأبوه صاحب تبريز فأعرض هو عن فن أبيه واشتغل بالعلم والعمل وحج ووصل زائراً لبيت الله المقدس، ولما قضى لباتته منه ورأى آثار السلطان رحمه الله فيه وقع له زيارته، فوصل إلينا إلى المعسكر المنصور، فما أحسست به إلا وقد دخل علي في الخيمة، فلقيته ورحبت به وسألته عن سبب ذلك ووصوله فأخبرني بذلك، وأنه يؤثر زيارة السلطان لما رأى له من الآثار الحميدة الجميلة. فعرفت السلطان بذلك في ليلة وصول هذا الرجل فاستحضره، وروى عنه حديثاً، ثم انصرفنا وبات عندي في الخيمة، فلما صليت الصبح أخذ يودعني، فقبحت له المسير بدون وداع السلطان، فلم يلتفت ولم يلو على ذلك، وقال "قد قضيت حاجتي منه ولا عرض لي فيما عدا رؤيته وزيارته"، وانصرف من ساعته. ومضى على ذلك ليال فسأل السلطان عنه فأخبرته بفعله، فظهر عليه آثار الغضب كيف لم أخبره برواحه، وقال "كيف يطرقنا مثل هذا الرجل وينصرف عنا من غير إحسان يمسه منا"، وشدد النكير علي في ذلك. فما وجدت بداً من أن أكتب كتاباً إلى محيي الدين قاضي دمشق كلفته فيه السؤال عن حال الرجل، وإيصال رقعة كتبها إليه طي كتابي، أخبره فيها بإنكار السلطان رواحه من غير اجتماعه به، وحسنت له فيها العود، وكان بيني وبينه صداقة تقتضي مثل ذلك، فما أحسست به إلا وقد عاد إلي، فرحب به السلطان، وانبسط معه وأمسكه أياماً، ثم خلع عليه خلعة حسنة، وأعطاه مركباً لاثقاً وثياباً كثيرة يحملها إلى بنيه وأتباعه وجيرانه، وانصرف عنه وهو أشكر الناس وأخلصهم دعاءً لأيامه.

ولقد رأيته وقد مثل بين يديه أسير إفرنجي قد أصابه كرب، بحيث أنه ظهرت عليه أمارات الخوف والجزع. فقال للترجمان "من أي شيء يخاف"، فأجروا الله على لسانه أن قال "كنت أخاف قبل أن أرى هذا الوجه فبعد رؤيتي له وحضوري بين يديه أيقنت أنه ما أرى إلا الخير". فرق له، ومنّ عليه، وأطلقه. ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج وقد وصل بعض اليزكية، ومعه امرأة شديدة التخوف كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها. قال اليزكي "إن هذه خرجت من عند الإفرنج، فسألت الحضور بين يديك وقد أتينا بها"، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها، فقالت "للصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي وبنت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار"، فقال لي المملوك "السلطان هو أرحم ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه"، فأخرجوني إليك وما أعرف ابنتي إلا منك". فرق لها ودمعت عينه وحركته مروءته وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن

الصغيرة، من اشتراها، ويدفع له ثمنها ويحضرها، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه. فما كان إلا أن وقع نظرها عليها فخرت إلى الأرض تعفر وجهها في التراب، والناس يكون على ما نالها وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا تعلم ما تقول فسلمت ابنتها إليها، وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم.

وكان لا يرى الإساءة إلى من صحبه وإن أفرط في الخيانة ولقد أبدل في خزائنه كيسان من الذهب المصري بكيسين من الفلوس فما عمل بالنواب شيئاً سوى أن صرفهم من عملهم لا غير.

[164] ولقد دخل البرنس أرناط صاحب الكرك مع ملك الإفرنج بالساحل لما أسرهما في وقعة حطين في شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسائة (1187)

[165] والواقعة مشهورة تجيء مشروحة في موضعها إن شاء الله تعالى. وكان قد أمر بإحضارهما، وكان أرناط هذا اللعين كافراً عظيماً جباراً شديداً وكانت قد اجتازت به قافلة من مصر، حين كان بين المسلمين وبينهم هدنة، فغدرها وأخذها ونكل بهم وعذبهم وأسكنهم المطامير والحبوس الحرجة، وذكروا له حديث الهدنة فقال "قولوا لمحمدكم يخلصكم"، فلما بلغه -رحمه الله- ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه. فلما أمكنه الله منه في ذلك اليوم قوى عزمه على قتله وفاءً بنذره. فأحضره مع الملك، فشكا الملك العطش، فأحضر له قدحاً من شراب، فشرب منه ثم ناوله أرناط، فقال السلطان للترجمان "قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما أسقيه من شرابي ولا أطعمه من طعامي"، فقصد -رحمه الله- أن من أكل من طعامي فالمروءة تقتضي أن لا أؤذيه، ثم ضرب عنقه بيده وفاءً بنذره. وأخذ عكا، وأخرج الأسرى كلهم من ضيق الأسر، وكانوا زهاء أربعة آلاف أسير، وأعطى كل واحد منهم نفقة يصل بها إلى بلده وأهله. هكذا بلغني على السنة جماعة، لأنني لم أحضر هذه الواقعة.

وكان حسن العشرة لطيف الأخلاق طيب الفكاهة حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم عارفاً بسيرهم وأحوالهم حافظاً لأنساب خيلهم عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره. وكان حسن الخلق يسأل الواحد منا عن مرضه ومداواته ومطعمه ومشربه وتقلبات أحواله. وكان طاهر المجلس لا يذكر بين يديه أحد إلا بخير السمع، فلا يحب أن يسمع عن أحد إلا الخير، وطاهر اللسان فما رأته ولع بشتيم قط، وكان حسن العهد والوفاء فما أحضر بين يديه يتيم إلا وترجّم على مخلفيه وجبر قلبه

[166] وأعطاه خبز أبيه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد عليه سلمه إياه، وإلا أبقى له من الخبز ما يكف حاجته، وسلمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها. وكان

لا يرى شيخاً إلا ويرق له ويعطيه ويحسن إليه ولم يزل على هذه الأخلاق إلى أن توفاه الله إلى مقر رحمته ومكان رضوانه.
فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والسأمة وما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني الثقة به وحققته وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له وهو يسير فيما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته وتقدمت خدمته ولكن هذا القدر يكفي الأديب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال.

من المعروف أن 583/1187 كان عام النصر الذي توج الحملات الاسلامية التي قادها صلاح الدين. فبعد انتصارات

حطين المدوية، والتي بدا أنها حطمت قوى الصليبيين في الأراضي المقدسة، بدأت تتساقط

كثير من مراكزهم الساحلية، ثم حدثت الخسارة الكبيرة التي اصابته العالم المسيحي

برجوع القدس للمسلمين واستسلامها بطريقة سطعت فيها انسانية السلطان الايوبي وحكمة

تدبيره. سيرشدنا في رواية هذه الاحداث كل من عماد الدين وابن الاثير (أما بهاء

الدين فقد كان شاهد عيان منذ عام 1188 فقط): وسنستشهد بالمصدرين السابقين لرواية وقائع حطين واستسلام القدس، على أنه من

المفيد مقارنة بينهما ببعضهما من نواحي الشكل والمضمون، إذ أن اعتدال ابن الأثير ووضوح

روايته ورصانتها جعلتنا نقدمها على الرواية المطرزة المتعبة التي كتبها عماد الدين، مع أن هذا هو شاهد أقوى لأنه عاش عن قرب الوقائع المروية.

وقائع

حطين

(ابن الأثير، 351-11/347)

ذِكْرُ اخْتِلَافِ الْفِرْنَجِ

بِالشَّامِ، وَانْجَبَارِ الْقُمَّصُ صَاحِبُ طَرَابُلُسَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ
كَانَ الْقُمَّصُ، صَاحِبُ

[167] طَرَابُلُسَ، وَاسْمُهُ رِيْمَنْدُ بْنُ رِيْمَنْدَ الصَّنَجَلِيُّ ،

[168] قَدْ تَزَوَّجَ بِالْقَوْمَصَةِ، صَاحِبَةِ طَبْرِیَّةَ ،
وَائْتَقَلَ إِلَيْهَا، وَأَقَامَ عِنْدَهَا بِطَبْرِیَّةَ. وَمَاتَ مَلِكُ

[169] الْفَرِیْجِ بِالشَّامِ، وَكَانَ مَجْدُومًا ،

[170] وَأَوْصَى بِالْمَلِكِ إِلَى ابْنِ أُخْتٍ لَهُ، وَكَانَ صَغِيرًا ،
فَكَفَلَهُ الْقُمَّصُ، وَقَامَ بِسِيَاسَةِ الْمَلِكِ وَتَدْيِيرِهِ لِأَنَّهُ
لَمْ يَكُنْ لِلْفَرِیْجِ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَكْبَرُ مِنْهُ شَأْنًا، وَلَا
أَشْجَعُ رَأْيًا مِنْهُ، فَطَمِعَ فِي الْمَلِكِ بِسَبَبِ هَذَا الصَّغِيرِ،
فَأُتِفِقَ أَنَّ الصَّغِيرَ يُؤَقَّبَ، فَائْتَقَلَ الْمَلِكُ إِلَى أُمِّهِ،
فَبَطَلَ مَا كَانَ الْقُمَّصُ يُحَدِّثُ تَفْسَهُ [بِهِ]. ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ

[171] الْمَلِكَةُ هَوَيْثُ

رَجُلًا مِنَ الْفَرِیْجِ الَّذِينَ قَدِمُوا الشَّامَ مِنَ الْعَرَبِ اسْمُهُ
كَبِي، فَتَزَوَّجَتْهُ، وَتَقَلَّتِ الْمَلِكَ إِلَيْهِ، وَجَعَلَتِ النَّاجَ عَلَى
رَأْسِهِ، وَأَخْصَرَتِ الْبَطْرَكَ، وَالْقُسُوسَ، وَالرُّهْبَانَ،
وَالْأَسْبِثَارِيَّةَ، وَالذَّائِبِيَّةَ، وَالْبَارُونِيَّةَ، وَأَعْلَمَتْهُمْ
أَنَّهَا قَدْ رَدَّتِ الْمَلِكَ إِلَيْهِ، وَأَشْهَدَتْهُمْ عَلَيْهَا بِذَلِكَ،

فَاطَاغُوهُ، وَدَانُوا لَهُ. فَعَظَمَ ذَلِكَ عَلَى الْقُمُصِ، وَشَقِطَ فِي
يَدَيْهِ، وَطُولِبَ بِحِسَابِ مَا جَبَى مِنَ الْأَمْوَالِ مُدَّةَ وَلَايَةِ
ذَلِكَ الصَّبِيِّ، فَادَّعَى أَنَّهُ أَنْفَقَهُ عَلَيْهِ، وَزَادَهُ ذَلِكَ
ثُغُورًا، وَجَاهَرَ بِالْمُشَاقَّةِ وَالْمُبَايَنَةِ، وَرَاسَلَ صَلَاحَ
الدِّينِ، وَاتَّصَى إِلَيْهِ، وَاعْتَصَدَ بِهِ، وَطَلَبَ مِنْهُ الْمُسَاعَدَةَ
عَلَى بُلُوغِ عَرَضِهِ مِنَ الْفِرْنِجِ. فَقَرِحَ صَلَاحُ الدِّينِ
وَالْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ، وَوَعَدَهُ النُّصْرَةَ، وَالسَّعْيَ لَهُ فِي كُلِّ
مَا يُرِيدُ، وَصَمِنَ لَهُ أَنَّهُ يَجْعَلُهُ مَلِكًا مُسْتَقِلًّا لِلْفِرْنِجِ
قَاطِبَةً، وَكَانَ عِنْدَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ فُزْسَانَ الْقُمُصِ أَسْرَى فَأَطْلَقَهُمْ.
فَحَلَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ أَعْظَمَ مَحَلٍّ، وَأَظْهَرَ طَاعَةً صَلَاحِ الدِّينِ،
وَوَاقَفَهُ عَلَى مَا فَعَلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفِرْنِجِ، فَاخْتَلَفَتْ
كَلِمَتُهُمْ وَتَفَرَّقَ شَمْلُهُمْ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ
الْمُوجِبَةِ لِفَتْحِ بِلَادِهِمْ، وَاسْتِنْقَازِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ
مِنْهُمْ، عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ. وَسَيَّرَ صَلَاحُ الدِّينِ
السَّرَاطِي تَاجِيَةً طَبْرِيَّةً، فَشَنَّتِ الْعَارَاتِ عَلَى بِلَادِ
الْفِرْنِجِ، وَخَرَجَتْ سَالِمَةً غَانِمَةً، فَوَهَنَ الْفِرْنِجُ بِذَلِكَ،
وَضَعُفُوا وَتَجَرَّأَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ، وَطَمِعُوا فِيهِمْ.

ذِكْرُ

عَذْرِ الْبِيرْنِسِ أَرْتَاطُ
كَانَ الْبِيرْنِسُ أَرْتَاطُ،

صَاحِبُ الْكَرْكِ ،

مِنْ أَعْظَمِ الْفَرِجِ وَأَحَبِّهِمْ، وَأَشَدَّهُمْ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ،
وَأَعْظَمِهِمْ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَى صَلَاحَ الدِّينِ ذَلِكَ
مِنْهُ فَصَدَّهُ بِالْحَضَرِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ، وَبِالْعَارَةِ عَلَى
يَلَدِهِ كَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَذَلَّ، وَخَصَّعَ، وَطَلَبَ الصُّلَحَ مِنْ
صَلَاحِ الدِّينِ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَهَادَتْهُ وَتَحَالَفَا،
وَتَرَدَّدَتِ الْقَوَافِلُ مِنَ الشَّامِ إِلَى مِصْرَ، وَمِنْ مِصْرَ إِلَى
الشَّامِ.

فَلَمَّا كَانَ هَذِهِ السَّنَةُ (1186/582-1187) اجْتَاَزَ بِهِ قَافِلَةُ عَظِيمَةُ غَزِيرَةُ
الْأَمْوَالِ، كَثِيرَةُ الرِّجَالِ،

وَمَعَهَا جَمَاعَةُ صَالِحَةٍ مِنَ الْأَجْنَادِ، فَعَدَرَ اللَّعِينُ بِهِمْ،
وَأَخَذَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، وَغَنِمَ أَمْوَالَهُمْ وَدَوَابَّهُمْ
وَسِلَاحَهُمْ، وَأَوْدَعَ السُّجُونَ مَنْ أَسْرَهُ مِنْهُمْ. فَأَرْسَلَ
إِلَيْهِ صَلَاحُ الدِّينِ يُلُومُهُ، وَيُقَبِّحُ فِعْلَهُ وَعَدْرَهُ،
وَيَتَهَدَّدُهُ إِنْ لَمْ يُطْلِقِ الْأَسْرَى وَالْأَمْوَالَ، فَلَمْ يُجِبْ
إِلَى ذَلِكَ، وَأَصْرَّ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ، فَتَدَّرَ صَلَاحُ الدِّينِ تَدَرًّا
أَنْ يَقْتُلَهُ إِنْ طَفَرَ [بِهِ]، فَكَانَ مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَى.

ذِكْرُ

حَضَرِ صَلَاحِ الدِّينِ الْكَرْكِ

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (583/1187) كَتَبَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى جَمِيعِ الْبِلَادِ يَسْتَنْفِرُ النَّاسَ

لِلْجِهَادِ، وَكَتَبَ إِلَى الْمُؤَصِّلِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَإِرْبِلَ
وَعَبَّيْرَهَا مِنْ بِلَادِ الشَّرْقِ، وَإِلَى مِصْرَ وَسَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ،
يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجِهَادِ، وَيَحْتُمُّهُمْ عَلَيْهِ، وَيَأْمُرُهُمْ
بِالنَّجْهِزِ لَهُ بِعَايَةِ الْإِمْكَانِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ دِمَشْقَ،
أَوَاخِرَ الْمُحَرَّمِ (نيسان/ابريل

1187)، فِي عَسْكَرِهَا

الْخَاصِّ، فَسَارَ إِلَى رَأْسِ الْمَاءِ، وَتَلَاخَقَتْ بِهِ الْعَسَاكِرُ
السَّامِيَّةُ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا جَعَلَ عَلَيْهِمْ وَلَدَهُ الْمَلِكُ
الْأَفْضَلَ عَلِيًّا لِيَجْتَمِعَ إِلَيْهِ مَنْ يَرِدُ إِلَيْهِ مِنْهَا،
وَسَارَ هُوَ إِلَى بُصْرَى، جَرِيدَةً. وَكَانَ سَبَبُ مَسِيرِهِ وَقَصْدِهِ
إِلَيْهَا أَنَّهُ أَتَتْهُ الْأَخْبَارُ أَنَّ الْبِرْنَسَ أَرْتَاطًا، صَاحِبَ
الْكَرْكِ، يُرِيدُ أَنْ يَقْصِدَ الْخُجَّاجَ لِيَأْخُذَهُمْ مِنْ طَرِيقِهِمْ،
وَأَظْهَرَ أَنَّهُ إِذَا قَرَعَ مِنْ أَخْذِ الْخُجَّاجِ يَرْجِعُ إِلَى طَرِيقِ
الْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ يَصُدُّهُمْ عَنِ الْوُضُولِ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ،
فَسَارَ إِلَى بُصْرَى لِيَمْتَنِعَ الْبِرْنَسَ أَرْتَاطًا مِنْ طَلَبِ الْخُجَّاجِ،
وَيَلْزَمَ بَلَدَهُ حَوْفًا عَلَيْهِ.

وَكَانَ مِنَ الْخُجَّاجِ

جَمَاعَةٌ مِنْ أَقَارِبِهِ مِنْهُمْ مُحَمَّدُ بْنُ لَاجِينَ، وَهُوَ ابْنُ
أُخْتِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَعَبَّيْرُهُ، فَلَمَّا سَمِعَ أَرْتَاطُ يُقْرَبُ صَلَاحِ

الدِّينِ مِنْ بَلَدِهِ لَمْ يُقَارِفْهُ، وَانْقَطَعَ عَمَّا طَمِعَ فِيهِ،
فَوَصَلَ الْحُجَّاجُ سَالِمِينَ. فَلَمَّا وَصَلُوا وَقَرَعَ سِرُّهُ مِنْ
جِهَتِهِمْ سَارَ إِلَى الْكَرْكِ فَحَصَرَهُ وَصَيَّقَ عَلَيْهِ وَانْتَظَرَ
وُضُوءَ الْعَسْكَرِ الْمِصْرِيِّ، فَوَصَلُوا إِلَيْهِ عَلَى الْكَرْكِ، وَبَتَّ
سَرَائِيَهُ مِنْ هُنَاكَ عَلَى وَلَايَةِ الْكَرْكِ وَالشُّؤْبِكِ وَغَيْرِهِمَا،
فَتَهَبُوا وَخَرَّبُوا وَأَخْرَقُوا، وَالْبِرْنُسُ مَحْضُورٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى
الْمَنْعِ عَنْ بَلَدِهِ.

وَسَائِرُ الْفَرَنْجِ قَدْ

لَزِمُوا طَرَفَ بِلَادِهِمْ، خَوْفًا مِنَ الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ
الْأَفْضَلِ، فَتَمَكَّنَ مِنَ الْحَصْرِ وَالنَّهْبِ وَالنَّحْرِيقِ
وَالنَّحْرِيبِ، هَذَا فِعْلُ صَلَاحِ الدِّينِ.

ذِكْرُ

الْعَارَةِ عَلَى بَلَدِ عَكَّا

أَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى

وَلَدِهِ الْأَفْضَلِ بِأَمْرِهِ أَنْ يُرْسِلَ قِطْعَةً صَالِحَةً مِنَ الْجَيْشِ
إِلَى بَلَدِ عَكَّا يَنْهَبُونَهُ وَيُخَرَّبُونَهُ، فَسَيَّرَ مُطَفَّرَ

الدِّينِ كُوكْبَرِيَّ بْنَ زَيْنِ الدِّينِ، وَهُوَ صَاحِبُ حَرَّانَ

وَالرُّهَّا، وَأَصَافَ إِلَيْهِ قَائِمَاؤَ النَّجْمِيِّ وَدَلْدِرَمَ

الْبَارُوقِيَّ - وَهُمَا مِنْ أَكَابِرِ الْأَمْرَاءِ - وَغَيْرَهُمَا فَسَارُوا

لَيْلًا، وَصَبَّحُوا صُفُورِيَّةً أَوْ آخِرَ صَقَر (1 أيار/مايو

(1187). فَخَرَجَ

إِلَيْهِمُ الْفَرِجُ فِي جَمْعٍ مِنَ الدَّائِيَّةِ وَالْإِسْيَارِيَّةِ
وَعَبْرِهِمَا، قَالَتْقُوا هُنَاكَ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمْ حَرْبٌ تَشِيْبُ لَهَا
الْمَقَارِقُ السُّودُ.
ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى

تَضَرُّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَانْهَزَمَ الْفَرِجُ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ
جَمَاعَةٌ، وَأُسِرَ الْبَاقُونَ، وَفِيَمَنْ قُتِلَ مُقَدَّمُ الْإِسْيَارِيَّةِ ^[173] ،
وَكَانَ مِنْ فُرْسَانِ الْفَرِجِ الْمَشْهُورِينَ، وَلَهُ الْكِتَابَاتُ
الْعَظِيمَةُ فِي الْمُسْلِمِينَ، وَتَهَبَ الْمُسْلِمُونَ مَا جَاوَرَهُمْ مِنَ
الْبِلَادِ، وَعَنِمُوا وَسَبَّوْا، وَعَادُوا سَالِمِينَ، وَكَانَ عَوْدُهُمْ
عَلَى طَبَرِيَّةَ، وَبِهَا الْقُمْصُ، فَلَمْ يُنْكَزْ ذَلِكَ، فَكَانَ فَنَحًا
كَثِيرًا، فَإِنَّ الدَّائِيَّةَ وَالْإِسْيَارِيَّةَ هُمَا جَمْرَةُ الْفَرِجِ،
وَسَيَّرَتِ الْبَشَائِرُ إِلَى الْبِلَادِ بِذَلِكَ.

ذِكْرُ

عَوْدِ صَاحِبِ الدِّينِ إِلَى عَسْكَرِهِ وَدُخُولِهِ إِلَى الْفَرِجِ
لَمَّا أَتَتْ صَاحِبَ الدِّينِ

الْبِشَارَةُ بِهَزِيمَةِ الْإِسْيَارِيَّةِ وَالْدَّائِيَّةِ، وَقُتِلَ مَنْ
قُتِلَ مِنْهُمْ، وَأُسِرَ مَنْ أُسِرَ، عَادَ عَنِ الْكَرْكِ إِلَى الْعَسْكَرِ
الَّذِي مَعَ وَلَدِهِ الْمَلِكِ الْأَفْضَلِ، وَقَدْ تَلَاَحَقَتْ سَائِرُ

الْأُمْدَادِ وَالْعَسَاكِرِ، وَاجْتَمَعَ بِهِمْ، وَسَارُوا جَمِيعًا. وَعَرَضَ
الْعَسْكَرَ، فَبَلَغَتْ عِدَّتُهُمْ اثْنِي عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ مِمَّنْ لَهُ
الْأَقْطَاعُ وَالْجَامَكِيَّةُ^[174]،

سِوَى الْمُتَطَوِّعَةِ، فَعَبَّأَ عَسْكَرَهُ قَلْبًا وَجَنَاحَيْنِ،
وَمِيمَنَةً وَمَيْسِرَةً وَجَالِسِيَّةً وَسَاقَةً، وَعَرَفَ كُلُّهُمْ مِنْهُمْ
مَوْضِعَهُ وَمَوْقِفَهُ، وَأَمَرَهُ بِمَلَارَمَتِهِ. وَسَارَ عَلَى تَغِيَّتِهِ،
فَنَزَلَ بِالْأُفْحُوَاتِ يَفْزِبُ طَبْرِيَّةً، وَكَانَ الْقُمْصُ قَدْ
اِتَّمَى إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، كَمَا ذَكَرْنَا، وَكُتِبَتْهُ مُتَّصِلَةً إِلَيْهِ
يَعِدُّهُ النَّصْرَةَ، وَيُتَمِّئِهِ الْمُعَاصِدَةَ، وَمَا يَعِدُّهُمْ

السَّيِّطَانُ إِلَّا غُرُورًا.^[175] فَلَمَّا

رَأَى الْفَرَنْجُ اجْتِمَاعَ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَتَضَمِيمَ
الْعَزْمِ عَلَى قَصْدِ بِلَادِهِمْ، أَرْسَلُوا إِلَى الْقُمْصِ الْبَطْرِكَ
وَالْقُسُوسَ وَالرُّهْبَانَ، وَكَثِيرًا مِنَ الْفُرْسَانِ، فَأَتَوْا
عَلَيْهِ ائْتِمَاءَهُ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ، وَقَالُوا لَهُ: لَا شَكَّ أَنَّكَ
أَسْلَمْتَ، وَإِلَّا لِمَ تَصِيرُ عَلَى مَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ أَمْسَ
بِالْفَرَنْجِ، يُقَتِّلُونَ الدَّائِيَّةَ وَالْإِسْبِئَارِيَّةَ،

وَيَأْسِرُونَهُمْ، وَيَجْتَازُونَ بِهِمْ عَلَيْكَ، وَأَنْتَ لَا تُنْكِرُ ذَلِكَ
وَلَا تَمْنَعُ عَنْهُ. وَوَاقِعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ عَسْكَرِ
طَبْرِيَّةَ وَطَرَابُلُسَ، وَتَهْدِدُهُ الْبَطْرُكُ أَنَّهُ يُحَرِّمُهُ،

وَيَفْسُخْ نِكَاحَ رَوْحَتِهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّهْدِيدِ. فَلَمَّا
رَأَى الْقُمُصُ شِدَّةَ الْأَمْرِ عَلَيْهِ خَافَ، فَأَعْتَذَرَ وَتَتَصَلَ
وَتَابَ، فَقَبِلُوا عُذْرَهُ، وَعَفَوْا زَلَّتَهُ، وَطَلَبُوا مِنْهُ
الْمُوَافَقَةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُؤَاوَرَةَ عَلَى حِفْظِ بِلَادِهِمْ،
فَأَجَابَهُمْ إِلَى الْمُصَالَحَةِ وَالْإِنْصِمَامِ إِلَيْهِمْ، وَالِاجْتِمَاعِ
مَعَهُمْ. وَسَارَ مَعَهُمْ إِلَى مَلِكِ الْفَرَنْجِ، وَاجْتَمَعَتْ كَلِمَتُهُمْ
بَعْدَ فُرْقَتِهِمْ، وَلَمْ تُغْنِ عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، وَجَمَعُوا
قَارِسَهُمْ وَرَاجِلَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا مِنْ عَكَّا إِلَى صُفُورِيَّةَ،
وَهُمْ يُقَدِّمُونَ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُونَ أُخْرَى، قَدْ مِلْتَ قُلُوبُهُمْ
رُغْبًا.

معركة

حطين

(ابن الأثير، 351-11/355)

ذِكْرُ قِتْحِ صَلَاحِ الدِّينِ

طَبْرِيَّةَ

لَمَّا اجْتَمَعَ الْفَرَنْجُ

وَسَارُوا إِلَى صُفُورِيَّةَ، جَمَعَ صَلَاحُ الدِّينِ أُمَرَاءَهُ
وَوُزَرَاءَهُ وَاسْتَشَارَهُمْ، فَأَشَارَ أَكْثَرُهُمْ عَلَيْهِ بِتَرْكِ
اللِّقَاءِ وَأَنْ يُضْعِفَ الْفَرَنْجَ بِسِنِّ الْعَارَاتِ، وَإِخْرَابِ

الْوَلَايَاتِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ. فَقَالَ لَهُ بَعْضُ أَمْرَائِهِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنَّنَا نَجُوسٌ يَلَادُهُمْ، وَنُكْرَبُ، وَنُحَرَّبُ،

وَنُحَرَّقُ، وَنُسَبِّ، فَإِنْ وَقَفَ أَحَدٌ مِنَ الْعَسْكَرِ الْفَرِنجِ

بَيْنَ أَيْدِينَا لَفِينَاهُ، فَإِنَّ النَّاسَ بِالْمَشْرِقِ يَلْعَنُونَنَا

وَيَقُولُونَ تَرَكَ قِتَالَ الْكُفَّارِ، وَأَقْبَلَ يُرِيدُ قِتَالَ

الْمُسْلِمِينَ، الرَّأْيُ أَنْ تَفْعَلَ فِعْلاً تُعَذِّرُ فِيهِ وَتَكُفُّ

الْأَلْسِنَةَ عَنَّا. فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ: الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تُلْقَى

بِجَمْعِ الْمُسْلِمِينَ جَمْعَ الْكُفَّارِ، فَإِنَّ الْأُمُورَ لَا تَجْرِي

بِحُكْمِ الْإِنْسَانِ، وَلَا تَعْلَمُ قُدْرَ الْبَاقِي مِنْ أَعْمَارِنَا، وَلَا

يَتَّبِعِي أَنْ تُفَرِّقَ هَذَا الْجَمْعَ إِلَّا بَعْدَ الْجِدِّ بِالْجِهَادِ. ثُمَّ

رَحَلَ مِنَ الْأَفْخَوَاتَةِ الْيَوْمَ الْخَامِسَ مِنْ نُزُولِهِ بِهَا، وَهُوَ

يَوْمُ الْخَمِيسِ لِسَنَةِ بَقِيَّةٍ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ (2 تموز/يولية

1187)، فَسَارَ حَتَّى

خَلَّفَ طَبَرِيَّةَ وَرَاءَ طَهْرِهِ، وَصَعِدَ جَبَلَهَا، وَتَقَدَّمَ حَتَّى

قَارَبَ الْفَرِنجَ، فَلَمْ يَرِ مِنْهُمْ أَحَدًا، وَلَا قَارَفُوا خِيَامَهُمْ،

فَنَزَلَ وَأَمَرَ الْعَسْكَرَ بِالنُّزُولِ.

فَلَمَّا جَنَّهُ اللَّيْلُ جَعَلَ

فِي مُقَابِلِ الْفَرِنجِ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الْقِتَالِ، وَنَزَلَ جَرِيدَةً

إِلَى طَبَرِيَّةَ وَقَاتَلَهَا، وَتَقَبَّ بَعْضُ أَبْرَاجِهَا، وَأَخَذَ

الْمَدِينَةَ عَنْوَةً فِي لَيْلَةٍ، وَلَجَأَ مَنْ بِهَا إِلَى الْقَلْعَةِ

الَّتِي لَهَا، فَاُمْتَنَعُوا بِهَا، وَفِيهَا صَاحِبُهَا، وَمَعَهَا
أَوْلَادُهَا، فَتَهَبَ الْمَدِينَةَ وَأَخْرَقَهَا.

فَلَمَّا سَمِعَ الْفِرْنَجُ

ثُرُولَ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَمُلْكَةِ الْمَدِينَةِ، وَأَخَذَ
مَا فِيهَا، وَإِخْرَاقَهَا، وَإِخْرَاقَ مَا تَخَلَّفَ مِمَّا لَا يُحْمَلُ،
اجْتَمَعُوا لِلْمَشُورَةِ، فَأَسَارَ بَعْضُهُمْ بِالنَّقْدِ إِلَى
الْمُسْلِمِينَ وَقَتَالِهِمْ، وَمَنْعِهِمْ عَنْ طَبَرِيَّةَ. فَقَالَ
الْقُمُصُ: إِنَّ طَبَرِيَّةَ لِي وَلِرَوْجَتِي، وَقَدْ فَعَلَ صَلَاحُ الدِّينِ
بِالْمَدِينَةِ مَا فَعَلَ، وَبَقِيَ الْقَلْعَةُ، وَفِيهَا رَوْجَتِي، وَقَدْ
رَضِيتُ أَنْ يَأْخُذَ الْقَلْعَةَ وَرَوْجَتِي وَمَا لَنَا بِهَا وَيَعُودَ،
فَوَاللَّهِ لَقَدْ رَأَيْتُ عَسَاكِرَ الْإِسْلَامِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا مَا
رَأَيْتُ مِثْلَ هَذَا الْعَسْكَرِ الَّذِي مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ كَثَرَةً
وَقُوَّةً، وَإِذَا أَخَذَ طَبَرِيَّةَ لَا يُمَكِّنُهُ الْمَقَامُ بِهَا، فَمَتَى
فَارَقَهَا وَعَادَ عَنْهَا أَخَذَتَاهَا، وَإِنْ أَقَامَ بِهَا لَا يَقْدِرُ
عَلَى الْمَقَامِ بِهَا إِلَّا بِجَمِيعِ عَسَاكِرِهِ، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى
الصَّبْرِ طُولَ الزَّمَانِ عَنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ فَيُضْطَرُّ إِلَى
تَرْكِهَا، وَتَفْتَكُ مَنْ أُسِيرَ مِنَّا. فَقَالَ لَهُ بَرْنَسُ أَرْتَاطُ،
صَاحِبُ الْكَرْكِ: قَدْ أَطَلْتُ فِي التَّخْوِيفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا
شَكَّ أَنَّكَ تُرِيدُهُمْ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِمْ، وَإِلَّا مَا كُنْتَ تَقُولُ
هَذَا، وَإِنَّمَا قَوْلُكَ: إِنَّهُمْ كَثِيرُونَ، فَإِنَّ النَّارَ لَا يَضُرُّهَا

كَثَرَهُ الْحَطَبِ. فَقَالَ: أَنَا وَاحِدٌ مِنْكُمْ إِنْ تَقَدَّمْتُمْ
تَقَدَّمْتُ، وَإِنْ تَأَخَّرْتُمْ تَأَخَّرْتُ، وَسَتَرُونَ مَا يَكُونُ.
فَقَوِيَ عَزْمُهُمْ عَلَى التَّقَدُّمِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ وَقِتَالِهِمْ،
فَرَحَلُوا مِنْ مُعَسَكَرِهِمُ الَّذِي لَزِمُوهُ، وَقَرَّبُوا مِنْ عَسَاكِرِ
الْإِسْلَامِ، فَلَمَّا سَمِعَ صُلَاحُ الدِّينِ بِذَلِكَ عَادَ عَنْ طَبَرِيَّةَ
إِلَى عَسَكَرِهِ، وَكَانَ قَرِيبًا مِنْهُ، وَإِنَّمَا كَانَ قَصْدُهُ
بِمُخَاصَرَةِ طَبَرِيَّةَ أَنْ يُقَارِقَ الْفِرْنَجَ مَكَاتِهِمْ لِيَتِمَّكَنَ
مِنْ قِتَالِهِمْ. وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ قَدْ تَرَلُّوا عَلَى الْمَاءِ،
وَالزَّمَانُ قَيْطٌ شَدِيدُ الْحَرِّ، فَوَجَدَ الْفِرْنَجُ الْعَطَشَ، وَلَمْ
يَتِمَّكَّنُوا مِنَ الْوُضُولِ إِلَى ذَلِكَ الْمَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ،
وَكَانُوا قَدْ أَفْتَنُوا مَا هُنَاكَ مِنْ مَاءِ الصَّهَارِيحِ وَلَمْ
يَتِمَّكَّنُوا مِنَ الرُّجُوعِ خَوْفًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَبَقُوا عَلَى
حَالِهِمْ إِلَى الْعَدِ، وَهُوَ يَوْمُ السَّبْتِ، وَقَدْ أَخَذَ الْعَطَشُ
مِنْهُمْ. وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَأَيَّاهُمْ فِيهِمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ
يَخَافُونَهُمْ، فَبَاتُوا يُحَرِّضُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَقَدْ وَجَدُوا رِيحَ
النَّصْرِ وَالطَّقْرِ، وَكُلَّمَا رَأَوْا حَالَ الْفِرْنَجِ خِلَافَ عَادَتِهِمْ
مِمَّا رَكِبَهُمْ مِنَ الْخِذْلَانِ، زَادَ طَمَعُهُمْ وَجُرْأَتُهُمْ،
فَأَكْثَرُوا التَّكْبِيرَ وَالتَّهْلِيلَ طَوْلَ لَيْلَتِهِمْ، وَرَتَّبَ

وَفَرَّقَ فِيهِمُ النَّشَابَ.

ذِكْرُ

انْهَزَامِ الْفَرَنْجِ بِحِطِّينَ

أَصْبَحَ صَلاَحُ الدِّينِ

وَالْمُسْلِمُونَ يَوْمَ السَّبْتِ لِحَمْسٍ بَقِيْنَ مِنْ رَّبِيعِ الْآخِرِ (4 تموز/يولية

1187)، فَرَكِبُوا

وَتَقَدَّمُوا إِلَى الْفَرَنْجِ، وَدَتَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ، إِلَّا أَنَّ

الْفَرَنْجِ قَدْ اشْتَدَّ بِهِمُ الْعَطَشُ وَانْخَذَلُوا، فَاقْتَتَلُوا،

وَاشْتَدَّ الْقِتَالُ، وَصَبَرَ الْقَرِيقَانِ، وَرَمَى جَالِيْشِيَّةُ

الْمُسْلِمِينَ مِنَ النَّشَابِ مَا كَانَ كَالْجَرَادِ الْمُتَشِيرِ،

فَقَتَّلُوا مِنْ خِيُولِ الْفَرَنْجِ كَثِيرًا. هَذَا الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ،

وَالْفَرَنْجِ قَدْ جَمَعُوا نُفُوسَهُمْ يَرَاغِلِهِمْ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ

سَائِرِينَ، تَخَوُّ طَبَرِيَّةَ، لَعَلَّهُمْ يَرُدُّونَ الْمَاءَ. فلما علم صلاح

الدين مقصدهم صدهم عن مرادهم، ووقف بالعسكر في وجوههم، وطفف
بنفسه على المسلمين

يحرّضهم ويامرهم بما يصلحهم وينهاهم عما يضرّهم، والناس ياتمرون لقوله
ويقفون عند

نهيهِ، فحمل مملوك من مماليكه الصبيان حملة منكرة على صف الفرنج،
فقاتل قتالاً عجب

منه الناس، ثم تكاثر الفرنج عليه فقتلوه. فحين قُتل حمل المسلمون حملة
منكرة

ضعضوا الكفار، وقتل منهم كثيراً، فلما رأى القمص شدة الامر، علم انهم لا طاقة لهم

بالمسلمين، فاتفق هو وجماعته وحملوا على من يليهم، وكان
المقدم من المسلمين، في تلك الناحية، تقي الدين
عمر ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى حملة الفرنج
حملة مكروب، علم أنه لا سبيل إلى الوقوف في وجوههم.
فأمر أصحابه أن يفتخوا لهم طريقاً يخرجون منه.
وكان بعض المتطوعة

من المسلمين قد ألقى في تلك الأرض نارا، وكان
الحشيش كثيراً فاحترق، وكانت الريح على الفرنج فحملت
حر النار والدخان إليهم، فاجتمع عليهم العطش،
وحر الزمان، وحر النار، والدخان، وحر القتال. فلما
انهزم القمص سقط في أيديهم وكادوا يستسلمون، ثم
علموا أنهم لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه،
فحملوا حمالات متدركة كادوا يزيلون [بها] المسلمين،
على كثرتهم، عن مواقفهم لولا لطف الله بهم. إلا
أن الفرنج لا يحملون حملة فيزجعون إلا وقد قتل
منهم، فوهنوا لذلك وهنا عطيماً، فأحاط بهم المسلمون
إحاطة الدائرة بقطرها، فازتفع من بقي من الفرنج
إلى تل بناحية حطين، وأرادوا أن ينصبوا خيامهم،

وَيَحْمُوا نُفُوسَهُمْ بِهِ، فَاسْتَدَّ الْقِتَالُ عَلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ
الْجِهَاتِ، وَمَتَعَوْهُمْ عَمَّا أَرَادُوا، وَلَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنْ تَصِيبِ
حَيَمَةٍ غَيْرِ حَيَمَةِ مَلِكِهِمْ. وَأَخَذَ الْمُسْلِمُونَ صَلِيبَهُمْ
الْأَعْظَمَ الَّذِي يُسَمُّوهُ صَلِيبَ الصَّلْبُوتِ، وَيَذْكُرُونَ أَنَّ

فِيهِ قِطْعَةٌ مِنَ الْخَشَبَةِ الَّتِي صُلِبَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ ^[177] -
عَلَيْهِ السَّلَامُ - يَرْغُمُهُمْ، فَكَانَ أَخْذُهُ عَنْدَهُمْ مِنْ أَعْظَمِ
الْمَصَائِبِ عَلَيْهِمْ، وَأَيَقْنُوا بَعْدَهُ بِالْقَتْلِ وَالْهَلَاكِ. هَذَا
وَالْقَتْلُ وَالْأَسْرُ يَعْمَلَانِ فِي فُرْسَانِهِمْ وَرِجَالَتِهِمْ، فَبَقِيَ
الْمَلِكُ عَلَى التَّلِّ فِي مِقْدَارِ مِائَةٍ وَخَمْسِينَ قَارِسًا مِنْ
الْفُرْسَانِ الْمَشْهُورِينَ وَالشُّجْعَانِ الْمَذْكُورِينَ.

فَحَكِيَ لِي عَنِ الْمَلِكِ

الْأَفْضَلِ - وَلِدِ صَلَاحِ الدِّينِ - قَالَ: "كُنْتُ إِلَى جَانِبِ أَبِي
فِي ذَلِكَ الْمَصَافِّ، وَهُوَ أَوَّلُ مَصَافٍّ شَاهَدْتُهُ، فَلَمَّا صَارَ
مَلِكُ الْفَرَنْجِ عَلَى التَّلِّ فِي تِلْكَ الْجَمَاعَةِ حَمَلُوا حَمَلَةً
مُنْكَرَةً عَلَى مَنْ يَارَاهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى أَلْحَقُوهُمْ
بِوَالِدِي". قَالَ: "فَتَطَرْتُ إِلَيْهِ، وَقَدْ عَلَنَهُ كَأَبَةٌ،

وَارَبَدَ لَوْنُهُ، وَأَمْسَكَ بِلَحْيَتِهِ، وَتَقَدَّمَ، وَهُوَ يَصِيحُ: كَذَبَ الشَّيْطَانُ"، قَالَ: "فَعَادَ
الْمُسْلِمُونَ عَلَى

الْفَرَنْجِ، فَارْجَعُوا إِلَى التَّلِّ، فَلَمَّا رَأَيْتُ الْفَرَنْجَ قَدْ

عَادُوا، وَالْمُسْلِمُونَ يَتَّبِعُونَهُمْ، صَحْتُ مِنْ فَرَجِي: هَزَمْنَاهُمْ!

فَعَادَ الْفِرْنَجُ فَحَمَلُوا حَمْلَةً ثَانِيَةً مِثْلَ الْأُولَى حَتَّى
الْحَقُّوا الْمُسْلِمِينَ بِوَالِدِي، وَفَعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ أَوَّلًا. وَعَطَفَ
الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ فَأَلْحَقُوهُمْ بِاللَّيْلِ، فَصِخْتُ أَنَا أَيْضًا: هَزَمْنَاهُمْ! فَالْتَفَتَ وَالِدِي
إِلَيَّ وَقَالَ: "اسْكُتْ! مَا

تَهْزِمُهُمْ حَتَّى تَسْقُطَ تِلْكَ الْخَيْمَةُ"، قَالَ: "فَهُوَ
يَقُولُ لِي، وَإِذَا الْخَيْمَةُ قَدْ سَقَطَتْ، فَتَزِلَ السُّلْطَانُ وَسَجَدَ
شُكْرًا لِلَّهِ تَعَالَى، وَتَكَى مِنْ فَرَجِهِ". وَكَانَ سَبَبُ
سُقُوطِهَا أَنَّ الْفِرْنَجَ لَمَّا حَمَلُوا تِلْكَ الْحَمَلَاتِ ارْزَدَاوَا
عَطَشًا، وَقَدْ كَانُوا يَرْجُونَ الْخَلَاصَ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْحَمَلَاتِ
مِمَّا هُمْ فِيهِ، فَلَمَّا لَمْ يَجِدُوا إِلَى الْخَلَاصِ طَرِيقًا، تَزَلُّوا
عَنْ دَوَابِّهِمْ وَجَلَسُوا عَلَى الْأَرْضِ، فَصَعِدَ الْمُسْلِمُونَ
إِلَيْهِمْ، فَأَلْقَوْا خَيْمَةَ الْمَلِكِ، وَأَسْرَوْهُمْ عَلَى بَكْرَةٍ

أَبِيهِمْ، وَفِيهِمْ الْمَلِكُ ^[178] وَأَخُوهُ،
وَالْبِرْنَسُ أَرْنَاطُ، صَاحِبُ الْكَرْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلْفِرْنَجِ أَشَدُّ
مِنْهُ عَدَاوَةً لِلْمُسْلِمِينَ.

وَأَسْرَوْا أَيْضًا صَاحِبَ

جُبَيْلٍ، وَابْنُ هَنْغَرِي، وَمُقَدَّمُ الدَّائِيَّةِ ^[179]،
وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْفِرْنَجِ شَأْنًا، وَأَسْرَوْا أَيْضًا جَمَاعَةً مِنَ
الدَّائِيَّةِ، وَجَمَاعَةً مِنَ الْإِسْبَتَارِيَّةِ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ

وَالْأَسْرُ فِيهِمْ، فَكَانَ مَنْ يَرَى الْقَتْلَى لَا يَطْلُبُ أَنَّهُمْ
أَسْرُوا وَاحِدًا، وَمَنْ يَرَى الْأَسْرَى لَا يَطْلُبُ أَنَّهُمْ قَتَلُوا
أَحَدًا، وَمَا أَصِيبَ الْفِرْنَجُ، مُنْذُ خَرَجُوا إِلَى السَّاحِلِ، وَهُوَ
سَنَةَ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ (1098) إِلَى الْآنَ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْوُقْعَةِ.
فَلَمَّا قَرَعَ الْمُسْلِمُونَ

مِنْهُمْ تَزَلَ صَلَاحُ الدِّينِ فِي حَيَمَتِهِ، وَأُخْضِرَ مَلِكُ الْفِرْنَجِ
عِنْدَهُ، وَبِرْنَسُ صَاحِبُ الْكَرْكِ، وَأَجْلَسَ الْمَلِكُ إِلَى جَانِبِهِ
وَقَدْ أَهْلَكَهُ الْعَطَشُ، فَسَقَاهُ مَاءً مَثْلُوجًا، فَشَرِبَ، وَأَعْطَى
فَضْلَهُ بِرْنَسَ صَاحِبَ الْكَرْكِ، فَشَرِبَ. فَقَالَ صَلَاحُ الدِّينِ: "إِنَّ
هَذَا الْمَلْعُونُ لَمْ يَشْرَبِ الْمَاءَ بِإِذْنِي فَيَتَالَ أَمَانِي"،
ثُمَّ كَلَّمَ الْبِرْنَسَ، وَقَرَعَهُ بِذُنُوبِهِ، وَعَدَّدَ عَلَيْهِ
عَذْرَاتِهِ، وَقَامَ إِلَيْهِ بِتَفْسِيهِ فَصَرَبَ رَقَبَتَهُ، وَقَالَ: "كُنْتُ
تَذَرْتُ دَفْعَتَيْنِ أَنْ أَقْتُلَهُ إِنْ طَفَرْتُ بِهِ: إِحْدَاهُمَا لَمَّا
أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَالثَّانِيَةُ لَمَّا أَخَذَ
الْقَفْلَ عَذْرًا"، فَلَمَّا قَتَلَهُ وَشَجِبَ وَأُخْرِجَ ارْتَعَدَتْ
قَرَائِصُ الْمَلِكِ، فَسَكَنَ جَأَشُهُ وَأَمَّتُهُ. وَأَمَّا الْقُمْصُ،
صَاحِبُ طَرَابُلُسَ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَجَا مِنَ الْمَعْرَكَةِ، كَمَا
ذَكَرْنَاهُ، وَصَلَ إِلَى صُورَ، ثُمَّ قَصَدَ طَرَابُلُسَ، وَلَمْ يَلْبَثْ
إِلَّا أَيَّامًا قَلِيلًا حَتَّى مَاتَ غَيْطًا وَحَقًّا مِمَّا جَرَى عَلَى
الْفِرْنَجِ خَاصَّةً، وَعَلَى دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ عَامَّةً.

ذِكْرُ

عَوْدِ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى طَبَرِيَّةَ، وَمُلْكِ قَلْعَتِهَا مَعَ
الْمَدِينَةِ

لَمَّا فَرَعَ صَلَاحُ الدِّينِ

مِنْ هَزِيمَةِ الْفَرَنْجِ أَقَامَ بِمَوْضِعِهِ بَاقِيَ يَوْمِهِ، وَأَصْبَحَ
يَوْمَ الْآخِرِ، فَعَادَ إِلَى طَبَرِيَّةَ وَتَارَلَهَا، فَأَرْسَلَتْ
صَاحِبَتُهَا تَطْلُبُ الْأَمَانَ لَهَا وَلِأَوْلَادِهَا وَأَصْحَابِهَا
وَمَالِهَا، فَأَجَابَهَا إِلَى ذَلِكَ، فَخَرَجَتْ بِالْجَمِيعِ، فَوَقَى لَهَا،
فَسَارَتْ آمِنَةً، ثُمَّ أَمَرَ بِالْمَلِكِ وَجَمَاعَةٍ مِنْ أَعْيَانِ
الْأَسْرَى فَأَرْسَلُوا إِلَى دِمَشْقَ، وَأَمَرَ بِمَنْ أُسِيرَ مِنَ
الدَّأَوِيَّةِ وَالْإِسْطَارِيَّةِ أَنْ يُجْمَعُوا لِيَقْتُلَهُمْ. ثُمَّ عَلِمَ
أَنَّ مَنْ عِنْدَهُ أُسِيرٌ لَا يَسْمَحُ بِهِ لِمَا يَرْجُو مِنْ فِدَائِهِ،
فَبَدَلَ فِي كُلِّ أُسِيرٍ مِنْ هَذَيْنِ الصَّنَقَيْنِ خَمْسِينَ دِينَارًا
مِصْرِيَّةً، فَأُخْصِرَ عِنْدَهُ فِي الْحَالِ مِائَتًا أُسِيرٍ مِنْهُمْ،
فَأَمَرَ بِهِمْ فَضَرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ. وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ
بِالْقَتْلِ لِأَنَّهُمْ أَشَدُّ شَوْكَةً مِنْ جَمِيعِ الْفَرَنْجِ، فَأَرَاخَ
النَّاسَ مِنْ سَرِّهِمْ، وَكَتَبَ إِلَى تَائِيهِ بِدِمَشْقَ لِيَقْتُلَ مَنْ
دَخَلَ الْبَلَدَ مِنْهُمْ سِوَاءَ كَانَ لَهُ أَوْ لِعَیْرِهِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ،
وَلَقَدْ اجْتَرَأَ بِمَوْضِعِ الْوُقْعَةِ بَعْدَهَا بِتَحْوِ سَنَةٍ، فَرَأَيْتُ
الْأَرْضَ مَلَأَى مِنْ عِظَامِهِمْ تَبِينُ عَلَى الْبُعْدِ، مِنْهَا

الْمُجْتَمِعُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، وَمِنْهَا الْمُفْتَرِيقُ، هَذَا سِوَى مَا
جَحَقْنَاهُ الشُّيُولُ، وَأَخَذْنَاهُ السَّبَاغُ فِي تِلْكَ الْأَكَامِ
وَالْوَهَادِ

دخول

السلطان صلاح الدين بالعسكر الى ديار الفرنج

(عماد الدين، 18-29)

أصبح بالمخيم عارضاً من المعسكر،

لعارض ثجاج، وبحر بالعجاج عجّاج، وخضمّ بالصواهل السوايح والمناصل
والصفائح ذي

أمواج. وقد رتب أبطاله وإطلابه، وسحب على وجه الأرض سحابة، ونقل به من
الثرى إلى

الثرى ترابه، وإطار إلى النسر الواقع من الغبار غرابه. وقد قصّ الفضاء ختام
القتام، وشدّت للشدائد كتب الكبت على حمام الحمام، وحنت ضلوع الحنايا
على

أجنّة السهام، وتكفلت العوجاء بالمعتدلة، وضمت المنفلتة إلى المنفلتة،
ووفت

الأوتار بالأوتار، وثار كل طلب لطلب الثار. ووقف السلطان يوم العرض يرتب

العسكر ترتيباً، ويؤبه تبويهاً، ويعينه بعيداً وقريباً. وقرّر لكل أمير أمراً،

ولكل مقدم مقاماً، ولكل موقّق موقفاً، ولكل كمين مكاناً، ولكل قزن قرناً،

ولكل جمر مطفئاً، ولكل جمع مكفئاً، ولكل رند مورياً، ولكل حدّ مُمهياً، ولكل

قضية حُكماً، ولكل حنيّة سهماً، ولكل يمين مقضباً، ولكل يمان مقبضاً، ولكل

ضامر مضماراً، ولكل مغوار مغاراً، ولكل رامٍ مُرتمى، ولكل نامٍ منتمى، ولكل سامٍ

مَسَمَى، ولكل اسم مُسمّى. وعُيِّن لكل أمير موقفاً في الميمنة والميسرة لا ينتقل

عنه، ولا يغيب جمعه ولا يبرح أحد منه.

وأخرج الجاليشية الرُماة الكُماة

من كل طُلُب، ووضّى كل حِزب يقَرِّبه من حزب. وقال: "إذا دخلنا بلد العدو، فهذه

هياة عساكرنا، وصورة مواردنا ومصادرنا، ومواضع أطلابنا، ومطالع أبطالنا، ومصارع

أستتنا، وشوارع أعنتنا، وميادين جُردنا، وبساتين وُردنا، وماقف صروفنا، ومصارف

وقوفنا، ومرامي مرمانا، ومجالي مجالنا". وقوّى الآمال بما بذله من الأموال،

وحقّق في إنجاز المواعد وإنجاح المقاصد رجاء الرجال. وجمع العُدَد، وفرّق العُدَد،

ووهب الجياد وأجاد المواهب، ورغب في العطايا وأعطى الرغائب، ونثر الخزائن، ونثّل

الكنائن، وأنفق الذخائر، واستنفذ كرائمها والأخاير، وقسم أحمال النُشّاب، فتفرّق

الناس منه بأكثر من ملء الجِعب. وأجرى الجُرد وأجنى الأجناد، وأذكى المذاكي

وأشهد الإشهاد، وأزال مَناقب المناقب، واستمال معاطف المعاطب، وقوى القواطع، وروّى

الروائع. وعاد إلى المخيم مسروراً محبوراً، مقبولاً مبروراً، موفوراً مشكوراً وقد

رَبِّ وَرَبَّت وَقَتَّب وَكَتَّب وَثَبَّت وَثَبَّت، قَد بَرَّ عَمَلَهُ، وَأَبَرَّ أَمَلَهُ، وَفَلَح نَشْرَهُ، وَلاَح

[180]

يَشْرَهُ، وَتَأَرَّج رَبَّاهُ ،

وَتَبَلَّحَ مَحْيَاهُ، وَأَيَّقَنَ بِالظَّفَرِ وَظَفِيرَ بِالْيَقِينِ، وَأَمَنَ إِلَى الدَّعْوَةِ الْمُسْتَدْعِيَةِ إِلَى التَّامِينِ، وَتَيَمَّنَ بِأَوْضَاحِ عِرَابِهِ الْمِيَامِينَ، وَإِيضَاحِ إِعْرَابِهِ فِي إِقْتِضَاءِ دَيْنِ الدِّينِ. وَأَيْسَ بِبَهْجَةِ الْخَيْلِ وَلَهْجَةِ الْخَيْرِ، وَسُتَّرَ سِرُّهُ بِمَا سُرِّيَ لَهُ مِنْ وَجْهِ السَّيْرِ، وَشَدَّ حُزْمَ الْحَزْمِ، وَجَدَّ فِي الْعَزْمِ الْجَزْمَ، وَقَدَّمَ الْإِسْرَاجَ لِلْإِسْرَاءِ، وَأَلْجَمَ الْعِرَابَ لِلْعَرَاءِ، وَرَحَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سَابِعَ عَشَرَ شَهْرَ رَبِيعِ الْآخِرِ (27 حَزِيرَانَ/يُونِيَّة 1187) التَّوْفِيقَ مَسَائِرُهُ،

وَالْتَأْيِيدَ مَوَازِرِهِ، وَالتَّمَكِينَ مَضَافِرِهِ، وَالسَّعْدَ مَظَاهِرِهِ، وَالْجَدَّ مَكَاتِرِهِ، وَالْيُمْنَ مُحَاضِرِهِ،

وَالْعِزَّ مَسَامِرِهِ، وَالظَّفَرَ مَجَاوِرِهِ، وَالْإِسْلَامَ شَاكِرِهِ، وَاللّهَ عِزَّ وَجَلٍّ نَاصِرِهِ. وَسَارَ عَلَى الْهَيَاةِ

الَّتِي قَدَمْنَا ذِكْرَهَا مِنَ الْمَنَاقِبِ الْمُقْنِيَةِ، وَالْكَتَائِبِ الْمَكْتَبَةِ، وَالْمَرَاتِبِ الْمُرْتَبَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْمَهْدَبَةِ، وَالسَّلَاحِبِ الْمَجْتَبَةِ، وَالصَّوَائِبِ الْمَجْعَبَةِ، وَالْقَوَاضِبِ الْمَقْرَّبَةِ،

وَالثَّعَالِبِ الْمُدْرَبَةِ، وَاللِّهَازِمِ الْهَازِمَةِ، وَالصَّلَادِمِ اللَّادِمَةِ، وَالضَّرَاغِمِ الضَّاعِمَةِ. وَخَيْمَ

عَلَى خُسْفَيْنِ وَقَدْ أَدَّى اللَّهُ الْخُسْفَ بِالْعَدُوِّ وَخُسُوفَهُ، وَكَسَفَ الْكَفْرَ وَكُسُوفَهُ، وَبَاتَ

وَالْوَجُوهَ سَافِرَةً، وَالْعَيُونََ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَاهِرَةً، وَالْأَيْدِيَ لِسَيُوفِ الْأَيْدِ شَاهِرَةً، وَالْأَلْسِنَ

لأنعم الله شاكراً، والقلوب بالإخلاص عامرة، والأنفس للأنس مسامرة،
والأقدام

بالأقدار متظافرة متظاهرة. ثم أصبح سائراً ونزل على الأردن بثغر الأقحوانة،
بعزم

الصيال وعزّ الصيانة، وأحاط ببحيرة طبرية بحرّه المحيط، وضاق ببسائط
خيامه ذلك

البسيط. وبرزت الأرض في قُشْب أثوابها، وتفتحت السماء لتنزل الملائكة من
أبوابها،

ورست سفن المَضارب على تلك الأتباع، وطمّت الأطلاب أمواجاً على أمواج،
وانعقدت

سماء العجاج، وطلعت فيها أنجم الخِرصان والزجاج، وأعاد الأقحوانة رياضاً
تَضِرّة،

وحقائق مزهرة، من قَرَس وَزْد، وفارس كالأسد الوَزْد، ومَشْرِفِيَّات كطاقات
الرياحين، يَبْرَنْيَّات كأشجار البساتين، ورايات صفر تخفق بعذبات الياسمين،
وألوية

حمر كشقائق النعمان، ومَوْضونة زَعْف كالغُدران، ومصقولة يَبِض كالخُلجان،
ومَرِيشة

زرق كالإطيار ومَخْنِيَّة عُوج كالأفنان، وَيَبِض تلمع كثغور الأقحوان، وخَبَب ترائك
على بجور الدارين، وعِقبان صواهلَ تروق وتروع الناظرين والسامعين.

والفرنج قد صفّوا راياتهم

بصفّورية، ولَوَّوا الألوية، ومدّوا على مدود الضوامر الرواخر قناطر
القُنطاريّات،

وأوقدوا في ظلام القتام الثائر سُجج الشَرِيجيّات، وصوتوا إلى صوب قَرا
الأقران

يَّاتِ الزَّيْنِيَّاتِ، وَأَحَاطُوا حَوْلَ مَرَازِحِهِمْ بِدَوَائِرِهِمْ، وَحَاطُوا بِوَائِرِهِمْ بِوَائِرِهِمْ،
وَجَمَعُوا الْأَوْشَابَ وَالْأَوْبَاشَ، وَرَتَّبُوا الْجَيْشَ وَثَبَّتُوا الْجَاشَ، وَحَشَدُوا الْفَارِسَ
وَالرَّاجِلَ،

وَالرَّامِحَ وَالنَّابِلَ، وَنَشَرُوا ذَوَائِبَ الذَّوَابِلِ، وَحَشَرُوا أَبْطَالَ الْبَاطِلِ. وَرَفَعُوا
صَلِيبَ

الصَّابُوتِ، فَأَجْمَعَ إِلَيْهِ عِبَادُ الطَّاغُوتِ، وَضَلَّالُ النَّاسُوتِ وَاللَّاهُوتِ، وَنَادَوْا فِي
نَوَادِي

[181]

أَقَالِيمِ أَهْلِ الْأَقَانِيمِ ،

وَصَلَّبُوا الصَّلِيبَ الْأَعْظَمَ بِالتَّعْظِيمِ.

وَمَا عَصَاهُمْ مِنْ لَهُ عَصَا، وَخَرَجُوا عَنْ

الْعَدُوِّ الْإِحْصَا، وَكَانُوا عِدَدَ الْحَصَى، وَصَارُوا فِي زُهَاءِ خَمْسِينَ أَلْفًا أَوْ يَزِيدُونَ،
وَيَكِيدُونَ

مَا يَكِيدُونَ، قَدْ تَوَاقَوْا عَلَى صَعِيدٍ، وَوَاقَوْا مِنْ قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، وَهَمَّ هُنَاكَ مَقِيمُونَ،
لَا

يُرُومُونَ حَرَكَةً وَلَا يَرِيمُونَ. وَالسُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يَسِيرُ إِلَيْهِمْ،
وَيُشْرِفُ

عَلَيْهِمْ، وَيَرَامِيهِمْ، وَيَتَنَكَّبُ فِيهِمْ، وَيَتَعَرَّضُ لَهُمْ لِيَتَعَرَّضُوا لَهُ، وَيَرُدُّوهُ عَنْ رِقَابِهِمْ
سَيُوفَهُ

وَعَنْ شُعَابِهِمْ سُيُولَهُ، فَرِيضُوا وَمَا نَهَضُوا، وَقَعَدُوا وَمَا نَهَضُوا، فَلَوْا بَرَزُوا لِبَرَزِ
إِلَيْهِمْ

الْقَتْلَ فِي مَضَاجِعِهِمْ، وَعَايَنُوا مَقَامَ صَارِعِهِمْ فِي سَوَاقِهِمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ،
وَقَزَعُوا مِمَّا فِيهِ

وَقَعُوا، وَجَبُّنَا عَمَّا لَهُ تَشْجَعُوا، فَرَأَى السُّلْطَانُ أَنَّ يَطِيبَ رِيَّهَ، مِنْ طَبْرِئَةٍ،
وَيُشْرِفُ

على خِطَّتْهَا بِالْخَطِيَّةِ وَالْمِشْرِفِيَّةِ، وَيَحُوزُ حُوزَتَهَا، وَيَمْلِكُ مَمْلَكَتَهَا، فَجَزَّ عَلَى
الأردنَّ

أردان الرُّدَيْنَاتِ، وَأَطْلَعَ النِّقْعَ الْمُثَارَ مِنَ الْبَحْرِ بِحَوَافِرِ الْأَعْجُجِيَّاتِ... وَاسْتَسْهَلَ
عَلَيْهَا وَلَمْ يَسْتَوْعِرْ بَيَاتِ الْعَرَبِيَّاتِ، فَأَمَرَ عَسَاكِرَهُ، وَأَمْرَاءَ جَيْشِهِ وَأَكَابِرَهُ، أَنْ
يَقِيمُوا قُبَالَةَ الْفَرَنْجِ، وَيُضِيقُوا عَلَيْهِمْ وَاسِعَ النِّهَجِ، فَإِنْ خَرَجُوا لِلْمَصَافِ، بَادِرُوا
إِلَى

الْإِنْتِقَامَ مِنْهُمْ وَالْإِنْتِصَافَ، وَإِنْ تَحَرَّكُوا إِلَى بَعْضِ الْجَوَانِبِ، وَثَبُوا بِهِمْ وَثُبُ
الْأَسُودِ

بِالْأَرَانِبِ، وَإِنْ قَصَدُوا طَبْرِيَّةَ لَصَوْنِهَا، وَأَنْ يَكُونُوا فِي عَوْنِهَا، عَجَّلُوا الْإِعْلَامَ،
لِيُعَجَّلَ عَلَيْهِمُ الْإِقْدَامُ.

فتح

طبرية

ونزل على طبرية في خواصه، وذوي

استخلاصه، وأحضر الجائذارية والنقابين، والخراسانية والحجارين، وأطاف
بشورها، وشرع في هدم معمرها، وصدقها القتال، وما صدف عنها النزال.
وكان ذلك

يوم الخميس وهو يوم الخميس. وأخذ النقبابون النقب في برج فهدوه وهدموه،
وتسلقوا

فيه وتسلموه، ودخل الليل وصباح الفتح مسفر، وليل الويل على العدو معتكر،
وامتنعت

القلعة بمن فيها، من القومصية سيّ طبرية وتنيها. ولما سمع القومص بفتح

طبرية وأخذ بلده، سقط في يده، وخرج عن جلد جلدته وسمح للفرنج بسبده
ولبده.

وقال لهم: "لا قعود بعد

اليوم، ولا بدّ لنا من وقم القوم، وإذا أخذت طبريّة أخذت البلاد، وذهبت
الطّراف

[182]

والتلاد وما بقي لي صبر، وما بعد هذا الكسر لي جبر" ،

وكان الملك قد حالفه، فما خالفه، ووافقه فما نافقه، وما حضه فما ماذقه،
ووادده فما

رادده، وواعده فما عاوده، ورحل بجمعه، وبصره وسمعه، وثعابينه وشياطينه،
وسراجيه

وسراحينه، وأتباع غيّة، وأشباع بغيه. فمادت الأرض بحركته، وغامت السماء
من

عَبْرته. ووصل الخبر بأن الفرنج ركبوا، وثابوا عن ثبات ثباتهم ووثبوا، وعَبَّوا

وعَبَّوا، ودَبُّوا حتى يَدْبُّوا، وشَبُّوا النار، ولَبَّوا الثَّار، وقَدَّموا المنزل

بالدار البدار، وذلك في يوم الجمعة رابع عِشرِ شهر ربيع الآخر. فما كَذَّب
السلطانُ

الخبر حتى صدق عزمه، بما سبق به حكمه، وشَرَّ حين أحاط بمسيرهم علمه،
وقال: "قد حصل المطلوب، وكمل المخطوب، وجاءنا ما نريد، ولنا بحمد الله
الجَدُّ

الجديد، والحدّ الحديد، والبأس الشديد، والنصر العتيد، وإذا صَحَّت كسرتهم،
وقُتِلت

وأُسرت أسرتهم، فطبريّة وجميع الساحل ما دونها مانع، ولا عن فتحها وازع".

واستخار الله وسار، وعدم القرار،

وجاء يومُ الجمعة رابع عِشرِ شهر ربيع الآخر والفرنج سائرون إلى طبرية
يَقْصُّهم

وَقَضِيضُهُمْ، وَكَأَنَّهُمْ عَلَى الْيَفَاعِ فِي حَضِيضِهِمْ، وَقَدْ مَاجَتْ حَضَارِمُهُمْ، وَهَاجَتْ ضَرَاغِمُهُمْ،

وَطَارَتْ قَشَاعِمُهُمْ، وَثَارَتْ غَمَاغِمُهُمْ، وَسَدَّتْ الْأَفَاقُ غَمَائِمُهُمْ، وَشَاقَتْ ضَارِبِيهَا جَمَاعِمُهُمْ، وَهُمْ

كَالْجِبَالِ السَّائِرَةِ، وَكَالْبَحَارِ الزَّائِرَةِ، أُمُوجُهَا مُلْتَطِمَةٌ، وَأَفْوَاجُهَا مُزْدَحِمَةٌ، وَفِجَاجُهَا

مُحْتَدِمَةٌ، وَأَعْلَاجُهَا مُصْطَلِمَةٌ. وَقَدْ جَوِيَ الْجَوُّ، وَدَوِيَ الدَّوُّ، وَالْفَضَاءُ مُنْفَضٌّ، وَالْقَضَاءُ

مُنْقَضٌّ، وَالثَّرِيًّا قَدْ اسْتَزَارَ الثَّرَى، وَجَزُّ ذَيْلِ الْخَيْلِ قَدْ بَرَى الْبَرَى، وَالْحَوَافِرُ الْحَوَافِزُ لِلْأَرْضِ حَوَافِرُ، وَالْفَوَارِسُ اللَّوَابِسُ فِي الْبَيْضِ سَوَافِرُ. وَذُنَابُ الذِّيَادِ وَاجِلَادُ

الْجِلَادِ قَدْ حَمَلُوا كُلُّ غُدَّةٍ، وَكَمَلُوا كُلُّ عِدَّةٍ. فَرَّتْ السُّلْطَانُ فِي مُقَابِلَتِهِمْ أَطْلَابُهُ،

وَقَصَرَ عَلَى مُقَاتِلَتِهَا آرَابُهُ، وَحَصَلَ بِعَسْكَرِهِ قَدَّامُهُمْ، وَرَقَبَ عَلَى الْحَمَلَةِ إِقْدَامُهُمْ. وَحَجَزَ

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَاءِ، وَمَنْعَ زِمَامِهِمْ عَلَى الدَّمَاءِ، وَحَلَّاهُمْ عَنِ الْوِزْدِ، وَصَدَّعَهُمْ بِالْصَّدِّ.

ذَاكَ وَالْيَوْمَ قَيْظٌ، وَلِلْقَوْمِ غَيْظٌ، وَقَدْ وَقَدَّتِ الْهَاجِرَةُ، فَوَقَّدَتْهَا غَيْرُ هَاجِرَةٍ، وَشَرِبَتْ

مَا كَانَ فِي إِدَاوَتِهَا فَهِيَ عَلَى الظَّمَاءِ غَيْرُ صَابِرَةٍ. وَحَجَزَ اللَّيْلُ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَحَجَرَتْ

الْخَيْلُ عَلَى الطَّرِيقَيْنِ، وَبَاتَ الْإِسْلَامُ لِلْكَفَّارِ مُقَابِلًا، وَالتَّوْحِيدُ لِلتَّثْلِيثِ مُقَاتِلًا، وَالْهَدَى لِلضَّلَالِ مُرَاقِبًا، وَالْإِيمَانُ لِلشَّرْكِ مُحَارِبًا. وَهَيَّئَتْ دَرَكَاتُ النَّيْرَانِ، وَهَيَّئَتْ دَرَجَاتُ الْجَنَانِ، وَأَنْتَظِرُ مَالِكَ وَاسْتَبْشِرُ رِضْوَانِ. حَتَّى إِذَا أَسْفَرَ الصَّبَاحُ، وَسَقَرَ الصَّبَاحُ،

وفَجَّرَ الفَجْرُ أَنهَارَ النهار، ونَفَّرَ النَفِيرُ غُرَابَ الغبار، وانتبَهِت في الجفون
 الصوارم، والتبَهِت الضوامر الضوَّارم، وتيقَّظت الأوتار، وتغيَّظت النار، وسُلَّ
 الغرار، وسلب القرار. خرج الجالِيشيَّة تحرق بنيران النصال أهل النار، ورنَت
 القِسيَّ وغنَّت الأوتار، ورقصت مُرَّان المُرَّاد، لِجلاء عرائس الجِلال. وبرزت
 البيض من مُلائها في المَلَا عارية، ورتعت السمر لكَلَّتها من الكَلَى راعية، فرجا
 الفرنج فرجا، وطلب طَلَبهم المُحَرَج مَخْرَجًا، فكلما خرجوا جُرِحوا، وبرَّح بهم
 حَرَّ
 الحرب فما بَرِحوا، وحملوا وهم ظُماء، وما لهم سوى ما بأيديهم من ماء الفِرْد
 ماء، فشَوَّتهم نار السهام وأشَوَّتهم، وصمَّمت عليهم قلوب القسيَّ القاسية
 وأصمَّتْهم،
 وأعجزوا وأزعجوا، وأخرجوا وأخرجوا، وكلَّما حملوا رَدَّوا وأزدوا، وكلَّما ساروا
 وشَدَّوا أسروا وشَدَّوا، وما دَّبت منهم نملة، ولا دَّبت عنهم حملة، وإضطربوا،
 والتَهَفوا والتهبوا، وناشَبهم النُّشَاب فعادت أسودهم قنافذ، وضايقتهم السهام
 فوسَّعت
 فيهم الخرق النافذ. فأوَّوا إلى جبل حِطَّين يَعصِمهم من طُوفان الدمار، حاطت
 بحطين بوارق البوار، ورشقتهم الطبا، وفرشتهم على الرُّبا ورشقتهم الحنايا،
 وقشرتهم
 المنايا، وقشرتهم البلايا، ورشقتهم الرزايا وصاروا للردى دَرايا، وللقضايا
 رمايا. ولمَّ أَحسَّ القومص بالكسرة حسر عن ذراع الحسرة، واقتال من
 العزيمة، واحتال
 في الهزيمة، وكان ذلك قبل اضطراب الجمع وإضطرام الجمر، واحتداد الحرب
 واحتداد

الحَرْ، فخرج بطلّبه يطلب الخروج، واعوجَّ إلى الوادي وما ودَّ أن يعوج ومضى
كوَمُض

البرق، ووسَّع خُطا خُزقه قبل اتّسع الخرق، وأفلت في عدّة معدودة، ولم
يلتفت إلى

ردّة مردودة، وغاب حالة حضور الوغى وناب الرعب الذي نوى الهزيمة به وما
وتى، ثم

استجرت الحرب واشتجرا الطعن والضرب، وأحيط بالفرنج من حوالهم بما
حوّوا إليهم،

ودارت دائرة الدوائر عليهم، وشرعوا في ضرب خيامهم، وضمّ نظامهم.
فحطوا على حطّين

مضاربهم، وقلّت حدود الرّماة الكّماة مضاربهم، وأعجلوا عن نصب الخيم
ورفعها، وشغلوا عن أصل الحياة وفروعها، وترجّوا خيراً فترجّلوا عن الخيل،
وتجلّدوا وتجالدوا فجرفهم السيف جرف السيل، وأحاط بهم العسكر احاطة
النار بأهلها.

[183] ولجأوا إلى حَزْم الأرض فبلغ جزائهم الطَّبِيبَيْن من سهلها .

وأسير الشيطان وجنوده، ومُلك

المَلِك وكنوده، وجلس السلطان لعرض اكابر الأسرى، وهم يتهايدون في القيود
تهاديّ

السُّكاري، فُقِّدَ بدايه مقدّم الداويّة، ومعه عدّة كثيرة منهم ومن الاستبارية،
وأحضر الملك كي واخوه جُفري، وأوك صاحب جُييل وهنقري، والابرنس أرناط
صاحب

الكرك، وهو أول من وقع في الشرك، وكان السلطان نذر دمه، وقال لأعجلن
عند

وَجَدَانِهِ عَدَمَهُ، فَلَمَّا حَضَرَ بَيْنَ يَدَيْهِ أَجْلَسَهُ إِلَى جَنْبِ الْمَلِكِ وَالْمَلِكِ بِجَنْبِهِ،
وَقَرَّعَهُ عَلَى

غَدْرِهِ وَذَكَرَهُ بِذَنْبِهِ، وَقَالَ لَهُ كَمْ تَحْلِفُ وَتَحْتَثُّ، وَتُعْهِدُ وَتَنْكُثُ، وَتُبْرِمُ الْمِيثَاقَ
وَتَنْقُضُ، وَتُقْبِلُ عَلَى الْوِفَاقِ ثُمَّ تُعْرِضُ، فَقَالَ الثَّرْجُمَانُ عَنْهُ إِنَّهُ يَقُولُ قَدْ جَرَتْ
بِذَلِكَ

عَادَةُ الْمُلُوكِ وَمَا سَلَكَتُ غَيْرَ السُّنَنِ الْمَسْلُوكِ، وَكَانَ الْمَلِكُ يَلْهَثُ ظَمِئًا، وَيَمِيلُ
مِنْ

سَكْرَةِ الزُّعْبِ مَمْتَشِيًا، فَأَنَسَهُ السُّلْطَانُ وَحَاوَرَهُ، وَقَفَّأَ سَوْرَةَ الْوَجَلِ الَّذِي
سَاوَرَهُ،

وَسَكَّنَ رَعْبَهُ، وَأَمَّنَ قَلْبَهُ، وَأَتَى بِمَاءٍ مَثْلُوجٍ أَزَالَ لَهْثَهُ، وَأَزَاحَ مِنَ الْعَطَشِ مَا
كَرَّهَتْهُ، وَنَاوَلَهُ الْإِبْرَنْسَ لِيُخِمِدَ أَيْضًا لَهْثَهُ، فَأَخَذَهُ مِنْ يَدِهِ وَشَرِبَهُ، فَقَالَ السُّلْطَانُ
لِلْمَلِكِ "لَمْ تَأْخُذْ مِنِّي فِي سَقِيهِ إِذْنَا، فَلَا يُوجِبُ ذَلِكَ لَهُ مِنِّي أَمْنًا"، ثُمَّ
رَكِبَ وَخَلَاهُمَا، وَبَنَارَ الْوَهْلَ أَصْلَاهُمَا، وَلَمْ يَنْزِلْ إِلَى أَنْ ضُرِبَ سُورَادِقُهُ، وَرَكَزَتْ
أَعْلَامُهُ وَبَيَارِقُهُ، وَعَادَتْ عَنِ الْحَوْمَةِ إِلَى الْحِمَى فَيَالِقُهُ، فَلَمَّا دَخَلَ سِرَادِقَهُ،
اسْتَحْضَرَ

الْإِبْرَنْسَ فَقَامَ إِلَيْهِ وَتَلَقَّاهُ بِالسَّيْفِ فَحَلَّ عَاتِقَهُ، وَحِينَ ضُرِعَ، أَمَرَ بِرَأْسِهِ فَقُطِعَ،
وَجُرَّ

بِرَجْلِهِ قَدَّامَ الْمَلِكِ حِينَ أُخْرِجَ، فَارْتَاعَ وَانْزَعَجَ، فَعَرَفَ السُّلْطَانُ أَنَّهُ خَامَرَهُ
الْفَزَعُ،

وَسَاوَرَهُ الْهَلَعَ وَسَامَرَهُ الْجَزَعَ، فَاسْتَدْعَاهُ وَاسْتَدْنَاهُ وَأَمَّنَهُ وَطَمَّنَهُ، وَمَكَّنَهُ مِنْ
قَرْبِهِ

وَسَكَّنَهُ، وَقَالَ لَهُ "ذَاكَ رَدَاءٌ لَكَ أَرَدْتَهُ، وَعَدَّرْتَهُ كَمَا تَرَاهُ غَادَرْتَهُ، وَقَدْ هَلَكَ

بَغْيُهُ وَبَغْيُهُ، وَنَبَا زَنْدِ حَيَاتِهِ وَوَزْدُهَا عَنْ وَزْنِهِ وَرَبِّهِ".

وصحّت هذه الكسرة وتمّت هذه النصره

يوم السبت وضربت ذلّة أهل السبت على أهل الأحد، وكانوا أسوداً فعادوا من
التقد [184]

فما أفلتت من تلك الآلاف إلاّ آحاد، وما نجا من أولئك الأعداء إلاّ إعداء، وامتلأ

الملاّ بالأسرى والقتلى. وانجلى الغبار عنهم بالنصر الذي تجلّى، وقيدت
الأسرى في

الجبال واجبة القلوب، وفُرشت القتلى في الوهاد والجبال واجبة الجنوب،
وحطّت

حطّين تلك الجيف عن متنها، وطاب نشر النصر بنتنها، وعبرث بها فلقيث
أشلاء

المشلولين في الملتقى مُلقاة، بالعراء عُراة، ممزّقة بالمازق، مفصّلة
المفاصل

مفرّقة المرافق، مفلّقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأضلاع، مقطّعة
الهام،

موزّعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف، مُعضّاة الأعضاء، مجزّأة
الأجزاء،

مفقوعة العيون، مبعوجة البطون، مخضوبة الضفائر، معضوبة المرائر، مبريّة
البتان،

مفريّة اللبان، مقصومة الأضالع، مفصومة الأشاجع، مرضوضة الصدور،
مفضوضة النحور،

منصّفة الأجساد، مقصّفة الأعضاء، مقلّصة الشفاه، مخلّصة الجباه، قانية
الذوائب،

دامية الترائب، مشكوكة الأضلاع، مفكوكة الأذرع، مكسورة العظام، محسورة
اللثام،

بائدة الوجوه، بادية المكروه، مبشورة الأبخار، معشورة الأعشار، منشورة
الشعور،

مقشورة الظهور، مهدومة البنيان، مهتومة الأسنان، مُهرَقة الدماء، مرهَقة
الدّماء،

هاوية الدُّرى، واهية العُرى، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، مفتونة الأفلاذ،

مبتوتة الأفخاذ، مشدوخة الهامات، مسلوخة اللِّبّات، عديمة الأرواح، هشيمة
الأشباح،

كالأحجار بين الأحجار، عبرة لأوليّ الأبصار^[185] .

وصارت تلك المعركة بالدماء دّماء،

وعادت الغبراء حمراء، وجرت نهار الدم المُتَهَر، وسَقَر بتلك الخبائث المُظلمة
وجه

الدين المطهّر. فما أطيبَ نفحاتِ الظفر من ذلك الخبث، وما ألهبَ عَذَابِ
العذاب في

تلك الجُثث، وما أحسنَ عِمَارَاتِ القلوب بقبح ذلك الشَّعَت، وما أجزأ صلوات
البشائر

بوقوع ذلك الحَدَث، هذا حساب من قُتِلَ فقد حَصِرَت السنة الأمم عن حصره
وعُدّه،

وأما من أسير فلم تكفِ أطناب الخيّم لقيده وشدّه، ولقد رأيت في جبل واحد
ثلثين

وأربعين يقودهم فارس، وهنالك العُتاة عُناة، والعُداة عراة، وذوو الأسيرة
أسرى،

وأولوا الأثرة عُنْرى، والقوامص قنائص، والفوارس فرائس، وغوالي الأرواح
رخائص

ووجوه الداوِيَّةِ الداوية عوابس، والرؤوس تحت الأخمص، ومطالع الأجسام
ذوات المقاطع

والمخالص. فكم أَصِيدَ صِيد، وقائد قُيِّدَ وقيد، ومشرك مكشَّر، وكافر مفكَّر،
ومثلث منصَّف، ومُكَيِّفٍ مُكَنَّف، وجارح مجروح، وقارح مقروح، وملك مملوك،
وهاتك
مهتوك، ومتبَّر مبتور، ومحسَّر محسور، وكابٍ في الكبُل، ومغتال في الغُلُول،
وحُرَّ

في الرقِّ، ومُيَطَّل في يد المُحِقِّ.

الصليب

الأعظم والاستيلاء عليه يوم المُصاف

لم يؤسّر الملك حتى أخذ صليب

الصليبوت، وأهلك دونه أهل الطاغوت. وهو الذي إذا نُصب وأقيم وُزِّع، سجد له
كل

نصرانيّ ورَّكع، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صُلب عليها
معبودهم،

فهو معبودهم ومسجودهم وقد غلّفوه بالذهب الأحمر، وكلّلوه بالدرّ والجوهر،
وأعدّوه

ليوم الرّوع المشهود، ولموسم عيدهم الموعود، فإذا أخرجنه القسوس،
وحملته الرؤوس،

تبادروا إليه، وانثالوا عليه، ولا يسع لأحدهم عنه التخلّف، ولا يسوغ للمتخلّف
عن

أتباعه في نفسه التصرّف، وأخذُه أعظم عندهم من أسر الملك، وهو أشدّ
مُصاب لهم في

ذلك المعترّك، فإن الصليب السليب ما له عوض، ولا لهم في سواه غرض،
والتأله له

عليهم مفترض، فهو إلههم، وتُعقّر له جباههم، وتسبّح له أفواههم، يتغاشّون
عند

احضاره، ويتعاشّون لإبصاره، ويتلاشّون لإظهاره، ويتغاصّون إذا شاهده،
ويتواجدون

إذا وجدوه، ويبذلون دونه المهج، ويطلبون به الفرج، بل صاغوا على مثاله
صلبانا

يعبدونها، ويخشعون لها في بيوتهم ويشهدونها. فلما أخذ هذا الصليب الأعظم
عظم

مُصابيهم، ووهت أصلابهم، وكان الجمع المكسور عظيماً، والموقف المنصور
كريماً،

فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب، لم يتخلّف أحد من يومهم العصيب،
فهلكوا قتلاً

وأسرا، ومليّكوا قهراً وقسراً، ونزل السلطان على صحراء طبريّة كالأسد
المُصحر، والقمر

المُبدر.

ذكر

فتح حصن طبريّة

ونذب إلى حصنها من تسلّمه أماناً،

وأسكنه بعد الكفر إيماناً، وكانت السيّد صاحبة طبريّة قد حمته، ونقلت إليه كل
ما

ملكته وحوته، فأمنها على أصحابها وأموالها، وخرجت بنسائها ورجالها ورجالها،
وسارت

إلى طرابلس بلد زوجها القومص بمالها وحالها. وعادت طبرية أهلة آمنة بأهل الإيمان، وعُيّن لولايتها صارم الدين قايمار النجمي وهو من الأكابر الأعيان، هذا والملك الناصر نازل ظاهر طبرية، وقد طبّ البرية، وعسكره طبّق البرية.

ذكر

ما اعتمده في الأسرى الداوية والأسبتارية
من ضرب رقابهم وإعطاء يشر الوجوه بإعطابهم^[186]

فلما أصبح يوم الاثنين سابع عشري

شهر ربيع الآخر بعد الفتح بيومين، طلب الاسرى من الداوية والأسبتارية وقال "أنا أطهر الأرض من الجنسيتين النجسين". وجعل لكل من يُحضّر منهما أسيرا خمسين، فأحضر العسكر في الحال مئتين، وأمر بضرب أعناقهم، واختار قتلهم على

استرقاقهم، وكان عنده جماعة من أهل العلم والتصوّف، وعدّة من ذوي التعفّف

والتعفّف، فسأل كلّ واحد في قتل واحد، وسلّ سيفه وحسر عن ساعد، والسلطان جالس،

ووجه باشر والكفر عابس، والعساكر صفوف، والأمراء في السيماطين وقوف، فمَنَهم من قرى

وبرى وشكر، ومنهم من أبى ونبا وعذر، ومنهم من يضحك منه، وينوب سواه عنه.

وشاهدت هناك الصّحوك القتال، ورأيت منه القوّال القعّال، فكم وعدّ أنجزه، وحمد

أحرزه، وأجر استدامه بدم أجراه، وبزّ أعنق إليه بغنق براه، ونصل خضبه، لنصر

خطبه، وأسَل اعتقله، لأسد عَقَله، وداء داواه، لداويّ أدواه، وقوّة أهداها لهداة
قوّاها، ولواء نَشَره للأواء طواها، وكفر أماته لاسلام أحياء، وشرك هدمه
لتوحيد

بناه، وعزمة أمضاها، لأمة أرضاها، وعدو قصمه، لوليّ عَصَمه. وسيّر ملك
الفرنج

وأخاه وهنفرى وصاحب جُبيل ومقدم الداويّة وجميع أكابرهم المأسورين إلى
دمشق

ليُودَعوا السجون وتستبدل حركاتهم السكون، وتفَرَّقَت العساكر بما حوته
أيديهم من

السبى أيدي سبّا، وخمد جمر جمع الكفر وخبا.

ذَكَرُ

فَتَحِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ

(ابن الاثير، 366-11/361)

لَمَّا فَتَرَغَ صَلَاحُ الدِّينِ

مِنْ أَمْرِ عَسَقَلَانَ وَمَا يُجَاوِزُهَا مِنَ الْبِلَادِ، عَلَى مَا

تَقَدَّمَ، وَكَانَ قَدْ أُرْسِلَ إِلَى مِصْرَ أَخْرَجَ الْأُسْطُولَ الَّذِي

يَهَا فِي جَمْعٍ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَمُقَدَّمُهُمْ حُسَامُ الدِّينِ لُؤْلُؤُ

الْحَاجِبِ، وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِالشَّجَاعَةِ، وَالشَّهَامَةِ، وَيُؤْمِنُ

النَّقِيبَةِ. فَأَقَامُوا فِي الْبَحْرِ يَقْطَعُونَ الطَّرِيقَ عَلَى

الْفَرَنْجِ، كُلَّمَا رَأَوْا لَهُمْ مَرْكَبًا غَنِمُوهُ، وَشَانِيًا أَخَذُوهُ.

فَجِينَ وَصَلَ الْأُسْطُولُ وَخَلَا سِرُّهُ مِنْ تِلْكَ النَّاحِيَةِ سَارَ عَنْ

عَسَقْلَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَكَانَ بِهِ الْبَطْرُكُ ^[187] الْمَعْظَمُ

عندهم، وهو أعظم شأنًا من ملكهم، وبه أيضاً باليان بن بيرزان، صاحب
الرملة ^[188] ،

وكانت مرتبته عندهم تقارب مرتبة الملك، وبه أيضاً من خلص من فرسانهم
من حطين، وقد

جمعوا وحشدوا. واجتمع أهل تلك النواحي عَسَقْلَانَ وَعَظِيرَهَا، فَاجْتَمَعَ بِهِ

كَثِيرٌ مِنَ الْخَلْقِ، كُلُّهُمْ يَرَى الْمَوْتَ أَيْسَرَ عَلَيْهِ مِنْ أَنْ

يَمْلِكَ الْمُسْلِمُونَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ وَيَأْخُذُوهُ مِنْهُمْ، وَيَبْرَى

أَنْ بَدَلَ نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ بَعْضُ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنْ

حِفْظِهِ، وَحَصْنُوهُ تِلْكَ الْأَيَّامَ بِمَا وَجَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا،

وَصَعِدُوا عَلَى سُورِهِ يَحْدِّدُهُمْ وَحَدِيدُهُمْ، مُجْمِعِينَ عَلَى حِفْظِهِ

وَالدَّبَّ عَنْهُ بِجُهْدِهِمْ وَطَاقَتِهِمْ، مُطَهِّرِينَ الْعِزَّمَ عَلَى

الْمُتَاصِلَةِ دُونَهُ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِهِمْ، وَتَصَبُّوا الْمَجَانِيقَ

عَلَى أَسْوَارِهِ لِيَمْتَنِعُوا مَنْ يُرِيدُ الدُّثُورَ مِنْهُ وَالتَّنَزُّولَ

عَلَيْهِ.

وَلَمَّا قَرَّبَ صَلَاحُ الدِّينِ

مِنْهُ تَقَدَّمَ أَمِيرٌ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، غَيْرَ مُحْتَاطٍ وَلَا

حَذِرٍ، فَلَقِيَهُ جَمْعٌ مِنَ الْفِرْنَجِ قَدْ خَرَجُوا مِنَ الْقُدْسِ

لِيَكُونُوا بَرَكَاءًا، فَقَاتَلُوهُ وَقَاتَلَهُمْ، فَقَتَلُوهُ وَقَتَّلُوا

جَمَاعَةً مِمَّنْ مَعَهُ، فَأَهَمَّ الْمُسْلِمِينَ قَتْلُهُ، وَفُجِعُوا

يَقْفِدِهِ، وَسَارُوا حَتَّى تَزَلُّوا عَلَى الْقُدْسِ مُتَنَصِّفَ رَجَبٍ (أيلول/سبتمبر
1187). فَلَمَّا تَزَلُّوا

عَلَيْهِ رَأَى الْمُسْلِمُونَ عَلَى سُورِهِ مِنَ الرِّجَالِ مَا هَالَهُمْ،
وَسَمِعُوا لِأَهْلِهِ مِنَ الْجَلْبَةِ، وَالصَّحِيجِ مِنْ وَسَطِ الْمَدِينَةِ
مَا اسْتَدْلُّوا بِهِ عَلَى كَثْرَةِ الْجَمْعِ، وَبَقِيَ صَلَاحُ الدِّينِ
خَمْسَةَ أَيَّامٍ يَطُوفُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ لِيَنْظُرَ مِنْ أَيْنَ
يُقَاتِلُهُ، لِأَنَّهُ فِي غَايَةِ الْحَصَاتَةِ وَالِامْتِنَاعِ، فَلَمْ يَجِدْ
عَلَيْهِ مَوْضِعَ قِتَالٍ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، تَحْوِ بَابِ عَمُودَا،
وَكَيْسِيَّةَ صَهْيُونٍ. فَانْتَقَلَ إِلَى هَذِهِ النَّاحِيَةِ فِي الْعِشْرِينَ
مِنْ رَجَبٍ وَتَزَلَّهَا، وَتَصَبَّ تِلْكَ اللَّيْلَةَ الْمَجَانِيقَ، فَأَصْبَحَ
مِنَ الْعَدِ وَقَدْ فَرَّغَ مِنْ تَضْيِيقِهَا، وَرَمَى بِهَا. وَتَصَبَّ الْفَرَنْجُ
عَلَى سُورِ الْبَلَدِ مَجَانِيقَ وَرَمَوْا بِهَا، وَقُوتِلُوا أَشَدَّ قِتَالٍ
رَأَاهُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْقَرِيقَيْنِ يَرَى ذَلِكَ
دَيْئًا، وَحَتْمًا وَاجِبًا، فَلَا يَخْتَاجُ فِيهِ إِلَى بَاعِثٍ سُلْطَانِيٍّ
بَلْ كَانُوا يَمْنَعُونَ وَلَا يَمْتَنِعُونَ وَيَرْجُونَ وَلَا يَنْزَجِرُونَ.
وَكَانَ حَيَالُهُ الْفَرَنْجِ كُلَّ يَوْمٍ يَخْرُجُونَ إِلَى ظَاهِرِ الْبَلَدِ
يُقَاتِلُونَ وَيُبَارِزُونَ، فَيُقْتَلُ مِنَ الْقَرِيقَيْنِ، وَمِمَّنْ
اسْتَشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَمِيرُ عَزُّ الدِّينِ عَيْسَى بْنُ مَالِكٍ،
وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْأَمْرَاءِ وَكَانَ أَبُوهُ صَاحِبَ قُلْعَةِ جَعْبَرٍ،
وَكَانَ يَضْطَلِّي الْقِتَالَ بِنَفْسِهِ كُلَّ يَوْمٍ، فَيُقْتَلُ إِلَى رَحْمَةِ

اللَّهِ تَعَالَى. وَكَانَ مَحْبُوبًا إِلَى الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، فَلَمَّا
 رَأَى الْمُسْلِمُونَ مَصْرَعَهُ عَظُمَ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، وَأَخَذَ مِنْ
 قُلُوبِهِمْ، فَحَمَلُوا حَمْلَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَأَزَالُوا الْفِرْنَجَ عَنْ
 مَوَاقِفِهِمْ فَأَذْخَلُوهُمْ بَلَدَهُمْ، وَوَصَلَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى
 الْخَنْدَقِ، فَجَاؤُوهُ وَالتَّصَفُّوا إِلَى السُّورِ فَتَقَبَّوهُ، وَرَحَفَ
 الرُّمَاهُ يَحْمُوتُهُمْ، وَالْمَجَانِيْقُ نُوَالِي الرَّمْيِ لِيَتَكْشِفَ
 الْفِرْنَجَ عَنِ الْأَسْوَارِ لِيَتِمَّكَنَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ النَّقَبِ،
 فَلَمَّا تَقَبَّوهُ حَسَّوْهُ بِمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ ^[189].

فَلَمَّا رَأَى الْفِرْنَجُ

شِدَّةَ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَتَحَكُّمَ الْمَجَانِيْقِ بِالرَّمْيِ
 الْمُتَدَارِكِ، وَتَمَكَّنَ النَّقَّابِينَ مِنَ النَّقَبِ، وَأَنَّهُمْ قَدْ
 أَشْرَفُوا عَلَى الْهَلَاقِ، اجْتَمَعَ مُقَدِّمُوهُمْ يَتَشَاوَرُونَ فِيمَا
 يَأْتُونَ وَيَذَرُونَ، فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى طَلَبِ الْأَمَانِ،
 وَتَسْلِيمِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ. فَأَرْسَلُوا
 جَمَاعَةً مِنْ كُبَرَائِهِمْ وَأَعْيَانِهِمْ فِي طَلَبِ الْأَمَانِ، فَلَمَّا
 ذَكَّرُوا ذَلِكَ لِلسُّلْطَانِ امْتَنَعَ مِنْ إِجَابَتِهِمْ، وَقَالَ: لَا
 أَفْعَلُ بِكُمْ إِلَّا كَمَا فَعَلْتُمْ بِأَهْلِهِ حِينَ مَلَكَتُمُوهُ سَنَةَ

^[190] إِخْدَى [ثْنَتَيْنِ] وَتِسْعِينَ

وَأَرْبَعِمِائَةٍ (1099)،

مِنَ الْقَتْلِ وَالسَّبْيِ وَجَزَاءِ السَّيِّئَةِ بِمِثْلِهَا. فَلَمَّا رَجَعَ
الرُّسُلُ خَائِبِينَ مَحْزُومِينَ، أَرْسَلَ بَالِثَانُ بْنُ يَزِيدَ وَطَلَبَ
لِنَفْسِهِ لِيَحْضُرَ عِنْدَ صَلَاحِ الدِّينِ فِي هَذَا الْأَمْرِ
وَتَحْرِيرِهِ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ، وَحَضَرَ عِنْدَهُ، وَرَغِبَ فِي
الْأَمَانِ، وَسَأَلَ فِيهِ، فَلَمْ يُجِبْهُ إِلَى ذَلِكَ، وَاسْتَعْطَقَهُ
فَلَمْ يَعْطِفْ عَلَيْهِ، وَاسْتَرْحَمَهُ فَلَمْ يَرْحَمْهُ. فَلَمَّا أَيْسَ
مِنْ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: أَيُّهَا السُّلْطَانُ اعْلَمْ أَنَّنَا فِي هَذِهِ
الْمَدِينَةِ فِي خَلْقٍ كَثِيرٍ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى،
وَأِنَّمَا يَفْتُرُونَ عَنِ الْقِتَالِ رَجَاءَ الْأَمَانِ، طَلَبًا مِنْهُمْ
أَنَّكَ تُجِيبُهُمْ إِلَيْهِ كَمَا أَجَبْتَ غَيْرَهُمْ، وَهُمْ يَكْرَهُونَ
الْمَوْتَ وَيَرْغَبُونَ فِي الْحَيَاةِ. فَإِذَا رَأَيْنَا أَنَّ الْمَوْتَ لَا
بُدَّ مِنْهُ، قَوْلَ اللَّهِ لَتَقْتُلَنَّ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا وَنُحَرِّقُ أَمْوَالَنَا
وَأُمَمِيعَتَنَا، وَلَا تَتْرُكُكُمْ تَعْتَمُونَ مِنْهَا دِينَارًا وَاجِدًا
وَلَا دِرْهَمًا، وَلَا تَسُبُّونَ وَتَأْسِرُونَ رَجُلًا وَلَا امْرَأَةً. وَإِذَا
فَرَعْنَا مِنْ ذَلِكَ أَخْرَبْنَا الصَّخْرَةَ وَالْمَسْجِدَ الْأَقْصَى
وَعَبَّرَهُمَا مِنَ الْمَوَاضِعِ، ثُمَّ تَقْتُلُ مَنْ عِنْدَنَا مِنْ أَسَارَى
الْمُسْلِمِينَ، وَهُمْ خَمْسَةُ آلَافٍ أَسِيرٍ، وَلَا تَتْرُكُ لَنَا دَابَّةً
وَلَا حَيَوَانًا إِلَّا قَتَلْنَاهُ، ثُمَّ خَرَجْنَا إِلَيْكُمْ كُلُّنَا
فَقَاتَلْنَاكُمْ فِتَالٍ مَنْ يُرِيدُ [أَنْ] يَحْمِيَ دَمَهُ وَنَفْسَهُ،
وَحِينَئِذٍ لَا يَقْتُلُ الرَّجُلُ حَتَّى يَقْتُلَ أَمثَالَهُ، وَتَمُوتُ

اعِزَّاءَ أَوْ تَطْفَرُ كِرَامًا.

اسْتَسَارَ صَلاَحُ الدِّينِ

أَصْحَابَهُ. فَأَجْمَعُوا عَلَى إِجَابَتِهِمْ إِلَى الْأَمَانِ، وَأَنْ لَا
يَخْرُجُوا وَيَحْمِلُوا عَلَى رُكُوبٍ مَا لَا يُدْرَى عَاقِبَتُهُ الْأَمْرِ فِيهِ
عَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَنْجَلِي، وَتَحْسَبُ أَنَّهُمْ أَسَارَى بِأَيْدِينَا،
فَتَبِيعُهُمْ نُفُوسَهُمْ بِمَا يَسْتَقَرُّ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، فَأَجَابَ
صَلاَحُ الدِّينِ حَبِيبُذٍ إِلَى بَذْلِ الْأَمَانِ لِلْفِرْنَجِ.

فَاسْتَقَرَّ أَنْ يَزِنَ

الرَّجُلُ عَشْرَةَ دَنَانِيرَ يَسْتَوِي فِيهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَيَزِنَ
الطِّفْلُ مِنَ الذُّكُورِ وَالنِّبَاتِ دِينَارَيْنِ، وَتَزِنَ الْمَرْأَةُ
خَمْسَةَ دَنَانِيرَ، فَمَنْ أَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا فَقَدْ
تَجَا، وَمَنْ انْقَصَتِ الْأَرْبَعُونَ يَوْمًا عَنْهُ وَلَمْ يُؤَدِّ مَا عَلَيْهِ
فَقَدْ صَارَ مَمْلُوكًا، فَبَدَلَ بِالْيَانِ بُنْ يَزْرَانَ عَنْ الْفُقَرَاءِ
ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ. وَسُلِّمَتِ الْمَدِينَةُ
يَوْمَ الْجُمُعَةِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَجَبٍ (2 تشرين أول/أكتوبر
1187)، وَكَانَ يَوْمًا

مَشْهُودًا، وَرُفِعَتِ الْأَعْلَامُ الْإِسْلَامِيَّةُ عَلَى أَسْوَارِهَا. وَرَتَّبَ
صَلاَحُ الدِّينِ عَلَى أَبْوَابِ الْبَلَدِ، فِي كُلِّ بَابٍ، أَمِيْنًا مِنَ
الْأَمْرَاءِ لِيَأْخُذُوا مِنْ أَهْلِهِ مَا اسْتَقَرَّ عَلَيْهِمْ،
فَيَسْتَعْمِلُوا الْخِيَانَةَ، وَلَمْ يُؤَدُّوا فِيهِ أَمَانَةً، وَافْتَسَمَ

الْأَمْثَاءُ الْأَمْوَالِ، وَتَفَرَّقَتْ أَيْدِي سَبَّاءَ، وَلَوْ أَدْبَتْ فِيهِ
الْأَمَانَةُ لَمَلَأَ الْخَزَائِنَ، وَعَمَّ النَّاسَ. فَإِنَّهُ كَانَ فِيهِ
عَلَى الصَّبْطِ سِتُّونَ أَلْفَ رَجُلٍ مَا بَيْنَ قَارِسٍ وَرَاجِلٍ سِوَى مَنْ
يَتَّبِعُهُمْ مِنَ النِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ، وَلَا يَعْجَبُ السَّامِعُ مِنْ
ذَلِكَ، فَإِنَّ الْبَلَدَ كَبِيرٌ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ تِلْكَ التَّوَاجِي
مِنْ عَسَقْلَانَ وَعَظِيرَهَا، وَالْدَّارُومِ، وَالرَّمْلَةِ، وَعَظْرَةَ
وَعَظِيرَهَا مِنَ الْفَرَى، بِحَيْثُ امْتَلَأَتِ الطُّرُقُ وَالْكَتَائِسُ،
وَكَانَ الْإِنْسَانُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَمْشِيَ. وَمِنَ الدَّلِيلِ عَلَى
كَثْرَةِ الْخَلْقِ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ وَرَنَ مَا اسْتَقَرَّ مِنَ الْقَطِيعَةِ،
وَأَطْلَقَ بَالِيَانُ بْنُ يَزْرَانَ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ رَجُلٍ وَرَنَ
عَنْهُمْ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَبَقِيَ بَعْدَ هَذَا جَمِيعِهِ مَنْ لَمْ
يَكُنْ مَعَهُ مَا يُعْطَى، وَأَخَذَ أَسِيرًا سِتَّةَ عَشَرَ أَلْفَ آدَمِيٍّ مَا
بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ وَصَبِيٍّ، هَذَا بِالصَّبْطِ وَالْيَقِينِ.

ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةً مِنْ

الْأَمْثَاءِ ادَّعَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَنَّ جَمَاعَةً مِنْ رَعِيَّتِهِ
إِقْطَاعِهِ مُقِيمُونَ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَيُطْلِقُهُمْ وَيَأْخُذُ هُوَ
قَطِيعَتَهُمْ، وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَمْثَاءِ يُلِيسُونَ الْفِرْنَجِ
زِيَّ الْجُنْدِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُخْرِجُونَهُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْهُمْ
قَطِيعَةً قَرَرُوهَا، وَاسْتَوْهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ صُلَاحِ الدِّينِ عَدَدًا
مِنَ الْفِرْنَجِ، فَوَهَبَهُمْ لَهُمْ، فَأَخَذُوا قَطِيعَتَهُمْ،

وَبِالْجُمْلَةِ فَلَمْ يَصِلْ إِلَى خَزَائِنِهِ إِلَّا الْقَلِيلُ.

وَكَانَ بِالْقُدْسِ بَعْضُ

نِسَاءِ الْمُلُوكِ مِنَ الرُّومِ قَدْ تَرَهَّبَتْ^[191] وَأَقَامَتْ

بِهِ، وَمَعَهَا مِنَ الْحَشَمِ وَالْعَبِيدِ وَالْجَوَارِي خَلْقٌ كَثِيرٌ،

وَلَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجَوَاهِرِ النَّفِيسَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ،

فَطَلَبَتْ الْأَمَانَ لِنَفْسِهَا وَمَنْ مَعَهَا، فَأَمَّتْهَا وَسَيَّرَهَا. وَكَذَلِكَ

أَيْضًا أَطْلَقَ مَلَكَ الْقُدْسِ^[192] اللَّيْ

كَانَ رَوْجُهَا الَّذِي أَسْرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ مَلَكَ الْفِرْنَجَ

يَسْتَبِيهَا، وَنِيَابَةٌ عَنْهَا كَانَ يَقُومُ بِالْمُلْكِ، وَأَطْلَقَ مَالَهَا

وَحَشَمَهَا، وَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي الْمَصِيرِ إِلَى رَوْجِهَا، وَكَانَ

حَبِئْذٍ مَحْبُوسًا بِقَلْعَةٍ تَابُلُسَ، فَأَذِنَ لَهَا، فَأَتَتْهُ

وَأَقَامَتْ عِنْدَهُ. وَأَتَتْهُ أَيْضًا امْرَأَةٌ لِلْبِيرُنْسِيِّ أَرْتَاطُ

صَاحِبِ الْكَرْكِ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَهُ صَلَاحُ الدِّينِ يَدِيهِ يَوْمَ

الْمَصَافِّ بِحِطَّيْنِ، فَشَفَعَتْ فِي وَلَدٍ لَهَا مَأْسُورٍ^[193]،

فَقَالَ لَهَا صَلَاحُ الدِّينِ: إِنْ سَلَّمْتَ الْكَرْكَ أَطْلَقْتُهُ،

فَسَارَتْ إِلَى الْكَرْكِ، فَلَمْ يَسْمَعْ مِنْهَا الْفِرْنَجَ الَّذِي فِيهِ،

وَلَمْ يُسَلِّمُوهُ، فَلَمْ يُطْلَقْ وَلَدُهَا، وَلَكِنَّهُ أَطْلَقَ مَا لَهَا

وَمَنْ تَبِعَهَا. وَخَرَجَ الْبَطْرُكُ الْكَبِيرُ الَّذِي لِلْفِرْنَجِ،

وَمَعَهُ مِنْ أَمْوَالِ الْبَيْعِ مِنْهَا: الصَّخْرَةُ وَالْأَقْصَى،

وَقُمَامُهُ وَغَيْرَهَا، مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى، وَكَانَ
لَهُ مِنَ الْمَالِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَغْرِضْ لَهُ صَلَاحَ الدِّينِ،
فَقِيلَ لَهُ لِيَأْخُذْ مَا مَعَهُ يُقَوِّي بِهِ الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: لَا
أَعْدِرُ بِهِ، وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْهُ غَيْرَ عَشْرَةِ دَنَانِيرَ، وَسَيَّرَ
الْجَمِيعَ وَمَعَهُمْ مَنْ يَحْمِيهِمْ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ.

وَكَانَ عَلَى رَأْسِ قُبَّةٍ

الصَّخْرَةِ صَلِيبٌ كَبِيرٌ مُذَهَّبٌ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْبَلَدَ
يَوْمَ الْجُمُعَةِ تَسَلَّقَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ إِلَى أَعْلَى الْقُبَّةِ
لِيَقْلَعُوا الصَّلِيبَ، فَلَمَّا فَعَلُوا وَسَقَطَ صَاحَ النَّاسِ كُلُّهُمْ
صَوْتًا وَاحِدًا مِنَ الْبَلَدِ وَمِنْ ظَاهِرِهِ الْمُسْلِمُونَ وَالْفَرِئُجُ: أَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَكَبَّرُوا
فَرَحًا، وَأَمَّا الْفَرِئُجُ فَصَاخُوا
تَفَجُّعًا وَتَوَجُّعًا، فَسَمِعَ النَّاسُ صَجَّةً كَادَتْ الْأَرْضُ أَنْ
تَمِيدَ بِهِمْ لِعَظَمِهَا وَشِدَّتِهَا.

فَلَمَّا مَلَكَ الْبَلَدُ

وَفَارَقَهُ الْكُفَّارُ أَمَرَ صَلَاحُ الدِّينِ بِإِعَادَةِ الْأُبْنِيَّةِ إِلَى
حَالِهَا الْقَدِيمِ، فَإِنَّ الدَّائِيَّةَ بَتُوا غَرْبَ الْأَقْصَى
أُبْنِيَّةً لِيَسْكُنُوهَا، وَعَمِلُوا فِيهَا مَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ
هُزِيٍّ وَمُسْتَرَاكِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَأَدْخَلُوا بَعْضَ الْأَقْصَى فِي
أُبْنِيَّتِهِمْ فَأَعِيدَ إِلَى الْأَوَّلِ، وَأَمَرَ بِتَطْهِيرِ الْمَسْجِدِ
وَالصَّخْرَةِ مِنَ الْأَقْدَارِ وَالْأَنْجَاسِ، فَفَعَلَ ذَلِكَ أَجْمَعًا. وَلَمَّا

كَانَ الْجُمُعَةُ الْآخَرَى، رَابِعَ شَعْبَانَ (9 تشرين أول/أكتوبر)،
صَلَّى الْمُسْلِمُونَ فِيهِ الْجُمُعَةَ، وَمَعَهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ، وَصَلَّى

[194]

فِي قُبَّةِ الصَّخْرَةِ ،

وَكَانَ الْخَطِيبُ وَالْإِمَامُ مُحْيِي الدِّينِ بَنَ الرَّكِيِّ، قَاضِي
دِمَشْقَ، ثُمَّ رَتَّبَ فِيهِ صَلَاحُ الدِّينِ خَطِيبًا وَإِمَامًا يَرْسُمُ
الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ. وَأَمَرَ أَنْ يُعْمَلَ لَهُ مِئْبَرٌ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ ثَوَرَ الدِّينِ مَحْمُودًا كَانَ
قَدْ عَمِلَ يَحْلَبُ مِئْبَرًا أَمَرَ

الصَّنَاعَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي تَحْسِينِهِ وَإِنْقَائِهِ، وَقَالَ: هَذَا قَدْ
عَمِلْتَاهُ لِيُنْصَبَ بِالْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، فَعَمِلَهُ النَّجَّارُونَ فِي
عِدَّةِ سِنِينَ لَمْ يُعْمَلَ فِيهِ الْإِسْلَامُ مِنْهُ، فَأَمَرَ
بِإِخْصَارِهِ، فَحُمِلَ مِنْ حَلَبَ وَنُصِبَ بِالْقُدْسِ، وَكَانَ بَيْنَ عَمَلِ
الْمِئْبَرِ وَحَمْلِهِ مَا يَزِيدُ عَلَى عِشْرِينَ سَنَةً، وَكَانَ هَذَا مِنْ كَرَامَاتِ

[195]

ثَوْرِ الدِّينِ، وَحُسْنِ مَقَاصِدِهِ، رَحِمَهُ اللَّهُ. وَلَمَّا
قَرَعَ صَلَاحُ الدِّينِ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ تَقَدَّمَ بِعِمَارَةِ
الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَاسْتِنْفَادِ الْوُسْعِ فِي تَحْسِينِهِ وَتَرْصِيفِهِ،
وَتَذْقِيقِ ثِقْوَتِهِ، فَأَخْصَرُوا مِنَ الرُّخَامِ الَّذِي لَا يُوجَدُ
مِثْلُهُ، وَمِنَ الْقَصِّ الْمَذْهَبِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ، قَدْ ادَّخَرَ عَلَى طُولِ السِّنِينَ. فَشَرَعُوا
فِي عِمَارَتِهِ، وَمَحَوْا مَا كَانَ فِي تِلْكَ الْأَبْنِيَةِ مِنَ الصُّوَرِ،

وَكَانَ الْفِرْنِجُ قَرَشُوا الرُّحَامَ فَوْقَ الصَّخْرَةِ وَعَيَّبُوهَا،
فَأَمَرَ بِكُشْفِهَا. وَكَانَ سَبَبُ تَغْطِيتِهَا بِالْفُرْشِ أَنَّ
الْفِسِّيَّسِينَ بَاغُوا كَثِيرًا مِنْهَا لِلْفِرْنِجِ الْوَارِدِينَ إِلَيْهِمْ
مِنْ دَاخِلِ الْبَحْرِ لِلزَّبَارَةِ، فَكَانُوا يَسْتُرُونَهُ بِوُزْنِهِ
دَهَبًا رَجَاءَ بَرَكَتِهَا، وَكَانَ أَحَدُهُمْ إِذَا دَخَلَ بِلَادَهُ
بِالْيَسِيرِ مِنْهَا بَتَّى لَهُ الْكَيْسَةَ، وَيُجْعَلُ فِي مَذْبَحِهَا،
فَخَافَ بَعْضُ مُلُوكِهِمْ أَنْ تَفْتَى، فَأَمَرَ بِهَا فُقْرِشَ فَوْقَهَا
حِفْظًا لَهَا. فَلَمَّا كُشِفَتْ ثَقَلَ إِلَيْهَا صَلاَحُ الدِّينِ الْمَصَاحِفِ
الْحَسَنَةِ، وَالزَّبَعَاتِ الْجَيِّدَةِ، وَرَتَّبَ الْفُرَّاءَ، وَأَدَّرَ
عَلَيْهِمُ الْوُطَائِفَ الْكَثِيرَةَ، فَعَادَ الْإِسْلَامُ هُنَاكَ غَصًّا
طَرِيًّا، وَهَذِهِ الْمَكْرَمَةُ مِنْ فَتْحِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ لَمْ

[196]

يَفْعَلُهَا بَعْدَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ،
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، غَيْرَ صَلاَحِ الدِّينِ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَكَفَاهُ
ذَلِكَ فُخْرًا وَشَرَفًا.

وَأَمَّا الْفِرْنِجُ مِنْ

أَهْلِهِ فَإِنَّهُمْ أَقَامُوا، وَشَرَعُوا فِي بَيْعِ مَا لَا يُمَكِّنُهُمْ
حَمْلُهُ مِنْ أُمْتِعَتِهِمْ وَذَخَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَمَا لَا
يُطِيقُونَ حَمْلَهُ، وَبَاغُوا ذَلِكَ بِأَرْحَصِ التَّمَنِ، فَاسْتَرَاهُ
الْجُبَّارُ مِنْ أَهْلِ الْعَسْكَرِ، وَاسْتَرَاهُ النَّصَارَى مِنْ أَهْلِ

الْقُدْسِ الَّذِينَ لَيْسُوا مِنَ الْفِرْنِجِ، فَإِنَّهُمْ طَلَبُوا مِنْ
صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنَ الْمَقَامِ فِي مَسَاكِينِهِمْ،
وَيَأْخُذَ مِنْهُمْ الْجِزْيَةَ، فَأَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ، فَاشْتَرَوْا
حَبْنِيذَ مِنْ أَمْوَالِ الْفِرْنِجِ. وَتَرَكَ الْفِرْنِجُ أَيْضًا أَشْيَاءَ
كَثِيرَةً لَمْ يُمَكِّنْهُمْ بَيْعُهَا مِنَ الْأَسِيرَةِ وَالصَّنَادِيقِ
وَالْبَتِّيَّاتِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَتَرَكَوْا أَيْضًا مِنَ الرُّحَامِ الَّذِي
لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ، مِنَ الْأَسَاطِينِ وَالْأَلْوَاكِ وَالْقَصَصِ وَغَيْرِهِ،
شَيْئًا كَثِيرًا ثُمَّ سَارُوا.

(عماد الدين، 47-69)

ثم رحل من عسقلان للقدس طالباً،

وبالعزم غالباً، وللنصر مصاحباً، ولذيل العزّ ساحباً، قد أصبح رَيِّضَ مناه،
وأخصب

روض غناه، وأصبح رائح الرجاء، أرج الأرجاء، سيِّب الغُزف، طيِّب العُزف،
ظاهر

اليد، قاهر الأيد. سِنَى عسكره قد فاض بالفضاء فضاء، وملاً الملاً فأفاض الآلاء.

وقد بسط عَثِيرُ قَيْلِقَه مَلَاءَتَه عَلَى الْقَلْق، وكأثماً أعاد الْعَجَاجُ رَأْدَ

الضحى جنح الْعَسَق. فالأرض شاكية من إجحاف الجحافل، والسماء حاضية
بأقساط

القساطل. وسار ساراً بالأحوال الحوالي، مرويةً أحاديث فتوحه العوالي من
العوالي،

مطويةً مدارمناجه على ما تنشره الآمال من الأمالي، وقد حلت وعلت من
مغارس النصر

ومطالعه أَلْمَجَانِي وَالْمُجَانِي، والإسلام يخطب من القدس عروساً، ويبذل لها
في المهر

نفوساً، ويحمل إليها نُعَى ليحمل عنها بُوسَى، ويهدي بشراً ليذهب عبوساً،
ويُسمَح صرخة الصخرة المستدعية المستعدية لإِعدائها على أعدائها، وإِجابة
دعائها،

وتلبية ندائها، وإِطلاع زُهر المصابيح في سمائها، وإِعادة الإيمان الغريب منها
إلى

وطنه، وردّه إلى سكونه وسكّنه، وإِقصاء الذين أقصاهم الله بلعنته من
الأقصى، وجذب

قياد فتحه الذي استعصى، وإِسكات الناقوس منه بإِنطاق الأذان، وكفّ كفّ
الكفر عنه

بأَيِّمان الإيمان، وتطهيره من أنجاس تلك الأجناس، وإِدناس أدنى الناس،
وإِفحام

الأفهام بإِخراس الأجراس. وطار الخبر إلى القدس فطارت قلوب من به رعباً
وطاشت،

وخفقت أفئدتهم خوفاً من جيش الإسلام وجاشت، وتمنّت الفرنج لَمّا شاعت
الأخبار أنها

ما عاشت، وكان به من مقدّمي الإفرنج باليان بن باززان والبطرك الأعظم،
ومن كِلا

الطائفتين الأسبترية والداوية المقدّم. فاشتغل بال باليان، واشتعل بالنيران،

وخمدت نار بَطَر البطرك، وضاحت بالقوم منازلهم فكأنّ كل دار منها شِرك
للمُشرك.

وقاموا بالتدبير في مقام الإِدبار، وتقسّمت أفكار الكفّار، وأيس الفرنج من
الفرج،

وأجمعوا على بذل المهج.

ذكر

[197]

كنيسة قُمَامَة

وقالوا ههنا نطرح الرؤوس، ونسبك

النفوس، ويسفك الدماء، وتُهلك الدّهْماء، ونصبر على اقتراح القروح وإجتراح الجروح،

ونسبح بالأرواح شحّا بمحلّ الروح، فهذه قُمَامَتنا، فيها مُقَامَتنا، ومنها تقوم

قيامتنا، وتصيح هاماتنا، وتصحّ ندامتنا، وتسبح علامتنا، وتسبح غمامتنا، وبها

غرامنا، وعليها غرامتنا، وبإكرامها كرامتنا، وبسلامتها سلامتنا، وباستقامتها

استقامتنا، وفي استدامتها استدامتنا، وإن تخلّينا عنها لزمّت لآمتنا، ووجبت

ملامتنا، ففيها المَصْلَب والمطلب، والمذبح والمَقَرَّب، والمجمع والمعبد،
والمهيّط

والمصعد، والمرقى والمرقب، والمشرّب والملعب، والممّوضه والمذهّب،
والمطلع والمقطع،

والمربّى والمريع، والمرحّم والمخرّم، والمحلّل والمحزّم، والضّور والأشكال،

والأنظار والأمثال، والآساد والأشبال، والأشباه والأشباح، والأعمدة والألواح،

والأجسام والأرواح، وفيها صور الحواريين في جوارهم، والأخبار في أخبارهم،

[198]

، والرهابين في صوامعهم، والأقِسّاء في مجامعهم، والسّحرة وحبّالها ،

والكهنة وخيالها، ومثال السيّدة والسيّد، والهيكل والمولد، والمائدة والحوث،

[199]

، والمنعوت والمنحوت، والتلميذ والمعلّم، والمهد والصبيّ المتكلم ،

وصورة الكبش والحمار، والجنة والنار، والنواقيس والنواميس. قالوا وفيها
صُلب

المسيح، وقُرب الذبيح، وتجسّد اللاهوت، وتألّه الناسوت، واستقام التركيب،
وقام

الصليب، ونزل النور، وزلّ الدّيجور، وازدوجت الطبيعة بالأقنوم، وامتزج
الموجود

[200]
بالمعدوم، وعُمدت معموديّة المعبود، ومَحَضت البثول بالمولود .

وأضافوا إلى متعبّدهم من هذه

الضلالات، ما ضلّوا فيه بالشُّبه عن نهج الدلالات، وقالوا: "دون مقبرة ربّنا
نموت، وعلى خوف قوّتها ممّا نفوت، وعنّها ندافع، وعليها نقارع، ومالنا لا
نقاتل،

وكيف لا ننازع ولا ننازل، ولأيّ معنى تتركهم حتى يأخذوا، ونَدَعهم حتى
يستخلصوا ما

استخلصناه منهم ويستنقذوا. " وتأهّبوا وتباهّوا، وما أنتهّوا بل تناهّوا.

ونصبوا المناجيق أمّات الأسواء

على الأسوار، وسترُوا بظلمات الستائر وجوه الأنوار. واستشاطت شياطينهم،
وسرحت

سراحينهم، وطغت طواغيتهم، وأصلت مَصاليتهم، ونُشرت طواميرهم،
وتسعّرت مساعيرهم.

وهاج هائجهم، وماج مائجهم، ودعت دواعيهم، وعدت عواديهم، وسعت
أفاعيهم، وحصّتهم قسوسهم،

وحجّرتهم رؤوسهم، وحجّرتهم نفوسهم، وجأثتهم بجّوى الشّوء جواسيسهم،
وأخبرتهم

بإقبال العساكر الناصريّة منصوره

الجنود، منشورة البنود، موصولة القواطع بالأشاجع مهجورة الغمود، مشهورة القواضب،

مشهودة الكتائب، مَقُودَة الضوامر إلى ثار العدى، مُؤَقَّدة الضمائر بنار الهدى، مشبوبة العزائم، مجنوبة الصلادم، مسلولة الظُّبا، مطلولة الرُّبا، مجنونة أجنّة أغمادها، مسنونة أسنّة صعادها، مطلقّة أعنّة جيادها، محققة مِظَنّة طِرادها. قد سالت الوهاد بآكامها، وجالت الأعلام في أعلامها، وسدّت الفِجاجَ أفواجها، ومدّت

العجاج أُمواجهها، وحجبت الغزاة عِقْبائُها، وألهبت الدُّبالة خِرْصائُها. وجرت بالجمال رباحها، وجُرّت كالجمال رماحها، واشتمل على الضراغم غِئْلُها، وأقبل بالعظام قَيْلُها، ووافى كل وافيٍ بعهد ربّه، كاف لكفّ خطبه، شافيٍ لهم قلبه، صافيٍ

بفيض شِربِه، خافيٍ في لَبُوسِه، نافيٍ لِبُوسِه، باسل بياسه، عاسل بأمراسه، ناسل

يُنْت الغمد من جفنه، غاسل تَبَّت الحدّ بدم قِرْزِه، واصل يَبِض الهند بسواعده، فاصل خطاب الخطوب ببوارقه ورواعده، حادّ بجدّه. وكل شابّ لنار الحرب شابّ، ورَبّ

دين لدين الرّبّ رابّ، وكل جيش كالبحر عَتّاب، وكل سالٌّ ذي ذباب عن الهدى ذابّ،

وكل قائل بالآخرة للحياة الدنيا قال، سائل من الله الشهادة عن حبّ البقاء سال،

مائل في سبيل الله إلى انفاق مال. وأقبل السلطان بإقبال سلطانه، وابطل شجاعانه،

وأقيال أولاده وإخوانه، وإشبالي مماليكه وغلمايه، وكرام أمرائه، وعظام أوليائه. في

مقانب بالمناقب مقنّبه، وكتائب بالموالك مكّتبه، وذوابل بالكواكب منصّله، وجحافل

بمّضاء المضارب محقّلة، وألوية صُفر للأواء ^[202] بني

الأصفر ^[203] ،

وبيض وسمر ترزّق زُرّق العدى من الموت الأحمر، وقباب وقبائل، وقنّا وقنابل،
وصوافن وصواهل، وعوامل وعوايل، وفوارس فوارس، وكلّ من يبدّل للشخّ
بدينه النفوس
والنفائس. وأصبح يسأل عن الأقصى وطريقه الأدنى، وفريقه الأسنى، ويذكر
ما يفتح الله

عليه بحسن فتحه من الحسنى.

وصف

البيت المقدّس

وقال: "إن أسعدنا من الله على

إخراج أعدائه من بيته المقدّس فما أسعدنا، وأيّ يد له عندنا إذا أيّدنا، فإنه

مكث في يد الكفر إحدى وتسعين سنة ^[204] ،

لم يتقبّل الله فيه من عابد حسنة، ودامت همم الملوك دونه مُتَوَسِّسَه، وحلّت
القرون عنه متخلّية، وحلّت الفرنج به متولّية. فما ادّخر الله فضيلة فتحه إلّا لآل
أيوّب، ليجمع لهم بالقبول القلوب، وخصّ به عصر الإمام الناصر لدين الله
ليفصّله

به على الاعصار، ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار. وكيف لا يهتمّ بافتتاح

البيت المقدّس الأقوى، والمسجد الأقصى المؤسّس على التقوى، وهو مقام الأنبياء،

وموقف الأولياء، ومعبد الأتقياء، ومزار أبدال الأرض وملائكة السماء، ومنه المحشر

والمنشر، ويتوافد إليه من أولياء الله بعد المعشر المعشر، وفيه الصخرة التي صينت

جِدّة إبهاجها من الإنهاج، ومنها منهاج المعراج، ولها القبّة السّمَاء التي على

رأسها كالتاج، وفيه وَمَضُ البارق ومضى البُراق ،^[205]

وأضاءت ليلة الإسراء بحلول السراج المنير فيه الآفاق. ومن أبوابه باب الرحمة^[206] الذي

يستوجب داخله إلى الجنّة بالدخول الخلود، وفيه كرسيّ سليمان ومحراب داود، وله عين

سُلُوان التي تُمثّل لواردها من الكوثر الحوض المورود. وهو أوّل القبلتين^[207] ،

وثاني البيتين، وثالث الحرمين. وهو أحد المساجد الثلاثة التي جاء في الخبر النبويّ

أنها تشدّ إليها الرّحال، ويعقد الرجاء بها الرجال. ولعلّ الله يعيده بنا إلى أحسن صورته، كما شرّفه بذكره مع أشرف خلقه في أوّل سورة، وقال عزّ من قائل [سُبْحَنَ الَّذِي

أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى]^[208] .

وله فضائل ومناقب لا تحصى، وإليه ومنه كان الإسراء، ولأرضه فتحت السماء، وعنه

نُؤْتَر أنبا الأنبياء، وآلاء الأولياء، ومشاهد الشهداء، وكرامات الكرماء، وعلامات العلماء. وفيه مَبَارِكُ الْمَبَارِّ، ومسارح المسارِّ، وصخرته الطُّوَلَى، القبلة الأولى، ومنها تعالت القدم النبويَّة، وتوالت البركة العلويَّة، وعندها صلَّى نبينا صلعم بالنبیین، وصحب الروح الأمين، وصعد منها إلى أعلى عِلِّيِّين، وفيه

محراب مريم عم الذي قال الله فيه [كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا] ^[209].

ولنهاره التعبُّد وليله المَحْيَا، وهو الذي أسَّسه داود وأوصى ببناؤه سليمان، ولأجل

إجلاله أنزل الله شُبحان، وهو الذي افتتحه الفاروق ^[210] وافتتحت

به سورة الفرقان، فما أجَلُّه وأعظمه، وأشرفه وأفخمه، وأعلاه وأجلّاه، وأسماءه وأسنانه،

وأيمنَ بركاته وأبرك ميامنه، وأحسن حالاته وأحلى محاسنه، وأزين مباهجه وأبهج

مزايته. وقد أظهر الله طُوله، بقوله [الذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ] ^[211] وكم

فيه من الآيات التي أراها الله نبيّه، وجعل مسموعنا من فضائله مرئية.

ووصف السلطان من خصائصه ومزاياه،

ما وثَّق على استعادة آلائه موافيقه وألاياه، وأقسم لا يبرح حتى يَبْرَّ قَسَمُهُ،

ويُرفع بأعلاه عَلمه وتخطوا إلى زيارة موضع القدم النبويَّة قدمه، ويصغي إلى صرخة

الصخرة، ويبغي بالبُشرى بِشْر أسيرة الأشره ^[212] وسار

وائقاً بكمال النصره وزوال العسره، وحسر الفرنج قناع الحسره، ونزل على
غربيّ القدس

يوم الأحد خامس عشر رجب (20 ايلول/سبتمبر)

وقلب الكفر قد وجب، وحزب الشرك قد شارف الشّجى والشّجب، والقدر قد
أظهر العجب.

وكان في القدس حينئذٍ من الفرنج ستون ألف مقاتل، من سائف ونايل، وبطل
للباطل،

وعاسي عاسل بالعاسل، قد وقفوا دون البلد يبارزون ويحازون، ويعاجزون
ويناجزون،

ويرمون ويؤدمون، ويحمّون ويحمّون، ويحتدّون ويحتدمون، ويضطربون
ويضطرمون،

ويذودون ويذبّون، ويشبّون ويسبّون، ويصرّخون ويحرّضون، ويلهثون ويتغوّثون،

ويلوذون ويلوبون، ويجولون ويجوبون، ويُقدّمون ويحجمون، ويتململون
وبالمون

ويتعاوون، ويتضاغون، ويحترقون للبلايا، ويقترحون المنايا. وقاتلوا أشد قتال،

وناضلوا أحد نضال، ونازلوا أجد نزال، وطاقوا بصحاف الصفاح، لإرواء الظّبا

الظّماء من ماء الأرواح، وجالوا بالأوجال، وأجالوا قِداح الآجال، وصالوا لقطع

الأوصال. والتهموا والتهبوا، وتأسّبوا وتثبّوا، واستهدفوا للسهام، واستوقفوا

للجمام. وقالوا "كل واحد منّا بعشرين، وكل عشرة بمئتين، ودون القيامة تقوم

القيامة، ولحبّ سلامتها تُقلّى السلامة" ودامت الحرب، واستمرّ الطعن
والضرب.

فانتقل السلطان يوم الجمعة العشرين

من رجب (25 ايلول/سبتمبر)

إلى الجانب الشماليّ وخيّم هنالك، وضيق على الفرنج المسالك، ووسّع عليهم
المهالك.

ونصب المجانيق، ومَرَى من آفاتها الأفويق، وأصرخ الصخرة بالصخور، وحشّر
حشّر

السوء منهم وراء السور، فما عادوا يخرجون من السور الرؤوس، إلا ويلقون
البوس،

واليوم العبوس، ويلقون على الردى النفوس. فاللداويّة دويّ، وللبارونيّة من

البوار في الهاوية هويّ. وللاسيّتار تبار، وما للقريريّة من الموت فرار، وما

بين الحجار المحلّقة وبين المرمى إليهم حجاب، وفي كل قلب من الفئتين من
نار حرصه

التهاب، إذا الوجوه لقُبل النصال مكشوفة، والقلوب للوجد بالقتال ملهوفة،
والأيدي

على قوائم السيوف المفتوحة مضمومة، والنفوس لاستبطاء الهمم في
الاهتمام مهمومة،

وقواعد السور ونواجد شراريفه بالأحجار الخارجة من الكفّات مهدومة
مهتومه، فكأنّ

المجانيق مجانيّن يُرامون، ومَنَاجيد لا يُرامون، وجبال تجذبها حبال، ورجال
تنجدها

رجال، وأمّات الدواهي والمنايا، وحوامل تلد البلايا، لا حَجَر عليها في حَجَر، ولا

أمن عندها من حذر، ولا تخطر سهامها إلا بالخطر، ولا يفطر مروّرها إلاّ
مرارات

[213]

ذوي الفِطر .

فكم نجم من سمائها ينقضّ، وصخر من أرضها يرفضّ، وجمر من شرارها
ينفضّ. وما شيء

كآفات كَفَّاتِها، وآيات نكاياتها، ودركات ادراكاتها، ولفئات فلتاتها، وجَدَبَات
عَدَبَاتِها. فما زالت تَقْلَعُ بمقالعها، وتَقْرَعُ بمقارعها، وَتَمْتَحُ بأشطانها، وتمرح في
أَرْسانِها، وتصدم وتهدم، وتصرع وتصدع، وتَنْهَزُ بِدِلالاتِها، وتَجْهَزُ ببلائِها، وتَحُلُّ
تركيب الجلاميد بأفراد جلاميدها وتَقْلُ شمل المباني بتفريقها وتبديدها،
وتَقْوُضُ
القواعد بضربها من أساسها، وتنقُضُ المقاعد بجذبها في أُمَراسِها، وتَشَقِّه
الموارد
بشربها من كأسِها، حتى تركت الشُّورَ شُورًا، وجعلت الذابَّ عنه محسورًا،
وعاد العدوُّ
من نظمه المبتور مبتورًا. وُحِرِقَ الخندق وُحِفَزَ الزحف. وظهر للإسلام الفتح
وللكفر
الحتف، وأخذ النقب، وشهل الصعب. وبُذِلَ المجهود، وحصل المقصود، وكَمَلَ
المراد،
وكَلِمَ المُرَّاد، وتُغِرَ الثغر، وأَمِرَ الأمر، وأرَبى الأرب، واستتَبَّ السبب، وخاف
القوم الوَقْم، واستعاضوا من الصَّحَّةِ الشَّقْم وأسلم البلد وقُطِعَ زُتَّار خندقه،
وبرز
ابن بارزان ليأمن من السلطان بموثقه، وطلب الامان لقومه، وتمنَّع السلطان
وتسامى في
سومه، وقال "لا أمن لكم ولا أمان، وما هو أنا إلا أن نديم لكم الهوان، وغدا
نملككم قَسْرًا، ونوسعكم قتلا وأسرا. ونسفك من الرجال الدماء، ونسلِّط على
الذَرِيَّةِ
والنساء السِّباء." وأبى في تأمينهم إلا الإِباء، فتعرَّضوا للتضرُّع، وتخوَّفوا
وخوَّفوا عاقبة التسرُّع، وقالو: "إذا أيسنا من أمانكم، وخفنا من سلطانكم،
وخبنا

من احسانكم، وأيقنا أنه لا نجاه ولا نجاح، ولا صلح ولا صلاح، ولا سلّم ولا سلامة،

ولا نعمة ولا كرامة، فأثّا نستقتل فنقاتل قتال الدم، ونقابل الوجوه بالعدم،
ونُقَدِّم إقدام المُستَشْرِى بالشّرّ، ونقتحم اقتحام المستضري من الضّرّ، ونُلقي
أنفسنا على النار، ولا تُلقى بأيدينا إلى التهلكة والعار، ولا يُجرح واحد مئّا حتى
يَجرح عشرة، ولا تضمّنا يد الفتك حتى تُرى أيدينا بالفتك منتشره، وأثّا نحرق
الدُّور ونخرب القبّة، ونترك عليكم في سَبِينا السّبّه، ونقلع الصخرة، ونوجد كم
عليها الحسرة. ونقتل كل من عندنا من أسرى المسلمين وهم أُلوف، وقد
عُرِف أن كلاً

مئّا من الذلّ عَزوف وللعزّ أُلوف، وإمّا الأموال فأثّا نُعطبها ولا نعطيها، وإما
الذراري فأثّا نसारِع إلى إعدامها ولا نستبطيها. فأية فائدة لكم في هذا الشح؟
وكل

خُسِر لكم في هذا الريح، وُزِبّ خيبة جاءت من رجاء النّجح، ولا يُصلح الشوّء
سوى

الصلح، وُزِبّ مُدْلج أضلّه ظلام الليل قبل أسفار الصبح".

فعقد السلطان مَحْضرا للمَشُورة،

وأحضر كبراء عساكره المنصوره، وشاورهم في الأمر، وحاورهم في السرّ
والجهر، واستطلع

خبايا ضمائرهم، واستكشف خفايا سرائرهم، واستورى زندهم، واستعلم ما
عندهم، وراوضهم

على المصلحة المترجحه، وفاوضهم في المصلحة المُربحه، وقال: "إن
الفرصة قد

أمكنت فتحرص في انتهازها، وإن الحصّة قد حصلت ونستخير الله في إحرازها، وإن فاتت

لا تُستدرك، وإن أفلتت لا تُملّك " فقالوا: " قد خصّك الله بالسعادة،

وأخلصك لهذه العبادة، ورأيك راشد، وعزمك لضالّة النصر ناشد، وأمرك لأشتات المناجح

وأسباب المناجح حاشد، وكلّنا لك في اغتنام فتح هذا الموضع الشريف مناشد".

واستقرّ بعد مراودات ومعاودات، ومفاوضات وتفويضات، وضراعات من القوم وشفاعات، على

قطيعة تكمل بها الغبّطه، وتحصل منها الحوْطه، اشتروا بها متّاً أنفسهم وأموالهم،

وخلّصوا بها رجالهم ونساءهم وأطفالهم. على أنه من عجز بعد أربعين يوماً عمّا لزمه،

أو أمتنع منه وما سلّمه، ضُرب عليه الرِقْ، وثبت في تملّكه لنا الحقّ، وهو عن كل

رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل صغير أو صغيرة ديناران. ودخل ابن بارزان

والبطرك ومقدّما الداويّة والإسبتار في الضمان، وبذل ابن بارزان ثلاثين ألف دينار

عن الفقراء، وقام بالأداء ولم يُنكل عن الوفاء. فمن سلّم خرج من بيته آمناً، ولم

يعد إليه ساكناً.

وسلموا البلد يوم الجمعة السابع

والعشرين من رجب (2 تشرين أول/اكتوبر)

على هذه القطيعة، وردّوه بالرغم ردّ الغضب لا الوديعة. وكان فيه أكثر من
مائة ألف

إنسان، من رجال ونساء وصبيان، فأغلقت دونهم الأبواب، ورُتّب لعرضهم
واستخراج ما

يلزمهم النّوّاب، ووكل بكل باب أمير، ومقدّم كبير، يحصر الخارجين، ويحصي
الوالجين، فمن استُخرج منه خرج، ومن لم يقم بما عليه قعد في الحبس وعدم
الفرج. ولو

حُفظ هذا المال حقّ حفظه، لفاز منه بيت المال بأوفر حظّه لكنّما تمّ التفريط،
وعمّ

إلتخيط، فكلّ من رشا مشى، وتنكّب الأمانة نهج الرشد بالرشا، فمنهم من
أدلي

من السور بالحبال، ومنهم من حُمل مخفياً في الرحال، ومنهم من عُيّر
لِبسته فخرج

بريء الجسد، ومنهم من وقعت فيه شفاعة مطاعة لم تقابل بالرد.

وكانت في القدس ملكة روميّة

متبرّّبه، في عبادة الصليب متصلّبه، وعلى مُصابها به متلّبه، وفي التمسك
بملتها

متصعّبة متعصّبه. أنفاسها متصاعدة للخرن، وعبراتها متحدّرة تحدّر القطرات
من

المُزن. ولها حال ومال وأشياء وأشياء، ومتاع وأتباع، فمنّ عليها السلطان
وعلى

كل من معها بالإفراج، وأذن في إخراج كل مالها في الأكياس والأخراج.
فراحت

قرّحى. وان كانت من شجنها قرّحى.

وكانت زوجة الملك المأسور ابنة

[214] الملك أماري ،

مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجواري، فخلصت هي
بمن معها

ومن تبعها، ومن ادّعى أنه ممّن صاحبها وشيّعها. وكذلك الإبرنساسة ابنة فيليب
أمّ

[215] هنفري أُعفيت

من الوزن، وتوفّر مالها عليها في الخزن. واستطلق صاحب البيرة زهاء
خمسمائة

أرمينيّ ذكر أنهم من بلده، وإنّ الواصل منهم إلى القدس لأجل متعبّده، وطلب
مظفّر

الدين بن عليّ كوّجك زهاء ألف أرمينيّ ادّعى أنهم من الزها، فأجرأه السلطان
من

إطلاقهم له على ما إشتهى. وكان السلطان قد ربّب عدّة دواوين، في كل
ديوان منها

عدّة من النّوّاب المصريّين ومنهم من الشاميّين، فمن أخذ من أحد الدواوين
خطاً بالأداء

انطلق مع الطّلّقاء، بعد عرض خطّه على من بالباب من الأمناء والوكلاء. فذكر
لي من

لا أيشكّ في مقاله، أنه كان يحضر في الديوان ويطلّع على حاله. فرّبما كتبوا
خطاً

لمن نقّده في كيسهم، وتلبّس أمرّ تلبّسهم، فكانوا شركاء بيت المال لا أمناء،

وخانوه على ما حصل لكل من الغنى والنفع وما أضّرّ غناه، ومع ذلك حصل
لبيت المال ما

يقارب مائة ألف دينار، وبقي من بقي تحت رقّ وإسار، يُنتظر به انقضاء المدّة
المضروبه، والعجز عن الوفاء بالقطيعة المطلوبه.

ذكر

يوم الفتح وهو سابع عشري رجب

واتفق فتح البيت المقدّس في يوم

كان في مثل ليلته منه المعراج، وتمّ بما وضع من منهاج النصر الابتهاج، وزاد
من

الأسنة بالدعاء والابتهاج الالتهاج. وجلس السلطان للهنساء، للقاء الأكابر

والأمراء والمتصوّفة والعلماء، وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين
الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور اليشّر سافر، وأمله بعزّ النجح
ظافر. وبابه مفتوح، ورقّده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع، ونشاطه
مُقيّل،

وبساطه منسّل، ومُحيّاه يلوح، وريّاه يفوح، ومحبّته تروق ومهابته تروع، وآفاقه

وأخلاقه تضوع، وبده لفيض أمواه السخاء. وفضّ أفواه العطاء، ظاهرها قبلة
القُبَل [216] ،

وباطنها كعبة الأمل، قد حلّت له حالة الظفر، وكانّ دسّته به هالة القمر،
والقرّاء

جلوس يقرأون ويُرشدون، والشعراء وقوف يُنشدون وينشدون، والأعلام تبرز

لثبشّر، والأقلام تبرز لثبشّر، والعيون من فرط المسرّة تدمع، والقلوب للفرح

بالنصر تخشع، والألسنة بالإتهال الى الله تضرّع. والكاتب ينشي ويوشّي ويوشّع.

والبليغ يسهب ويوجز ويضيق ويوسع، فما شبهت قلّمي إلا بشائر أزي
البشائر،^[217] ولاوجهت

كلّمي إلا لطائف وحي اللطائف، وما أرسلت يراعي إلا ليراعي الرسائل،
ويُشَيِّع الفضائل، ويُشَيِّع الفواضل، ويشيع القول، ويسيع الطؤل، ويطول
بالحجة

وإن كان في حجمه قصر، ويصول باللهجة وإن كان في هجّمه قصر، ويسمّن
الملك به

وهو نحيف، ويثقل الجيش به وهو خفيف، ويبدّي بياض الغرّة من سواد الدّهْمه،
ويجلو

بهجة الضياء من محبّة الظلمه، ويجري بالآجال والأرزاق، والمنع والاطلاق،
والخلف

والوفاق، والإرقاق والإعتاق، والعدّة والإنجاز، والجِدّة والإعواز، والفتق

والرتق، والرقع والخرق. وهو الذي يجمع الجيوش، ويرفع العروش، ويوحش
المستأنس ويؤنس

المستوحش، وينعش العاثر ويُعثر المنتعش، يجري بالأعداء، وبالإيلاء للأولياء.

فبشّرت بأقلامي أقاليم البشر، وعبّرت بإعاجيبي عن عجائب العبر، وملأت
البروج^[218] بالدراري

^[219] والدُرُوج بالدُرر، ورّيت تلك البشرية حتى أطابت ربّا الرّيّ وسَمَر سَمَرَقَند ،
وأطربت وحلت حتى فاقت القنْدِيد والقنْد، وعُلّقت بفتح القدس بلاد الإسلام
ورّينت، وشّرحت فضيلتها وبّينت، وأدّيت فريضة زيارتها وتعيّنت.

ذكر

ما جرت عليه حال الفرنج في خروجهم من القدس

وشرع الإفرنج في بيع الأمتعه،

واستخراج ذخائرهم المودّعه، وباعوها بالعجّان في سوق الهوان، وتقاعد
الناس بهم

فابتاعوها بأرخص الأثمان، وباعوا بأقلّ من دينار كل ما يساوي أكثر من
عشره، وجدّوا

[220]

في ضمّ ما وجدوا من أمور لهم منتشرة، وكنسوا كنائسهم ،

وأخذوا منها نفائسهم، ونقلوا منها الذهبيات والفضّيات، من الأواني والقناديل،

والحريريات والمذهّبات، من السّتور والمناديل. ونقضوا من الكنائس الكنائس،

واستخرجوا من الخزائن الدفائن. وجمع البطرك الكبير كل ما كان على القبر،
من صفائح

التبر، ومضوغات العسجد ومصنوعات اللّجين، وجمع ما كان في قمامة من
الجنسين

والتسجين. فقلت للسلطان: "هذه أموال وافره، وأحوال ظاهره، تبلغ مائتي
ألف

دينار، والأمان على أموالهم لا أموال الكنائس والأديار، فلا تتركها في أيدي
هؤلاء

الفجّار". فقال: "إذا تأوّلنا عليهم نسبونا إلى الغدر، وهم جاهلون بسرّ

هذا الأمر، فنحن نُجرّهم على ظاهر الأمان، ولا نتركهم يرمون أهل الإيمان
بنكث

الأيّمان، بل يتحدّثون بما أفضناه من الإحسان". فتركوا ما ثقل وحملوا ما عرّ

وخفّ، ونفضوا من تراب ثرائهم، وقُمّامة قُمّامتهم^[221] الكفّ.

وانتقل معظمهم إلى صور، وكثّفوا بالديّجور الديّجور وبقي منهم زهاء خمسة عشر

ألفا امتنعوا من مشرع الحقّ، فاخصّوا بمشروط الرقّ. فأما الرجال وكانوا في تقدير

سبعة آلاف، فإنهم ألفوا ذلاً لم يكونوا له بالآف، فاقتسمتهم أيدي السّبي أيدي

سّبا، وتفرّق الغانمون بجمعهم في الوهاد والزّبا. وأحصيت النساء والصبيان

ثمانية آلاف نسّمه، عادت بيننا مقتسّمه، وأصبحت ببكائها وجوه الدولة مبتسمة. فكم

محبوبة هُتكت، ومالكة مُلكت، وعزباء تُكحت، وعزيزة مُنحت، وبخيلة تسمّحت، وخبيّة

نوفحت، ومُجدة مَزحت، ومصونة ابْذلت، وفارغة شُغلت، وعقيلة امْتهنت، وجميلة

امْثُحت، وعذراء افْثُرعت، وشمّاء فُرعت، ولَمّماء رُشفت، وظمياء فُرشت، وربّضة

أصحت، ورضيّة أصبحت. فكم تسرّى منهم سِرّي، وتجراً عليهم جريّ، وقضى وطّره

عزّب، ونفى تهمه سَغِب، وفثاً سَوّرتَه سَغِب. وكم غانية اسْتُخلصت، وغالية

اسْتُرخصت، ووالية اعْتُزلت، وغالية اسْتُنزلت، ووحشيّة صِيدت، وعزّشيّة قِيدت.

ولمّا تقدّس القدس من رجس الفرنج أهل الرّجز، وخلع لباس الذلّ ولبس خلع العرّ،

أبى النصارى بعد أداء القطيعة إن يخرجوا، وتضرّعوا في أن يسكنوا ولا يزعجوا،

وبذلوا خِدْمًا وخدموا ببذول، وقابلوا كل ما أُلْزِموا به بالتزام وقبول، [وأعطوا

الجزية عن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ].^[222] وَشَحَّتْ

أفواههم بما شجّاهم فزاد شجّاهم وهم فاغرون، ودخلوا في الذمّة، وخرجوا إلى العصمة،

وشُغِلوا بالخدمه، واستُعملوا في المِهْنه، وعَدَّوا المِنْحَة في تلك المِخْنه.

ذكر

ما أظهره السلطان في القدس
من الحسنات ومحاه من السيئات

ولمّا تسلّم السلطان القدس أمر

بإظهار المحراب^[223] ،

وحثّم به أمر الإيجاب. وكان الداوِيّة قد بنوا في وجهه جدارا وتركوه للغلّة

هُزْنا، وقيل كانوا اتخذوه مُستَراحا عدوانا وبغيا. وكانوا قد بنوا من غربيّ القِبلة

دارا وسيعه، وكنيسة رفيعه. فأوعَز برفع ذلك الحجاب. وكشف النقاب عن
عروس المحراب،

وهدم ما قدّامه من الأبنية، وتنظيف ما حوله من الأفنيه، بحيث يجتمع الناس
في

الجمعه، في العَرْصة المتّسعه. ونُصب المنبر، وأُظهر المحراب المطهر. ونُفض
ما

أحدثوه بين السواري وفرشوا تلك البسيطة بالبسط الرفيعة عوض الخُصَر
والبوّاري،

وعلقت القناديل، وتلى التنزيل، وحقّ الحقّ وبطلت الأباطيل، وتولّى الفرقان
وغُزل

الإنجيل، وضُفَّت السجّادات، وصَفَّت العبادات، وأقيمت الصلوات، وأديمت
الدعوات،

وتجلّت البركات، وانجلت الكُربات، وانجابت العَيايات، وانتابت الهدايات، وتليت

الآيات، وأعليت الرايات. ونطق الأذان ^[224] وخرس

الناقوس، وحضر المؤذّنون وغاب الثُسوس، وزال العبوس والبوس، وطابت
الأنفاس

والنفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس. وعاد الإيمان الغريب منه إلى
موطنه، وطلب

الفضل من معدنه، وورد القراء وقرىء الأوراد، واجتمع الزهّاد والعبّاد والأبدال

والأوتاد ^[225] وعُبد

الواحد ووحد العابد، وتوافد الراكع والساجد، والخاشع والواجد، والزاهي
والزاهد،

والحاكم والشاهد، والجاهد والمجاهد، والقائم والقاعد، والمتهجّد الساهد،
والزائر

والوافد. وصدع المُذكّر، وانبعث المعشر، وذكر البعث والمحشر، وأملى
الحقّاط،

وأسلى الوعّاظ، وتذكر العلماء، وتناظر الفقهاء. وتحديث الرواة وروى
المحدّثون،

وتحنّف الهداة وهدى المتحنّفون، وأخلص الداعون ودعا المخلصون، وأخذ
بالعزيمة

المترخّصون، ولخصّ المفسّرون وفسّر الملخّصون، وانتدب الفضلاء، وانتدب
الخطباء،

وكثر المترشّحون للخطابة، المتوسّحون بالإصابه، المعروفون بالفصاحه،
الموصوفون

بالحصافه، فما فيهم إلّا من خطب الرتبه، ورُتّب الخطبه، وانشأ معنّى شائقا،
ووشّى

لفظا رائقا، وسوّى كلاما بالموضع لائقا، ورّوى مبتكرا من البلاغة فائقا. وفيهم
من

[226]

عرض عليّ خطبته ،

وطلب منّي نصّبه، وتمنّى أن ترجح فضيلته، وتنجح وسيلته، وتسبق مُنيّته فيها
أمنيّته، وكلّهم طال إلى الإلتهاب بها عنقه، وسال من الإلتهاب عليها عرقه، وما
منهم إلّا من يتأهّب ويترقّب ويتوسّل ويتقرّب، وفيهم من يتعرّض ويتضرّع،
ويتشوّف

ويتشفع. وكل قد لبس وقاره ووقر لباسه، وضرب في أخماسه أسداسه، ورفع
لهذه الرئاسة

رأسه. والسلطان لا يعيّن، ولا يبيّن، ولا يخصّ، ولا ينصّ ومنهم من يقول
"ليتني خطبت في الجمعة الأولى، وفزت باليد الطوّلى، وإذا ظفرتُ بطالع
سعدي،

فما أبالي بمن يخطب بعدي". فلمّا دخل يومُ الجمعة رابع شعبان، أصبح الناس
يسألون في تعيين الخطيب السلطان، وإمتلأ الجامع، واحتفلت المجامع،
وتوجّست الأبصار

والمسامع، وفاضت لرقّة القلوب المدامع، وراعت لحلة تلك الحالة وبهاء تلك
البهجة

الروائع، وشاعت من سرّ السرور بلبس جبر الحبور الشوائع، وغصّت
بالسابقين إليها المواضع،

وتوسّمت العيون، وتقسّمت الظنون. وقال الناس "هذا يوم كريم وفضل عميم، وموسم

عظيم. هذا يوم تجاب فيه الدعوات، وتصبّ البركات، وتسال العَبَرَات، وتقال العَثَرَات،

ويتيقّظ الغافلون، ويتّعظ العاملون، وطوبى لمن عاش، حتى حضر هذا اليوم الذي فيه

انتعش الإسلام وارتاش. وما أفضل هذه الطائفة الحاضرة، والعصبة الطاهره، والأُمَّة

الظاهره، وما اكرم هذه النصره الناصريّه، والأسرة الإماميّه، والدعوة^[227]

العبّاسيه ،

والمملكة الأيوبيّه، والدولة الصلاحيّه، وهل في بلاد الإسلام أشرف من هذه الجماعه،

التي شرّفها الله تعالى بالتوفيق لهذه الطاعة". وتكلّموا فيمن يخطب، ولمن يكون المنصب، وتفاوضوا في التفويض، وتحدّثوا بالتصريح والتعريض. والأعلام تُعلّى،

والمنبر يكسى ويجلّى، والأصوات ترتفع، والجماعات تجتمع، والأفواج تزدهم، والأمواج

تلتطم، وللعارفين من الضجيج، ما في عرفات^[228] للحجيج،

حتى حان الزوال، وزال الإعتدال، وجُعِل الداعي، وأعجل الساعي. فنصب السلطان الخطيب

بنصّه، وأبان عن اختياره بعد فحصه. وأوعز إلى القاضي محيي الدين أبي المعالي محمد

بن زكيّ الدين عليّ القُرشيّ بأن يرقى ذلك المرقّى، وترك جِباة الباقيين بتقديمه

عَزَقَى. فَأَعْرَثَهُ مِنْ عِنْدِي أَهْبَةُ سُودَاءٍ مِنْ تَشْرِيفِ الْخِلَافَةِ، حَتَّى تَكْمَلَ لَهُ شَرَفٌ

الْإِفَاضَةُ وَالْإِضَافَةُ، فَزَقِيَ الْعُودُ، وَلَقِيَ السُّعُودُ، وَاهْتَزَّتْ أَعْطَافُ الْمَنْبَرِ، وَاعْتَزَّتْ

أَطْرَافُ الْمَعَشْرِ، وَخُطِبَ وَأُنْصَتُوا، وَنُطِقَ وَسُكْتُوا، وَأَفْصَحَ وَأَعْرَبَ، وَأَبْدَعَ وَاعْرَبَ، وَاعْجَزَ وَأَعْجَبَ،

وَأَوْجَزَ وَأَسْهَبَ. وَوَعِظَ فِي خُطْبَتِهِ، وَخُطِبَ بِمَوْعِظَتِهِ، وَأَبَانَ عَنْ فَضْلِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ وَتَقْدِيسِهِ،

وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى مِنْ أَوَّلِ تَأْسِيسِهِ، وَتَطْهِيرِهِ بَعْدَ تَنْجِيسِهِ، وَإِخْرَاسِ نَاقُوسِهِ وَإِخْرَاجِ قَسَّيسِهِ،

وَدَعَا لِلْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ، وَخَتَمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى [إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ]،

وَنَزَلَ وَصَلَى فِي الْمَحْرَابِ، وَافْتَتَحَ بِسْمِ اللَّهِ مِنْ أَمِّ الْكِتَابِ ^[229] ،

فَأَتَمَّ بِتِلْكَ الْأَمِّ، وَثُمَّ نَزَلَ الرَّحْمَةَ، وَكَمَلَ وَصُولَ النِّعَمَةِ. وَلَمَّا قَضَيْتِ الصَّلَاةَ

انْتَشَرَ النَّاسُ، وَاشْتَهَرَ الْإِيْنَسُ، وَانْعَقَدَ الْإِجْمَاعُ وَأَطْرَدَ الْقِيَاسُ ^[230] .

وَكَانَ قَدْ نُصِبَ لِلْوَعْظِ ثُجَاءَ الْقِبْلَةِ سُرِيرٌ، لِيَفْرَعَهُ كَبِيرٌ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ زَيْنُ الدِّينِ أَبُو

الْحَسَنِ عَلِيِّ بْنِ نَجَا، فَذَكَرَ مِنْ خَافَ وَمِنْ رَجَا، وَمِنْ سَعَدَ وَمِنْ شَقِيَ وَمِنْ هَلَكَ وَمِنْ نَجَا، وَخَوَّفَ

بِالْحِجَّةِ ذَوِي الْحِجَا، وَجَلَا بِنُورِ عِظَاتِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ مَا دَجَا، وَأَتَى بِكُلِّ عِظَةٍ، لِلرَّاقِدِينَ مَوْقِظَةً، وَلِلظَّالِمِينَ مُجِظَةً، وَلِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ مَرْقَّةً وَلِأَعْدَاءِ اللَّهِ مَغْلَظَةً. وَضَجَّ الْمُتَبَاكُونَ، وَعَجَّ الْمُتَشَارِكُونَ، وَرَقَّتْ الْقُلُوبُ، وَخَفَّتِ الْكُرُوبُ، وَتَصَاعَدَتْ

النَّعْرَاتُ، وَتَحَدَّرَتِ الْعَبْرَاتُ، وَتَابَ الْمَذْنُبُونَ، أَنَابَ الْمُتَحَوِّبُونَ، وَصَاحَ التَّوَّابُونَ،

وناح الأَوَّابون. وجرت جالات جلت، وجلوات حلت، ودعوات علت، وضراعات قبلت، وفَرَص من

الولاية الإلهية انْهَزَتْ، وحصص من العناية الربانية أحرزت. وصلى السلطان في

قبة الصخرة والصفوف على سعة الصحن بها متصلة، والأمة إلى الله بدوام نصره

مبتهلة، والوجوه الموجهة إلى القبلة عليه مُقبلة، والأيدي إلى الله مرفوعة، والدعوات له مسموعة. ثم رتب في المسجد الأقصى خطيباً استمرت خطبته، واستقرت نصيبته.

وصف

الصخرة المعظمة عَمَرها الله

وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد

بنوا عليها كنيسة ومذبحاً، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة ^[231] ولا

للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا، وقد زينوها بالصُور والتماثيل، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الإنجيل، وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل. وأفردوا فيها

لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة، بأعمدة الرُخام منصبة، وقالوا محلّ قدم المسيح،

وهو مقام التقديس والتسبيح، وكانت فيها صور الأنعام، مثبتة في الرخام. ورأيت في

تلك التصاوير، أشباه الخنازير ^[232] ،

والصخرة المقصودة المَزُورَه، بما عليها من الأبنية مستوره، وتلك الكنيسة المعمورة

مغموره. فأمر السلطان بكشف نقابها، ورفع حجابها، وحسّر لثامها، وقسّر رخامها،

وكسر رجامها، ونقض بنائها، وفض غطائها، وإبرازها للزائرين، واطهارها للناظرين،

ونزع لبوسها، وزفاف عروسها، وإخراج درّها من الصدف، وإطلاع بدرها من السّدْف،

وهدم سجنها، وفكّ رهنها، وإراءة حسننها، وإضاءة يُمنّها، وإبداء وجهها الصبيح،

وجلاء شرفها الصريح، وردّها إلى الحالة الحاليه، والقيمة الغاليه، والرتبة

العاليه. وهي التي حلّيتها عَطَلٌ وعطلها حَلْي، وعُزّيها كُسوة وكسوتها عُزْي،

فعادت كما كانت في الزمن القديم، وشهدت حين شوهدت بحسبها الكريم وسيّم بهاء

حسنها الوسيم. وما كان يظهر منها قبل الفتح إلّا قطعة من تحتها، قد أساء أهل الكفر

في نحتها، وظهرت الآن أحسن ظهور، وسفرت ايمن سفور، وأشرقت القناديل من فوقها نورا

على نور، وعُملت عليها حَظيرة من شبابيك حديد، والإعتناء بها إلى الآن كل يوم في

مزيد. ورّتب السلطان في قبة الصخرة إماما من أحسن القراء تلاوه، وأزينهم

طلاوه، وأنداهم صوتا، وأسماهم في الديانة صيّتا، وأعرفهم بالقراآت السبع بل

[233]

العشر ،

وأطيبهم في العرف والنشر، وأغناه وأقناه، وأولاه لمّا ولّاه، ووقف عليه دارا

وأرضا وبستانا، وأسدى إليه معروفا داّرا وإحسانا. وحمل إليها وإلى محراب
المسجد

الأقصى مصاحف وختّامات، ورَبَعات معظّمات، لا تزال بين أيدي الزائرين على
كراسيّها

مرفوعه، وعلى أسرّتها موضوعه. ورُتّب لهذه القبّة خاصّة وللبيت المقدّس
عامّه،

قَوّمة لشمّل مصالحها ضامّه، فما ترتّب إلّا العارفون العاكفون، القائمون
بالعبادة

الواقفون. فما أبهَج ليّلة وقد حضرت الجموع، وزهرت الشموع، وبان الخشوع،
ودان

الخشوع، ودوّرت من المتّقين الدموع، واستعّرت من العارفين الضلوع. فهناك
كل وليّ

يعبد ربّه ويأمل برّه، وكل أشعث أغبر لا يُؤبّئ له لو أقسم على الله لأبرّه.

وهناك من يحيي الليل ويقومه، ويسموا بالحق ويسومه، وهناك كل من يختم
القرآن

ويرثّه، ويطرد الشيطان ويبطله، ومن عرفه لمعرفته الأسحار، ومن أليفّه
لتهجّده

الأوراد والأذكار.

وما أسعدَ نهارها حين تستقبل

الملائكة زوّارها، وتلخّف الشمسُ اينوارها أنوارها، وتحمل القلوب إليها
أسرارها،

وتضع الجُناة عندها أوزارها، وتستهدي صبيحة كل يوم منها إسفارها. وما أظهر
من

تولّى إظهارها، وأطهر من باشر إظهارها، وأطهر من باشر إظهارها.

وكان الفرنج قد قطعوا من الصخرة

قِطْعًا وحملوا منها إلى قُسطنطينيَّة، ونقلوا منها إلى صَقْلِيَّة، وقيل باعوها
بوزنها ذهبًا، واتَّخذوا ذلك مكسبًا، ولما ظهرت ظهرت مواضعها، وقُطِّعت
القلوب لَمَّا

بانت مقاطعها، فهي الآن مُبَرَّز للعيون بحرَّها، باقية على الأيَّام بعَرَّها، مصونة
للإسلام في خِذْرها وجِزْرها. وهذا كله ثمَّ بعد انفصال السلطان، والشروع في

[234] العُمران. وأمر بترميم محراب الأقصى، وإن يُبالَغ فيه ويُستقصى ،

وتنافس ملوك بني أيُّوب فيما يؤثر بها من الآثار الحَسَنه، وفيما يجمع لهم ودّ
القلوب وشكر الألسنه، فما منهم من أجمل وأحسن، وفعل ما أمكن، وجلَّى
وبيَّن، وحلَّى

وزيَّن، وأشفق وأنفق، وأغنى، وأقنى، وأعتنى، وإبتنى، ووقَّى وأوفى، وأصفى
وأضفى.

[235] وأتى الملك العادل سيف الدين أبو بكر ،

موجب لكل شكر، وكل فعل جميل، ورَفْد جزيل، ومَنِّ جليٍّ ومنح جليل،
ومكْرمة حميده،

ومَحْمِدة كريمه، وفضيلة بها ترجَّح، ووسيلة بها تحج. وأتى الملك المظفَّر تقيَّ

[236] الدين عمر ،

بكل ما عمَّ به العُرْفُ وغمر، ونهى وأمر، وبنى وعمر. ومن جملة أفعاله
المشكوره،

وهكرماته المشهوره، أنه حضر يوما في قَبَّة الصخره، مع جماعة من السَّراة
الأشره،

ومعه من ماء الورد أحمال، ولأجل الصدقة والرفد مال، فانتهاز فرصة هذه الفضيلة التي

ابتكرها بالافتراض، وتولّى بيده كنس تلك الساحات والعِراض، ثم غسلها بالماء مرارا

حتى تطهرت، ثم أتبع الماء بماء الورد صبّا حتى تعطّرت، وكذلك طهّر حيطانها، وغسل

جدرانها، ثم أتى يجامر الطيب فتبخّرت، وتضوّعت وتعزّفت، وفُغمت مناشق أهل الهدى،

وأرغمت أناف العدى، وما زال مع قومه، في تطهير البقعة المباركة طوال يومه، حتى

ثبّقت طهارتها، وثبّنت عمارتها، وراقت نضارتها، ووقفت عليها الاستحسان تطارثها. ثم فرّق ذلك المال فيها على ذوي الاستحقاق، وافتخر بأن فاق الكرام

[237]

بالإنفاق. وجاء الملك الأفضل نور الدين عليّ ،

بكل نور جليّ، وكرم مليّ، وإحسان سنّيّ، وإنعام هنيّ، وعزّف زكيّ، وعزّف ذكيّ،

وعطاء مبتدّع، وسخاء مخترع، وجود مبتكر، ورفد معتبر، وأتى بكل ما خلد الأثر

الحسن، وأنطق بحمده الألسن، وبسط بها الصنيعه، وفرش فيها البُسْط الرفيعه، وهدى

وأهدى، وأعاد بعد ما أبدى، وأنار وأسدى، وأفاض الندى، وفضّ الجدا، ونفض الأكياس،

حتى خلّنا به الإنفاض والإفلاس. وسيأتي ذكر ما اعتمده من بناء أسوار القدس وحفر

خنادقه، وأعجز بما أعجب من سوابق معروفه ولواحقه، ما لم يشقّ أحد فيه غباره، ولا

[238]

ملك سابق فيه مضماره. وأما الملك العزيز عثمان ،
فإنه أتى بالإحسان الذي استظهر به الإيمان، وذلك أنه لما عاد إلى مصر، وقد
شاهد
الفتح والنصر، ترك خزانة سلاحه بالقدس كلها، ولم ير بعد حصولها به نقلها.
وكانت
أحمالاً بأموال، وأثقالاً كجبال، وذخائر وافيه، وغدداً واقيه، ودروعاً سوايغ،
ونصولاً

[239]

دوافع وخوذاً وترائك، ورماحاً وتيارك، وقناً وقنابل ،
وصواقل وذوايل وجروخا وقسيّا، وبمانيّاً وهنديّاً ويزنيّاً، وزدينيّاً ومشرفيّاً ،
وجفائي وجتويّات، وطوارق وقنطاربيّات، ورنات حديد وزانات، وآلات وزبارات
وزرّاقات، ونقاطات وقطاعات، وغدد النقوب. وجميع أدوات الحروب،
فاستهظرت بها [241]
المدينة، وتوثقت بها عُراها المتينة. وكان من جملة ما شرط على الفرنج أن
يتركوا
لنا خيلهم وغدّتهم، ويخرجوا قبل أن يستوفي الباقيون في أداء القطيعة مدّتهم،
فتوفّرت بذلك غدد البلد، واستغنى بذلك عمّا يصل من المدد.

ذكر

محراب داود عليه السلام وغيره من المشاهد الكرام
وتبديل الكنائس وإنشاء المدارس
وأما محراب داود (عم) خارج المسجد

الأقصى فإنه في حصن عند باب المدينة منيع، وموضع عالٍ رفيع، وهو الحصن الذي يقيم

به الوالي، فاعتنى السلطان بأحواله الحوالي، ورَّتب له إماما، ومؤذنين وقُواما،

وهو مثاب الصالحين، ومَزار الغادين والرائحين، فأحياه وجدَّده، ونهَج لقاصد، جَدَّده.

وأمر بعمارة جميع المساجد، وصون المَشاهد، وإنجاح المقاصد، وإصفاء الموارد للقاصد

والوارد. وكان موضع هذه القلعة دار داود وسليمان عليهما السلام، وكان يَتَنابُهما

فيها الأنام. وكان الملك العادل نازلا في كنيسة صَهيُون، وأجنأه على بابها مخيِّمون،

وفاوز السلطانَ جلسأؤه من العلماء الأبرار، والأتقياء الأخيار، في مدرسة للفقهاء

[242]

الشافعية ،

ورباط لصلحاء الصوفيَّة. فعَيَّن للمدرسة الكنيسةَ المعروفة بصُنْد حَنَّة [243] عند

باب أسباط، وعَيَّن دار البطرك وهي بقرب كنيسة قمامة للرباط، ووقف عليهما وُقُوقا،

وأسدى بذلك إلى الطائفتين معروفا، وإرتاد أيضا مدارس للطوائف، ليضيفها إلى ما

أولاه من العوارف. وأمر بإغلاق أبواب كنيسة قمامة، وحَرَّم على النصارى زيارتها ولا

الإلمامه، وتفاوض الناس عنده فيها، فمنهم من أشار بهدم مبانيها، وتعفية آثارها،

وتعمية نهج مزارها، وإزالة تماثيلها، وإزاحة أباطيلها، وإطفاء قناديلها، وإعفاء
أناجيلها، وإذهاب نساويلها، وإكذاب أقاويلها. وقالوا: "إذا هُدمت مبانيها،
وألحقت بأسافلها أعاليها، وتُبشّت المقبرة وعُفّيت، وأُخمدت نيرانها وأُطفيت،
ومُحيت رسومها وتُفيت، وخرّثت أرضها، ودُمّر طولها وعرضها، انقطعت عنها
المداد

الزوّار، وانحسّمت عن قصدها موادّ أطماع أهل النار. ومهما استمرّت العماره،
استمرّت

الزيارة". وقال أكثر الناس: "لا فائدة في هدمها ولا هُدّها، ولا يؤذّن
بصدّ أبواب الزيارة عن الكفّرة. وسدّها، فإن متعبّدهم موضع الصليب والقبر لا
ما

يشاهد من البناء، ولا ينقطع عنها قصد أجناس النصرانيّة ولو تُسفت أرضها في
السماء،

ولمّا فتح أمير المؤمنين عمر (رضه) القدس في صدر الإسلام أقرّهم على هذا
المكان،

ولم يأمرهم بهدم البنيان".

كانت صورة كونراد، (ريدا فرانس) الذي أنقذ صور وحرك من الناحية الفعلية الحملة الصليبية الثالثة، إلى جانب صورة

ريتشارد ملك انكلترا من أكثر الصور التي ترسخت في اذهان المؤرخين المسلمين في ذلك

الوقت. يروي ابن الأثير فيما يلي وقائع مغامرة ذهابه إلى صور ويعيب على صلاح الدين

- وهو في هذا محق - أنه لم يعمل على حصارها بما يكفي من الاستعداد والجهد: خاصة

وأن إنقاذ صور كان أساساً ومقدمة لحصار المسيحيين لعكا ثم أخذهم لها حرباً.

ذِكْرُ

خُرُوجَ الْمَرْكَيسِ إِلَى صُورَ

(ابن الأثير، 358/11-359، 366-368) لَمَّا انْهَزَمَ الْقُمَّصُ

صَاحِبُ طَرَابُلُسَ مِنْ حِطَّيْنِ إِلَى مَدِينَةِ صُورَ أَقَامَ بِهَا وَهَيْ

أَعْظَمُ بِلَادِ السَّاحِلِ حَصَانَةً، وَأَشَدُّهَا امْتِنَاعًا عَلَى مَنْ

رَامَهَا، فَلَمَّا رَأَى السُّلْطَانُ قَدْ مَلَكَ تَبْنِينَ وَصَيْدَا

وَبَيْرُوتَ، خَافَ أَنْ يَقْصِدَ صَلاَحُ الدِّينِ صُورَ وَهَيْ قَارِعَةً مِمَّنْ

يُقَاتِلُ فِيهَا وَيَحْمِيهَا وَيَمْتَنِعُهَا فَلَا يَقْوَى عَلَى حِفْظِهَا،

وَتَرَكَهَا وَسَارَ إِلَى مَدِينَةِ طَرَابُلُسَ. فَبَقِيََتْ صُورُ شَاغِرَةً لَا

مَانِعَ لَهَا وَلَا عَاصِمَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، فَلَوْ بَدَأَ بِهَا صَلَاحُ
الدِّينِ قَبْلَ تَبْيِينِ وَغَيْرِهَا لَأَخَذَهَا بِغَيْرِ مَسْقَعَةٍ، لَكِنَّهُ
اسْتَعْظَمَهَا لِخَصَائِنِهَا فَأَرَادَ أَنْ يُفْرِغَ بَالَهُ مِمَّا
يُجَاوِرُهَا مِنْ تَوَاجِيحِهَا لِيَسْهُلَ أَخْذُهَا، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ
حِفْظِهَا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا. وَاتَّفَقَ أَنَّ
إِنْسَانًا مِنَ الْفِرْنِجِ الَّذِينَ دَاخَلَ الْبَحْرَ يُقَالُ لَهُ

[244]

الْمَرْكِيسُ ،

لَعَنَهُ اللَّهُ، خَرَجَ فِي الْبَحْرِ بِمَالٍ كَثِيرٍ لِلزَّيَارَةِ
وَالتَّجَارَةِ، وَلَمْ يَشْعُرْ بِمَا كَانَ مِنَ الْفِرْنِجِ فَأَرْسَى
بِعَكا، وَقَدْ رَابَتْهُ مَا رَأَى مِنْ تَرْكِ عَوَائِدِ الْفِرْنِجِ عِنْدَ
وُضُولِ الْمَرَائِكِبِ مِنَ الْفِرْنِجِ، وَصَرَبِ الْأَجْرَاسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ،
وَمَا رَأَى أَيْضًا مِنْ زِيٍّ أَهْلِ الْبَلَدِ، فَوَقَّفَ وَلَمْ يَذِرْ مَا
الْخَبَرُ، وَكَانَتِ الرِّيحُ قَدْ رَكَدَتْ. أَرْسَلَ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ
إِلَيْهِ بَعْضَ أَصْحَابِهِ فِي سَفِينَةٍ يُبْصِرُ مَنْ هُوَ وَمَا يُرِيدُ،
فَأَتَاهُ الْقَاصِدُ فَسَأَلَهُ الْمَرْكِيسُ عَنِ الْأَخْبَارِ لِمَا
أُنْكَرَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِكُسْرَةِ الْفِرْنِجِ وَأَخْذِ عَكا وَغَيْرِهَا،
وَأَعْلَمَهُ أَنَّ ضُورَ بَيْدِ الْفِرْنِجِ وَعَسْقَلَانَ وَغَيْرِهَا، وَحَكَى
الْأَمْرَ لَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ يُمَكِّنْهُ الْحَرَكَةُ لِعَدَمِ الرِّيحِ،
فَرَدَّ الرُّسُولَ يَطْلُبُ الْأَمَانَ لِيَدْخُلَ الْبَلَدَ بِمَا مَعَهُ مِنْ

مَتَاعٍ وَمَالٍ، فَأَجِيبَ إِلَى ذَلِكَ.

فَرَدَّدَهُ مَرَّارًا كُلَّ

مَرَّةٍ يَطْلُبُ شَيْئًا لَمْ يَطْلُبْهُ فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى، وَهُوَ

يَفْعَلُ ذَلِكَ انْتِظَارًا لِهُبُوبِ الْهَوَاءِ لِيَسِيرَ بِهِ، فَبَيَّنَمَا

هُوَ فِي مُرَاجَعَاتِهِ إِذْ هَبَّتِ الرِّيحُ فَسَارَ نَحْوَ ضُورٍ، وَسَيَّرَ

الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ الشَّوَانِي فِي طَلَبِهِ فَلَمْ يُذَرِكُوهُ. فَأَتَى

ضُورٌ وَقَدْ اجْتَمَعَ بِهَا مِنَ الْفِرْنَجِ خَلْقٌ كَثِيرٌ لِأَنَّ صَلَاحَ

الدِّينِ كَانَ كُلَّمَا فَتَحَ مَدِينَةً عَاكَا وَبَيَّرُوتَ وَغَيْرَهُمَا

مِمَّا ذَكَرْنَا أَعْطَى أَهْلَهَا الْأَمَانَ، فَسَارُوا كُلُّهُمْ إِلَى ضُورٍ،

وَكَثُرَ الْجَمْعُ بِهَا إِلَّا أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ رَأْسٌ يَجْمَعُهُمْ،

وَلَا مُقَدِّمٌ يُقَاتِلُ بِهِمْ، وَلَيْسُوا أَهْلَ الْحَرْبِ، وَهُمْ

عَازِمُونَ عَلَى مُرَاسَلَةِ صَلَاحِ الدِّينِ، وَطَلَبِ الْأَمَانِ وَتَسْلِيمِ

الْبَلَدِ إِلَيْهِ.

فَأَتَاهُمُ الْمَرْكَيسُ وَهُمْ

عَلَى ذَلِكَ الْعَزْمِ، فَرَدَّدَهُمْ عَنْهُ وَقَوَّى نُفُوسَهُمْ وَصَمِنَ لَهُمْ

حِفْظَ الْمَدِينَةِ وَبَدَّلَ مَا مَعَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَشَرَطَ عَلَيْهِمْ

أَنْ تَكُونَ الْمَدِينَةُ وَأَعْمَالُهَا لَهُ دُونَ غَيْرِهِ، فَأَجَابُوهُ

إِلَى ذَلِكَ فَأَخَذَ أَيْمَانَهُمْ عَلَيْهِ عِنْدَهُمْ وَدَبَّرَ

أَحْوَالَهُمْ، وَكَانَ مِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ حَسَنَ التَّدْبِيرِ

وَالْحِفْظِ، وَلَهُ شَجَاعَةٌ عَظِيمَةٌ، وَشَرَعَ فِي تَخْصِينِهَا فَجَدَّدَ

حَفَرَ خَنَادِيقَهَا وَعَمِلَ أَسْوَارَهَا، وَزَادَ فِي حَصَانَتِهَا وَاتَّقَى
مَنْ يَهَا عَلَى الْحِفْظِ وَالْقِتَالِ دُونَهَا.

ذِكْرُ

رَجُلٍ صَلَاحِ الدِّينِ إِلَى ضُورَ وَمُحَاصَرَتِهَا

لَمَّا فَتَحَ صَلَاحُ الدِّينِ

الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ أَقَامَ بِظَاهِرِهِ إِلَى الْخَامِسِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ

شَعْبَانَ بُرْتُبُ أُمُورِ الْبَلَدِ وَأَخْوَالَهُ، وَتَقَدَّمَ يَعْمَلِ

الرُّبُطِ وَالْمَدَارِسِ، فَجَعَلَ دَارَ الْإِسْتِبَارِ مَدْرَسَةً

لِلشَّافِعِيَّةِ، وَهِيَ فِي غَايَةِ مَا يَكُونُ مِنَ الْخُسْنِ. فَلَمَّا

فَرَعَ مِنْ أَمْرِ الْبَلَدِ سَارَ إِلَى مَدِينَةِ ضُورَ، وَكَانَتْ قَدْ

اجْتَمَعَ فِيهَا مِنَ الْفِرْنَجِ عَالَمٌ كَثِيرٌ، وَقَدْ صَارَ الْمَرْكَيسُ

صَاحِبَهَا وَالْحَاكِمَ فِيهَا، وَقَدْ سَاسَهُمْ أَحْسَنَ سِيَاسَةٍ، وَبَالَغَ

فِي تَخْصِينِ الْبَلَدِ. وَوَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَكَّا، وَأَقَامَ

بِهَا أَيَّامًا، فَلَمَّا سَمِعَ الْمَرْكَيسُ بِوُضُولِهِ إِلَيْهَا جَدَّ فِي

عَمَلِ سُورِ ضُورَ وَخَنَادِيقِهَا وَتَعْمِيقِهَا، وَوَصَلَهَا مِنَ الْبَحْرِ

إِلَى الْبَحْرِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، فَصَارَتِ الْمَدِينَةُ كَالْجَزِيرَةِ

فِي وَسْطِ الْمَاءِ لَا يُمَكِّنُ الْوُضُولُ إِلَيْهَا وَلَا الدُّثُؤُ مِنْهَا.

ثُمَّ رَحَلَ صَلَاحُ الدِّينِ

مِنْ عَكَّا، فَوَصَلَ إِلَى ضُورَ تَاسِعَ شَهْرِ رَمَضَانَ (13 تشرين ثاني/نوفمبر

1187)، فَتَنَزَلَ عَلَى

تَهْرِ قَرِيبٍ [مِنْ] الْبَلَدِ يَحِثُّ يَرَاهُ، حَتَّى اجْتَمَعَ النَّاسُ
وَتَلَاخَفُوا، وَسَارَ فِي الثَّانِي وَالْعَشْرِينَ مِنْ رَمَضَانَ. فَتَزَلَّ
عَلَى تَلٍّ يُقَارِبُ سُورَ الْبَلَدِ، يَحِثُّ يَرَى الْقِتَالَ، وَقَسَّمَ
الْقِتَالَ عَلَى الْعَسْكَرِ كُلِّ جَمْعٍ مِنْهُمْ لَهُ وَفَتْ مَعْلُومٌ
يُقَاتِلُونَ فِيهِ، يَحِثُّ يَتَّصِلُ الْقِتَالُ عَلَى أَهْلِ الْبَلَدِ، عَلَى
أَنَّ الْمَوْضِعَ الَّذِي يُقَاتِلُونَ فِيهِ قَرِيبُ الْمَسَاقَةِ، يَكْفِيهِ
الْجَمَاعَةُ الْيَسِيرَةُ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لِحِفْظِهِ، وَعَلَيْهِ
الْخِتَادِقُ الَّذِي قَدْ وَصَلَتْ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ، فَلَا
يَكَاذُ الطَّيْرُ يَطِيرُ عَلَيْهَا، فَإِنَّ الْمَدِينَةَ كَالْكَفِّ فِي
الْبَحْرِ، وَالسَّاعِدَ مُتَّصِلًا بِالْبَرْ وَالْبَحْرِ مِنْ جَانِبَيْ السَّاعِدِ،
وَالْقِتَالُ إِنَّمَا هُوَ فِي السَّاعِدِ.

فَرَحَفَ الْمُسْلِمُونَ مَرَّةً

بِالْمَجَائِقِ، وَالْعَرَادَاتِ، وَالْجُرُوحِ، وَالذَّبَابَاتِ. وَكَانَ
أَهْلُ صَلَاحِ الدِّينِ يَتَنَاقَشُونَ الْقِتَالَ مِثْلَ: وَلَدِهِ الْأَفْصَلِ،
وَوَلَدِهِ الطَّاهِرِ غَارِي، وَأَخِيهِ الْعَادِلِ بْنِ أَبِيهِ، وَابْنِ
أَخِيهِ تَقِيِّ الدِّينِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ الْأَمْرَاءِ. وَكَانَ لِلْفَرِجِ
شَوَانٍ وَحَرَاقَاتٍ يَرْكَبُونَ فِيهَا فِي الْبَحْرِ، وَيَقْفُونَ مِنْ
جَانِبَيْ الْمَوْضِعِ الَّذِي يُقَاتِلُ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ أَهْلَ الْبَلَدِ،
فَيَرْمُونَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ جَانِبِهِمْ بِالْجُرُوحِ، وَيُقَاتِلُونَهُمْ.
وَكَانَ ذَلِكَ يَعْظُمُ عَلَيْهِمْ، لِأَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ يُقَاتِلُونَهُمْ

مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَأَصْحَابَ الشَّوَانِي يُقَاتِلُونَهُمْ مِنْ
جَانِبَيْهِمْ، فَكَانَتْ سِهَامُهُمْ تَنفُذُ مِنْ أَحَدِ الْجَانِبَيْنِ إِلَى
الْجَانِبِ الْآخَرِ لِضِيقِ الْمَوْضِعِ، فَكَثُرَتِ الْجِرَاحَاتُ فِي
الْمُسْلِمِينَ وَالْقَتْلُ. وَلَمْ يَتِمَكَّنُوا مِنَ الدُّثُورِ إِلَى الْبَلَدِ.
فَأَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى

الشَّوَانِي الَّتِي جَاءَتْهُ مِنْ مِصْرَ، وَهِيَ عَشْرُ قِطَعٍ، وَكَانَتْ
يَعَكَّا، فَأَحْصَرَهَا بِرِجَالِهَا وَمُقَاتِلَتِهَا وَعِدَّتِهَا، وَكَانَتْ
فِي الْبَحْرِ تَمْتَعُ شَوَانِي أَهْلِ ضُورَ مِنَ الْخُرُوجِ إِلَى قِتَالِ
الْمُسْلِمِينَ، فَتَمَكَّنَ الْمُسْلِمُونَ حِينَئِذٍ مِنَ الْقُرْبِ مِنَ
الْبَلَدِ، وَمِنْ قِتَالِهِ، فَقَاتَلُوهُ بَرًّا وَبَحْرًا وَصَافَقُوهُ حَتَّى
كَادُوا يَطْفَرُونَهُ. فَجَاءَتِ الْأَقْدَارُ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسَابِ،
وَذَلِكَ أَنَّ خَمْسَ قِطَعٍ مِنْ شَوَانِي الْمُسْلِمِينَ بَاتَتْ، فِي بَعْضِ
تِلْكَ اللَّيَالِي، مُقَابِلَ مِينَاءِ ضُورَ لِيُْمْتَنِعُوا مِنَ الْخُرُوجِ
مِنْهُ وَالْدُّخُولِ إِلَيْهِ، فَبَاتُوا لَيْلَتَهُمْ يَخْرُسُونَ، وَكَانَ
مُقَدَّمُهُمْ عَبْدُ السَّلَامِ الْمَغْرِبِيُّ الْمُؤَصِّفُ بِالْحَدَقِ فِي
صِنَاعَتِهِ. فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ السَّحْرِ أَمِنُوا قَتَامُوا، فَمَا شَعَرُوا
إِلَّا بِشَوَانِي الْفِرْنَجِ قَدْ نَارَلَتْهُمْ وَصَافَقَتْهُمْ، فَأَوْقَعَتْ
بِهِمْ، فَقَتَلُوا مَنْ أَرَادُوا قَتْلَهُ، وَأَخَذُوا الْبَاقِينَ
بِمَرَاقِبِهِمْ، وَأَدْخَلُوا مِينَاءَ ضُورَ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي الْبَرِّ
يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمْ، وَرَمَى جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ

السَّوَانِي فِي الْبَحْرِ، فَمِنْهُمْ مَنْ سَبَحَ فَتَجَا، وَمِنْهُمْ مَنْ
غَرِقَ. وَتَقَدَّمَ السُّلْطَانُ إِلَى السَّوَانِي الْبَاقِيَةِ بِالْمَسِيرِ
إِلَى بَنُرُوتَ لِعَدَمِ انْتِفَاعِهِ بِهَا لِغَلَّتْهَا، فَسَارَتْ،
فَتَبِعَهَا سَوَانِي الْفَرَنْجِ، فَحِينَ رَأَى مَنْ فِي سَوَانِي
الْمُسْلِمِينَ الْفَرَنْجِ مُجَدِّينَ فِي طَلَبِهِمْ أَلْقَوْا نُفُوسَهُمْ فِي
سَوَانِيهِمْ إِلَى الْبَرِّ فَتَجَّوْا وَتَرَكُوهَا، فَأَخَذَهَا صَلاَحُ
الدِّينِ، وَتَقَصَّهَا وَعَادَ إِلَى مُقَاتَلَةِ صُورَ فِي الْبَرِّ، وَكَانَ
ذَلِكَ قَلِيلَ الْجَدْوَى لِضِيقِ الْمَجَالِ.

وَفِي بَعْضِ الْأَيَّامِ خَرَجَ

الْفَرَنْجُ فَقَاتَلُوا الْمُسْلِمِينَ مِنْ وَرَاءِ خَنَادِقِهِمْ، فَاسْتَدَّ
الْقِتَالُ بَيْنَ الْقَرِيقَيْنِ، وَدَامَ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، كَانَ
خُرُوجُهُمْ قَبْلَ الْعَصْرِ، وَأَسَرَ مِنْهُمْ فَارِسٌ كَبِيرٌ مَشْهُورٌ،
بَعْدَ أَنْ كَثُرَ الْقِتَالُ وَالْقَتْلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَرِيقَيْنِ، لَمَّا
سَقَطَ، فَلَمَّا أُسِرَ قُتِلَ، وَبَقُوا كَذَلِكَ عِدَّةَ أَيَّامٍ.

ذِكْرُ

الرَّجِيلِ عَنْ صُورَ إِلَى عَكَا وَتَفْرِيقِ الْعَسَاكِرِ

لَمَّا رَأَى صَلاَحُ الدِّينِ

أَنَّ أَمْرَ صُورَ يَطُولُ رَحَلَ عَنْهَا. وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَتُهُ، مَتَى ثَبَتَ

الْبَلَدُ بَيْنَ يَدَيْهِ صَجَرَ مِنْهُ وَمِنْ حِصَارِهِ فَرَحَلَ عَنْهُ،

وَكَانَ هَذِهِ الْيَسَنَةُ لَمْ يَطْلُ مُقَامُهُ عَلَى مَدِينَةِ بَلْ فَتَحَ

الْجَمِيعَ فِي الْأَيَّامِ الْقَرِيبَةِ، كَمَا ذَكَرْتَاهُ، يَغْيِرُ تَعَبٍ
وَلَا مَشَقَّةٍ. فَلَمَّا رَأَى هُوَ وَأَصْحَابُهُ شِدَّةَ أَمْرِ ضُورٍ
مَلُّوْهَا، وَطَلَبُوا الْإِثْقَالَ عَنْهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ ذَنْبٌ فِي
أَمْرِهَا غَيْرَ صَلَاحِ الدِّينِ، فَإِنَّهُ هُوَ جَهَّزَ إِلَيْهَا جُنُودَ
الْفِرْنَجِ، وَأَمَدَّهَا بِالرِّجَالِ وَالْأَمْوَالِ مِنْ أَهْلِ عَا
وَعَسْقَلَانَ وَالْقُدْسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، كَمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ. كَانَ
يُعْطِيهِمُ الْأَمَانَ وَيُرْسِلُهُمْ إِلَى ضُورٍ، فَصَارَ فِيهَا مَنْ سَلِمَ
مِنْ فُرْسَانَ الْفِرْنَجِ بِالسَّاحِلِ، بِأَمْوَالِهِمْ وَأَمْوَالِ
النُّجَّارِ وَغَيْرِهِمْ، فَحَفِظُوا الْمَدِينَةَ وَرَاسَلُوا الْفِرْنَجَ
دَاخِلَ الْبَحْرِ يَسْتَمِدُّوهُمْ، فَأَجَابُوهُمْ بِالتَّلْيِيَةِ
لِدَعْوَتِهِمْ، وَوَعَدِهِمْ بِالنُّصْرَةِ، وَأَمَرُوهُمْ بِحِفْظِ ضُورٍ
لِتَكُونَ دَارَ هَجْرَتِهِمْ يَحْتَمُونَ بِهَا وَيَلْجَأُونَ إِلَيْهَا،
فَرَادَهُمْ ذَلِكَ حِرْصًا عَلَى حِفْظِهَا وَالذَّبِّ عَنْهَا.
وَسَنَذْكُرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ

مَا صَارَ إِلَيْهِ الْأَمْرُ بَعْدَ ذَلِكَ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَلِكَ لَا
يَتَّبِعِي أَنْ يَتْرَكَ الْحَرَمَ، وَإِنْ سَاعَدَتْهُ الْأَقْدَارُ، فَلَا أَنْ يَعْجَزَ
حَارِمًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَطْفَرَ مُفَرِّطًا مُضَيِّعًا لِلْحَرَمِ،

[245]

وَأَعْدَرَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ.

وَلَمَّا أَرَادَ الرَّجِيلَ

اسْتَشَارَ أَمْرَاءَهُ، فَاخْتَلَفُوا، فَجَمَاعَةٌ يَقُولُونَ: الرَّأْيُ أَنْ
تَرْحَلَ، فَقَدْ جَرِحَ الرِّجَالُ، وَفُتِلُوا، وَمَلُّوا، وَفَنِيَتْ
النَّقْعَاتُ، وَهَذَا الشِّتَاءُ قَدْ حَصَرَ، وَالشُّوْطُ بِطِينٍ، فَتَرِيحُ
وَتَسْتَرِيحُ فِي هَذَا الْبَرْدِ، فَإِذَا جَاءَ الرَّبِيعُ اجْتَمَعْنَا
وَعَاوَدْنَاهَا وَغَيْرَهَا. وَكَانَ هَذَا قَوْلَ الْأَعْيَاءِ مِنْهُمْ،
وَكَاثَهُمْ خَافُوا أَنَّ السُّلْطَانَ يَقْتَرِضُ مِنْهُمْ مَا يُنْفِقُهُ فِي
الْعُسْكَرِ إِذَا أَقَامَ لِحُلُوِّ الْخَزَائِنِ وَثُبُوتِ الْأَمْوَالِ مِنَ
الدُّرْهِمِ وَالْدِّينَارِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُخْرِجُ كُلَّ مَا حُمِلَ إِلَيْهِ
مِنْهَا. وَقَالَتِ الطَّاغُتَةُ الْأُخْرَى: الرَّأْيُ أَنْ تُصَايِرَ الْبَلَدَ
وَتُصَايِقَهُ، فَهُوَ الَّذِي يَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ مِنْ حُصُونِهِمْ، وَمَتَى
أَخَذْنَاهُ مِنْهُمْ انْقَطَعَ طَمَعُ مَنْ دَاخَلَ الْبَحْرَ مِنْ هَذَا
الْجَانِبِ وَأَخَذْنَا بَاقِيَ الْبِلَادِ صَفْوًا عَفْوًا. فَتَبَقِيَ صَلَاحُ
الدِّينِ مُتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّجِيلِ وَالْإِقَامَةِ، فَلَمَّا رَأَى مَنْ
يَرَى الرَّجِيلَ إِقَامَتَهُ أَحَلَّ بِمَا رُذِّ إِلَيْهِ مِنَ الْمُحَارَبَةِ
وَالرَّمْيِ بِالْمَنْجَنِيْقِ، وَاعْتَدُّوا بِجِرَاحِ رِجَالِهِمْ، وَأَنَّهُمْ
قَدْ أُرْسِلُوا بَعْضُهُمْ لِيُخْصِرُوا تَفَقَّاتِهِمْ وَالْعُلُوفَاتِ
لِدَوَابِّهِمْ وَالْأَقْوَاتِ لَهُمْ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَعْدَارِ،
فَصَارُوا مُقِيمِينَ بَعِيرٍ قِتَالٍ، فَاصْطَرَّ إِلَى الرَّجِيلِ، فَتَرْحَلَ
عَنْهَا آخِرَ سُؤَالٍ. كَانَ أَوَّلَ كَانُونَ الْأَوَّلِ (ديسمبر)، إِلَى
عَكَّا، فَإِذِنْ لِلْعِبَسَاكِرِ جَمِيعِهَا بِالْعُودِ إِلَى أَوْطَانِهِمْ وَالِاسْتِرَاحَةِ

فِي الشَّتَاءِ، وَالْعُودِ فِي الرَّبِيعِ، فَعَادَتْ عَسَاكِرُ الشَّرْقِ
وَالْمَوْصِلِ وَغَيْرِهَا، وَعَسَاكِرُ الشَّامِ، وَعَسَاكِرُ مِصْرَ، وَبَقِيَ
حَلِيقَتُهُ الْخَاصُّ مُقِيمًا بِعَكَّا، فَتَزَلَ بِقُلْعَتِهَا، وَرَدَّ أَمْرَ
الْبَلَدِ إِلَى عِزِّ الدِّينِ جُوزْدِيكَ، وَهُوَ مِنْ أَكَابِرِ الْمَمَالِيكَ
النُّورِيَّةِ، جَمَعَ الدِّيَانَةَ، وَالشَّجَاعَةَ، وَحُسْنَ السَّيْرِ.

كان ضياع القدس والمقاومة الباسلة

التي ابداهها المركيز كونراد^[246] في

صور عاملان رئيسيان في تحريك الحملة الصليبية الثالثة. لكن الفصل الرئيسي في هذا

الشأن كان الحصار الطويل لعكا الذي امتد بين 1189 و1191 والذي بدأ قبل وصول

كل من فيليب اوغست وريتشارد انكلترا ليشددا ويجنبا ثمار الحصار الإفرنجي الصارم

على ذلك المرفأ الفلسطيني الذي كان قد سقط عام 1187 في يد صلاح الدين. ومن المعروف أن حصاراً مزدوجاً قد حدث وقتها إذ حاصر الإفرنج

الساحة في الوقت الذي ضرب فيه صلاح الدين حصاراً حولهم، لكن الصعوبات العملية

منعته من التواصل مع أهل عكا المحاصرين ليقف وكأنه مكتوف الأيدي أمام احتضار

المدينة البطيء. صاحبت وقائع هذا الحصار محاولات شرسة لفكه مليئة بصور فريدة أخاذة

حملتنا على الاستشهاد بكل من بهاء الدين وعماد الدين وابن الأثير، على حد سواء.

ذِكْرُ

مَسِيرِ الْفِرْنَجِ إِلَى عَكَا وَمُحَاصَرَتِهَا

(ابن الأثير، 26-12/20) لَمَّا كَثُرَ جَمْعُ الْفِرْنِجِ

يُصَوَّرَ عَلَى مَا ذَكَرْتَاهُ مِنْ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ كَانَ كُلَّمَا فَتَحَ
مَدِينَةً أَوْ قَلْعَةً أَعْطَى أَهْلَهَا الْأَمَانَ، وَسَيَّرَهُمْ إِلَيْهَا
بِأَمْوَالِهِمْ وَنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ، اجْتَمَعَ بِهَا مِنْهُمْ عَالَمٌ
كَثِيرٌ لَا يُعَدُّ وَلَا يُحْصَى، وَمِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَا يَفْتَى عَلَى
كَثْرَةِ الْإِنْفَاقِ فِي السِّنِينَ الْكَثِيرَةِ.

ثُمَّ إِنَّ الرُّهْبَانَ

وَالْقُسُوسَ وَخَلْقًا كَثِيرًا مِنْ مَشْهُورِيهِمْ، وَفُزَّسَانِيهِمْ لَبِسُوا
السَّوَادَ، وَأَطْهَرُوا الْحُزْنَ عَلَى خُرُوجِ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ مِنْ
أَيْدِيهِمْ، وَأَخَذَهُمُ الْبَطْرُكُ الَّذِي كَانَ بِالْقُدْسِ، وَدَخَلَ
بِهِمْ بِلَادَ الْفِرْنِجِ يَطُوفُهَا بِهِمْ جَمِيعًا، وَيَسْتَنْجِدُونَ
أَهْلَهَا، وَيَسْتَجِيرُونَ بِهِمْ، وَيَخْتُونُهُمْ عَلَى الْأَخْذِ بِتَارِ
الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ. وَصَوَّرُوا الْمَسِيحَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -
وَجَعَلُوهُ مَعَ صُورَةِ عَرَبِيٍّ يَصْرِيه، وَقَدْ جَعَلُوا الدِّمَاءَ عَلَى
صُورَةِ الْمَسِيحِ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - وَقَالُوا لَهُمْ: هَذَا الْمَسِيحُ
يَصْرِيه مُحَمَّدٌ نَبِيُّ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ جَرَحَهُ وَقَتَلَهُ. فَعَظُمَ
ذَلِكَ عَلَى الْفِرْنِجِ فَحَشَرُوا وَحَشَدُوا حَتَّى النِّسَاءَ، فَإِنَّهُمْ
كَانَ مَعَهُمْ عَلَى عَكَا عِدَّةٍ مِنَ النِّسَاءِ يُتَارِزْنَ الْأَقْرَانَ
عَلَى مَا تَذْكُرُهُ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

يَوْمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْخُرُوجَ

اسْتَأْجَرَ مَنْ يَخْرُجُ عِوَضَهُ أَوْ يُعْطِيهِمْ مَالًا عَلَى قَدْرِ
حَالِهِمْ. فَاجْتَمَعَ لَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ وَالْأَمْوَالِ مَا لَا
يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ الْإِحْصَاءُ.

وَلَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُ

الْمُسْلِمِينَ الْمُقِيمِينَ بِحِصْنِ الْأَكْرَادِ، وَهُوَ مِنْ أَجْتَادِ
أَصْحَابِهِ الَّذِينَ سَلَّمُوهُ إِلَى الْفَرَنْجِ قَدِيمًا، وَكَانَ هَذَا
الرَّجُلُ قَدْ تَدِمَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ [مِنْ] مُوَافَقَةِ الْفَرَنْجِ فِي
الْعَارَةِ عَلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَالْقِتَالِ مَعَهُمْ، وَالسَّغْيِ
مَعَهُمْ، وَكَانَ سَبَبُ اجْتِمَاعِي بِهِ مَا أَذْكُرُهُ سَنَةً تِسْعِينَ
وَحَمْسِمِائَةٍ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. قَالَ لِي هَذَا الرَّجُلُ إِنَّهُ
دَخَلَ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنَ الْفَرَنْجِ مِنْ حِصْنِ الْأَكْرَادِ إِلَى
الْبِلَادِ الْبَحْرِيَّةِ الَّتِي لِلْفَرَنْجِ وَالرُّومِ فِي أَرْبَعِ شَوَانٍ،
يَسْتَنْجِدُونَ قَالَ: فَانْتَهَى بِنَا التَّطَوُّافُ إِلَى رُومِيَّةِ
الْكُبْرَى، فَخَرَجْنَا مِنْهَا وَقَدْ مَلَأْنَا الشَّوَانِي نُفَرَةً.

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ الْأَسْرَى

مِنْهُمْ أَنَّهُ لَهُ وَالِدَةٌ لَيْسَ لَهَا وَلَدٌ سِوَاهُ، وَلَا يَمْلِكُونَ
مِنَ الدُّنْيَا غَيْرَ بَيْتٍ بَاعَتْهُ وَجَهَرَتْهُ بِتَمْنِيهِ، وَسَيَّرَتْهُ
لِاسْتِنْقَادِ بَيْتٍ وَاحِدٍ فَأُخِذَ أَسِيرًا. وَكَانَ عِنْدَ الْفَرَنْجِ
مِنَ الْبَاعِثِ الدِّينِيِّ وَالنَّفْسَانِيِّ مَا هَذَا حَدُّهُ، فَخَرَجُوا
عَلَى الصَّغْبِ وَالذَّلُولِ، بَرًّا وَتَجَرًّا، مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ،

وَلَوْلَا [أَنَّ] اللَّهَ تَعَالَى لَطَفَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَاهْلَكَ مَلِكَ
الْأَلَمَانِ لَمَّا خَرَجَ عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى
السَّامِ، وَإِلَّا كَانَ يُقَالُ: إِنَّ السَّامَ وَمِصْرَ كَانَتَا
لِلْمُسْلِمِينَ.

فَهَذَا كَانَ سَبَبَ خُرُوجِهِمْ
فَلَمَّا اجْتَمَعُوا بِصُورَ تَمَوَّجَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَمَعَهُمُ
الْأَمْوَالُ الْعَظِيمَةُ، وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُمْ بِالْأَقْوَاتِ
وَالذَّخَائِرِ، وَالْعُدَدِ وَالرِّجَالِ مِنْ بِلَادِهِمْ. فَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ
صُورٌ بَاطِنُهَا وَظَاهِرُهَا فَأَرَادُوا قَصْدَ صَيْدَا وَكَانَ مَا
ذَكَرْتَاهُ.^[247] فَعَادُوا

وَاتَّقُوا عَلَى قَصْدِ عَكَا وَمُحَاصَرَتِهَا وَمُصَابَرَتِهَا، فَسَارُوا
إِلَيْهَا بِقَارِ سِيهِمْ وَرَاجِلِهِمْ، وَقَصَّصَهُمْ وَقَضِيضِهِمْ، وَلَزِمُوا
الْبَحْرَ فِي مَسِيرِهِمْ لَا يُقَارِ قُوَّتُهُ فِي السَّهْلِ وَالْوَعْرِ،
وَالصِّيقِ وَالسَّعَةِ، وَمَرَائِكِبُهُمْ تَسِيرُ مُقَابِلَهُمْ فِي الْبَحْرِ
فِيهَا سِلَاحُهُمْ وَذَخَائِرُهُمْ، وَلِتَكُونَ غُدَّةً لَهُمْ، إِنْ جَاءَهُمْ
مَا لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِ رَكِبُوا فِيهَا وَعَادُوا.

وَكَانَ رَجِيلُهُمْ ثَامِنَ

رَجَبٍ (585/22 أب/أوغست 1189)،

وَنُزِلُهُمْ عَلَى عَكَا فِي مُنْتَصَفِهِ، وَلَمَّا كَانُوا سَائِرِينَ كَانَ

يَرْكُ الْمُسْلِمِينَ يَتَخَطَّفُوهُمْ، وَيَأْخُذُونَ الْمُتَفَرِّدَ مِنْهُمْ.

وَلَمَّا رَحَلُوا جَاءَ الْخَبْرُ

إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ بِرَحِيلِهِمْ، فَسَارَ حَتَّى قَارَبَهُمْ، ثُمَّ جَمَعَ
أُمَرَاءَهُ وَاسْتَشَارَهُمْ: هَلْ يَكُونُ الْمَسِيرُ مُحَازَاةَ الْفَرَنْجِ
وَمُقَاتَلَتِهِمْ وَهُمْ سَائِرُونَ أَوْ يَكُونُ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي

سَلَكَوْهَا؟ فَقَالُوا: "لَا حَاجَةَ بِنَا إِلَى اخْتِمَالِ الْمَشَقَّةِ

فِي مُسَايَرَتِهِمْ، فَإِنَّ الطَّرِيقَ وَعِزٌّ وَصَيِّقٌ وَلَا يَنْتَهِي

لَنَا مَا نُرِيدُهُ مِنْهُمْ، وَالرَّأْيُ أَنَّنَا نَسِيرُ فِي الطَّرِيقِ

الْمَهَيِّعِ، وَتَجْتَمِعُ عَلَيْهِمْ عِنْدَ عَكَا، فَتُفَرِّقُهُمْ

وَنُفَرِّقُهُمْ. " فَعَلِمَ مَبْلَهُمْ إِلَى الرَّاحَةِ الْمُعَجَّلَةِ،

فَوَافَقَهُمْ، وَكَانَ رَأْيُهُ مُسَايَرَتَهُمْ وَمُقَاتَلَتَهُمْ وَهُمْ

سَائِرُونَ، وَقَالَ: "إِنَّ الْفَرَنْجَ إِذَا تَزَلُّوا لَصَقُوا

بِالْأَرْضِ، فَلَا يَنْتَهِي لَنَا إِزْعَاجُهُمْ، وَلَا تَبْلُ الْعَرْضِ

مِنْهُمْ، وَالرَّأْيُ قِتَالُهُمْ قَبْلَ الْوُضُولِ إِلَى عَكَا، "

فَخَالَفُوهُ فَتَبِعَهُمْ، وَسَارُوا عَلَى طَرِيقِ كَفْرِ كُنَّا فَسَبَقَهُمْ

الْفَرَنْجُ. وَكَانَ صَلَاحُ الدِّينِ قَدْ جَعَلَ فِي مُقَابِلِ الْفَرَنْجِ

جَمَاعَةً مِنَ الْأُمَرَاءِ يُسَايِرُونَهُمْ، وَيُنَاقِشُونَهُمُ الْقِتَالَ،

وَيَتَخَطَّفُونَهُمْ، وَلَمْ يَفْدِمِ الْفَرَنْجُ عَلَيْهِمْ مَعَ قَلَّتِهِمْ،

فَلَوْ أَنَّ الْعَسَاكِرَ اتَّبَعَتْ رَأْيَ صَلَاحِ الدِّينِ فِي

مُسَايَرَتِهِمْ وَمُقَاتَلَتِهِمْ قَبْلَ نُزُولِهِمْ عَلَى عَكَا لَكَانَ

بَلَغَ غَرَضَهُ وَصَدَّهُمْ عَنْهَا، وَلَكِنْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا
هَيَّأَ أَسْبَابَهُ.

وَلَمَّا وَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ

إِلَى عَكَا رَأَى الْفَرِجَ قَدْ تَرَلُّوا عَلَيْهَا مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ،
مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا طَرِيقٌ،
فَنَزَلَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَيْهِمْ وَصَرَبَ حَيْمَتَهُ عَلَى تَلِّ كَيْسَانَ،
وَأَمْتَدَّتْ مَيْمَنَتُهُ إِلَى تَلِّ الْعِيَاضِيَّةِ وَمَيْسَرَتُهُ إِلَى
النَّهْرِ الْجَارِي، وَتَرَلَّتِ الْأَنْقَالُ بِصَفُورِيَّةٍ. وَسَيَّرَ
الْكُتَبَ إِلَى الْأَطْرَافِ بِاسْتِدْعَاءِ الْعَسَاكِرِ، فَأَتَاهُ عَسْكَرُ
الْمَوْصِلِ، وَدِيَارُ بَكْرِ وَسَنْجَارَ وَعَيْرِهَا مِنْ يَلَادِ
الْجَزِيرَةِ، وَأَتَاهُ تَقِيُّ الدِّينِ ابْنُ أَخِيهِ، وَأَتَاهُ مُطَقَّرُ
الدِّينِ بَنُ رَيْنِ الدِّينِ، وَهُوَ صَاحِبُ حَرَّانَ وَالرُّهَا. وَكَاتَبَ
الْأَمْدَادُ تَأْتِي الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ وَتَأْتِي الْفَرِجَ فِي
الْبَحْرِ، وَكَانَ بَيْنَ الْقَرِيقَيْنِ مُدَّةٌ مَقَامِهِمْ عَلَى عَكَا
حُزُوبٌ كَثِيرَةٌ مَا بَيْنَ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، مِنْهَا الْيَوْمُ
الْمَشْهُورُ، وَمِنْهَا مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ، وَأَنَا أَذْكَرُ الْأَيَّامِ
الْكِبَارِ لِئَلَّا يَطُولَ ذَلِكَ، وَلِأَنَّ مَا عَدَاهَا كَانَ قِتَالًا
يَسِيرًا مِنْ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ، فَلَا حَاجَةَ إِلَيَّ ذِكْرِهِ.

وَلَمَّا تَرَلَّ السُّلْطَانُ

عَلَيْهِمْ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْوُضُولِ إِلَيْهِمْ، وَلَا إِلَى عَكَا حَتَّى

انْسَلَخَ رَجَبٌ ثُمَّ قَاتَلَهُمْ مُسْتَهْلٌ شُعْبَانَ (منتصف ايلول/سبتمبر) فَلَمْ يَتَلْ مِنْهُمْ
مَا يُرِيدُ وَبَاتَ النَّاسُ عَلَى تَغِيْبَةٍ. فَلَمَّا

كَانَ الْعَدُوُّ بَاكَرَهُمُ الْقِتَالَ يَحْدُهُ وَحَدِيدُهُ، وَاسْتَدَارَ
عَلَيْهِمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ مِنْ بَكْرَةٍ إِلَى الظُّهْرِ، وَصَبَرَ
الْقَرِيقَانِ صَبْرًا حَارًّا لَهُ مَنْ رَأَاهُ. فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ الظُّهْرِ
حَمَلَ عَلَيْهِمْ تَقِيُّ الدِّينِ حَمْلَةً مُنْكَرَةً مِنَ الْمَيْمَنَةِ عَلَى
مَنْ يَلِيهِ مِنْهُمْ، فَأَزَاحَهُمْ عَنْ مَوَاقِفِهِمْ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا لَا يَلْوِي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَالتَّجَّأُوا إِلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنْ
أَصْحَابِهِمْ، وَاجْتَمَعُوا بِهِمْ، وَاجْتَمَعُوا بِهِمْ، وَأَخْلَوْا نِصْفَ
الْبَلَدِ، وَمَلَكَ تَقِيُّ الدِّينِ مَكَاتَهُمْ، وَالتَّصَقَّ بِالْبَلَدِ،
وَصَارَ مَا أَخْلَوْهُ يَبْدُهُ وَدَخَلَ الْمُسْلِمُونَ الْبَلَدَ وَخَرَجُوا
مِنْهُ وَاتَّصَلَتِ الطُّرُقُ وَزَالَ الْحَصْرُ عَمَّنْ فِيهِ، وَأَدْخَلَ
صَلَاحُ الدِّينِ إِلَيْهِ مَنْ أَرَادَ مِنَ الرِّجَالِ، وَمَا أَرَادَ مِنَ
الدَّخَائِرِ وَالْأَمْوَالِ وَالسَّلَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَلَوْ أَنَّ
الْمُسْلِمِينَ لَزِمُوا قِتَالَهُمْ إِلَى اللَّيْلِ لَبَلَّغُوا مَا أَرَادُوهُ،
فَإِنَّ لِلصَّدَمَةِ الْأُولَى رَوْعَةً، لَكِنَّهُمْ لَمَّا تَأَلَّوْا مِنْهُمْ
هَذَا الْقَدْرَ أَخْلَدُوا إِلَى الرَّاحَةِ، وَتَرَكُوا الْقِتَالَ وَقَالُوا: تُبَاكِزُهُمْ غَدًا، وَتَقْطَعُ
دَائِرَتَهُمْ. وَكَانَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ
أَدْخَلَهُ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى عَكَّا مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْرَاءِ حُسَّامُ
الدِّينِ أَبُو الْهَيْجَاءِ السَّمِينُ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ أَمْرَاءِ
عَسْكَرِهِ، وَهُوَ مِنَ الْأَكْبَرَادِ الْحَكِيمَةِ مِنْ بَلَدِ إِرْبِلَ،

وَقَتَلَ مِنَ الْفِرْنَجِ هَذَا الْيَوْمَ جَمَاعَةً كَبِيرَةً.
ذِكْرُ

وَفُقْعَةٍ أُخْرَى وَوَفُقْعَةِ الْعَرَبِ
ثُمَّ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ

تَهَضُّوا إِلَى الْفِرْنَجِ مِنَ الْعَدِ وَهُوَ سَادِسُ، شَعْبَانَ (19 أيلول/سبتمبر)
عَازِمِينَ، عَلَى بَذْلِ جُهِدِهِمْ وَاسْتِنْقَازِ وَسْعِهِمْ فِي
اسْتِئْصَالِهِمْ. فَتَقَدَّمُوا عَلَى تَغْيِثَتِهِمْ، فَرَأَوْا الْفِرْنَجَ
حَذِيرِينَ مُحْتَاطِينَ، قَدْ تَدِمُّوا عَلَى مَا قَرَّطُوا فِيهِ بِالْأَمْسِ،
وَهُمْ قَدْ حَفِظُوا أَطْرَافَهُمْ وَتَوَاجِهَهُمْ، وَشَرَّعُوا فِي حَفْرِ
خَنْدَقٍ يَمْنَعُ مِنَ الْوُضُولِ إِلَيْهِمْ فَأَلَحَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِمْ
فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يَتَقَدَّمِ الْفِرْنَجُ إِلَيْهِمْ، وَلَا فَارَقُوا
مَرَايَضَهُمْ، فَلَمَّا رَأَى الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ عَادُوا عَنْهُمْ.
ثُمَّ إِنَّ جَمَاعَةً مِنَ

الْعَرَبِ بَلَغَهُمْ أَنَّ الْفِرْنَجَ تَخْرُجُ مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى
إِلَى الْإِحْتِطَابِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَشْعَالِهِمْ. فَكَمَتُوا لَهُمْ فِي
مَعَاطِفِ النَّهْرِ وَتَوَاجِهِهِ سَادِسَ عَشَرَ شَعْبَانَ (29 أيلول/سبتمبر)
فَلَمَّا خَرَجَ جَمْعٌ مِنَ الْفِرْنَجِ عَلَى عَادَتِهِمْ حَمَلَتْ عَلَيْهِمْ
الْعَرَبُ، فَقَتَلُوهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَغَنِمُوا مَا كَانَ مَعَهُمْ.
وَحَمَلُوا الرُّؤُسَ إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ
وَأَعْطَاهُمُ الْخِلْعَ.

ذِكْرُ

الْوَفْعَةِ الْكُبْرَى عَلَى عَكَّا

لَمَّا كَانَ بَعْدَ هَذِهِ

الْوَفْعَةِ الْمَذْكُورَةِ بَقِيَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْعِشْرِينَ مِنْ

شَعْبَانَ (3 تشرين أول / اكتوبر)،

كُلَّ يَوْمٍ يُعَادُونَ الْقِتَالَ مَعَ الْفِرْنَجِ وَيُرَاوِحُونَهُ

وَالْفِرْنَجِ لَا يَطْهَرُونَ مِنْ مُعْسَكِرِهِمْ وَلَا يُقَارِ قُوَّتَهُ، ثُمَّ

إِنَّ الْفِرْنَجِ اجْتَمَعُوا لِلْمَشُورَةِ، فَقَالُوا: إِنَّ عَسْكَرَ مِصْرَ

لَمْ يَخْضَرْ وَالْحَالُ مَعَ صَلَاحِ الدِّينِ هَكَذَا، فَكَيْفَ يَكُونُ إِذَا

حَصَرَ؟ وَالرَّأْيُ أَنَّنَا نَلْقَى الْمُسْلِمِينَ عَدَا لَعَلَّنَا نَطْفُرَ

بِهِمْ قَبْلَ اجْتِمَاعِ الْعَسَاكِرِ وَالْأَمْدَادِ إِلَيْهِمْ. وَكَانَ

كَثِيرٌ مِنْ عَسْكَرِ صَلَاحِ الدِّينِ غَائِبًا عَنْهُ، بَعْضُهَا مُقَابِلَ

أَنْطَاكِيَّةَ لِيُرْذُوا عَادِيَّةَ بَيْمُنْدَ صَاحِبِهَا عَنْ أَعْمَالِ

حَلَبَ، وَبَعْضُهَا فِي جِمَصَ مُقَابِلَ طَرَابُلُسَ لِتَحْقِظَ ذَلِكَ

النَّعْرَ أَيْضًا، وَعَسْكَرٌ فِي مُقَابِلِ صُورَ لِحِمَايَةِ ذَلِكَ الْبَلَدِ.

وَعَسْكَرٌ بِمِصْرَ يَكُونُ يَنْعُرِ دِمِشَاطَ وَالْإِسْكَنْدَرِيَّةَ

وَعَيْرِهِمَا، وَالَّذِي بَقِيَ مِنْ عَسْكَرِ مِصْرَ كَانُوا لَمْ يَصِلُوا

لِطُولِ بِيكَارِهِمْ، كَمَا ذَكَرْنَاهُ قَبْلُ، وَكَانَ هَذَا مِمَّا أَطْمَعَ الْفِرْنَجَ

فِي الظُّهُورِ إِلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ.

وَأَصْبَحَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى .

عَادَتِهِمْ مِنْهُمْ مَنْ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْقِتَالِ وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي
خَيْمَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ تَوَجَّهَ فِي حَاجَتِهِ مِنْ زِيَارَةِ
صَدِيقٍ، وَتَحْصِيلِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ وَدَوَابُّهُ،
إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، فَخَرَجَ الْفَرِجُ مِنْ مُعَسَّكَرِهِمْ كَأَنَّهُمْ
الْجَرَادُ الْمُتَشِيرُ، يَدْبُونُ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ قَدْ مَلَأُوهَا
طُولًا وَعَرْضًا، وَطَلَبُوا مَيْمَنَةَ الْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْهَا تَقِي
الدِّينِ عُمَرُ ابْنُ أَخِي صَلَاحِ الدِّينِ فَلَمَّا رَأَى الْفَرِجَ
تَخَوُّهُ قَاصِدِينَ حَدَرَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ، فَتَقَدَّمُوا إِلَيْهِ، فَلَمَّا
قَرُبُوا مِنْهُ تَأَخَّرَ عَنْهُمْ.

فَلَمَّا رَأَى صَلَاحُ الدِّينِ

الْحَالَ وَهُوَ فِي الْقَلْبِ، أَمَدَّ تَقِيَّ الدِّينِ بِرِجَالٍ مِنْ عِنْدِهِ
لِيَتَقَوَّى بِهِمْ، وَكَانَ عَسْكَرُ دِيَارِ بَكْرِ وَبَعْضُ الشَّرْقِيِّينَ
فِي جَنَاحِ الْقَلْبِ، فَلَمَّا رَأَى الْفَرِجُ قِلَّةَ الرِّجَالِ فِي
الْقَلْبِ، وَأَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ قَدْ سَارَ تَخَوُّ الْمَيْمَنَةِ مَدَدًا
لَهُمْ عَطَفُوا عَلَى الْقَلْبِ، فَحَمَلُوا حَمْلَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ.

فَانْدَفَعَتِ الْعَسَاكِرُ بَيْنَ

أَيْدِيهِمْ مُنْهَرِمِينَ، وَتَبَتَ بَعْضُهُمْ، فَاسْتَشْهِدَ جَمَاعَةٌ
مِنْهُمْ كَالْأَمِيرِ مَجْلِيِّ بْنِ مَرْوَانَ، وَالظَّاهِرِ أَخِي الْفَقِيهِ
عَيْسَى، وَكَانَ وَالِيَّ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ قَدْ جَمَعَ بَيْنَ الشَّجَاعَةِ
وَالْعِلْمِ وَالدِّينِ، وَكَالْحَاجِبِ خَلِيلِ الْهَكَارِيِّ، وَغَيْرِهِمْ

مِنَ الشُّجْعَانِ الصَّابِرِينَ فِي مُوَاطِنِ الْحَرْبِ.

وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ

فِي الْقَلْبِ مَنْ يَرُدُّهُمْ، فَقَصَدُوا التَّلَّ الَّذِي عَلَيْهِ خَيْمَةُ

صَلَّاحِ الدِّينِ، فَقَتَلُوا مَنْ مَرُّوا بِهِ، وَتَهَبُوا، وَقَتَلُوا عِنْدَ

خَيْمَةِ صَلَّاحِ الدِّينِ جَمَاعَةً، مِنْهُمْ سَيْخُنَا جَمَالُ الدِّينِ أَبُو

عَلِيِّ بْنِ رَوَاحَةَ الْحَمَوِيِّ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَلَهُ

شِعْرٌ حَسَنٌ، وَمَا وَرِثَ الشَّهَادَةَ مِنْ بَعِيدٍ، فَإِنَّ جَدَّهُ عَبْدَ

اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، قَتَلَهُ الرُّومُ يَوْمَ مُوْتَةَ ^[248] ،

وَهَذَا قَتَلَهُ الْفَرَنْجُ يَوْمَ عَكَا، وَقَتَلُوا غَيْرَهُ. وَانْحَدَرُوا

إِلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنَ التَّلِّ، فَوَضَعُوا السَّيْفَ فِيمَنْ لَقَوْهُ،

وَكَانَ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْفَرَنْجَ لَمْ

يَلْقُوا خَيْمَةَ صَلَّاحِ الدِّينِ، وَلَوْ لَقَوْهَا لَعَلِمَ النَّاسُ

وُضُولَهُمْ إِلَيْهَا، وَانْهَزَامَ الْعَسَاكِرِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَكَانُوا

انْهَزَمُوا أَجْمَعِينَ.

ثُمَّ إِنَّ الْفَرَنْجَ تَطَرُّوا

وَرَاءَهُمْ، فَرَأَوْا أَمْدَادَهُمْ قَدْ انْقَطَعَتْ عَنْهُمْ، فَارْجَعُوا

خَوْفًا أَنْ يَنْقَطِعُوا عَنْ أَصْحَابِهِمْ، وَكَانَ سَبَبُ انْقِطَاعِهِمْ

أَنَّ الْمَيْمَنَةَ وَقَفَتْ مُقَابِلَتَهُمْ، فَاحْتَاجَ بَعْضُهُمْ [أَنْ]

يَقِفَ مُقَابِلَهَا، وَحَمَلَتْ مَيْسَرَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْفَرَنْجِ،
فَاسْتَعْلَ الْمَدْدُ يِقْتَالِ مَنْ يَهَا عَنْ الْإِتِّصَالِ بِأَصْحَابِهِمْ،
وَعَادُوا إِلَى طَرَفِ خَنَادِقِهِمْ، فَحَمَلَتِ الْمَيْسَرَةُ عَلَى
الْفَرَنْجِ الْوَاصِلِينَ إِلَى خَيْمَةِ صَلَاحِ الدِّينِ، فَصَادَفُوهُمْ
وَهُمْ رَاجِعُونَ، فَقَاتَلُوهُمْ، وَتَارَ بِهِمْ غِلْمَانُ الْعَسْكَرِ. وَكَانَ
صَلَاحُ الدِّينِ لَمَّا انْهَزَمَ الْقَلْبُ قَدْ تَبِعَهُمْ يُتَادِيهِمْ،
وَيَأْمُرُهُمْ بِالْكُرَّةِ، وَمُعَاوَدَةِ الْقِتَالِ، فَاجْتَمَعَ مَعَهُ
مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ صَالِحَةٌ، فَحَمَلَ بِهِمْ عَلَى الْفَرَنْجِ مِنْ وَرَاءِ
ظُهُورِهِمْ وَهُمْ مَشْغُولُونَ يِقْتَالِ الْمَيْسَرَةَ، فَأَخَذَتْهُمْ سُيُوفُ
اللَّهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَمْ يَفْلِتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، بَلْ قُتِلَ
أَكْثَرُهُمْ، وَأُخِذَ الْبَاقُونَ أَسْرَى، وَفِي جُمْلَةٍ مِنْ أَسِيرِ
مُقَدَّمِ الدَّأَوِيَّةِ الَّذِي كَانَ قَدْ أَسَرَهُ صَلَاحُ الدِّينِ
[249]
وَأَطْلَقَهُ ،

فَلَمَّا طَفَرَ بِهِ الْآنَ قَتَلَهُ.

وَكَانَتْ عِدَّةُ الْقَتْلَى،

سِوَى مَنْ كَانَ إِلَى جَانِبِ الْبَحْرِ، فِي عَشْرَةِ آلَافٍ قَتِيلٍ، فَأَمَرَ
بِهِمْ، فَأُلْفُوا فِي النَّهْرِ الَّذِي يَسْرُبُ الْفَرَنْجُ مِنْهُ وَكَانَ
عَامَّةُ الْقَتْلَى مِنْ فُرْسَانِ الْفَرَنْجِ، فَإِنَّ الرَّجَالَ لَمْ
يَلْحَقُوهُمْ، وَكَانَ فِي جُمْلَةِ الْأَسْرَى ثَلَاثُ نِسْوَةٍ فَرَنْجِيَّاتٍ

كَرَّ يُقَاتِلَنَّ عَلَى الْخَيْلِ، فَلَمَّا أَسِيرَ، وَالْقَبِي عَنْهُمْ
السَّلَاحُ غُرِفْنَ أَنَّهُنَّ نِسَاءً. وَأَمَّا الْمُنْهَزِمُونَ مِنْ
الْمُسْلِمِينَ، فَمِنْهُمْ مَنْ رَجَعَ مِنْ طَبَرِيَّةَ وَمِنْهُمْ مَنْ جَارَ
الْأُرْدُنَّ وَعَادَ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَلَغَ دِمَشْقَ، وَلَوْلَا أَنَّ
الْعَسَاكِرَ تَفَرَّقَتْ فِي الْهَزِيمَةِ لَكَانُوا بَلَّغُوا مِنَ الْفِرْنِجِ
[مِنْ] الْإِسْتِصَالِ وَالْإِهْلَاكِ مُرَادَهُمْ، عَلَى أَنَّ الْبَاقِينَ
بَذَلُوا جُهْدَهُمْ وَجَدُّوا فِي الْقِتَالِ، وَصَمَّمُوا عَلَى الدُّخُولِ مَعَ
الْفِرْنِجِ إِلَى مُعَسِكَرِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَفْرَعُونَ مِنْهُمْ، فَجَاءَهُمْ
الصَّرِيحُ بِأَنَّ رِحَالَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ قَدْ تُهْبِتُ. وَكَانَ سَبَبُ
هَذَا التُّهْبِ أَنَّ النَّاسَ لَمَّا رَأَوْا الْهَزِيمَةَ حَمَلُوا
أَنْقَالَهُمْ عَلَى الدَّوَابِّ، فَتَارَ بِهِمْ أَوْتَاشُ الْعَسْكَرِ وَغِلْمَائِهِ
فَتَهَبُّوهُ وَأَتَوْا عَلَيْهِ، وَكَانَ فِي عَزْمِ صَلَاحِ الدِّينِ أَنْ
يُبَاكِرَهُمُ الْقِتَالُ وَالزَّخْفُ، فَرَأَى اسْتِغَالَ النَّاسِ بِمَا ذَهَبَ
مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَهُمْ يَسْعَوْنَ فِي جَمْعِهَا وَتَخْصِيلِهَا. فَأَمَرَ
بِالنَّدَاءِ بِإِخْصَارِ مَا أُخِذَ، فَأُخْصِرَ مِنْهُ مَا مَلَأَ الْأَرْضَ
مِنَ الْمَقَارِشِ وَالْعَيْبِ الْمَمْلُوءَةِ وَالتِّيَابِ وَالسَّلَاحِ وَغَيْرِ
ذَلِكَ فَرَدَّ الْجَمِيعَ عَلَى أَصْحَابِهِ، فَقَاتَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ مَا
أَرَادَ، فَسَكَنَ رَوْغُ الْفِرْنِجِ، وَأَصْلَحُوا شَأْنَ الْبَاقِينَ مِنْهُمْ.
ذِكْرُ

رَجِيلِ صَلَاحِ الدِّينِ عَنِ الْفِرْنِجِ وَتَمَكُّنِهِمْ مِنْ حَضَرِ عَكَّا

لَمَّا قُتِلَ مِنَ الْفِرْنِجِ

ذَلِكَ الْعَدَدُ الْكَثِيرُ، جَاقَتِ الْأَرْضُ مِنْ تَتِنِ رِيحِهِمْ، وَفَسَدَ
الْهَوَاءُ وَالْجَوُّ، وَحَدَّثَ لِلْأُمْرِجَةِ فَسَادُ، وَانْحَرَفَ مِرَاجُ
صَلَاحِ الدِّينِ، وَحَدَّثَ لَهُ قَوْلُنْجُ مُبَرِّحُ كَانَ يَعْتَادُهُ، فَحَصَرَ
عِنْدَهُ الْأَمْرَاءُ وَأَشَارُوا عَلَيْهِ بِالِائْتِقَالِ مِنْ ذَلِكَ
الْمَوْضِعِ وَتَرَكَ مُصَافِقَةَ الْفِرْنِجِ، وَحَسَّنُوهُ لَهُ.

وَقَالُوا: "قَدْ صَيِّفْنَا

عَلَى الْفِرْنِجِ، وَلَوْ أَرَادُوا الْإِنْفِصَالَ عَنْ مَكَانِهِمْ لَمْ
يَقْدِرُوا، وَالرَّأْيُ أَنَّنَا تَبْعُدُ عَنْهُمْ بِحَيْثُ يَتِمَكَّنُونَ مِنْ
الرَّحِيلِ وَالْعُودِ فَإِنْ رَحَلُوا، وَهُوَ ظَاهِرُ الْأَمْرِ، فَقَدْ
كُفِينَا شَرَّهُمْ وَكُفُوا شَرَّنَا، وَإِنْ أَقَامُوا عَاوَدْنَا الْقِتَالَ
وَرَجَعْنَا مَعَهُمْ إِلَى مَا تَخُنُ فِيهِ، ثُمَّ إِنَّ مِرَاجَكَ مُنْحَرِفٌ
وَالْأَلَمُ شَدِيدٌ، وَلَوْ وَقَعَ إِرْجَافُ لَهْلَكَ النَّاسُ، وَالرَّأْيُ
عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ الْبُعْدُ عَنْهُمْ."

وَوَافَقَهُمُ الْأَطِبَّاءُ عَلَى

ذَلِكَ، فَأَجَابَهُمْ إِلَيْهِ إِلَى مَا يُرِيدُ اللَّهُ يَفْعَلُهُ إَوَادًا
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَوْءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ

[250]

مِنْ وَالِا ،

فَرَحَلُوا إِلَى الْخَرْوَبَةِ رَابِعَ شَهْرِ رَمَضَانَ (16 تشرين أول/اكتوبر) وَأَمَرَ مَنْ يَعْكَا
مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِحِفْظِهَا، وَإِعْلَاقِ

أَبْوَابَهَا، وَالْإِخْتِيَاظَ، وَأَعْلَمَهُمْ بِسَبَبِ رَحِيلِهِ.

فَلَمَّا رَحَلَ هُوَ

وَعَسَاكِرُهُ أَمِنَ الْفِرْنَجُ وَانْبَسَطُوا فِي تِلْكَ الْأَرْضِ، وَعَادُوا
فَحَصَرُوا عَكَا، وَأَخَاطُوا بِهَا مِنَ الْبَحْرِ إِلَى الْبَحْرِ
وَمَرَاكِئِهِمْ أَيْضًا فِي الْبَحْرِ تَحْصُرُهَا، وَشَرَعُوا فِي حَفْرِ
الْخَنْدَقِ، وَعَمَلَ السُّورِ مِنَ التُّرَابِ الَّذِي يُخْرِجُوهُ مِنَ
الْخَنْدَقِ، وَجَاءُوا بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي الْحِسَابِ.

وَكَانَ الْبِرْكُ كُلَّ يَوْمٍ

يُؤَافِقُهُمْ، وَهُمْ لَا يُقَاتِلُونَ، وَلَا يَتَحَرَّكُونَ، إِنَّمَا هُمْ
مُهِتَمُونَ بِعَمَلِ الْخَنْدَقِ وَالسُّورِ عَلَيْهِمْ لِيَتَحَصَّنُوا بِهِ
مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ، إِنْ عَادَ إِلَى قِتَالِهِمْ، فَحِينَئِذٍ طَهَرَ رَأْيُ
الْمُشِيرِينَ بِالرَّحِيلِ. وَكَانَ الْبِرْكُ كُلَّ يَوْمٍ يُخْبِرُونَ صَلَاحَ
الدِّينِ بِمَا يَصْنَعُ الْفِرْنَجُ، وَيُعْظُمُونَ الْأَمْرَ عَلَيْهِ وَهُوَ
مُسْغُولٌ بِالْمَرَضِ، لَا يَقْدِرُ عَلَى التُّهُوضِ لِلْحَرْبِ، وَأَشَارَ
عَلَيْهِ بَعْضُهُمْ بِأَنْ يُرْسِلَ الْعَسَاكِرَ جَمِيعَهَا إِلَيْهِمْ
لِيَمْتَنِعَهُمْ مِنَ الْخَنْدَقِ وَالسُّورِ، وَيُقَاتِلُوهُمْ، وَيَتَخَلَّفَ
هُوَ عَنْهُمْ، فَقَالَ: "إِذَا لَمْ أَحْضُرْ مَعَهُمْ لَا يَفْعَلُونَ
شَيْئًا، وَرُبَّمَا كَانَ مِنَ الشَّرِّ أَضْعَافُ مَا تَرْجُوهُ مِنَ الْخَيْرِ"،
فَتَأَخَّرَ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ غُوفِيَ، فَتَمَكَّنَ الْفِرْنَجُ وَعَمِلُوا
مَا أَرَادُوا، وَأَخْكَمُوا أُمُورَهُمْ، وَحَصَّنُوا نَفُوسَهُمْ بِمَا وَجَدُوا

إِلَيْهِ السَّبِيلَ، وَكَانَ مَنْ يَعْكَا يَخْرُجُونَ إِلَيْهِمْ كُلَّ يَوْمٍ،
وَيُقَاتِلُونَهُمْ، وَيَتَأَلَوْنَ مِنْهُمْ بِظَاهِرِ الْبَلَدِ.

ذِكْرُ

وُضُولِ عَسْكَرِ مِصْرَ وَالْأُسْطُولِ الْمِصْرِيِّ فِي الْبَحْرِ
فِي مُنْتَصَفِ شَوَّالٍ (أواخر

تشرين أول/أكتوبر) وَصَلَتِ الْعَسَاكِرُ الْمِصْرِيَّةُ، وَمُقَدَّمُهَا الْمَلِكُ الْعَادِلُ
سَيْفُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَيُّوبَ، فَلَمَّا وَصَلَ قَوَيْتَ ثُقُوسُ
النَّاسِ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ، وَاشْتَدَّتْ طُهُورُهُمْ، وَأَخْصَرَ مَعَهُ مِنْ
آلَاتِ الْحِصَارِ مِنَ الدَّرَقِ وَالطَّارِقِيَّاتِ وَالنُّشَابِ
وَالْأَفْوَاسِ، شَيْئًا كَثِيرًا. وَمَعَهُمْ مِنَ الرِّجَالِ الْجَمُّ
الْعَفِيرُ، وَجَمَعَ صُلَاحُ الدِّينِ مِنَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ رَاجِلًا
كَثِيرًا، وَهُوَ عَلَى عَزَمِ الرَّحْفِ إِلَيْهِمْ بِالْقَارِسِ وَالرَّاجِلِ. وَوَصَلَ
بَعْدَهُ الْأُسْطُولُ الْمِصْرِيُّ، وَمُقَدَّمُهُ الْأَمِيرُ لُؤْلُؤُ، وَكَانَ
شَهْمًا، شُجَاعًا، مُقَدِّمًا، خَيْرًا بِالْبَحْرِ وَالْقِتَالِ فِيهِ،
مَيِّمُونَ النَّفِيَّةِ، فَوَصَلَ بَعْتُهُ فَوَقَعَ عَلَى بَسْطَةِ كَبِيرَةٍ
لِلْفِرْنَجِ فَعَنِمَهَا، وَأَخَذَ مِنْهَا أَمْوَالًا كَثِيرَةً، وَمِيرَةً
عَظِيمَةً، فَأَدْخَلَهَا إِلَى عَكَا، فَسَكَنَتْ ثُقُوسُ مَنْ يَهَا بِوُضُولِ
الْأُسْطُولِ وَقَوِيَّ جَنَائِهِمْ.

ذكر

المصاف الأعظم على عكا

(بهاء الدين، 140-147) وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء

الحادي والعشرون (شعبان/4 تشرين أول/أكتوبر

1189) تحركت عساكر الإفرنج

حركة لم تكن لهم بمثلها عادة فارسهم وراجلهم وكبيرهم وصغيرهم،
فاصطفوا خارج خيمهم

قلباً وميمنة وميسرة، وفي القلب الملك وبين يديه الإنجيل محمولاً مستوراً
بثوب

أطلس مغطى يمسكه أربعة أنفس بأربعة أطراف وهم يسرون بين يدي
الملك، وامتدت

الميمنة في مقابلة الميسرة التي لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها، وكذلك
ميسرة

العدو في مقابلة ميمنتنا إلى آخرها. وملكوا رؤوس التلال. وكان طرف
ميمنتهم إلى

النهر وطرف ميسرتهم إلى البحر. وأما العسكر الإسلامي المنصور فإن
السلطان أمر

الجاويز أن نادى في الناس "يا للإسلام، وعساكر الموحدين" فركب الناس
وقد

باعوا أنفسهم بالجنة ووقفوا بين أيدي خيامهم. وامتدت الميمنة إلى البحر
والميسرة

إلى النهر كذلك أيضاً. وكان رحمه الله قد أنزل الناس في الخيم ميمنة
وميسرة وقلباً

تعبية الحرب، حتى إذا وقعت صيحة لا يحتاجون إلى تجديد ترتيب، وكان هو في
القلب، وفي

ميمنة القلب ولده الملك الأفضل، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهر الدين بن
البلنكري، ثم

عسكر ديار بكر في خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن، ثم حسام
الدين بن لاجين

صاحب نابلس، ثم الطواشي قايمار النجمي وجموع عظيمة متصلين بطرف
الميمنة، وكان في

طرفها الملك المظفر تقي الدين بجحفله وعسكره وهو مطلق على البحر، وأما
أوائل

الميسرة فكان مما يلي القلب سيف الدين علي المشطوب وعلي بن أحمد
من كبار ملوك

الأكراد ومقدميهم والأمير علي وجماعة المهرانية والهكارية^[251] ومجاهد

الدين برتقش مقدم عسكر سنجار وجماعة من المماليك ثم مظفر الدين بن
زين الدين

بجحفله وعسكره، وأواخر الميسرة كبار المماليك الأسدية كسيف الدين يازكج
ورسلان بغا

وجماعة الأسدية^[252] الذين

يضرِب بهم المثل، ومقدم القلب الفقيه عيسى وجمعه، هذا والسلطان يطوف
على الأطلاب

بنفسه يحثهم على القتال، ويدعوهم إلى النزال، ويرغبهم في نصر دين الله
ولم يزل

القوم يتقدمون، والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ومضى فيه مقدار أربع
ساعات. وعند

ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين فأخرج لهم الملك المظفر
الجاليش وجرى

بينهم قلبات كثيرة وتكاثروا على الملك المظفر وكان في طرف الميمنة على البحر

فتراجع عنهم شيئاً إطماعاً لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم فينال منهم غرضاً فلما رأى

السلطان ذلك ظن به ضعفاً وأمدّ بأطلاب عدة من القلب حتى قوي جانبه وتراجعت ميسرة

العدو واجتمعت على تل مشرف على البحر. ولما رأى الذين في مقابلة القلب ضعف القلب

ومن خرج منه من الأطلاب داخلهم الطمع وتحركوا نحو ميمنة القلب، وحملوا حملة الرجل

الواحد راجلهم وفارسهم. ولقد رأيت الرجالة تسير سير الخيالة وهم يسبقون حيناً.

وجاءت الحملة على الديار البكرية كما شاء الله تعالى، وكان بهم غرة عن الحرب فتحركوا

بين العدو وانكسروا كسرة عظيمة وسرى الأمر حتى انكسر معظم الميمنة واتبع العدو

المنهزمين إلى العياضية فإنهم استداروا حول التل، وصعد طائفة من العدو إلى خيمة

السلطان فقتلوا طشت دار كان هناك، وفي ذلك اليوم استشهد إسماعيل المكبس وابن رواحة

رحمهما الله، وأما الميسرة فإنها ثبتت لأن الحملة لم تصادفها وأما السلطان فأخذ

يطوف على الأطلاب فينهضهم ويعددهم الوعود الجميلة ويحثهم على الجهاد وينادي فيهم "يا

للإسلام" ولم يبق معه إلا خمسة أنفس وهو يطوف على الأطلاب ويخرق الصفوف ويأوي

إلى تحت التل الذي كان عليه الخيام، وأما المنهزمون من العسكر فإنهم بلغتهم

هزيمتهم إلى الفخوانة قاطع جسر طبرية. وتمّ منهم قوم الى محروسة دمشق، وأما خيل

العدو فتبعوهم الى العياضية، فلما راوهم قد صعدوا الجبل رجعوا عنهم، وجاءوا عايدين

الى عسكرهم، فلقبهم جماعة من الغلمان والخزندية والساسة منهزمين على بغال الحمل، فقتلوا

منهم جماعة ثم جاءوا على رأس السوق فقتلوا جماعة وقتل منهم جماعة، فإن السوق كان

عظيماً ولهم سلاح، وأما الذين صعدوا إلى الخيام السلطانية فإنهم لم يلتمسوا فيها

شيئاً أصلاً سوى أنهم قتلوا من ذكرنا وهم ثلاثة نفر رأوا ميسرة الإسلام ثابتة فعلموا

أن الكسرة لا تتم، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم، وأما السلطان فإنه كان

واقفاً تحت التل ومعه نفر يسير وهو يجمع الناس ليعودوا إلى المحلة على العدو، فلما

رأوا الإفرنج نازلين من التل أرادوا لقاءهم فأمرهم بالصبر إلى أن ولوا ظهورهم

واشتدوا يطلبون أصحابهم. فصاح في الناس فحملوا عليهم فطرحوا منهم جماعة، فاشتد

الطمع فيهم وتكاثر الناس وراءهم، حتى لقوا أصحابهم والطرده وراءهم، فلما رأوهم

منهزمين والمسلمون وراءهم في عدد كثير ظنوا أن من حمل منهم قد قتل وإنهم إنما نجا

منهم هذا النفر فقط، وأن الهزيمة قد عادت عليهم فاشتدوا في الهرب
والهزيمة، وتحركت

الميسرة عليهم. وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة وتجمعت الرجال
وتداعت وتراجع

الناس من كل جانب. وكذب الله الشيطان ونصر الإيمان. وظل الناس في قتل
وطرح وضرب

وجرح إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكريهم، فهاجم عليهم في
الخيام. فخرج منهم

أطلاب كانوا أعدوها خشية من مثل هذا الأمر، فردوا المسلمين وكان التعب
قد أخذ من

الناس والعرق قد أجمعهم فرجع الناس عنهم بعد صلاة العصر يخوضون في
القتلى ودمائهم

إلى خيامهم فرحين مسرورين. وعاد السلطان إلى مخيمه، وجلس فيه
والأمراء بين يديه

يتذكرون من فقد منهم، وكان مقدار من فقد من الغلمان المجهولين مائة
وخمسين نفراً

ومن المعروفين استشهد ظهر الدين أخو الفقيه عيسى، ولقد رأيته وهو جالس
يضحك والناس

يعزونه، وهو ينكر عليهم، ويقول "هذا يوم الهناء لا يوم العزاء". وكان هو

قد وقع عن فرسه وركبه فرأيته وقتل عليه جماعة من أقاربه وقتل في ذلك
اليوم الأمير

مجلي، هذا الذي قتل من المسلمين، وأما من العدو المخذول فحزر قتلهم
سبعة آلاف نفر،

ورأيتهم وقد حملوهم إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه، فحزرتهم بدون سبعة آلاف.

ولما تم على المسلمين من الهزيمة

ما تم، ورأى الغلمان خلو الخيام عمن يعترض عليهم، فإن العسكر انقسم إلى قسمين

منهزمين ومقاتلين. فلم يبق في الخيام أحد وراءنا فظنوا أن الكسرة تتم وأن العدو

ينهب جميع ما في الخيام، فوضعوا أيديهم في الخيام ونهبوا جميع ما كان فيها. وذهب

من الناس أموال عظيمة وكان ذلك أعظم من الكسرة وقعاً. ولما عاد السلطان إلى الخيم

ورأى ما قد تم على الناس من نهب الأموال والهزيمة، سارع إلى الكتب والرسل في رد

المنهزمين، وتتبع من شذ من العسكر والرسل تتابع في هذا المعنى، حتى بلغت عقبة فيق،

وأخذوهم: "يا الكرة بالعكرة المسلمين"، فعادوا وأمر بجمع الأقمشة من أكف

الغلمان إلى خيمته، حتى جلاّت الخيل والمخالي بين يديه في خيمته، وهو جالس ونحن

حوله، وهو يتقدم إلى كل من عرف شيئاً، وحلف عليه يسلم إليه، وهو يلقي هذه الأحوال

بقلب صلب، وصدر رحب، ووجه منبسط ورأى مستقيم غير مختبط. واحتساب لله تعالى وقوة

عزم في نصره دين الله، وأما العدو المخذول فإنه عاد إلى خيمته وقد قتل شجعانهم

وطرحت ابطالهم.

فأمر السلطان أن خرج من عكا عجل

يسحبون (ثقل) عليه القتلى منهم إلى طرف النهر ليلقوا فيه، ولقد حكى لي بعض من

ولي أمر العجل أنه أخذ خيطاً وكان كلما أخذ قتيلاً عقد عقدة فبلغ عدد قتلى
الميسرة

أربعة آلاف ومائة وكسور، وبقي قتلى الميمنة وقتلى القلب لم يعدهم، فإنه
ولي أمرهم

غيره. وبقي من العدو بعد ذلك من حمى نفسه وأقاموا في مخيمهم لم يكثرثوا
بجحافل

المسلمين وعساكرهم، وتشتت من عساكر المسلمين خلق كثير بسبب
الهزيمة فإنه ما رجع

منها إلا رجل معروف يخاف على نفسه والباقون هربوا في حال سبيلهم.

وأخذ السلطان في جمع الأموال

المنهوبة وإعادتها إلى أصحابها، ولقد حضرت يوم تفرقت الأقمشة على
أربابها، فرأيت

سوقاً للعدل قائمة لم ير في الدنيا أعظم منها، وكان ذلك في يوم الجمعة
الثالث

والعشرين من شعبان (6 تشرين أول/أكتوبر).

وعند انقضاء هذه الواقعة وسكون ثأرتها أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى
موضع يقال

له الخروبة خشية على العسكر من أرائج القتلى وهو موضع قريب من مكان
الوقعة، إلا

أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل، وضربت له خيمة عند
الثقل، وأمر

اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه، وذلك في التاسع
والعشرين.

واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ثم أمرهم بالإصغاء إلى
كلامه وكنت من

جملة الحاضرين ثم قال "بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله.
اعلموا أن

هذا عدو الله وعدونا قد نزل في بلدنا وقد وطء أرض الإسلام. وقد لاحت لوائح
النصر

عليه وإن شاء الله تعالى وقد بقي في هذا الجمع اليسير ولا بد من الاهتمام
بقلعه

والله قد أوجب علينا ذلك وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة
نتنظرها سوى

الملك العادل وهو واصل وهذا العدو إن بقي وطال أمره إلى أن يفتح البحر
جاءه مدد

عظيم والرأي كل الرأي عندي مناجزتهم فلينجزنا كل منكم ما عنده في ذلك"،
وكان

ذلك في ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية وامتخضت الآراء وجرى
تجاذب في أطراف

الكلام وانفصلت آراؤهم على أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة، وأن
يبقى العسكر

أياماً حتى يستجم من حمل السلاح وترجع النفوس إليهم، فقد أخذ التعب منهم
واستولى

على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوي لا تؤمن غائلته
والناس

لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك
اللجم وسئمت نفوسها

ذلك. وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها ويصل الملك العادل
ويشاركنا في

الرأي والعمل، وسنعيد من شذ من العساكر، ونجمع الرجال ليقفوا في مقابلة
رجال

العدو. وكان السلطان قد التأت التياتأ كثرأ من كثرة ما حمل على قلبه، وما عاناه

من ثقل السلاح ومداومة لمسـه، فرأى المصلحة فيما قالوا وأشاروا به. وكان انتقال

العسكر إلى الثقل ثالث رمضان وانتقل السلطان تلك الليلة وأقام يصلح مزاجه ويجمع

العساكر وينتظر أخاه الملك العادل إلى عاشر رمضان (22 تشرين أول/ [253] أكتوبر) .

ذِكْرُ

إِخْرَاقِ الْأَبْرَاجِ وَوَقْعَةِ الْأُسْطُولِ

(ابن الأثير، 28-12/30) كَانَ الْفِرْنَجُ، فِي مُدَّةِ

مَقَامِهِمْ عَلَى عَكَّا، قَدْ عَمِلُوا ثَلَاثَةَ أَبْرَاجٍ مِنَ الْخَشَبِ

عَالِيَةٍ جِدًّا، طُولُ كُلِّ بُرْجٍ مِنْهَا فِي السَّمَاءِ سِتُّونَ ذِرَاعًا،

وَعَمِلُوا كُلَّ بُرْجٍ مِنْهَا خَمْسَ طَبَقَاتٍ، كُلُّ طَبَقَةٍ مَمْلُوءَةٌ

مِنَ الْمُقَاتِلَةِ، وَقَدْ جَمَعُوا أَحْشَابَهَا مِنَ الْجَزَائِرِ فَإِنَّ

مِثْلَ هَذِهِ الْأَبْرَاجِ الْعَظِيمَةِ لَا يَصْلُحُ لَهَا مِنَ الْخَشَبِ

إِلَّا الْقَلِيلُ النَّادِرُ، وَعَشَوْهَا بِالْجُلُودِ وَالْخَلِّ وَالطِّينِ

وَالْأَدْوِيَةِ الَّتِي تَمْنَعُ النَّارَ مِنْ إِخْرَاقِهَا، وَأَصْلَحُوا

الطُّرُقَ لَهَا، وَقَدَّمُوهَا تَحَوَّ مَدِينَةِ عَكَّا مِنْ ثَلَاثِ جِهَاتٍ،

وَزَحَفُوا بِهَا فِي الْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ (586/27 نيسان/ابريل

1190)، فَأَشْرَقَتْ عَلَى

السُّورِ، وَقَاتَلَ مَنْ يَهَا مَنْ عَلَيْهِ فَأُكْشِفُوا، وَشَرُّوا فِي
طَمَّ حَنْدَقِهَا، فَأَشْرَفَ الْبَلَدُ عَلَى أَنْ يُمْلِكَ عَنْوَةً وَقَهْرًا.
فَأَرْسَلَ أَهْلُهُ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ إِنْسَانًا سَبَحَ فِي الْبَحْرِ،
فَأَعْلَمَهُ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الصِّيقِ، وَمَا قَدْ أَشْرَفُوا عَلَيْهِ مِنْ
أَحْذِهِمْ وَقَتْلِهِمْ، فَكَرِبَ هُوَ وَعَسَاكِرُهُ وَتَقَدَّمُوا إِلَى
الْفِرْنِجِ وَقَاتَلُوهُمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ قِتَالًا عَظِيمًا دَائِمًا
يَسْغُلُهُمْ عَنْ مُكَاتَرَةِ الْبَلَدِ. فَافْتَرَقَ الْفِرْنِجُ فِرْقَتَيْنِ: فُرْقَةُ ثُقَاتِلِ صَلَاحِ الدِّينِ
وَفُرْقَةُ ثُقَاتِلِ أَهْلِ عَكَا، إِلَّا
أَنَّ الْأَمْرَ قَدْ خَفَّ عَمَّنْ بِالْبَلَدِ، وَدَامَ الْقِتَالُ ثَمَانِيَةَ
أَيَّامٍ مُتَتَابِعَةٍ، أَحْرَقَهَا النَّامِثُ وَالْعِشْرُونَ مِنَ الشَّهْرِ (5 أيار/مايو)،
وَسَيَّمِ الْقَرِيقَانِ الْقِتَالَ، وَمَلُّوا مِنْهُ لِمَلَأَ رَمَتِهِ لَيْلًا
وَتَهَارًا، وَالْمُسْلِمُونَ قَدْ تَبَقَّعُوا اسْتِيلَاءَ الْفِرْنِجِ عَلَى
الْبَلَدِ، لِمَا رَأَوْا مِنْ عَجْزٍ مَنْ فِيهِ عَنْ دَفْعِ الْأَبْرَاجِ،
فَانْتَهَمَ لَمْ يَنْتَرِكُوا حِيلَةً إِلَّا وَعَمِلُوهَا، فَلَمْ يُفِذْ ذَلِكَ،
وَلَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ سَيْئًا، وَتَابَعُوا رَمَى النَّفْطِ الطَّيَّارِ
عَلَيْهَا، فَلَمْ يُؤَثِّرْ فِيهَا، فَأَيَّقَنُوا بِالْبَوَارِ وَالْهَلَاقِ،
فَأَتَاهُمُ اللَّهُ بِنَصِيرٍ مِنْ عِنْدِهِ وَإِذْنٍ فِي إِحْرَاقِ الْأَبْرَاجِ.
وَكَانَ سَبَبُ ذَلِكَ، أَنَّ إِنْسَانًا مِنْ أَهْلِ دِمَشْقَ كَانَ مُوَلَعًا
بِجَمْعِ آلَاتِ النَّفَّاطِينَ، وَتَخْصِيلِ عَقَاقِيرِ ثَقْوَى عَمَلِ النَّارِ
فَكَانَ مَنْ يَعْرِفُهُ يَلُومُهُ عَلَى ذَلِكَ وَيُنْكِرُهُ عَلَيْهِ وَهُوَ

يَقُولُ: "هَذِهِ حَالُهُ لَا أَبَاشِرُهَا بِنَفْسِي إِنَّمَا أَشْتَهِي
مَعْرِفَتَهَا"، وَكَانَ يَعْكَا لِأَمْرِ يُرِيدُهُ اللَّهُ. فَلَمَّا
رَأَى الْأَبْرَاجَ قَدْ نُصِبَتْ عَلَى عَكَا شَرَعَ فِي عَمَلٍ مَا يَعْرِفُهُ
مِنَ الْأَدْوِيَةِ الْمُقَوِّبَةِ لِلنَّارِ، يَحِثُّ لَا يَمْتَنِعُهَا شَيْءٌ
مِنَ الطِّينِ وَالْخَلِّ وَغَيْرِهِمَا، فَلَمَّا فَرَعَ مِنْهَا حَصَرَ عِنْدَ
الْأَمِيرِ قَرَأُوشَ، وَهُوَ مُتَوَلِّي الْأُمُورِ يَعْكَا وَالْحَاكِمُ
فِيهَا، وَقَالَ لَهُ: تَأْمُرُ الْمَنْجَنِيْقِيَّ أَنْ يَرْمِيَ فِي الْمَنْجَنِيْقِ
الْمُخَاذِي لِبُرْجٍ مِنْ هَذِهِ الْأَبْرَاجِ مَا أُعْطِيهِ حَتَّى أُخْرِقَهُ. وَكَانَ
عِنْدَ قَرَأُوشَ مِنَ الْغَيْظِ وَالْخَوْفِ عَلَى الْبَلَدِ وَمَا فِيهِ مَا
يَكَادُ يَقْتُلُهُ، فَأَرَادَ غَيْظًا يَقُولُهُ وَحَرِدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ
لَهُ: "قَدْ بَالَعَ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ فِي الرَّمْيِ بِالنُّقْطِ
وَعَيْرِهِ فَلَمْ يُفْلِحُوا" فَقَالَ لَهُ مَنْ حَصَرَ: "لَعَلَّ
اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ الْفَرْجَ عَلَى يَدِ هَذَا، وَلَا يَضُرُّنَا أَنْ
تُؤَافِقَهُ عَلَى قَوْلِهِ"، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ، وَأَمَرَ
الْمَنْجَنِيْقِيَّ بِامْتِنَالِ أَمْرِهِ. فَرَمَى عِدَّةَ قُدُورٍ نَقْطًا
وَأَدْوِيَةً لَيْسَ فِيهَا نَارٌ، فَكَانَ الْفِرْنِجُ إِذَا رَأَوْا الْقِدْرَ
لَا يُخْرِقُ شَيْئًا يَصِيحُونَ، وَيَبْرُقُضُونَ، وَيَلْعَبُونَ عَلَى سَطْحِ
الْبُرْجِ حَتَّى إِذَا عَلِمَ أَنَّ الَّذِي أَلْقَاهُ قَدْ تَمَكَّنَ مِنَ
الْبُرْجِ، أَلْقَى قِدْرًا مَمْلُوءَةً وَجَعَلَ فِيهَا النَّارَ فَاسْتَعَلَ
الْبُرْجَ، وَأَلْقَى قِدْرًا ثَانِيَةً وَثَالِثَةً، فَاصْطَرَمَّتِ النَّارُ فِي

تَوَاجِي الْبُرْجِ، وَأَعْجَلْتُ مَنْ فِي طَبَقَاتِهِ الْخَمْسِ عَنِ
الْمَهْرَبِ وَالْخَلَّاصِ، فَاخْتَرَقَ هُوَ وَمَنْ فِيهِ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ
الرَّزْدِيَّاتِ وَالسَّلَاحِ شَيْءٌ كَثِيرٌ. وَكَانَ طَمَعُ الْفِرْنِجِ يَمَّا
رَأَوْا أَنَّ الْقُدُورَ الْأُولَى لَا تَعْمَلُ شَيْئًا يَحْمِلُهُمْ عَلَى
الطَّمَأْنِينَةِ وَتَرْكِ السَّعْيِ فِي الْخَلَّاصِ، حَتَّى عَجَّلَ اللَّهُ
لَهُمُ النَّارَ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، فَلَمَّا أَحْرَقَ الْبُرْجَ
الْأَوَّلَ انْتَقَلَ إِلَى الثَّانِي، وَقَدْ هَرَبَ مَنْ فِيهِ لِحُوفِهِمْ،
فَأَحْرَقَهُ، وَكَذَلِكَ الثَّالِثُ. وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا لَمْ يَرِ
النَّاسُ مِثْلَهُ، وَالْمُسْلِمُونَ يَنْظُرُونَ وَيَفْرَحُونَ، وَقَدْ
أَسْفَرَتْ وَجُوهُهُمْ بَعْدَ الْكَاتِبَةِ فَرَحَةً بِالنَّصْرِ وَخَلَّاصِ
الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْقَتْلِ لِأَنَّهُمْ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ
فِي الْبَلَدِ إِمَامًا تَسِيَّبَ وَإِمَامًا صَدِيقًا. وَحُمِلَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى
صَلَاحِ الدِّينِ فَبَدَّلَ لَهُ الْأَمْوَالَ الْجَزِيلَةَ وَالْإِقْطَاعَ
الْكَثِيرَ فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ الْحَبَّةَ الْقَرْدَ، وَقَالَ: "إِنَّمَا
عَمِلْتُهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَا أُرِيدُ الْجَزَاءَ إِلَّا مِنْهُ". وَشِيرَتِ
الْكُتُبُ إِلَى الْبِلَادِ بِالنَّبَسَائِرِ. وَأُرْسِلَ يَطْلُبُ الْعَسَاكِرَ
السَّرَقِيَّةَ. فَأَوَّلُ مَنْ أَتَاهُ عِمَادُ الدِّينِ زُرْكَيُّ بْنُ
مَوْدُودِ بْنِ زُرْكَيٍّ، وَهُوَ صَاحِبُ سِنْجَارٍ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ،
ثُمَّ أَتَاهُ عَلَاءُ الدِّينِ وَلَدُ عِزِّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ
مَوْدُودِ بْنِ زُرْكَيٍّ، سَيَّرَهُ أَبُوهُ مُقَدِّمًا عَلَى عَسَاكِرِهِ

وَهُوَ صَاحِبُ الْمَوْصِلِ. ثُمَّ وَصَلَ رَبُّنَا الدِّينَ يُوسُفُ صَاحِبُ إِرْبِلَ
وَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ إِذَا وَصَلَ يَتَقَدَّمُ إِلَى الْفَرَنْجِ يَعْشَكِرُهُ
وَيَنْصَتُمْ إِلَيْهِ غَيْرُهُمْ، وَيُقَاتِلُونَهُمْ، ثُمَّ يَنْزِلُونَ.
ذكر

الحيلة وإدخال بطسة بيروت الى البلد

(بهاء الدين، 178-179، 201-203،

(211

وكان الإفرنج خذلهم الله قد أداروا

مراكبهم حول عكا حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين. وكانت قد
اشتدت حاجة من

فيها إلى الطعام والميرة فركب في بطسة بيروت جماعة من المسلمين،
واودعوها أربع

ماية غرارة قمح، ووضعوا فيها من الجبن والبصل والغنم وغير ذلك من الميرة،
وتزبوا

بزي الإفرنج، حتى حلقوا لحاهم ووضعوا الخنازير^[254] على

سطح البطسة، بحيث ترى من بعد، وعلقوا الصلبان، وجاءوا قاصدين البلد من
البعد حتى

خالطوا مراكب العدو فخرجوا إليهم واعترضوهم في الحراقات والشواني
وقالوا لهم "نراكم

قاصدين البلد"، واعتقدوا أنهم منهم، فقالوا "أولم تكونوا قد أخذتم البلد"

فقالوا "لم نأخذ البلد بعد" فقالوا "نحن نرد القلوع إلى العسكر"

وقد أتى بطسة أخرى في هوائنا فأنذروهم حتى يدخلوا البلد. وكان وراءهم
بطسة إفرنجية

قد اتفقت معهم في البحر قاصدة العسكر، فنظروا فرأوها فقصدوها ينذرونها،
فاشتدت

البطسة الإسلامية في السير واستقامت لها الريح حتى دخلت ميناء البلد،
وسلمت ولله

الحمد. وكان فرحاً عظيماً فإن الحاجة كانت قد أخذت من أهل البلد وكان ذلك
في العشر

الأواخر من رجب (586/آب-أيلول/أوغست-سبتمبر

1190).

ذكر

قصة العوام عيسى

ومن نوادر هذه الواقعة ومحاسنها أن

عوّاماً مسلماً يقال له عيسى وصل إلى البلد بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً
على

غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو. وكان
ذات ليلة شد

على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، وكتب للعسكر وعام في البحر،
فجرى عليه أمر

أهلكه وأبطأ خبره عنا. وكانت عادته إذا دخل البلد أطار طيراً عرّفنا بوصوله،
فأبطأ

الطير فاستشعرنا هلاكه. ولما كان بعد أيام بينا الناس على طرف البحر في
البلد، إذا

هو قد قذف شيئاً غريباً فتفقدوه فوجدوه عيسى العوام، ووجدوا على وسطه الذهب وشمع

الكتب. وكان الذهب نفقة للمجاهدين. فما رؤي من أدى الأمانة في حال حياته وقد ردها

في مماته إلا هذا الرجل وكان ذلك في العشر الأواخر من رجب أيضاً.

ذكر

وقعة الكمين

وفي الثاني والعشرين من شوال (586/22 تشرين ثاني/نوفمبر

1190) رأى السلطان أن يضع

للعدو كميناً وقوي عزمه على ذلك، فأخرج جمعاً من كماء العسكر وشجعانه وأبطاله

وفرسانه، وانتخبهم من خلق كثير وأمرهم أن يسيروا في الليل ويكمنوا في سفح تل هو

شمالي عكا بعيداً من عسكر العدو، عنده بانة منزلة الملك العادل حين وقعت الوقعة

المنسوبة إليه، وأن يظهر منهم للعدو نفر يسير وأن يقصدوه في خيامه ويحركوه، حتى

إذا خرج انهزموا بين يديه نحو المسلمين. ففعلوا ذلك وساروا حتى أتوا التل المذكور

ليلاً فكمنوا فيه. ولما تجلى نهار الثالث والعشرين خرج منهم يسير على جيات من

الخيال وساروا حتى أتوا مخيم العدو ورموهم بالنشاب، وحركوا حميتهم بالضرب المتواتر،

فانتخى لهم مقدار مائتي فارس وخرجوا إليهم شاكي السلاح، على خيل جياذ
بعدة تامة

وأسلحة كاملة، وقصدوهم وليس معهم أحد راجل. وداخلهم الطمع فيهم لقلة
عدتهم، فانهزموا

بين أيديهم وهم يقاتلون ويقتلوا، حتى أتوا الكمين فثارت عند وصولهم
الأبطال، وصاحوا

صيحة الرجل الواحد، وهجموا عليهم هجمة الأسود على فرائسها، فثبتوا
وصبروا وقاتلوا

قتالاً شديداً، ثم ولوا منهزمين، فتمكن أولياء الله منهم وأوقعوا فيهم ضرباً
بالسيف، حتى أفنوا منهم جمعاً عظيماً واستسلم الباقيون للأسر فأسروهم،
وأخذوا خيلهم

وعددهم. وجاء البشير إلى العسكر الإسلامي فارتفعت الأصوات بالتهليل،
وركب السلطان

يتلقى المجاهدين، وسار وكنت في خدمته، حتى أتى تل كيسان فلقينا أوائل
القوم. فوقف

هناك يتلقى العائدين من المجاهدين والناس يتبركون بهم ويشكرونهم على
حسن صنيعهم، وهو

يعتبر الأسرى ويتصفح أحوالهم. وكان ممن أسر مقدم عسكر الإفرنسييس فإنه
كان قد أنفذ

نجدة قبل وصوله وأسر خازن الملك أيضاً. وعاد السلطان بعد تكامل الجماعة
إلى مخيمه

فرحاً مسروراً، وأحضر الأسرى عنده وأمر منادياً ينادي من أسر أسيراً فليحضر
الناس

أسراهم وكنت حاضراً ذلك المجلس. ولقد أكرم المقدمين منهم وخلع عليهم
وعلى مقدم

عسكر الإفرنسيس فروة خاصة وأمر لكل واحد من الباقيين بفروة جرخية، فإن
البرد كان

شديداً وكان قد أخذ منهم وأحضر لهم طعاماً فأكلوه وأمر لهم بخيمة تضرب
قريباً من

خيمته وكان يكارمهم في كل وقت ويحضر المقدم على الخوان في بعض
الأوقات وأمن

بتنفيذهم وحملهم إلى دمشق، حملوا مكرمين وأذن لهم في أن يراسلوا
صاحبهم وأن يحضر لهم

من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ففعلوا ذلك وساروا إلى
دمشق.

رقة

قلب السلطان وإنسانيته

... فإنه وصل في أثنايه خمسة

وأربعون نفرأ من الإفرنج كانوا قد أخذوا في بيروت وسيروا إلى السلطان
ووصلوا في

[255]

ذلك اليوم إلى ذلك المكان .

ولقد شاهدت منه رقة قلب لم ير أعظم منها. وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير
طاعن في السن

لم يبق في فمه ضررس ولم تبق له قوة إلا مقدار تحرك لا غير، فقال للترجمان
قل له "ما

الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن وكم من ههنا إلى بلادك " فقال
"بلادي"

بيني وبينها عدة أشهر. وأما مجيئي فإنما كان للحج إلى القمامة"، فرق له

السلطان ومنّ عليه وأطلقه وأعادته راكباً على فرس إلى عسكر العدو. ولقد طلب أولاده

الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير، فلم يفعل. فسأله عن سبب المنع وكنت حاجبهم بما

طلبوه فقال "لئلا يعتادوا من الصغر على سفك الدماء ويهون عليهم ذلك وهم الآن لا

يفرقون بين المسلم والكافر". فانظر إلى رحمة هذا الملك وتحرجه
[256]
وتحرزه ...

نساء

[257]

لذة ونساء حرب بين الافرنج

(عماد الدين، 228-230) وصلت في مركب ثلثمائة امرأة

فرنجية مستحسنه، متحلية بشبابها وحسنها متزينة. وقد اجتمعن من الجزائر،
وانتدبن الجرائر، واغتربن لإسعاف الغرباء، وتأهبن لإسعاد الأشقياء، وترافدن
على

الإرفاق والإرفاد وتلهبن على السيفاح والسيفاد. من كل زانية نازيه، زاهية
هازية،

عاطية متعاطيه، خاطية خاطيه، متغنية متغنجيه، متبرزة متبرّجه، نارية متلهبه،
متنقشة متخصّبه، تائقة شائقه، فائقة رائقه، راتقة فاتقه، رافعة خارقه، مارقة
رامقه، قاسرة سارقه، فارجة فاجره، فاتنة فاتره، مشتهاة متشهيه، مُلهاة
متلهيه،

متفئنة متفئيه، ناشية منتشيه، متشوقة متسوّقه، مقترحة محترقه، متحبّبة
متعشيقه،

حمراء مرحاء، نجلاء كحلاء، عجزاء هيفاء، غنّاء لفاء، زرقاء ورقاء، متخرّقة
خرقاء. تسحب غفارتها، وتسخر بنضارتها، وتتثنّى كأثها حصن، وتميس كأثها
قضيّب، وتزيّف وعلى لبتّها صليب، وهي بائعة شيكرها بشكرها، باغية كسرّها
في
شكرها. فوصلن وقد سبّلن أنفسهنّ، وقدّمن للتبدّل أصونهنّ وأنفسهنّ، وذكرن
أثهنّ
قصدن بخروجهنّ، تسبيل فروعهن، وأثهنّ لا يمتنعن من الغرّبان، ورأين أثهنّ لا
يتقربن بأفضل من هذا القُربان، وتفرّدن بما ضربنه من الخيم والقباب.
وانضمت
إليهنّ أترابهنّ من الحسان الشّوابّ، وفتحن أبواب القلادّ، وسبّلن ما بين
الأفخاذ، وبُحن بالإباحه، ورُحن إلى الراحه، وأزحن علّة السماحه، ونقّقن سوق
الفسوق، ولقّقن رتوق الفتوق، وتفجّرن بيّنابيع الفجور، وتحجّرن بنزو الفحول
منهنّ على الحُجور، وعَرَضن الإمتاع بالمتاع، ودعون الوقاح إلى الوقاع، وركّبن
الصدور على الأعجاز، وسمحن بالسيّلة لذوى الإعواز، ودُمن على تقرب
خلاّلهنّ
من الأقراط، ورُمن فرشهنّ على يساط النشاط، وتهدّفن للسهام، وتحلّلن
للحرام،
وتعرّضن للطعان، وتضرّعن للأخدان، ومددن الرواق، وحلّلن حين عَقْدن
النطاق،
وصرن مَضارِبَ للأوتاد، استدعين الثُّصول منهنّ إلى الأغماد، وسوّين أراضيهنّ
للغراس، واستنهضن الجِراب إلى التّراس، واستنفرن المحارِث إلى الحرث،
ومكّن

المناكير من البحث، وأذنّ للرؤوس في دخول الدهاليز، وجرين تحت راكبيهنّ
على ضرب

المهاميز، وقزّين الأشطان من الركايا، وفوّقن النبال في أعجاس الحنايا،
وقطعن

التكّث، وطبعن السيّك، وضممن الأطيّار في أوكار الأوراك، وجمعن قرون
كباش

النطاح في الشّباك، ورفعن الحجّر عن المصون، وترقّعن عن ستر المكنون.
ولقّفن

الساق بالساق، وشفين غليل العشّاق، وكثّرن الضّباب في الوجار، وأطلعن
الأشّار

على الأسرار. وطرّقن الأقلام إلى الأدويه، والسيول إلى الأوديه، والجداول إلى

الغُدران، والمناصل إلى الأجفان، والسبائك إلى البّواتيق، والزنانير إلى
المناطق،

والأحطاب إلى التنانير، وذوي الأجرام إلى المطامير، والصيارفَ إلى الدنانير،

والاعناق إلى البطون، والأقذاء إلى العيون. وتشاجرن على الأشجار،
وتساقطن على

الثمار. وزعن أن هذه قرّبة ما فوقها قرّبه، لا سيّما فيمن اجتمعت عنده عُربة

[258]

وعُرْبه. وسقّين الخمر، وطلّبن بعين الوزر الأجر .

وتسامع أهل عسكرنا بهذه القصيّه، وعجبوا كيف تعبّدوا بترك النخوة والحميّة.
وأبقى

من الممالك الأغبياء، والمداير الجهلاء، جماعة جدّ بهم الهوى، واتبعوا من
غوى.

فمنهم من رضي للذّة بالذلّة، ومنهم من ندم على الرّلة فتحيل في الثقله، فإن

يد من لا يَزِيدُ لا تمتدّ، وأمر الهارب إليهم لإتهامه يشتدّ، وباب الهوى عليه
يستدّ. وما عند الفرنج على العزباء إذا أمكنك منها الأعزّب حرج، وما أزكاها
عند القُسّس إذا كان للعُزبان المُضيقين من قَرْجها قَرْج.

ووصلت أيضا في البحر إمراة كبيرة
القدر، وافرة الوُفر، وهي في بلدها مالكة الأمر. وفي جملتها خمسمائة فارس
بخيولهم
وأتباعهم، وغلمانهم وأشياهم. وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونه،
زائدة

بما تنفقه فيهم على المعونه، وهم يركبون بركّباتها، ويحملون بحمّلاتها،
ويشربون لوّثباتها، وتثبت ثباتها لثباتها.
وفي الفرنج نساء فوارس، لهنّ دروع
وقوائس، وكُنّ في زيّ الرجال، ويبرزن في حومة القتال، ويعملن عملَ أرباب
الحِجا وهنّ ربّات الحِجال.

وكل هذا يعتقده عباده، ويحلّون
أنهنّ يعقّدن به سعادته، ويجعلنه لهنّ عادة، فسبحان الذي أضلّهنّ، وعن نهج
النّهى أزلّهنّ. وفي يوم الواقعة قلعت منهنّ نسوه، لهنّ بالقُرسان أسوه،
وفيهنّ

مع لينهنّ قسوه، وليست لهنّ سوى السوايح كسوه. فما عُرفن حتى سلبن

[259]

وعُرينّ .

ومنهنّ عدّة أسثيين وإشثيين. وأمّا العجائز، فقد إمتلأت بهنّ المراكز، وهنّ
يشدّدن تارة ويُرّخين، ويحرّضن ويثخّين. ويقلن إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء،

وأنه لا بقاء له إلاّ بالفناء، وإن قبر معبودهم تحت استيلاء الأعداء. فإنظر إلى
الإتفاق في الضلال بين الرجال منهم والنساء. فهنّ للغيرة على المِلّة مَلِلنّ
الغيره، وللنّجاة من الحيرة ناجين الحيره، ولعدم الجَلَد عن طلب الثأر تجلّدن،
ولما ضامهنّ من الأمر تبلّهن وتبلّدن.

انتهت حملة فرديريك بارباروسا في مياه الأنهار الأرمنية وأوبئة شمال سورية، لكن حملة أخرى أشد نجاحاً تبعتها بقيادة ملكي فرنسا وانكلترا. ورغم كل الجهود التي بذلها صلاح الدين من أجل توحيد القوى الإسلامية في مجابهة الحملة الصليبية (ونسوق هنا نقلاً عن أبي شامة دعوته المؤثرة للجهاد) فإن عكا مالبت أن سقطت في تموز/لولة سنة 1191 بعد أن انهارت تلك القوى وانتشر الجوع. يصف بهاء الدين وصفاً حياً أحزان الاستسلام وساعاته العصيبة خاصة تلك التي وسمت النهاية الدموية غير المشرفة التي فرضها قلب الأسد حينما نفذ بقلب بارد مجزرة الأسرى المسلمين.

المركز كونراد والحملة الثانية

(بهاء الدين، 181)

... المركيس صاحب صور، وكان من أعظمهم حيلة وأشدّهم بأساً، وهو الأصل في تهيج الجموع من وراء البحر. وذلك أنه صوّر القدس في ورقة، وصوّر فيه صورة القمامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها وفيه قبة قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعمهم^[260] ، وذلك القبر هو أصل حجهم، وهو

الذي يعتقدون نزول النور عليه في كل سنة في كل عيد من أعيادهم^[261] ، وصوّر على القبر فرساً عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح وبال الفرس على القبر وأبدى هذه الصورة وراء البحر في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح وينادون بالويل والثبور، وللصور عمل في قلوبهم، فإنها أصل دينهم، فهاج بذلك خلق لا يحصي عددهم إلا الله، وكان من جملتهم ملك الألمان وجنوده.

ذِكْرُ وُضُولِ مَلِكِ الْأَلْمَانِ (فِيدْرِيك بَارْبَارُوسَا)
إِلَى الشَّامِ وَمَوْتِهِ

(ابن الأثير، 32-12/30)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ (586/1190) خَرَجَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ مِنْ بِلَادِهِ، وَهُمْ تَوَعُّ مِنْ الْفَرَنْجِ، مِنْ أَكْثَرِهِمْ عَدَدًا، وَأَشَدَّهُمْ بَأْسًا، وَكَانَ قَدْ أَرَعَجَهُ مُلْكُ الْإِسْلَامِ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ فَجَمَعَ عَسَاكِرَهُ، وَأَزَاحَ عَلَيْهِمْ، وَسَارَ عَنْ بِلَادِهِ وَطَرِيقِهِ عَلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ، فَأَرْسَلَ مَلِكُ الرُّومِ بِهَا إِلَى صَلاَحِ الدِّينِ يُعَرِّفُهُ الْخَبَرَ، وَيَعُدُّ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُهُ مِنَ الْعُبُورِ فِي بِلَادِهِ. فَلَمَّا وَصَلَ مَلِكُ الْأَلْمَانِ إِلَى الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ عَجَزَ مَلِكُهَا عَنْ مَنَعِهِ مِنَ الْعُبُورِ لِكَثْرَةِ جُمُوعِهِ، لَكِنَّهُ مَنَعَ عَنْهُمْ الْمِيرَةَ، وَلَمْ يُمْكِنْ

أَحَدًا مِنْ رَعِيَّتِهِ مِنْ حَمَلٍ مَا يُرِيدُونَهُ إِلَيْهِمْ، فَصَاقَتْ بِهِمُ الْأَرْوَاحُ وَالْأَقْوَاتُ،
وَسَارُوا حَتَّى عَبَرُوا خَلِيجَ الْفُسْطَاطِيَّةِ، وَصَارُوا عَلَى أَرْضِ بِلَادِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ

[262]

مَمْلَكَةُ الْمَلِكِ قَلِجِ أَرْسَلَانَ بْنِ مَسْعُودِ بْنِ بَيْلِيمَانَ بْنِ قَتْلَمِشَ بْنِ سَلْجُوقٍ .
فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى أَوَائِلِهَا نَارَ بِهِمُ التُّرُكُمَانُ الْأَوْجُ، فَمَا زَالُوا يُسَايِرُونَهُمْ وَيَقْتُلُونَ
مِنْ أَنْفَرَدَ وَيَسْرِفُونَ مَا قَدَرُوا عَلَيْهِ، وَكَانَ الزَّمَانُ شِتَاءً وَالْبَرْدُ يَكُونُ فِي تِلْكَ
الْبِلَادِ شَدِيدًا وَالتَّلُجُّ مُتَرَاكِمًا، فَأَهْلَكَهُمْ الْبَرْدُ وَالْجُوعُ وَالتُّرُكُمَانُ فَقَلَّ عَدَدُهُمْ .
فَلَمَّا قَارَبُوا مَدِينَةَ قُونِيَّةَ خَرَجَ إِلَيْهِمُ الْمَلِكُ قُطْبُ الدِّينِ مَلِكُشَاهُ بْنُ قَلِجِ أَرْسَلَانَ
لِيَمْنَعَهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِمْ قُوَّةٌ، فَعَادَ إِلَى قُونِيَّةَ وَبِهَا أَبُوهُ قَدْ حَجَرَ وَلَدُهُ الْمَذْكُورُ
عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَ أَوْلَادُهُ فِي بِلَادِهِ، وَتَغَلَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى تَاجِيَةِ مِنْهَا . فَلَمَّا عَادَ
عَنْهُمْ قُطْبُ الدِّينِ أَسْرَعُوا السَّيْرَ فِي أَثَرِهِ فَتَنَزَّلُوا قُونِيَّةَ، وَأَرْسَلُوا إِلَى قَلِجِ
أَرْسَلَانَ هَدِيَّةً وَقَالُوا لَهُ: مَا قَصَدْنَا بِلَادَكَ وَلَا أَرْضَاتِهَا، وَإِنَّمَا قَصَدْنَا الْبَيْتَ
الْمُقَدَّسَ، وَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَأْذَنَ لِرَعِيَّتِهِ فِي إِخْرَاجِ مَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ مِنْ قُوتٍ
وغيرِهِ، فَأَذِنَ فِي ذَلِكَ، فَأَتَاهُمْ مَا يُرِيدُونَ، فَسَبَّغُوا، وَتَرَوُّدُوا، وَسَارُوا . ثُمَّ طَلَبُوا
مِنْ قُطْبِ الدِّينِ أَنْ يَأْمُرَ رَعِيَّتَهُ بِالْكَفِّ عَنْهُمْ، وَأَنْ يُسَلِّمَ إِلَيْهِمْ جَمَاعَةً مِنْ
أَمْرَائِهِ رَهَائِنَ، وَكَانَ يَخَافُهُمْ، فَسَلِّمَ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا وَعِشْرِينَ أَمِيرًا كَانَ يَكْرَهُهُمْ،
فَسَارُوا بِهِمْ مَعَهُمْ وَلَمْ يَمْتَنِعِ اللَّصُوصُ وَغَيْرُهُمْ مِنْ قَصْدِهِمْ وَالتَّعَرُّضِ إِلَيْهِمْ
فَقَبَضَ مَلِكُ الْأَلَمَانِ عَلَى مَنْ مَعَهُ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَقَبَضَهُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَلَكَ فِي
أَسْرِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدَى نَفْسَهُ . وَسَارَ مَلِكُ الْأَلَمَانِ حَتَّى أَتَى بِلَادَ الْأَرْمَنِ،
وَصَاحِبُهَا لَافُوقُ بْنُ اضْطِيقَانَةَ بْنِ لِيُونِ، فَأَمَدَّهُمْ بِالْأَقْوَاتِ وَالْعُلُوقَاتِ، وَحَكَمَهُمْ
فِي بِلَادِهِ، وَأَظْهَرَ الطَّاعَةَ لَهُمْ، ثُمَّ سَارُوا نَحْوَ أُنْطَاكِيَّةَ، وَكَانَ فِي طَرِيقِهِمْ نَهْرٌ
فَنَزَلُوا عِنْدَهُ، وَدَخَلَ مَلِكُهُمْ إِلَيْهِ لِيَتَغَسَّلَ فَعَرِقَ فِي مَكَانٍ مِنْهُ لَا يَبْلُغُ الْمَاءُ
وَسَطَ الرَّجُلِ وَكَفَى اللَّهُ شَرَّهُ .

[263]

وَكَانَ مَعَهُ وَلَدٌ لَهُ ، فَصَارَ مَلِكًا بَعْدَهُ، وَسَارَ إِلَى أُنْطَاكِيَّةَ، فَاخْتَلَفَ
أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ، فَأَحَبَّ بَعْضُهُمُ الْعُودَ إِلَى بِلَادِهِ، فَتَخَلَّفَ عَنْهُ، وَبَعْضُهُمْ مَالَ إِلَى
تَمْلِيكِ أَخِي لَهُ، فَعَادَ أَيْضًا، وَسَارَ فِيمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ لَهُ، فَعَرَضَهُمْ وَكَانُوا نَبِيًّا
وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا، وَوَقَعَ فِيهِمُ الْوَبَاءُ وَالْمَوْتُ، فَوَصَلُوا إِلَى أُنْطَاكِيَّةَ وَكَانَتْهُمْ قَدْ نَبَشُوا
مِنَ الْقُبُورِ . فَتَبَرَّمَ بِهِمْ صَاحِبُهَا، وَحَسَنَ لَهُمُ الْمَسِيرَ إِلَى الْفِرْنَجِ الَّذِينَ عَلَى عَكَا،
فَسَارُوا عَلَى جَبَلَةٍ وَلَاذِقِيَّةَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْبِلَادِ الَّتِي مَلَكَهَا الْمُسْلِمُونَ، وَخَرَجَ
أَهْلُ حَلَبَ وَغَيْرِهَا إِلَيْهِمْ، وَأَخَذُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا، وَمَاتَ أَكْثَرُ هَمَّانٍ أَحَدًا، فَبَلَّغُوا
طَرَابُلُسَ، وَأَقَامُوا بِهَا أَيَّامًا فَكَثُرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا نَحْوَ أَلْفِ رَجُلٍ،
فَرَكَبُوا فِي الْبَحْرِ إِلَى الْفِرْنَجِ الَّذِينَ عَلَى عَكَا، وَلَمَّا وَصَلُوا وَرَأَوْا مَا تَأْلَهُمْ فِي
طَرِيقِهِمْ وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْإِخْتِلَافِ عَادُوا إِلَى بِلَادِهِمْ فَعَرِقَتْ بِهِمُ الْمَرَائِبُ وَلَمْ
يَبْقَ مِنْهُمْ أَحَدٌ .

وَكَانَ الْمَلِكُ قَلَجَ ارسلان يُكَاتِبُ صَلَاحَ الدِّينِ بِأَخْبَارِهِمْ، وَيَعِدُّهُ أَنَّهُ يَمْنَعُهُمْ
مِنَ الْعُبُورِ فِي بِلَادِهِ فَلَمَّا عَبَرُوهَا وَخَلَفُوهَا أَرْسَلَ يَعْتَذِرُ بِالْعَجْرِ عَنْهُمْ، لِأَنَّ أَوْلَادَهُ
حَكَمُوا عَلَيْهِ، وَحَجَرُوا عَلَيْهِ وَتَقَرَّرُوا عَنْهُ، وَحَرَجُوا عَنْ طَاعَتِهِ. وَأَمَّا صَلَاحُ الدِّينِ
عِنْدَ وُضُولِ الْخَبَرِ بِعُبُورِ مَلِكِ الْأَلَمَانِ، فَإِنَّهُ اسْتَشَارَ أَصْحَابَهُ، فَأَشَارَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ
عَلَيْهِ بِالْمَسِيرِ إِلَى طَرِيقِهِمْ وَمُحَارَبَتِهِمْ قَبْلَ أَنْ يَتَّصِلُوا بِمَنْ عَلَى عَكَا. فَقَالَ:
"بَلْ نُقِيمُ إِلَى أَنْ يَقْرَبُوا مِنَّا، وَحِينَئِذٍ نَفْعَلُ ذَلِكَ لِنَلَّا يَسْتَسْلِمَ مَنْ يَعْكَ مِنْ
عَسَاكِرِنَا" لَكِنَّهُ سَبَّرَ بَعْضَ مَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ مِنْهَا عَسْكَرَ حَلَبَ وَجَبَلَةَ
وَلَاذِقِيَّةَ وَشَيْرَزَ وَغَيْرَ ذَلِكَ، إِلَى أَعْمَالِ حَلَبَ لِيَكُونُوا فِي أَطْرَافِ الْبِلَادِ
يَحْفَظُونَهَا مِنْ غَارِبَتِهِمْ. وَكَانَ خَالُ الْمُسْلِمِينَ. كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا
جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنَّ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا

[264]

شَدِيدًا] فَكَفَى اللَّهَ يَسِّرَهُمْ وَرَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْرِهِمْ.
وَمِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ أَنَّ بَعْضَ أَمْرَاءِ صَلَاحِ الدِّينِ كَانَ لَهُ يَتْلِدِ الْمَوْصِلَ قَرْبَةً
وَكَانَ أَخِي، رَحِمَهُ اللَّهُ يَتَوَلَّاهَا، فَحَصَلَ دَخْلُهَا مِنْ جَنْطَلَةٍ وَشَعِيرٍ وَتَبْنٍ، فَأَرْسَلَ
إِلَيْهِ فِي بَيْعِ الْعَلَّةِ، فَوَصَلَ كِتَابُهُ يَقُولُ: "لَا تَبِيعُ الْحَبَّةَ الْقَرْدَ، وَأَسْتَكْبِرُ لَنَا مِنَ
التَّبْنِ" ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ وَصَلَ كِتَابُهُ يَقُولُ: "تَبِيعُ الطَّعَامَ فَمَا يَبِيعُ حَاجَةً إِلَيْهِ"، ثُمَّ: إِنَّ
ذَلِكَ الْأَمِيرَ قَدِمَ الْمَوْصِلَ، فَسَأَلَنَاهُ عَنِ الْمَنْعِ مِنْ بَيْعِ الْعَلَّةِ، ثُمَّ الْإِذْنَ فِيهَا بَعْدَ
مُدَّةٍ بِسِيرَةٍ، فَقَالَ: لَمَّا وَصَلَتِ الْأَخْبَارُ بِوُضُولِ مَلِكِ الْأَلَمَانِ أَيْقَنَّا أَنَّنَا لَيْسَ لَنَا
بِالشَّامِ مَقَامٌ.
فَكَتَبْتُ بِالْمَنْعِ مِنْ بَيْعِ الْعَلَّةِ لِيَكُونَ دَخِيرَةً لَنَا إِذَا جِئْنَا إِلَيْكُمْ، وَلَمَّا أَهْلَكَهُمُ
اللَّهُ تَعَالَى، وَأَعْنَى عَنْهَا كَتَبْتُ بِبَيْعِهَا وَالِاتِّفَاعِ بِمَنْحِهَا.

وصول ملك فرنسا وملك انكلترا ذكر وصول العساكر الإسلامية والملك افرنسيس

(بهاء الدين، 212-214، 220)

ومن ذلك الوقت (ربيع 1190) انفتح البحر وطاب الزمان وجاء أوان عود
العساكر إلى الجهاد من الطائفتين. فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن
جندر، من أمراء الملك الظاهر، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً له وقائع ذا رأي
حسن، والسلطان يحترمه ويكرمه وله قدم صحبة. ثم قدم بعده مجد الدين بن
عز الدين فخرشاه وهو صاحب بعلبك. وتتابع بعد ذلك العساكر الإسلامية من
كل صوب. وأما عسكر العدو فإنهم كانوا يتواعدون اليك ومن يقاربهم بقدم

[265]

الملك الفرنسيس وكان معظماً عندهم مقدماً محترماً من كبار ملوكهم،
تنقاد إليه العساكر بأسرها، بحيث إذا حضر حكم على الجميع ولم يزالوا
يتواعدون بقدمه حتى قدم في ست بطس تحمله وميرته وما يحتاج إليه من

الخيـل وخواص أصحابه. وكان قدومه يوم السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة. (587/20 نيسان/أبريل 1191).

نادرة وبشارة

وكان قد صحبه من بلاده باز عظيم هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس ما رأيت بازياً أحسن منه، وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً. فشذ الباز من يده وطار وهو يستجيئه ولا يجيئه حتى سقط على سور عكا، فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان. وقد كان لقدمه روعة عظيمة واستبشار عظيم بالظفر به. فتفائل المسلمون بذلك وبذل الإفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا. وقدم بعد ذلك كندفرند^[266] وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً، فذكروا أنه حاصر حماة وحارم في عام الرملة.

ذكر ملك الأنكتار

.. وهذا ملك الأنكتار^[267] شديد البأس بينهم عظيم الشجاعة قوي الهمة، له وقعت عظيمة وله جسارة على الحرب، وهو دون الفرنسيين عندهم في الملك والمنزلة، لكنه أكثر مالاً منه وأشهر في الحرب والشجاعة. وكان من خبره أنه وصل إلى جزيرة قبرص ولم ير أن يتجاوزها إلا وأن تكون له وفي حكمه، فنازلها وقتلها فخرج إليه صاحبها، وجمع له خلقاً عظيماً وقتلهم قتالاً شديداً. فأنفذ الأنكتار إلى عكا يستنجد إليه الملك جفري أخاه ومعه مائة وستون فارساً ليعينوه على مقصوده وبقيت الإفرنج على عكا ينتظرون ما يكون من الطائفتين.

ذكر وصول الأنكتار

ولما كان يوم السبت ثالث عشر الشهر (8 حزيران/يونية 1191) قدم ملك الأنكتار بعد مصالحته لصاحب جزيرة قبرص والاستيلاء عليها، وكان قدومه روعة عظيمة. ووصل في خمس وعشرين شانية مملوءة بالرجال والسلاح والعدد. وأظهر الإفرنج سروراً عظيماً حتى أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة كبيرة، وكان ملوكهم يتواعدوننا به، فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنهم أنهم متوقفون فيما يريدون فيما يفعلوه من مضايقة البلد حتى قدومه فإنه ذو رأي في الحرب، مجرب. وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة، هذا والسلطان يتلقى ذلك كله بالصبر والاحتساب والتوكل وإخلاص النية لله تعالى في جهادهم.

نداء صلاح الدين لقتال الصليبيين

"والمرجو من الله سبحانه وتعالى تحريك همم المؤمنين في تسكين
 تأثيرهم وتخريب عامرهم، وما دام البحر يمدّهم والبر لا يصدّهم، فبلاء البلاد بهم
 دائم ومرض القلوب بأدوائهم ملازم. فأين حمية المسلمين، ونخوة أهل الدين،
 وغيره أهل اليقين؟ وما ينقضى عجبنا من تظافر المشركين، ووقوع
 المسلمين، فلا ملبي منهم لمناد، ولا مثقف لمناد، فانظروا إلى الفرنج أي
 مورد وردوا، وأي حشد حشدوا، وأي ضالة نشدوا، وأية نجدة أنجدوا، وأية
 أموال غرموها وأنفقوها، وجِدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها؟ ولم
 يبق ملك في بلادهم وجزائرهم، ولا عظيم ولا كبير من عظمائهم وأكابرهم، إلا
 جرى جاره في مضمار الإنجاد، وبارى نظيره في الجدّ والاجتهاد. واستقلوا في
 صوت ملتهم بذل المهج والأرواح، وأمدّوا أجناسهم الأجناس بأنواع السلاح مع
 أكفاء الكفاح. وما فعلوا ما فعلوا ولا بذلوا ما بذلوا إلا لمجرد الحمية لمتعبدهم،
 والنخوة لمعتقدهم، وليس أحد من الفرنجية يستشعر أن الساحل (السوري)
 إذا ملك، ورفع فيه حجاب عزهم وهتك، يخرج بلد عن يده، وتمتدّ يد إلى بلده.
 والمسلمون بخلاف ذلك قد وهنوا وفشلوا، وغفلوا وكسلوا، ولزموا الحيرة،
 وعدموا الغيرة، ولو انثنى، والعياذ بالله للإسلام عنان، أو خبا سنا ونبا سنان،
 لما وجد في شرق البلاد وغربها، وبعد الآفاق وقربها، من لدين الله يغار ومن
 لنصرة الحق على الباطل يختار، وهذا أوان رفض التواني، واستدناء أولي
 الحمية من الأفاصي والأداني، على أنا بحمد الله لنصره راجعون، وله بإخلاص
 السرّ سرّ الإخلاص مناجون، والمشركون بإذن الله هالكون، والمؤمنون آمنون
 ناجون."

قوة الزحف واستسلام عكا

(بهاء الدين، 229-239)

ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمناجيق المتواصلة والضرب وتنقلوا
 أحجارها حتى خلخلوا سور البلد وأضعفوا بنيانه، وأنهك التعب والسهل أهل
 البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي لا ينامون
 أصلاً لا ليلاً ولا نهاراً، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على قتالهم وهم
 نفر يسير قد تقسموا على الأسوار والخنادق والمنجنيقات والسفن والشواني.
 ولما أحس العدو بذلك وظهر لهم تخلخل السور وتقلقل بنيانه شرعوا في
 الزحف من كل جانب وانقسموا أقساماً وتناوبوا فرقاً، كلما تعب قسم استراح
 وقام غيره مقامه وشرعوا في ذلك شروعاً عظيماً، براجلهم وفارسهم سابع
 الشهر (جمادى الآخر/12 تموز/يولية 1191)، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة
 على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً. ولما علم السلطان بذلك بإخبار
 من يشاهده وإظهار العلامة التي بيننا وبينهم وهي دق الكؤوس، ركب وركب

العسكر إليهم وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين، وهو كالوالدة الثكلي، يجول بفرسه من طلب إلى طلب، ويحث الناس على الجهاد. ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين والسلطان يطوف بين الأطلاب بنفسه وينادي "يا للإسلام"، وعيناه تذرفان بالدموع. وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على ساكنيها من المصاب العظيم، اشتد في الزحف والحث على القتال، ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة وإنما شرب أقداح مشروب كان يشير بها الطبيب. وتأخرت عن حضور هذا الزحف لإلمام مرض شوش مزاجي لما عراني فكننت في الخيمة في تل العياضية وأنا أشاهد الجميع، ولما هجم الليل عاد رحمه الله إلى الخيم بعد العشاء الآخرة، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن فنام لا عن غفو. ولما كان

[268]

سحر تلك الليلة أمر الكؤوس أن دقت وركب العساكر من كل جانب وأصبحوا على ما أمسوا عليه.

وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة عن البلد يقولون فيها "أنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم، ونحن في الغد ثامن الشهر إن لم تعملوا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا"، وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكى في قلوبهم، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية، واحتوت على كبار من أمراء العسكر وشجعان الإسلام كسيف الدين المشطوب وبهاء الدين قراقوش وغيرهما وكان قراقوش ملتزماً بحراستها منذ نزل العدو عليها. وأصاب السلطان ما لم يصبه شيء مثله وخيف على مزاجه التشويش، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه في جميع ذلك صابراً محتسباً ملازماً مجتهداً،

[269]

[والله لا يضيع أجر المحسنين] . فرأى الدخول على القوم ومهاجمتهم. فصاح في العسكر الصائح وركبت الأبطال فاجتمع الراجل والفارس واشتد الزحف. ولم يساعده العسكر في ذلك اليوم على الهجوم على العدو فإن

[270]

رجالته وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبوركان والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب، ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد إفرنجي صعد سور خندقهم واستدبر المسلمين وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور الخندق وقال إنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة فاحرقه. ولقد حكى لي شيخ عاقل جندي أنه كان من جملة من دخل خنادقهم في ذلك اليوم، قال "وكان داخل سورهم امرأة عظيمة عليها ملوطة خضراء فما زالت ترمينا بقوس من خشب حتى خرجت منا جماعة وتكاثرنا عليها وقتلناها وأخذنا قوسها وحملناها إلى

السلطان فعجب من ذلك عجباً عظيماً"، ولم يزل الحرب يعمل بين الطائفتين بالقتل والجرح حتى فصل بينهم الليل.

انهيار عكا ودخولها في مفاوضات مع الإفرنج ذكر ما آل إليه أمر البلد من الضعف ووقوع المراسلة بين أهل البلد والإفرنج

ولما اشتد زحفهم على البلد وتكاثروا عليها من كل جانب، وتناوب ضعف أهل البلد لما رأوه من عين الهلاك واستشعروا العجز عن الدفع، وتمكن العدو من الخنادق فملكوها، وتمكنوا من سور الباشورة فنقبوه وأشعلوا فيه النار، بعد حشو النقب. ووقعت بدنة من الباشورة ودخل العدو الباشورة وقتل منهم فيها مائة وخمسون نفرًا وصاعداً، وكان فيهم ستة من كبارهم فقال لهم واحد "لا تقتلونني حتى أرحل الفرنج عنكم بالكلية"، فبادر رجل من الأكراد فقتله وقتل الخمسة الأخرى. وفي الغد نادى الإفرنج "احفظوا الستة فإننا نطلقكم كلكم بهم" فقالوا "قد قتلناهم" فحزن الإفرنج لذلك حزناً عظيماً وطلبوا الزحف بعد ذلك أياماً ثلاثة.

وبلغنا أن سيف الدين المشطوب خرج بنفسه إلى ملك الفرنسيين بالأمان وقال له "قد أخذنا منكم بلاداً عدة، وكنا نهجم البلد وندخل فيه، ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمئهم وإكرامهم. ونحن نسلم البلد، وتعطينا الأمان على أنفسنا". فأجابه بأن "هؤلاء الذين أخذتموهم منا وأنتم أيضاً مماليكى وعبيدي، فأرى فيكم رأيي". وبلغنا أن المشطوب بعد ذلك أغلظ له في القول وقال أقاويل كثيرة في ذلك المقام منها "أنا لا نسلم البلد حتى نقتل بأجمعنا ولا يقتل منا واحد حتى يقتل خمسون نفساً من كباركم"، وانصرف عنه. ولما دخل المشطوب البلد بهذا الخبر خاف جماعة ممن كانوا

في البلد، فأخذوا بركوساً^[271] وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامي. وذلك في التاسع من جمادى الآخرة. وكان منهم من المعروفين عز الدين أرسل وابن الجاولي وسنقر الوشاقى، فأما أرسل وسنقر فإنهما لما وصلا إلى العسكر تغيبا، ولم يعلم لهما مكان خشية من نقمة السلطان. وأما ابن الجاولي فظفر به ورمي في الزردخانة (السجن).

وفي سحر تلك الليلة ركب السلطان بنية كبس القوم ومعه المساحي وآلات طم الخنادق، فما ساعده العسكر على ذلك وتخاذلوا عن ذلك وقالوا له

"نخاطر بالإسلام كله ولا مصلحة في ذلك". وفي ذلك اليوم خرج من الأنكتار رسل ثلاثة طلبوا فاكهة وثلجاً وذكروا أن مقدم الأسبتار يخرج في الغد يتحدث في معنى الصلح. غير أن السلطان أكرمهم ودخلوا سوق العسكر وتفرجوا فيه، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم. وفي ذلك اليوم تقدم السلطان

إلى صارم الدين قايمار النجمي، أن يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم، وسار معه جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه وهو أخو المشطوب، وزحفوا حتى وصلوا أسوار الإفرنج. ونصب قايمار بنفسه علمه على سورهم وقاتل عن العلم قطعة من النهار. ووصل في ذلك اليوم عز الدين جرديك النوري، وسوق الزحف قائم، فترجل هو وجماعته وقاتل قتالاً شديداً. وفي يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة (5 تموز/لولية) أصبح القوم ساكتين عن الزحف، والعساكر الإسلامية محدقة بهم، وقد باتوا ليلتهم شاكي السلاح راكبي ظهور خيلهم منتظرين، عسى أن تمكنهم مساعدة إخوانهم المقيمين بعكا، ويهجموا على طرف من الإفرنج فيكسروهم، ويخرجوا يحمي بعضهم بعضاً، ويجاوبهم العسكر البراني فيسلم من يسلم ويؤخذ من يؤخذ، فلم يقدرُوا على الخروج وكان قد ثبت ذلك معهم، فلم يتهياً لهم في تلك الليلة خروج بسبب أنه كان هرب منهم بعض الغلمان، فأخبر العدو بذلك فاحتاطوا عليهم وحرسوهم حراسة عظيمة. ولما كان يوم الجمعة العاشر خرج منهم رسل ثلاثة واجتمعوا بالملك العادل وتحادثوا معه ساعة زمانية، وعادوا ولم ينفصل الحال وانقضى النهار على مقام المسلمين بالمرج في مقابلة العدو وباتوا على مثل ذلك. ولما كان السبت الحادي عشر لبست الفرنج بأسرها لباس الحرب، وتحركوا حركة عظيمة، بحيث أنهم اعتقدوا ضرب مصاتي مع المسلمين، واصطفوا وخرج من الباب الذي تحته القبة زهاء أربعين نفساً، واستدعوا جماعة من المماليك، وطلبوا منهم العدل الزيداني وذكرُوا أنه صاحب صيدا طليق السلطان. فحضر العدل وجرى مبادلة أحاديث في معنى إطلاق العسكر الذي بعكا، واشتطوا في ذلك اشتطاطاً عظيماً وتصرم نهار السبت ولم ينفصل حال.

ذكر كتب وصلت من البلد

ولما كان يوم الأحد ثاني عشر وصلت (من المدينة) كتب يقولون فيها "إنا قد تبايعنا على الموت ولا نزال نقاتل حتى نقتل ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء فانظروا أنتم كيف تعملون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا فهذه عزائمنا وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو وتلينوا لهم فإننا نحن قد فات أمرنا"، وذكر العوَّام الواصل بهذه الكتب أنه لما وقع بالليل الصوت ظن الإفرنج أن عسكراً عظيماً عبر إلى عكا وسلم وسار فيها قال "وجاء إنسان إفرنجي فوقف تحت السور وصاح إلى بعض من على السور وقال له "بحق دينك إلا ما أخبرتني كم عدد العسكر الذي دخل إليكم البارحة" يعني ليلة السبت وكان قد وقع بالليل صوت وانزعج الطائفتان ولم يكن له حقيقة" ^[273] فقال له "ألف فارس" فقال "لا لكنه دون ذلك، أنا رأيتهم لابسين ثياباً خضراً". ^[274]

ثم تتابعت العساكر الإسلامية واندفع كيد العدو عن القوم في تلك الايام، بعد أن كان قد أشرف البلد على الأخذ، واشتد ضعف البلد وكثرت ثغور سوره، وجاهد المقيمون فيه وبنوا عوض الثلم سوراً من داخلها، حتى إذا تم بناؤه اقتتلوا عليه. وقدم في يوم الثلاثاء رابع عشر الشهر المذكور، سابق الدين، صاحب شيزر، وفي يوم الاربعاء خامس عشر، وصل بدر الدين دلدريم ومعه تركمان كثير، كان السلطان قد انفذ اليه ذهباً انفق فيهم. وفي يوم الخميس سادس عشر الشهر المذكور، وصل اسد الدين شيركوه، واشتد ثبات الفرنج على انهم لا يصلحون ولا يعطون الذين في البلد أماناً حتى يطلق جميع الأسارى الذين في أيدي المسلمين وتعاد البلاد الساحلية إليهم، وبذل لهم تسليم البلد وما فيه دون من فيه، فلم يفعلوا، وبذل لهم أيضاً مع ذلك صليب الصلבות فلم يفعلوا، واشتد عتوهم واستفحل أمرهم وضائق الحيل عنهم

[275]

[ومكروا والله خير الماكرين] .

ذكر مصالحة أهل البلد ومصانعتهم على نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوام من الثغر ونطقت الكتب عنهم أن أهل البلد ضاق بهم الأمر وكبرت الثغر وعجزوا عن الحفظ والدفع ورأوا عين الهلاك وتيقنوا أنه متى أخذت البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحهم على أن يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار وألف وخمسمائة فارس أسير مجاهيل الأحوال ومائة فارس معينين من جانبهم يختارون وصليب الصلבות ويخرجون بأنفسهم سالمين وما معهم من الأقمشة المختصة بهم وذرايرهم ونساؤهم وضمنوا للمركيس عشرة آلاف دينار أنه كان واسطة ولأصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك.

ذكر استيلاء العدو على عكا

ولما وقف السلطان على كتبهم وعلى مضمونها أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر. وجمع أرباب المشورة وشاورهم فيما يصنع. واضطرب الأمراء وتقسم فكره وتشوش، وعزم على أن يكتب في الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه. وهو في مثل هذه الحال، فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد، وذلك في ظهر نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة (12 تموز/يوليه 1191). وصاح الإفرنج صيحة واحدة وعظمت المصيبة على المسلمين واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء من الناس في تلاوة [إنا لله وإنا إليه راجعون]. وغشي الناس بغتة عظيمة وحيرة

شديدة ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب، ودخل المركيس البلد ومعه أعلام الملوك فنصب علماً على القلعة وعلماً على مأذنة الجامع في يوم الجمعة وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الإسلام وحيزوا المسلمون إلى بعض أطراف البلد.

ومثلت في خدمة السلطان وهو في حال الوالدة الثكلى، والمولاهة الحراء فسليته بما تيسر لي من التسلية وأذكرته في الفكر فيما يستقبله في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف وكيفية الحال في ذلك وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد وذلك في ليلة السبت الثامن عشر منه، وانفصل الحال على أن رأى التأخير عن تلك المنازلة مصلحة، فإنه لم يبق في المضايقة معنى. فتقدم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفرعم وأقام هو جريدة في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو، وحال أهل البلد، وأقام هو راضياً راجياً من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم بالخروج إليه والهجوم عليه، فينال منهم غرضاً ويلقي نفسه عليهم، ويعطي الله النصر لمن شاء. فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد والتمكن منه، فأقام إلى بكرة التاسع عشر من الشهر وانتقل إلى التل.

ذكر قتل المسلمين الذين كانوا بعكا رحمهم الله

(بهاء الدين، 242-243)

ولما رأى الأنكتار الملعون توقف السلطان ببذل المال والأسرى والصليب، غدر بأسرى المسلمين وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمينين علي نفوسهم على كل حال، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر أطلقهم بأموالهم ونسائهم، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق وأخذهم أسرى. فغدرهم الملعون وأظهر ما كان أبطن، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسرى، على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد. وركب هو وجميع العسكر الإفرنجية راجلهم وفارسهم والتراكيل في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب (20 آب/أغسطس) وساروا حتى أتوا الآبار التي تحت تل العياضية، وقدموا خيامهم إليها وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وبين العياضية. ثم أحضروا من أسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك اليوم، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف في الحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم ضرباً وطعناً بالسيف. واليزك الإسلامي يشاهدون ولا يعلمون ماذا يصنعون لبعدهم عنهم. وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان وأعلموه بركوب القوم ووقوفهم فأنفذ إلى اليزك من قواه، وبعد أن فرغوا منهم حمل المسلمون عليهم وجرت بينهم حرب قتل فيها وجرح من الجانبين ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الفريقين. وأصبح المسلمون يكشفون الحال، فوجدوا الشهداء في مصارعهم، وعرفوا من عرفوه منهم، فغشي

المسلمين من ذلك حزن عظيم وكآبة شديدة، ولم يبقوا إلا رجلاً معروفاً
مقدماً أو قوي يد لعماثرهم، وذكر لقتلهم أسباب منها أنهم قتلوهم في مقابلة
من قتل منهم وقيل إن الأنكتار كان قد عزم على السير إلى عسقلان للاستيلاء
عليها، فما رأى أن يخلف تلك العدة في البلد وراءه، والله أعلم.

استمرت مفاوضات السلام لأكثر من عام، ويجب أن تسمى هدنة بحسب المفاهيم الإسلامية عن الحرب المقدسة. وقد تشابكت في اللعبة الدبلوماسية الطويلة والمعقدة خطط زواج رومانتية رسمها ريتشارد انكلترا الذي تبادل أيضاً بعض مجاملات الفروسية مع صلاح الدين (وأكثرها كان مع أخيه الملك العادل)، وتوسّطت تلك اللعبة أيضاً أعمال حربية (عسقلان، يافا، أرسوف) حيث قابل قسوة الإفرنج على أسرى المسلمين في عكا خشونة الأعمال الانتقامية التي نفّذها صلاح الدين. في النهاية أتعبت الحرب الجميع فانتهاوا إلى اتفاق في أيلول/سبتمبر 1192 شرّع من الناحية العملية الوضع الراهن لكلا الطرفين: لايتلاءم هذا الاتفاق بالطبع مع الانتصارات الأولية الكبرى التي حقّقها المسلمون عام 1187، لذلك فقد قبل صلاح الدين بها على مضض تحت ضغط جيشه المنهك المتمزق. أما الهدف الذي كان معلناً من قبل والداعي إلى القاء الفرنجة في البحر فقد تأخر تحقيقه قرناً آخر من الزمان. أما مصادرها عن سير المفاوضات فقد استقيناها من بهاء الدين وعماد الدين.

مشاورات الصلح وعقده ذكر رسول الملك العادل إلى الأنكثار

(بهاء الدين، 274-275، 277-278، 283-284، 287-291، 294-295، 346-348)
ولما كان السادس والعشرون (رمضان 587/17 تشرين أول/أكتوبر 1191)

[276] كان اليّزك للعادل فطلب الأنكثار رسوله، فأنفذ الصنيعة وهو كاتبه. وكان شاباً حسناً، فوصل إليه وهو في بازور قد خرج في جمع كثير من الرجال وانبثوا في تلك الأرض فاجتمع به وسار معه زمناً طويلاً وحادثه في معنى الصلح، وقال "لا أرجع عن كلام أتحدث به من أخي وصديقي"، يعني العادل، وذكر له كلاماً وعاد وأخبره به، فكتبه الملك العادل في رقعة وأنفذها إلى السلطان وكان يتضمن أنك تسلم عليه وتقول له "إن المسلمين والإفرنج قد هلكوا وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس متعبداً ما ننزل عنه ولو لم يبق منا إلا واحداً. وأما البلاد فيعاد إلينا ما هو قاطع الأردن. وأما الصليب فهو خشبة عندكم لا مقدار له، وهو عندنا عظيم، فيمنّ به السلطان علينا، ونصطليح ونستريح من هذا التعب". ولما وقف السلطان على هذه الرسالة استدعى أرباب المشورة في دولته واستشارهم في الجواب والذي رآه السلطان أن قال "القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنّه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا تصوّر أن ننزل عنه ولا نقدر على التفريط بذلك بين المسلمين،

وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل واستيلاؤكم عليها كان طارئاً عليها لضعف من كان فيها من المسلمين في ذلك الوقت، وما يقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائما، وما في أيدينا منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به.

وأما الصليب فملكه عندنا قرية عظيمة ^[277] لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها"، وسار هذا الجواب إليه مع الواصل من جهته...

ذكر رسالة سيّرني فيها الملك العادل إلى السلطان مع جماعة من الأمراء

وذلك أنه لما كان التاسع والعشرون من رمضان (20 تشرين أول/أكتوبر) استدعاني الملك العادل في صحبته، واحضر جماعة من الأمراء علم الدين سليمان وسابق الدين وعز الدين بن المقدم وحسام الدين بشارة، وشرح لنا ما عاد به رسوله من الأنكتار من الرسالة والكلام، وذلك أنه ذكر أنه قد أراد أن

^[278] يتزوج الملك العادل بأخت الأنكتار وكان قد استصحبها معه من صقلية، لأنها كانت زوجة صاحبها وقد مات، فأخذها أخوها لما اجتاز بصقلية. فاستقرت القاعدة على أن يكون مستقر ملكها بالقدس، وأن أخاها يعطيها بلاد الساحل التي بيده من عكا إلى يافا وعسقلان إلى غير ذلك، ويجعلها ملكة الساحل، ويجعله ملك الساحل، ويكون ذلك مضافاً إلى ما في يده من البلاد والإقطاع، وأنه يسلم إليه صليب الصليوت، وتكون القرى للداوية والأسبتار والحصون لهما، وأسرانا تفك وكذلك أسراهم، وأن الصلح يستقر على هذه القاعدة، ويرحل الأنكتار طالباً بلاده في البحر وينفصل الأمر،

هكذا ذكر رسول العادل عن الأنكتار. ولما عرف ذلك العادل بنى عليه أن استحضرنّا عنده وحملنا هذه الرسالة إلى السلطان، وجعلني المتكلم فيها ولجماعة يسمعون، ونعرض عليه هذا الحديث. فإن استصوبه ورآه مصلحة للمسلمين شهدنا عليه بالإذن في ذلك والرضا به، وإن أباه شهدنا عليه أن الحال في الصلح قد انتهى إلى هذه الغاية، وأنه هو الذي رأى إبطاله، فلما مثلنا بالخدمة السلطانية، عرضت عليه الحديث وتلونا عليه الرسالة بمحضر من الجماعة المذكورين، فبادر إلى الرضا بهذه القاعدة، معتقداً أن الأنكتار لا يوافق على ذلك أصلاً، فإن هذه منه مكر وهزل. فكررت عليه الرضا بذلك ثلاث مرات، وهو يقول نعم ويفرح ويشهد على نفسه به. فلما تحققنا منه ذلك عدنا إلى الملك العادل فعزّفناه بما قال، وعزّفه الجماعة أني كررت عليه الحديث في تقييد الشهادة عليه، وأنه أصرّ على الإذن في ذلك واستقرّت القاعدة عليه...

ذكر وصول صاحب صيدا رسولاً من جانب المراكيس

... ولما كان ثالث عشر شوال (3 تشرين ثاني/نوفمبر) وصل من أخبر
بوصول صاحب صيدا من جانب الماركيس صاحب صور، وكان قد جرى بيننا
وبينه أحاديث متردة حاصلها أنهم ينقطعون عن الإفرنج ونصرتهم ويصيرون
معنا عليهم، بناء على فتنة كانت جرت للماركيس مع الملوك بسبب امرأة

[279]

تزوجها كانت زوجة لأخي الملك جفري وقبح نكاحها بأمر اقتضاه دينهم،
فاضطربت آراؤهم فيه فخاف الماركيس على نفسه، فأخذ زوجته وهرب تحت
الليل إلى صور، وأخذ إلى السلطان والاعتضاد به، وكان في ذلك مصلحة
للمسلمين لانقطاع الماركيس عن الإفرنج فإنه كان أشدهم بأساً. وأعظمهم
للحرب مراساً. وأثبتهم في التدبير أساساً. وحين اتصل خبر وصول هذا
الرسول بالسلطان أمر بإجلاله واحترامه فضربت خيمة وضرب حولها شقة
ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظمتهم وملوكهم وأمر بإنزاله في
الثقل يستريح، ثم اجتمع به.

لما كان تاسع عشر شوال (9 تشرين ثاني/نوفمبر) جلس السلطان
واستحضر صاحب صيدا لسماع رسالته وكلامه، فحضر وحضر معه جماعة
وصلوا معه. وكنت حاضر المجلس فأكرمه إكراماً عظيماً، وحادثهم وقدم بين
أيديهم أطعمة وافرة، ولما فرغ الطعام خلا بهم، وكان حديثهم في أن يصلح
السلطان الماركيز صاحب صور، وكان قد انضم إليه جماعة من أكابر الإفرنجية،
منهم صاحب صيدا وغيره من المعروفين، وقد سبقت قصته، وكان من شرط
الصلح معه عداوة الإفرنج البحرية، وكان سبب ذلك شدة خوفه منهم وواقعة
وقعت له معهم بسبب الزوجة، وبذل لهم السلطان الموافقة على شروط
قصد بها الإيقاع بينهم، وأن يغل بعضهم بعضاً. فلما سمع السلطان حديثه وعد
أن يرد عليه الجواب فيما بعد، وانصرف عنه إلى الخيمة التي ضربت له.

لما كان عشية ذلك اليوم، وصل رسول الأنكتار، وهو ابن الهنفرى، وهو من
أكابر الإفرنجية وملوكهم، ووصل في صحبتته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة
وعشرون سنة فأحضره السلطان عنده وسمع كلامه. وكانت رسالته أن الملك
يقول "إنني أحب صداقتك ومودتك وأنت ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد
الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه ولا بد أن يكون لنا علة
بالقدس، ومقصودي أن نقسم بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، ولا علي
لوم من الإفرنجية. فأجابه في الحال بوعد جميل ثم أذن له في العود في
الحال وتأثر بذلك تأثراً عظيماً وأنفذ وراءهم من سألهم عن حديث الأسارى

[280]

وكان منفصلاً عن حديث الصلح. فقال: "إن كان صلح فعلى الجميع وإن لم
يكن صلح فلا يكون من حديث الأسارى شيء"، وكان غرضه رحمه الله أن
ينسخ قاعدة الصلح، فإنه التفت إلي في آخر المجلس بعد انفصالهم وقال
"متى ما صالحناهم لا تؤمن غائلتهم فإنني لو حدث لي حادث الموت ما تكاد

تجتمع هذه العساكر وتقوى الإفرنج فالمصلحة أن لا نزال على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت". هذا كان رأيه قدس الله روحه، وإنما غلب على الصلح.

ذكر مشورة ضربها في التخيير بين الصلح بين الأنكتار والمركيس

[281]

ولما كان حادي عشر شوال (11 تشرين ثاني/نوفمبر) جمع السلطان الأمراء والأكابر وأرباب المشورة وذكر لهم القاعدة التي التمسها المركيس واستقر الأمر من جانبه عليها، وهي أخذ صيدا وأن يكون معنا على الإفرنج ويقاثلهم ويجاهرهم بالعدوان، وذكر ما التمسه الملك من تقرير قاعدة الصلح، وهي أن تكون لنا من القرى الساحلية مواضع معينة وتكون لنا الجبلية بأسرها، أو تكون القرى كلها مناصفة، وعلى هذين القسمين يكون لهم قسوس في بيع القدس الشريف وكنائسه. وكان الأنكتار قد خیرنا بين هذين القسمين. فشرح قدس الله روحه الحال في القاعدتين للأمراء واستنبط آراءهم في ترجيح أحد الحالين، فرأى أرباب الرأي أنه إن كان صلح فليكن مع الملك، فإن مصافاة الإفرنج للمسلمين بحيث يخالطوهم بعيدة غير مأمونة الغائلة.

وانفض الناس وبقي الحديث متردداً في الصلح، والرسل تتواتر في تقرير قواعد الصلح. وأصل القاعدة أن الملك قد يبذل أخته للملك العادل بطريق التزويج، وأن تكون البلاد الساحلية الإسلامية والإفرنجية لهما، فأما الإفرنجية فلها من جانب أخيها والإسلامية له من جانب السلطان. وكان آخر الرسائل من الملك في المعنى أن قال: "إن معاشر دين النصرانية قد أنكروا علي وضع أختي تحت مسلم بدون مشاورة البابا، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه، وها أنا أسير رسولاً يعود في ستة أشهر، فإن أذن فيها ونعمت، وإلا زوجتك ابنة

[282]

أخي وما أحتاج إلى إذنه في ذلك. هذا كله وسوق الحرب قائم، والقتال عليهم ضربة لازم، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل في الأحيان ويشرف على الإفرنج، وهم كلما رأوه تحركوا لطلب الصلح خوفاً من أن ينضاف المركيس إلى المسلمين، وعند ذلك تنكسر شوكتهم ولم يزل الحال كذلك إلى الخامس والعشرين من شوال.

ذكر انفصال رسول المركيس

وكان قد وصل يوسف غلام صاحب صيدا رسولاً من جانب المركيس يلتمس الصلح مع المسلمين. فاشتراط -رحمة الله عليه - شروطاً منها: أن يقاتل جنسه وبيائتهم، ومنها أن ما يأخذه من البلاد الإفرنجية بعد الصلح بانفراده يكون له، وما نأخذه نحن بانفردنا يكون لنا، وما نتفق نحن وهو على

أخذه تكون له نفس البلد ويكون لنا ما فيه من أسرى المسلمين وغير ذلك من الأموال، ومنها أن يطلق لنا كل أسير مسلم في مملكته، ومنها أن فوض الأنكتار إليه أمر البلاد لأمر يجري بينهم، كان الصلح بيننا وبينه على ما استقر بيننا وبين الأنكتار ما عدا عسقلان وما بعدها فلا يدخل في الصلح، وتكون الساحليات له وما في أيدينا لنا وما في الوسط مناصفة، وسار رسوله على هذه القاعدة .^[283]

ذكر تمام الصلح

ولما وصل (شعبان 588/أوائل أيلول/سبتمبر 1192) العدل^[284] إلى هناك (يافا) أنزل خارج البلد في خيمة حتى أعلم الملك به، فلما علم به استحضره عنده مع بقية الجماعة، وعرض العدل عليه النسخة وهو مريض الجسم، فقال: "لا طاقة لي بالوقوف عليها، وأنا قد صالحت وهذه يدي". فاجتمعوا بالكندھري^[285] وابن بارزان والجماعة، وأوقفوهم على النسخة ورضوا ببلد والرملة مناصفة، وبجميع ما في النسخة، واستقرت القاعدة أنهم يحلفون بكرة يوم الأربعاء بأنهم كانوا قد أكلوا شيئاً وليس من عادتهم الحلف بعد الأكل وأنفذ العدل إلى السلطان من عرفه ذلك.

ولما كان يوم الأربعاء الثاني والعشرون من شعبان (2 أيلول/سبتمبر) حضر الجماعة عند الملك وأخذوا يده وعاهدوه، واعتذر أن الملوك لا يحلفون، وقنع السلطان بذلك ثم حلف الجماعة والمستحلف الكندھري ابن أخته المستحلف عنه في الساحل وباليان بن بارزان صاحب طبرية، ورضي الأسبتار والداوية وسائر مقدمي الإفرنجية بذلك وساروا بقية يومهم عائدين إلى المخيم السلطاني فوصلوا العشاء الآخرة وكان الواصلون من جانبهم ابن الهنغري وابن بارزان وجماعة من مقدميهم فاحترموا وأكرموا وضربت لهم خيمة تليق بهم، وحضر العدل وحكى ما جرى. ولما كانت صبيحة ثالث وعشرين شعبان حضر الرسول في خدمة السلطان وأخذ بيده الكريمة وعاهده على الصلح على القاعدة المستقرة، واقترحوا حلف الملك العادل والملك الأفضل والملك الظاهر وعلي بن أحمد المشطوب وبدر الدين دلدرد والملك المنصور ومن كان مجاوراً لبلادهم كابن المقدم وصاحب شيزر وغيرهم، فوعدهم السلطان أن يسير معهم رسلاً إلى الجماعة المجاورين ليحلفوهم لهم، وحلف لصاحب أنطاكية وطرابلس، وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين فإن لم يحلفوا له فلا يدخلوا في الصلح.

ثم أمر المنادي أن ينادي في الوطاعات والأسواق، أن الصلح قد انتظم في سائر بلادهم فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل، وأشاع -رحمة الله عليه- أن طريق الحج

قد فتح من الشام ووقع له عزم على الحج في ذلك المجلس، وكنت حاضراً [286]

ذلك جميعه، وأمر السلطان أن تسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير لإخراج الإفرنج منها ويكون معهم جماعة من الإفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية استبقائه عامراً. وكان يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفتين فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وقد عُلِمَ أن الصلح لم يكن من إثارة، فإنه قال لي في بعض محاوراته "أخاف أن [287]

أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاسترداد بقية بلادهم ونرى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلعته يعني حصنه وقال لا أنزل فيهلك المسلمون". هذا كلامه وكان كما قال. لكنه رأى المصلحة في الصلح لسأمة العسكر ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنه اتفقت وفائه بعيد الصلح، فلو كان اتفق ذلك في أثناء وقعاته لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له.

(عماد الدين، 434-436)

لما عرف ملك الإنكثير أن العسكر قد اجتمع، والخزق عليه قد اتسع، وأن القدس قد امتنع، وأن العذاب به وقع. خضع وخشع، وقصّر الطمع، وعلم أنه لا قبل له بمن أقبل، ولا ثبات مع الجحفل وقد حفل. فأظهر أنه إن لم يُهادن أقام واستقتل، وللشتر استقبل، وأنه عازم على العودة إلى بلاده، لأمر مَرَدُّها يعود إلى مُراد، "والبحر قد آن أن يَمنع راکبه، ويُسيَّم بالأمواج غواربه، فإن هادنتم وطاوعتم، تبعث هواي، وإن حاربتم وعصيتم ألقيت ههنا عصاي واستقرت [288]

تواي. وقد كَلَّ الفريقان، وملَّ الرفيقان ، وقد نزلت عن القدس وأنزل عن عسقلان. ولا تغتروا بهذه العساكر المجتمعة من الجهات، فإن جمعها في الشتاء إلى الشتات. ونحن إذا أقمنا على الشقاق والشقاء، رمينا أنفسنا على البلاء. فأجيبوا رغبتني، وأصيبوا محبتي، وأودعوني العهد ودعوني، ووادعوني وودعوني."

فأحضر السلطان أمراءه المشاورين وشاورهم في الأمر، وأظهرهم على السر، واستطلع ما عندهم من الرأي، وسرد لهم الحديث من المبادئ إلى الغاي. وقال لهم: "نحن بحمد الله في قوّه، وفي ترقب نصره مرجّوه، [289]

فأنصارنا المهاجرون إلينا ذوو دين وكرم ومروءه، وقد أَلفنا الجهاد، وألفينا به المراد، والفطام عن المألوف صعب، وما تصدّع إلى اليوم بتأييد الله لنا شغب، وما لنا شغل ولا مَغزئ إلا العزو، وما نحن ممّن يشوقه اللعب ويشوقه اللهو، وإذا تركنا هذا العمل فما العمل؟ وإذا صرفنا عنهم الأمل ففيم الأمل؟

وأخشى أن يأتيني في حالة بطالتي. الأجل، ومن ألف الجليّة كيف يألّفه العطل. ورأيي أن أخلف رأي الهدنة ورأيي، وأقدّم بتقديم الجهاد اعتزازي، وإليه اعتزائي، وما أنا بطالب البطلاله، فأرغب عن استحالة هذه الحالة. وقد رزقت من هذا الشيء فأنا ألزمه، ولي بتأييد الله من الأمر أجزمه وأحزمه.

[290]

فقالوا له: "الأمر على ما تذكره، والتدبير ما تراه والرأي ما تدبره"، ولا يستمرّ إلا ما يُمَرّ من الأمر ولا يستقرّ إلا ما تقرّره، وإن التوفيق معك في كل ما تعقده وتحله وتورده وتصدره. غير أنك نظرت في حقّ نفسك من عادة السعادة، وإرادة العبادة، واقتناء الفضيلة الراجحة، والاعتناء بالوسيلة الناجحة، والأنف من العطله، والعزوف للغزله، وأنت تجد من نفسك القوة والاستمساك، وبقينك يعزّفك بالأمانيّ الإدراك. فانظر إلى أحوال البلاد فإنها خربت وتشعّنت، والرعايا فإنها تعكّبت وتعلّثت، والأجناد فإنها بصّبت ووَصّبت، والجياد فإنها عطّلت وعطّيت، وقد أعوّزت الغلوفات، وعزّت الأقوات، وبعدت عتّا العمارات، وغلت الغلات. ولا جلب إلا من الديار المصريّة، مع ركوب الأخطار المهلكة في البرّيّة. وهذا الإجتماع مَطِيّة التفريق، ولا يدوم هذا الاتّساع مع هذا الضيق، فإن الموادّ منقطعه، والجوّاد ممتنعه، والمُترب قد تّرب، والمُعديم قد عطّيب، واليتيم أعزّ من اليتيم، والشعير ليته وُجد وإن كان غالي السعر. وهؤلاء الفرنج إذا يتّسوا من الهدنه، بذلوا وُسْعهم في استفراغ المُكنة واستنفاد المُنه، وصبروا على المنّيّه. والصواب إن نقبل من الله الآيّة التي

[291]

أنزلها، وهي قوله [وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْتَنِعْ لَهَا] . وحينئذ تعود إلى البلاد سكّانها وُعْمّارها، وتكثر في مدّة الهدنة غلاتها وأثمارها، وتستجدّ الأجناد عُدّتها، وتستريح زمان السلم ومدّتها، فإذا عادت أيام الحرب عُدنا، وقد استظهرنا وزدنا، ووجدنا القوت والعلف، وعدمنا المَشاقّ والكلف. ففي أيّام السلم نستعدّ للحرب، ونستجدّ أدوات الطعن والضرب، وليس ذلك تركا للعبادة، وإنّما هو للاستجداء والاستجداد والاستجداء. على أنّ الفرنج لا يقفون، وعلى عهدهم لا يقفون، فأعقِد الهدنة لجماعتهم لينحلّوا ويتفرّقوا، وقد شَقُّوا بما لَقُّوا وما يقيم لهم بالساحل من يقدر على المقاومة، ويستقلّ بالملازمه.

وما زال الجماعة بالسلطان حتى رَضِي، وأجاب إلى ما اقْتَضِي، وكانت قد بقيت بين العسكرين منزلة واحدة، والعجاجات على الطلائع متعاقده. فلو رحلنا رَحْلناهم، وعلى الهلك أخلّناهم. لكن مراد الله غلب، وأجيب ملك الإنكثير من الصلح إلى ما طلب. فحضرث لإنشاء عقد الهدنة وكتبث نسختها، وعيّنث مدّتها وبَيّنت قضيتّها، وذلك في يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ثمان وثمانين الموافق لأوّل أيلول/سبتمبر (1192) لمدّة ثلاث سنين وثمانية أشهر. وحسبوا أن وقت الانقضاء يوافق وصولهم من البحر، وتُصل إمدادهم على الحشد والحشر. وعُقِدث هدنة عامّة في البر والبحر، والسهل والوعر

والبَدُو والحَضَر، وجُعل لهم من يافا إلى قَيْساريَّة إلى عكاّ إلى صور. وأبدّوا بما تركوه من البلاد التي كانت معهم الغبطة والسُرور. وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية، والأعمال الدانية والنائية.

لم يعيش مركزيز مونفيرات^[292] الشجاع

حتى يتمكن من رؤية ذلك السلام، ولا من تقلد التاج الملكي المأمول. هناك بعض

الاختلاف داخل المصادر الاسلامية حول طبيعة اليد التي سلحت
الحشاشين^[293] الذين

طعنوه في صور خلال نيسان/ابريل

1192: فبينما أشار كل من

بهاء الدين وعماد الدين بصراحة إلى ريتشارد انكلترا (بعد أن تدخل المركزيز
كونراد

في مفاوضات السلام التي كان هذا يجريها، وتقدم بخطة تستند إلى خطة
كونت طرابلس

التي أجراها مع صلاح الدين قبيل حطين ليضمن مصالحه الخاصة)، نرى أن ابن
الأثير

يستخدم إشاعةً تحكي عن مبادرة قام بها صلاح الدين بالذات ليغتال ريتشارد
وكونراد

معاً: ولانرى أن هذا كان ممكناً (راجع في هذا الصدد الإشارة المقنعة التي
قدمها

عماد الدين عن عدم جدوى موت المركزيز بالنسبة للمسلمين). غير أن هناك
صدى غريباً

لذلك الحدث يثير الفضول ويؤيد فرضية مسؤولية صلاح الدين نجده في رواية متأخرة

تشوهت كل التشوه وتحدث عن إغتيال ملك إفرنجي قرب عكا أمر به حارس الجبل^[294] أتباعه

ليُسعد صديقه السلطان. جاء هذا النص الغريب الذي نوره بعد روايتي عماد الدين

وابن الأثير من مصادر اسماعيلية سرديّة-دعائية تقدم سيرة المعلم الكبير لطائفة

الحشاشين أي رشيد الدين سنان: لكن واقع الأمر أن الحشاشين كانوا هم من حاول أكثر

من مرة اغتيال صلاح الدين لأن تشدده في سُنيّته يتعارض مع يدع مذهبهم.

هلاک

المركيس (كونراد) بصور

(عماد الدين، 420-422)

أضافه الأسقف بصور يوم الثلاثاء

ثالث عشر ربيع الآخر (588/28 نيسان/ابريل

1192) فاستوفى رزقه

لموافاة أجله، ووصل إلى الباب قاطعُ أمله، وقد دعي إلى جهنّمه، ومالكٌ على انتظار

مقدمه، والجحيم في ترقبه، والدرك الأسفل من النار في تلّهبه، والسعير في تسعّره،

ولطّى في تلطيّها لتنظره. وقد قرب أن تكون الهاوية له حاويه، والحاميّة عليه

حاميه، والزّبانية في إيقاع العذاب به لمنزل الرّجز بانيه. وقد فتحت النار له

أبوابها السبعة، وهي جائعة إلى إتهامه وهو مُلْتَهٍ بالأكل يستوفي الشُّبعه. فأكل
وتغذَّى، وما درى أنه يتردَّى، وأكل وشرب، وشييع وطرب. وخرج وركب، فوثب
عليه رجلان،

بل ذئبان أُمْعَطَان، وسكَّنا حركته بالسكاكين، ودكَّاه عند تلك الدكاكين. وهرب
أحدهما

ودخل الكنيسة، وقد أخرج النفسَ الخسيسه. وقال المركيس وهو مجروح،
وفيه بقيَّة روح،

احملوني إلى الكنيسة، فحملوه، ووطنوا أُنْهم حاطوه لمَّا نقلوه. فلمَّا أبصره أحد
الجارحَيْن، وثب إليه للحَيْن، وزاده جُرْحًا على جُرْح، وقَرَحًا على قَرَح. فأخذ

الفرنج الرفيقين، فألفوهما من الفدائيَّة الإسماعيلية ^[295] مرتدَّين.

فسألوهما مَن وَضَعَكما على تدبير هذا التدمير؟ فقالا: "ملك الانكتير".

وذكر عنهما أنهما تنصَّرا منذ سِتَّة أشهر، ودخلا في ترهَّب وتطهَّر، ولزما البيع،
والتزما الورع، وخدم أحدهما ابن بارزان والآخِرُ صاحبَ صيداء لقربهما من
المركيس،

واستحكما بملازمتهما أسباب التأسيس. ثم عَلِقَا بركابه، وفتكا به، فقتلا شرَّ
قِتْلَةٍ، وجُهل عليهما أشدَّ جهله، فيا لله من كافرَيْن سفكا دم كافر، وفاجرَيْن
فتكا

بفاجر.

فلمَّا ظلَّ المركيس مُرْكَّسًا، وفي

جهنَّم منكبًا منكبًا...، تحكَّم ملك الانكتير في صور، وولَّاه الكند هِرِّي ^[296]
وعَدَّق

به الأمور، ودخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته ،
 وادّعى أنه أحقّ بزوجته، وكانت حاملاً فما مَنع الحملُ من نكاحها، وذلك أفضَحَ
 من
 سيفاحها، فقلت لبعض رسلهم: "إلى من يُنسَب الولد؟"، فقال: "يكون
 ولد الملكة"، فانظر إلى استباحة هذه الطائفة المشركه.
 ولم يعجبنا قتل المركيس في هذه
 الحالة، وإن كان من طواغيت الضلالة، لأنّه كان عدوّ ملك الإنكتير، ومُنازعه
 على
 الملك والسرير، ومنافسه في القليل والكثير، وهو يرسلنا حتى نساعدّه عليه،
 وتَنزِع
 ما أخذه من يديه. وكلّما سمع ملك الانكتير أن رسول المركيس عند السلطان،
 مال إلى
 المراسلة بالاستكانة والاذعان، وأعاد الحديث في قرار الصلح، وطُمع في ليل
 ضلاله
 بإسفار الصبح. فلمّا قُتل المركيس سكن رُوعه ورُوعه، وذهب صُوره وصُوعه،
 وطاب
 قلبه، وآب لُبّه، واستوى أمره، واستشّر شَرّه. وكان قد تعصّب لمضادّة
 المركيس للملك
 العتيق (غويدو)، فأظهر له ودّ الشفيق الشقيق، وولاه جزيرة قُبُرس وأعمالها،
 وسدّد بسداده اختلالها. فلمّا هلك المركيس عرف أنه قد أخطأ في تقويته،
 وخشي أنه
 لا يسلم من عاديته، ولا يأمن من غائلته. فلمّا عدم عدوّه، وجد هدوّه، وآب
 سكوته،

وثاب جنونه، وغاض غيظَه، وحضَّه حظَه، وفاض من منبع الشرك قَطَه. ومع هذا لم يقطع

محادثته، ولم يُحدث مقاطعته، ومَرَى رِسلَ مراسلته، ورمى سهم مخادعته ومخاتلته..

ولم ينزل عن ادّعاء صداقة الملك العادل وتصديق دعوته. وراسل في طلب المناصفة على البلاد

سوى القدس فإنه يبقى لنا بمدينة وقلعته، سوى كنيستهم المعروفة بقمامه، فإنهم

يعتقدونها لملتهم الدعامه، فأبى السلطان أن يقبل هذا القرار، وأبدى لهم الإنكار،

وساهم أن ينزلوا عن يافا وعسقلان، وبأخذوا على ما يبقى في أيديهم الأمان.

ابن الأثير (12/51)

فِي هَذِهِ السَّنَةِ، فِي ثَالِثِ

عَشْرِ رَجَبِ الْآخِرِ (588/28 نيسان/ابريل

1192)، قُتِلَ

الْمَرْكِسُ الْفَرَنْجِيُّ - لَعَنَهُ اللَّهُ - صَاحِبُ صُورَ، وَهُوَ أَكْبَرُ

شَيَاطِينِ الْفَرَنْجِ. وَكَانَ سَبَبُ قَتْلِهِ أَنَّ صَلَاحَ الدِّينِ رَاسَلَ

مُقَدَّمِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ [بِالشَّامِ] وَهُوَ سَيَّانُ ^[298]،

وَبَدَّلَ لَهُ أَنْ يُرْسِلَ مَنْ يَقْتُلُ مَلِكَ إِنْكِلَتَارَ، وَإِنْ قَتَلَ

الْمَرْكِسَ فَلَهُ عَشْرَةُ آلَافِ دِينَارٍ، فَلَمْ يُمَكِّنْهُمْ قَتْلُ مَلِكَ

إِنْكِلَتَارَ. وَلَمْ يَرَهُ سَيَّانُ مُصْلِحًا لَهُمْ، لِئَلَّا يَخْلُوَ وَجْهُ

صَلَاحِ الدِّينِ مِنَ الْفَرَنْجِ وَيَتَفَرَّغَ لَهُمْ، وَشَرِهَ فِي أَخْذِ

الْمَالِ فَعَدَلَ إِلَى قَتْلِ الْمَرْكِسِ، فَأَرْسَلَ، رَجُلَيْنِ فِي رِيِّ
الرُّهْبَانِ: وَاتَّصَلَ بِصَاحِبِ صَيْدَا، وَابْنِ بَارَزَانَ، صَاحِبِ
الرَّمْلَةِ، وَكَانَا مَعَ الْمَرْكِسِ بِضُورَ. فَأَقَامَا مَعَهُمَا سِنَةً
أَشْهُرٍ يُظْهِرَانِ الْعِبَادَةَ، فَأَنَسَ بِهِمَا الْمَرْكِسُ، وَوَثِقَ
بِهِمَا، فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ الثَّارِيخِ عَمِلَ الْأُسْفُفُ بِضُورَ دَعْوَةً
لِلْمَرْكِسِ فَحَصَرَهَا، وَأَكَلَ طَعَامَهُ وَشَرِبَ مُدَامَهُ، وَخَرَجَ مِنْ

عِنْدِهِ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ الْبَاطِنِيَّانِ ^[299] الْمَذْكُورَانِ،
فَجَرَحَاهُ جِرَاحًا وَثِيقَةً، وَهَرَبَ أَحَدُهُمَا وَدَخَلَ كَنِيسَةً
يَخْتَفِي فِيهَا، فَأَتَفَقَ أَنَّ الْمَرْكِسَ حُمِلَ إِلَيْهَا لِيُشَدَّ
جِرَاحُهُ، فَوَثَبَ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْبَاطِنِيُّ فَقَتَلَهُ، وَقُتِلَ
الْبَاطِنِيَّانِ بَعْدَهُ. وَتَسَبَّ الْفِرْنِجُ قَتْلَهُ إِلَى وَضْعٍ مِنْ
مَلِكِ إِنْكِلَتَارَ لِيَتَقَرَّدَ بِمُلْكِ السَّاحِلِ الشَّامِيِّ، فَلَمَّا
قُتِلَ وَلِيَّ بَعْدَهُ مَدِينَةُ ضُورَ كَنُذُ مِنَ الْفِرْنِجِ، مِنْ دَاخِلِ
الْبَحْرِ يُقَالُ لَهُ الْكَنْدُ هَرِي، وَتَزَوَّجَ بِالْمَلِكَةِ فِي
لَيْلَتِهِ، وَدَخَلَ بِهَا وَهِيَ حَامِلٌ، وَلَيْسَ الْحَمْلُ عِنْدَهُمْ مِمَّا
يَمْتَنِعُ النِّكَاحُ. وَهَذَا الْكَنْدُ هَرِي هُوَ ابْنُ أُخْتِ مَلِكِ
إِفْرَنْسِيَسَ مِنْ أَبِيهِ، وَابْنُ أُخْتِ مَلِكِ إِنْكِلَتَارَ مِنْ أُمِّهِ،
وَمَلَكَ كَنْدُ هَرِي هَذَا بِلَادَ الْفِرْنِجِ بِالسَّاحِلِ بَعْدَ عَوْدِ
مَلِكِ إِنْكِلَتَارَ، وَعَاشَ إِلَى سَنَةِ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ،

فَسَقَطَ مِنْ سَطْحِ فَمَاتَ، وَكَانَ عَاقِلًا، كَثِيرَ الْمُدَارَاةِ
وَالِاخْتِمَالِ. وَلَمَّا رَحَلَ مَلِكُ إِنْكِلَتَارَ إِلَى يَلَادِهِ أَرْسَلَ
كَنْذُ هَرِي هَذَا إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ يَسْتَعِطِفُهُ، وَيَسْتَمِيلُهُ،
وَيَطْلُبُ مِنْهُ خِلْعَةً، وَقَالَ: أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ لُبْسَ الْقِبَاءِ
وَالشُّرْبُوشِ عِنْدَنَا عَيْبٌ، وَأَنَا أَلْبِسُهُمَا مِنْكَ مَحَبَّةً لَكَ،
فَأَتَقَدَّ (صلاح الدين) إِلَيْهِ خِلْعَةً سُنِّيَّةً مِنْهَا الْقِبَاءُ

[300]

وَالشُّرْبُوشُ ،

فَلْيَسْتَهْمَا بَعْكَاءً.

(مناقب رشيد الدين، 463/12-466) وأخبرنا بعض الرفاق الأمناء

الفضلاء أن الملك صلاح الدين لما أخذ عكاً، خرج إليه من البحر ملك من ملوك
الافرنج

بجيش، فهجم عكّة وملكها وقتل من كان فيها من المسلمين. ونصب له دهليز
مقابل دهليز

صلاح الدين، وصار جيشه بأرآء جيشه. واشتد الحرب بينهما، وبقي صلاح الدين
في حيرة

[301]

من أمره، وكان المولى يومئذ في حصن الكهف ،

[302]

فقال: "منه السلام" صاحبنا

الملك صلاح الدين اليوم في ضيق"، ثم طلب رجلين من رجال الجهاد الذين
بين

يديه، قد علموهما يتحدثان بالافرنجي، فلما حضرا بين يديه، أمر لهما ببديلتين
من

ملبوس الافرنج وسيفين من سيوف الافرنج، ثم قال لهما: "اذهبا إلى عند الملك

صلاح الدين بكتابي هذا، وليكن مبيتكما هذى الليلة في المكان الفلاني " ثم عين

لهما المنازل ليلة بعد ليلة، قال: "ويكون وصولكما إلى عكا في اليوم الفلاني وقت العصر، فإن لم يكن وصولكما في هذا اليوم المعين والوقت الموقت كما قد قلنا، لن

تصلا إلى سوداكما ولن تبغا مقصودكما، فإذا وصلتما في ذلك الوقت إن شاء الله

وحضرتما عند الملك صلاح الدين، فسلما عليه من جهتي وبلغاه محبتي، وادفعا إليه

كتابي، فإذا قرأه وعرف ما فيه وفهم معناه، فقولوا له أنني قد أرسلتكما إلى عدوه، وهو

ملك الافرنج، لتقتلاه في تلك الليلة، ثم اخرجوا من عند الملك إذا غربت الشمس وأبعدا

من الجيش، ثم عرّدا إلى جيش الافرنج على شاطئ البحر، إلى أن تختلطا في الغبش ثم

أقصدا دهليز الملك ليلاً، فوجدتماه سكران نايماً على وجهه، وما عنده أحد، فاحتزّا

رأسه وخذا حياصته وسيفه، ومن قال لكما شيا فأجيباه بالافرنجي، فما ينكره أحد

عليكما، فإذا وصلتما إلى عند الملك صلاح الدين ووضعتما الرأس والحياصة والسيف بين

يديه، فإنه من ساعته يبادر إلى عسكر الافرنج فيكره ويمزقه في كل قطر، إن شاء الله

تعالى، ويقتل منهم خلقاً كثيراً ويصبح منتصراً مسروراً، فيولى بكما ويقول
لكما

تمنيا عليّ مهما شئتما، فلا تتمنيا ذهباً ولا فضة ولا غير ذلك، ولكن قولاً نحن
قوم

قد خرجنا عن أنفسنا في طاعة الله تعالى، وتركنا الدنيا وسببها وزهدنا فيها فلا
نتمنى شيئا منها سوى شيء واحد وهو أنا لما سافرنا من عند أهلنا لم يكن عند
صغارنا

دقيق، فيتصدق الملك على كل واحد منا "برحلة دقيق لا غير" فقالوا:

"سمعاً وطاعة". ثم خرجا من عند المولى راشد الدين منه السلام وتوجها إلى
عكة وحافظا على كل ما أمرهما به وعملا بجميع وصاياه. ووصلا إلى عكة في
الوقت الذي

عينه لهما بعينه، وحضرا عند الملك، ودفعا إليه كتاب المولى، وبلغا سلامه إليه،

فقالا له: "إن سيدنا قد أمرنا لنقتل ملك الافرنج في هذا اليوم، وعين لنا

الوقت الذي نقتله فيه، وقال أننا نجده في ذلك الوقت نائماً على وجهه وهو
سكران وما

عنده أحد أصلاً، قالوا: "وإن لم نرح إليه في ذلك الوقت بعينه لم نسع نقدر عليه

ولا نصل إليه". فلما سمع كلاهما وما أخبراه، سره ذلك سروراً عظيماً وأكرم

مثواهما، ولبثا عنده إلى أن أجنحت الشمس إلى الغروب، فعند ذلك لبسا لبس
الافرنج،

وتحدث كل واحد منهما مع صاحبه بالافرنجي، فأعجب الملك لبسهما وشكلهما
وحدثهما،

فتبسم ضاحكاً منهما، وقد سره عزمهما. وقد خرجا من عنده وبعدا من
الجيشين، وعادا

على شاطئ البحر إلى جيش الافرنج، فغاصا في لجته، وقد أرى الليل أذبال
دجنته، ولما

قربا إلى السلطان وحن الوقت المعين لهما والأوان، هجما على الملك
فوجداه نائماً

على وجهه، كما قال سيدهما، وهو سكران وما عنده أحد لا أنس ولا جان،
فاحتزاً رأسه

وحطّاه في مخلاة، وأخذ سيفه وحياسته وخرجا من جيش الافرنج مسرعين
إلى أن دخلا على

الملك صلاح الدين، فوضعا رأسه بين يديه وسيفه وحياسته، فقبل كل واحد
منهما بين

عينيه، ثم أمر الجيش بالركوب فركب وحمل على جيش الافرنج، فاهزمه
ومزقه وقتل أكثره،

وأصبح الملك صلاح الدين فرحاً محبوراً مويّداً منصوراً مستبشراً مسروراً.
فطلب

الفداوية، فلما حضرا قام قائماً لهما وعظم قدرهما، وقامت وزراؤه وجلساؤه
لقيامه

لهما، ثم خلع عليهما وأحسن إليهما وأجلسهما إلى جانبه، وقال لهما: "تمنيا
عليّ مهما شئتما، واطلبا أي شيء أردتما، فقد وجب عليّ حقكما"، فقالا: "أيّد
الله مولانا الملك بالملائك، وألقى عدوه في المهالك، إن الدنيا هي

العدم، وسيندم المغتر بها حيث لا ينفعه الندم، ونحن عنها من الحايدين، وفيها
من

الزاهدين، ولا نطلب شيا على التحقيق، سوى رحلتين من الدقيق، لكل واحد
منا رحلة

لأجل ما عنده من العايلة".

فرسم السلطان صلاح الدين عند ذلك

بأن يكتب للدعوة الهادية في كل معاملة من المعاملات القريبة إلى قلاع
الدعوة^[303] عشرة

ضيع، ويبني لبیت الدعوة الهادية في كل مدينة من المدن، دار دعوة في مصر
ودمشق وحمص

وحماة وحلب وغير هذا من المدن، وهي تعرف بالدعوة إلى زماننا هذا، وأنعم
على

الفداوية وسير للمولى راشد الدين هدية سنية.

يروى المخلص بهاء الدين وقائع مرض

صلاح الدين ووفاته بأدق تفاصيلها، وقد توفي السلطان بعد أن عقد الهدنة مع الإفرنج. من الملاحظ أن كل هذه المصادر الإسلامية تكاد تتميز بأنواع الحذقة والتكلف وضيق الافق، ومع هذا فإنه يمكن لنا أن نرى في هذه الرواية ادراكاً لاهمية

الشخصية الاستثنائية التي كرمها الشرق والغرب، وحباً شديداً لصاحبها وتعلقاً مخلصاً به. لقد ختم صلاح الدين حياته بالتقى، مؤمناً بروح ونصوص العقيدة التي سادت

كل وقائع حياته، هذا مما يعني تلاشي الصورة الرائعة التي تخيلها Lessing عنه كسلطان ليبرالي متنور.

مرض

صلاح الدين ووفاته
مرضه رحمة الله عليه

(بهاء الدين، 361-369)

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً

عظيماً، فما انتصف الليل حتى غشيته حمى صفراوية كانت في باطنه أكثر من ظاهره، وأصبح

في يوم السبت سادس عشر صفر سنة تسع وثمانين (589/21 شباط/فبراير

1193) متكاسلاً عليه أثر

الحمى، ولم يظهر ذلك للناس. لكن حضرت أنا والقاضي الفاضل، ودخل ولده الملك الأفضل،

وطال جلوسنا عنده وأخذ يشكو من قلقه في الليل، وطال به الحديث إلى قريب الظهر. ثم

انصرفنا والقلوب عنده فتقدم إلينا بالحضور على الطعام في خدمة الملك الأفضل، ولم

يكن القاضي عادته ذلك، فانصرف ودخلت أنا إلى الإيوان القبلي، وقد مد الطعام، والملك

الأفضل قد جلس في موضعه، فانصرفت وما كان لي قوة على الجلوس استيحاشاً، وبكى في

ذلك جماعة تفالا بجلوس ولده في موضعه.

ثم أخذ المرض في تزايد من حينئذ، ونحن

نلازم التردد طرفي النهار، وندخل إليه أنا والقاضي الفاضل في النهار مراراً، ويعطى

الطريق في بعض الأيام التي يجد فيها خفة، وكان مرضه في رأسه، وكان من أمارات

انتهاء العمر، غيبة طبيبه الذي كان قد عرف مزاجه سافراً وحضراً. ورأى الأطباء فصدّه

ففسدوه في الرابع، فاشتد مرضه وقلّت رطوبات بدنه، وكان يغلب عليه اليبس غلبة عظيمة.

ولم يزل المرض يتزايد حتى انتهى إلى غاية الضعف.

ولقد أجلسناه في سادس مرضه، وأسندنا

ظهره إلى مخدة، وأحضر ماءً فاتراً ليشرّب عقيب شرب دواء لتليين الطبيعة، فشربه

فوجده شديد الحرارة، فشكا من شدة حرارته. وعرض عليه ماء ثان فشكا من برده، ولم

يغضب ولم يصخب ولم يقل سوى هذه الكلمات: "سبحان الله، لا يمكن أحداً تعديل

الماء". فخرجت أنا والقاضي الفاضل من عنده وقد اشتد بنا البكاء والقاضي

الفاضل يقول لي: "أبصر هذه الأخلاق التي قد أشرف المسلمون على مفارقتها،

والله لو أن هذا بعض الناس لضرب بالقدح رأس من أحضره". واشتد مرضه في السادس

والسابع والثامن ولم يزل يتزايد ويغيب ذهنه. ولما كان التاسع حدثت عليه غشية

وامتنع من تناول المشروب. فاشتد الخوف في البلد، وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من

[304]
الأسواق ،

وغشي الناس من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته.

ولقد كنت أنا والقاضي الفاضل نقعد

في كل ليلة، إلى أن مضى من الليل ثلثه أو قريب منه، ثم نحضر في باب الدار فإن

وجدنا طريقاً دخلنا وشاهدناه وانصرفنا، وإلا يعرفونا أحواله وانصرفنا. وكنا نجد

الناس يترقبون خروجنا إلى أن يلاقونا حتى يعرفوا أحواله من صفحات وجوهنا. ولما كان

العاشر من مرضه حقن دفعتين، وحصل من الحقن راحة وحصل بعض خفة، وتناول من ماء

الشعير مقداراً صالحاً. وفرح الناس فرحاً شديداً، فأقمنا على العادة إلى أن مضى من

الليل هزيع، ثم أتينا إلى الدار، فوجدنا جمال الدولة إقبال، فالتمسنا منه تعريف الحال المستجد، فدخل، وأنفذ إلينا مع الملك المعظم تورانشاه -جبره الله تعالى -

يقول بأن "العرق قد أخذ في ساقيه"، فشكرنا الله تعالى على ذلك، والتمسنا منه أن يمس بقية قدمه ويخبرنا بحاله في العرق، فتفقده ثم خرج إلينا وذكر أن "العرق

سابع"، وانصرفنا طيبة قلوبنا. ثم أصبحنا في الحادي عشر من مرضه، وهو السادس

والعشرين من صفر، فحضرنا بالباب وسألنا عن الأحوال، فاخبرنا بأن العرق أفرط حتى

نفذ في الفراش ثم في الحصر وتأثرت به الأرض وأن اليبس قد تزايد تزايداً عظيماً

وحارت القوم وايسست الأطباء.

ذكر تحليف الأفضل

ولما رأى الملك الأفضل ما حل

بوالده وتحقق الناس من موته تسرع في تحليف الناس في دار رضوان

[305]

المعروفة بسكناه ،

واستحضر القضاة وعمل له نسخة يمين مختصرة محصلة للمقاصد تتضمن

[306]

الحلف للسلطان مدة

حياته، وله بعد وفاته. واعتذر إلى الناس بأن المرض قد اشتد وما يعلم ما يكون، وما

يفعل هذا إلا احتياطاً على جاري عادة الملوك. فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود

أخو بدر الدين مودود الشحنة، فبادر إلى اليمين من غير شرط، ثم حضر ناصر الدين صاحب

صهيون وزاد أن الحصن الذي في يده له. وسابق الدين صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق،^[307] واعتذر

بأنه ما حلف به. ثم حضر خشتين حسين الهكاري وحلف. وحضر نوشروان الزرزاري فحلف

واشترط أن يكون له خبز يرضيه. وحضر علكان ومنكلان وحلفا، ثم مد الخوان وحضر

الجماعة وأكلوا. ولما كان العصر أعيد المجلس للتحليف، وحضر ميمون القصري رحمه الله

وشمس الدين سنقر الكبير، وقال "نحلف بشرط أن لا نسلّ في وجه أحد من أخوتك

سيفاً، لكن رأسي دون بلادك". هذا قول ميمون القصري. وأما سنقر فإنه امتنع

ساعة ثم قال: "كنت خلفتني على النطرون وأنا عليها"، وحضر سامه وقال "ليس

لي خبز فقل لي على أي شيء أحلف". فرجع وحلف وعلق يمينه بشرط أن يعطى خبزاً

يرضيه. وحضر سنقر المشطوب وحلف واشترط أن يرضى. وحضر أيبك الأفطس رحمه الله واشترط

رضاه، ولم يحلف بالطلاق. وحضر حسام الدين بشارة وحلف، وكان مقدماً على هؤلاء. ولم

يحضر أحد من الأمراء المصريين ولم يتعرض لهم ،

بل حلف هؤلاء للتقرير. وربما شذ منهم غير معروف. ونسخة اليمين المحلوف بها ومضمونها

الفصل الاول "أنني من وقتي هذا أصفيت نيتي، وأخلصت طويتي، للملك الناصر مدة

حياته، وأني لا أزال باذلاً جهدي في الذب عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، متمثلاً

أمره، واقفاً عند مرضاه. ثم من بعده لولده الأفضل علي وورثته. ووالله إنني في

طاعته، وأذب عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي، وأمثل أمره ونهيه، وباطني

وظاهري في ذلك سواء، والله على ما أقول وكيل".

ذكر وفاته رحمه الله وقُدس روحه

ولما كانت ليلة الأربعاء الثامن

والعشرين من صفر 589 (4 آذار/مارس

1193) وهي الثانية عشرة من

مرضه، اشتد مرضه وضعفت قوته، ووقع من الأمر في أوایل الامر من اوله، وحال بيننا

وبينه النساء، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن الزكي ولم يكن عادته

الحضور في ذلك الوقت،

وحضر بيننا الملك الأفضل، وأمر أن نبیت عنده فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً، فإن

الناس كانوا ينتظرون نزولنا من القلعة فخاف إن لم نزل أن يقع الصوت في البلد، وربما

نهب الناس بعضهم بعضاً، فرأى المصلحة في نزولنا، واستحضر الشيخ أبي جعفر إمام

[310]
الكلاسة ،

وهو رجل صالح، ليبيت بالقلعة حتى إذا أستحضر - رحمه الله - بالليل حضر عنده، وحال

بينه وبين النساء، وذكره الشهادة، وذكر الله تعالى. ففعل ذلك ونزلنا وكل منا يود

فدأه بنفسه، وبات في تلك الليلة على حال المنتقلين إلى الله تعالى، والشيخ أبو

جعفر يقرأ عنده القرآن ويذكر الله تعالى، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع لا يكاد

يفيق إلا في أحيان. وذكر الشيخ أبو جعفر أنه لما انتهى إلى قوله تعالى: [هو الله

[311]
الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة] .

سمعه وهو يقول رحمة الله عليه: "صحيح". وهذه يقظة في وقت الحاجة وعناية

من الله تعالى به، فله الحمد على ذلك. وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم

الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمائة (4 آذار/ مارس

1193) وبادر القاضي الفاضل

بعد طلوع الصبح في وقت وفاته، ووصلت وقد مات، وانتقل إلى رضوان الله
ومحل كرمه

وجزى ثوابه، ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى: [إلا إله
إلا

[312]

هو عليه توكلت] .

تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه،

وكان يوماً لم يصب الإسلام

والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين، وغشي القلعة والبلد والدنيا
من

الوحشة ما لا يعلمه إلا الله تعالى. وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم
يتمنون

فدائه بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص
إلا في ذلك

اليوم فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس. ثم
جلس ولده

الملك الأفضل للعزاء في الإيوان الشمالي، وحفظ باب القلعة إلا عن الخواص
من

الأمرء والمعممين. وكان يوماً عظيماً وقد شغل كل إنسان ما عنده من الحزن
والأسف

والبكاء والاستغاثة من أن ينظر إلى غيره، وحفظ المجلس عن أن ينشد فيه
شاعر أو

يتكلم فيه فاضل وواعظ.. وكان أولاده يخرجون مستغيثين إلى الناس فتكاد
النفوس تزهر

لهول منظرهم. ودام الحال على هذا إلى ما بعد صلاة الظهر. ثم اشتغل بتغسيله وتكفينه،

فما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض، حتى في ثمن التبن

الذي بليت به الطين.^[313] وغسله

الدولعي الفقيه، ونهضت إلى الوقوف على غسله، فلم تكن لي قوة تحمل ذلك المنظر.

وأخرج بعد صلاة الظهر في تابوت مسجى بثوب فوط،. وكان ذلك وجميع ما احتاج إليه من

الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حلّ عرفه^[314] وارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم من الضجيج والعيول، ما شغلهم عن الصلاة. فصلّى عليه

الناس أرسالاً وكان أول من أم بالناس القاضي محيي الدين ابن الزكي ثم أعيد إلى

الدار التي في البستان وكان متمرصاً بها ودفن في الصفة الغربية منها. وكان نزوله

في حفرته قدس الله روحه ونور ضريحه قريباً من صلاة العصر.

القسم الثالث: الأيوبيون والهجمات على مصر

ساعد انحراف الحملة الرابعة نحو

القسطنطينية عام 1203 على تقديم هدنة زمنية للإسلام طالت خمسة عشرة عاماً تمكن الملك العادل أثناءها من

إحكام يديه على ميراث أخيه صلاح الدين، وتنظيم ممتلكات الأيوبيين الممتدة من ما بين

النهرين إلى مصر وضبطها تحت سيطرته. وقد استهدف الغزو الصليبي الجديد مصر بالذات

لكونها مركزاً للمقاومة الإسلامية في وقت كان يتزايد فيه التهديد المنغولي ليهيمن

في الشرق بصورة كارثية. وقد انطلق ابن الأثير بما عهدنا فيه من سعة أفق من مختلف

الوقائع المحلية لينظر إلى كل مصائر الإسلام وليشير إلى ذلك الخطر المزدوج الذي

عبر عنه من خلال سرد كل من وقائع الغزو المنغولي الماساوية واحداث الحملة الصليبية

الخامسة، وبهذا جمع في رواية منسقة واحدة حملة السنوات الأربع على مصر 1217-1221.

ونجد تكميلاً لرواية ابن الأثير في مقتطفات لابن واصل مؤرخ الأيوبيين، ليس من

السهل الوصول إليها في نسختها الأصلية خاصة وانها غير معروفة كما يلزم.

الحملة

الخامسة

تجمع

الفرنجة في سورية
وزحفهم على مصر والاستيلاء على دمياط
ثم استعادة المسلمين لها

(ابن الأثير، 209-12/208)

ذِكْرُ مَدِينَةِ دِمْيَاطَ وَعَوْدِهَا

إِلَى الْمُسْلِمِينَ

كَانَ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ

الْحَادِثَةِ إِلَى آخِرِهَا أَرْبَعُ سِنِينَ غَيْرَ شَهْرٍ، (614/1217) وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هَاهُنَا؛ لِأَنَّ
ظُهُورَهُمْ كَانَ فِيهَا وَسُقَاتُهَا

سِيَّاقَهُ مُتَتَابِعَةً لِيَتْلُو بَعْضُهَا بَعْضًا، فَنَقُولُ: فِي هَذِهِ

السَّنَةِ وَصَلَتْ أَمْدَادُ الْفَرَنْجِ فِي الْبَحْرِ مِنْ رُومِيَّةَ

الْكُبْرَى وَغَيْرِهَا مِنْ يِلَادِ الْفَرَنْجِ فِي الْعَرَبِ وَالشَّامِ،

إِلَّا أَنَّ الْمُتَوَلَّى لَهَا كَانَ صَاحِبَ رُومِيَّةَ (البابا)، لِأَنَّهُ

يَتَنَزَّلُ عِنْدَ الْفَرَنْجِ بِمَنْزِلَةٍ عَظِيمَةٍ، لَا يَرَوْنَ مُخَالَفَةَ

أَمْرِهِ وَلَا الْعُدُولَ عَنْ حُكْمِهِ فِيمَا سَرَّهُمْ وَسَاءَهُمْ، فَجَهَّزَ

الْعَسَاكِرَ مِنْ عِنْدِهِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ مُقَدِّمِي الْفَرَنْجِ، وَأَمَرَ

غَيْرَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفَرَنْجِ إِذَا أُنْ يَسِيرَ يَنْفُسِهِ، أَوْ يُرْسِلَ

[315] جَيْشًا، فَقَعَلُوا مَا أَمَرَهُمْ فَاجْتَمَعُوا بَعْدًا مِنْ سَاحِلِ الشَّامِ .

ذِكْرُ

حَصَرَ الْفَرَنْجُ دِمْيَاطَ إِلَى أَنْ مَلَكَوْهَا

(ابن الأثير، 210-12/213)

لَمَّا عَادَ الْفَرَنْجُ مِنْ حِصَارِ

الطُّورِ^[316] أَقَامُوا

بَعْكَاً إِلَى أَنْ دَخَلَتْ سَنَتُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، فَسَارُوا

فِي الْبَحْرِ إِلَى دِمْيَاطَ، فَوَضَعُوا فِي صَقَرٍ (ايار/مايو

1218)، فَأَرْسَلُوا عَلَى

بَرِّ الْجِزْرِ، بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِمْيَاطَ النَّيْلُ، فَإِنَّ بَعْضَ

النَّيْلِ يَصُبُّ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ عِنْدَ دِمْيَاطَ، وَقَدْ بُنِيَ فِي

النَّيْلِ بُرْجٌ كَبِيرٌ مَنِيعٌ، وَجَعَلُوا فِيهِ سَلَاسِلَ مِنْ حَدِيدٍ

غَلَاطٍ، وَمَدُّوْهَا فِي النَّيْلِ إِلَى سُورِ دِمْيَاطَ لِتَمْتَعَ

الْمَرَائِبُ الْوَاصِلَةُ فِي الْبَحْرِ الْمَالِحِ أَنْ تَضَعَدَ فِي النَّيْلِ

إِلَى دِيَارِ مِصْرَ، وَلَوْلَا هَذَا الْبُرْجُ وَهَذِهِ السَّلَاسِلُ لَكَانَتْ

مَرَائِبُ الْعَدُوِّ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَى مَنِعِهَا عَنْ أَقْصَى دِيَارِ مِصْرَ

وَادَانِيهَا. فلما نزل الفرنج على بر الجزيرة، وبينهم وبين دمياط النيل بنوا عليهم

سورا وجعلوه خندقا يمنعهم ممن يريدهم. وشرعوا في قتال من بدمياط،
وعملوا الات

ومرمات وابراجا، يزحفون بها في المراكب الى هذا البرج ليقاتلوه ويملكوه.
وكان

البرج مشحونا بالرجال، وقد نزل الملك الكامل بن الملك العادل، وهو صاحب
دمياط

وجميع ديار مصر، بمنزلة تعرف بالعادية، بالقرب من دمياط، والعساكر
متصلة من عنده

الى دمياط، لِيَمْتَعَ الْعَدُوُّ مِنَ الْغُبُورِ إِلَى أَرْضِهَا.

وَأَدَامَ الْفِرْنَجُ قِتَالَ

الْبُرْجِ وَتَابَعُوهُ، فَلَمْ يَطْفُرُوا مِنْهُ بِشَيْءٍ، وَكُسِّرَتْ

مَرَمَاتُهُمْ وَالْآثَةُ، وَمَعَ هَذَا فَهُمْ مُلَارِمُونَ لِقِتَالِهِ،

فَبَقُوا كَذَلِكَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى أَخْذِهِ؛

فَلَمَّا مَلَكَوهُ قَطَعُوا السَّلَاسِلَ لِتَدْخُلَ مَرَائِكِبُهُمْ مِنَ

الْبَحْرِ الْمَالِحِ فِي النَّيْلِ وَيَتَحَكَّمُوا فِي الْبَرِّ، فَتَصَبَّ

الْمَلِكُ الْكَامِلُ عِوَضَ السَّلَاسِلِ جِسْرًا عَظِيمًا امْتَنَعُوا بِهِ مِنْ

سُلُوكِ النَّيْلِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ قَاتَلُوا عَلَيْهِ أَيْضًا قِتَالًا شَدِيدًا،

كَثِيرًا مُتَتَابِعًا حَتَّى قَطَعُوهُ، فَلَمَّا قُطِعَ أَخَذَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ

عِدَّةَ مَرَائِكِبِ كِبَارٍ وَمَلَأَهَا وَخَرَقَهَا وَغَرَقَهَا فِي النَّيْلِ،

فَمَنَعَتِ الْمَرَائِكِبُ مِنْ سُلُوكِهِ. فَلَمَّا رَأَى الْفِرْنَجُ ذَلِكَ

قَصَدُوا خَلِيجًا هُنَاكَ يُعْرَفُ بِالْأَزْرَقِ، كَانَ النَّيْلُ يَجْرِي فِيهِ

قَدِيمًا، فَحَفَرُوا ذَلِكَ الْخَلِيجَ وَعَمَّقُوهُ فَوْقَ الْمَرَائِكِبِ الَّتِي

جُعِلَتْ فِي النَّيْلِ، وَأَجَرُوا الْمَاءَ فِيهِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَالِحِ،

وَأَصْعَدُوا مَرَائِكِبَهُمْ فِيهِ إِلَى مَوْضِعٍ يُقَالُ لَهُ بُورُهُ، عَلَى

أَرْضِ الْجَبْزَةِ أَيْضًا، مُقَابِلَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي فِيهَا الْمَلِكُ

الْكَامِلُ لِيُقَاتِلُوهُ مِنْ هُنَاكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِلَيْهِ

طَرِيقُ يُقَاتِلُونَهُ فِيهَا، كَانَتْ دِمْيَاطَ تَحْجِزُ بَيْنَهُمْ
وَبَيْنَهُ، فَلَمَّا صَارُوا فِي بُورَةٍ حَادُوهُ فَقَاتَلُوهُ فِي الْمَاءِ،
وَرَحَفُوا غَيْرَ مَرَّةٍ، فَلَمْ يَطْفُرُوا بِطَائِلٍ. وَلَمْ يَتَغَيَّرْ
عَلَى أَهْلِ دِمْيَاطَ شَيْءٌ؛ لِأَنَّ الْمِيرَةَ وَالْأَمْدَادَ مُتَّصِلَةً
بِهِمْ، وَالتَّيْلَ يَحْجِزُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَرْنِجِ، فَهُمْ
مُتَمَنِّعُونَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ أَدَى، وَأَبْوَابُهَا مُقَلَّحَةٌ، وَلَيْسَ
عَلَيْهَا مِنَ الْحَصْرِ ضِيقٌ وَلَا صَرَرٌ.

فَاتَّقَ، كَمَا يُرِيدُ اللَّهُ

- عَزَّ وَجَلَّ - أَنَّ الْمَلِكَ الْعَادِلَ تُؤَقِّمَ فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ

مِنْ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ (أب/اغسطس

1218-) عَلَى مَا

تَذْكُرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فَصَنَعَتْ نُفُوسُ النَّاسِ لِأَنَّهُ
السُّلْطَانُ حَقِيقَةً، وَأَوْلَادُهُ، وَإِنْ كَانُوا مُلُوكًا إِلَّا أَنَّهُمْ

[317]

يُحْكِمُهُ، وَالْأَمْرُ إِلَيْهِ، وَهُوَ مَلِكُهُمُ الْبِلَادِ ،

فَاتَّقَ مَوْتَهُ وَالْحَالُ هَكَذَا مِنْ مُقَاتَلَةِ الْعَدُوِّ. وَكَانَ

مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْرَاءِ بِمِصْرَ أَمِيرٌ يُقَالُ لَهُ عِمَادُ الدِّينِ

أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ، وَيُعْرَفُ بِابْنِ الْمَشْطُوبِ، وَهُوَ مِنْ

الْأَكْرَادِ الْهَكَارِيَّةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ أَمِيرٍ بِمِصْرَ، وَلَهُ لَفِيفٌ

كَثِيرٌ، وَجَمِيعُ الْأَمْرَاءِ يَتَّقَاوُنَ إِلَيْهِ وَيُطِيعُونَهُ لَا

سَيِّمًا الْآكْرَادُ، فَاتَّفَقَ هَذَا الْأَمْرُ مَعَ غَيْرِهِ مِنْ
الْأَمْرَاءِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَخْلَعُوا الْمَلِكَ الْكَامِلَ مِنَ الْمُلْكِ،
وَيُمْلَكُوا أَخَاهُ الْمَلِكَ الْقَائِزَ بْنَ الْعَادِلِ لِيَصِيرَ
الْحُكْمُ إِلَيْهِمْ عَلَيْهِ وَعَلَى الْبِلَادِ، فَبَلَغَ الْخَبْرُ إِلَى
الْكَامِلِ، فَفَارَقَ الْمَنْزِلَةَ لَيْلًا جَرِيدَةً، وَسَارَ إِلَى قَرْيَةٍ
يُقَالُ لَهَا أَشْمُومُ طَنَاحَ، فَتَرَلَّ عِنْدَهَا، وَأَصْبَحَ الْعَسْكَرُ
وَقَدْ فَقَدُوا سُلْطَاتِهِمْ، فَكَرِبَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ هَوَاهُ،
وَلَمْ يَقِفِ الْأَخُّ عَلَى أَخِيهِ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى اخْتِزِ شَيْءٍ مِنْ
خِيَامِهِمْ وَذَخَائِرِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ إِلَّا الْبَسِيرَ
الَّذِي يَخْفُ حِمْلُهُ، وَتَرَكُوا الْبَاقِيَ بِحَالِهِ مِنْ مَبْرَةٍ،
وَسِلَاحٍ، وَدَوَابٍّ، وَخِيَامٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَجَفُوا بِالْكَامِلِ.
وَأَمَّا الْفَرَنْجُ فَلِإِنَّهُمْ

أَصْبَحُوا مِنَ الْعَدِ، فَلَمْ يَرَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدًا عَلَى
شَاطِئِ النَّيْلِ كَجَارِي عَادَتِهِمْ، فَتَبَقُوا لَا يَذُرُونَ مَا الْخَبْرُ،
وَإِذْ قَدْ أَنَاهُمْ مَنْ أَخْبَرَهُمُ الْخَبَرَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، فَعَبَّرُوا
حِينَئِذٍ النَّيْلَ إِلَى بَرٍّ دُمِيَّاطَ آمِنِينَ بِغَيْرِ مُتَازِعٍ وَلَا
مُضَاعٍ، وَكَانَ غُبُورُهُمْ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ
خَمْسَ عَشْرَةٍ وَسِتِّمِائَةٍ (8 شباط/فبراير

1219)، فَغَنِمُوا مَا فِي

مُعَسْكَرِ الْمُسْلِمِينَ، فَكَانَ عَظِيمًا يُعْجِزُ الْعَادِّينَ. وَكَانَ

الْمَلِكِ الْكَامِلُ يُقَارِقُ الدِّبَارَ الْمِضْرِبَةَ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَّقِ
بِأَحَدٍ مِنْ عَسْكَرِهِ، وَكَانَ الْفِرْنَجُ مَلَكَوا الْجَمِيعَ بِغَيْرِ
تَعَبٍ وَلَا مَشَقَّةٍ، فَاتَّقَوْا مَنْ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى
بِالْمُسْلِمِينَ أَنَّ الْمَلِكَ الْمُعَظَّمَ عِيسَى ابْنَ الْمَلِكِ الْعَادِلِ
وَصَلَ إِلَى أَخِيهِ الْكَامِلِ بَعْدَ هَذِهِ الْحَرَكَةِ بَيُومَيْنِ،
وَالنَّاسُ فِي أَمْرِ مَرِيحٍ، فَقَوِيَ بِهِ قَلْبُهُ وَاشْتَدَّ ظَهْرُهُ،
وَتَبَّتْ جَنَائِهُ، وَأَقَامَ بِمَنْزِلَتِهِ، وَأَخْرَجُوا ابْنَ الْمَشْطُوبِ
إِلَى الشَّامِ، فَاتَّصَلَ بِالْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَصَارَ مِنْ جُنْدِهِ.
فَلَمَّا عَبَرَ الْفِرْنَجُ إِلَى

أَرْضِ دِمَشْقَاطٍ اجْتَمَعَتِ الْعَرَبُ عَلَى اخْتِلَافِ قَبَائِلِهَا،
وَتَهَبُوا الْبِلَادَ الْمُجَاوِرَةَ لِدِمَشْقَاطٍ، وَقَطَعُوا الطَّرِيقَ،
وَأَفْسَدُوا، وَبَالَغُوا فِي الْإِفْسَادِ، فَكَانُوا أَشَدَّ عَلَى
الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْفِرْنَجِ، وَكَانَ أَصْرُ شَيْءٍ عَلَى أَهْلِ دِمَشْقَاطٍ
أَنَّهَا لَمْ يَكُنْ يَهَا مِنَ الْعَسْكَرِ أَحَدٌ؛ لِأَنَّ السُّلْطَانَ وَمِنْ
مَعَهُ مِنَ الْعَسَاكِرِ كَانُوا عِنْدَهَا يَمْتَنِعُونَ الْعَدُوَّ عَنْهَا،
فَأَتَتْهُمْ هَذِهِ الْحَرَكَةُ بَغْتَةً، فَلَمْ يَدْخُلْهَا أَحَدٌ مِنَ
الْعَسْكَرِ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ ابْنِ الْمَشْطُوبِ، لَا جَرَمَ لَمْ
يُفْهَلُ اللَّهُ، وَأَخَذَهُ أَخَذَةً رَابِيَةً، عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ
شَاءَ اللَّهُ. وَأَحَاطَ الْفِرْنَجُ بِدِمَشْقَاطٍ، وَقَاتَلُوهَا بَرًّا
وَبَحْرًا، وَعَمِلُوا عَلَيْهِمْ حَتَدًا يَمْتَنِعُهُمْ مِمَّنْ يُرِيدُهُمْ

مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَهَذِهِ كَانَتْ عَادَتُهُمْ، وَأَدَامُوا الْقِتَالَ،
وَأَشَدَّ الْأَمْرِ عَلَى أَهْلِهَا، وَتَعَدَّرَتْ عَلَيْهِمُ الْأَقْوَاثُ
وَعَبَّرُهَا، وَسَيَّمُوا الْقِتَالَ وَمُلَازِمَتَهُ، لِأَنَّ الْفِرْنَجَ كَانُوا
يَتَنَاقَبُونَ الْقِتَالَ عَلَيْهِمْ لِكَثْرَتِهِمْ، وَلَيْسَ يَدْمِيَّاتٍ مِنَ
الْكَثَرَةِ مَا يَجْعَلُونَ الْقِتَالَ بَيْنَهُمْ مُنَاقَبَةً، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ
صَبَرُوا صَبْرًا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ، وَكَثُرَ الْقَتْلُ فِيهِمْ
وَالْجِرَاحُ وَالْمَوْتُ وَالْأَمْرَاضُ، وَدَامَ الْحِصَارُ عَلَيْهِمْ إِلَى
السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّ عَشْرَةٍ وَسِتِّمِائَةٍ (8 تشرين ثاني /
نوفمبر

(1219)، فَعَجَزَ مَنْ

بَقِيَ مِنْ أَهْلِهَا عَنِ الْحِفْظِ لِقَلَّتِهِمْ، وَتَعَدَّرِ الْقُوتِ
عِنْدَهُمْ، فَسَلَّمُوا الْبَلَدَ إِلَى الْفِرْنَجِ، فِي هَذَا التَّارِيخِ،
بِالْأَمَانِ، فَخَرَجَ مِنْهُمْ قَوْمٌ وَأَقَامَ آخَرُونَ لِعَجْزِهِمْ عَنِ
الْحَرَكَةِ، فَتَقَرَّرُوا أَيْدِي سَبَا^[318].

ذِكْرُ

مُلْكِ الْمُسْلِمِينَ دِمِّيَّاتٍ مِنَ الْفِرْنَجِ

(ابن

الأثير، 216/12-213)

لَمَّا مَلَكَ الْفِرْنَجُ

دِمِّيَّاتٍ أَقَامُوا بِهَا، وَتَبَّوْا سَرَائِيَهُمْ فِي كُلِّ مَا جَاوَرَهُمْ

مِنَ الْبِلَادِ، يَنْهَبُونَ وَيَقْتُلُونَ، فَجَلَا أَهْلُهَا عَنْهَا،
وَسَرَّعُوا فِي عِمَارَتِهَا وَتَخْصِينِهَا، وَبَالَغُوا فِي ذَلِكَ حَتَّى
إِنَّهَا بَقِيَتْ لَا ثَرَامَ.

وَأَمَّا الْمَلِكُ الْكَامِلُ

فَإِنَّهُ أَقَامَ بِالْقُرْبِ مِنْهُمْ فِي أَطْرَافِ بِلَادِهِ يَحْمِيهَا
مِنْهُمْ. وَلَمَّا سَمِعَ الْفَرَنْجُ فِي بِلَادِهِمْ يَفْتَحُ دِمِشْقَ عَلَى
أَصْحَابِهِمْ أَقْبَلُوا إِلَيْهِمْ يُهَرِّغُونَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ،
وَأَصْبَحَتْ دَارُ هَجْرَتِهِمْ، وَعَادَ الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ صَاحِبُ
دِمَشْقَ إِلَى الشَّامِ فَخَرَّبَ الْبَيْتَ الْمُقَدَّسَ، فِي ذِي الْقَعْدَةِ مِنْ

[319]

السَّنة، وَإِنَّمَا فَعَلَ ذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ كَافَّةً خَافُوا الْفَرَنْجَ ،
وَأَشْرَفَ الْإِسْلَامَ وَجَمِيعُ أَهْلِهِ وَبِلَادِهِ عَلَى خُطَّةٍ خَسَفٍ فِي
شَرْقِ الْأَرْضِ وَعَرْبِهَا: أَقْبَلَ التُّتْرُ مِنَ الْمَشْرِقِ حَتَّى وَصَلُوا
إِلَى تَوَاجِي الْعِرَاقِ وَأَذْرِبِجَانَ وَأَرَّانَ وَغَيْرِهَا، عَلَى مَا
تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛ وَأَقْبَلَ الْفَرَنْجُ مِنَ الْمَغْرِبِ
فَمَلَكَوا مِثْلَ دِمِشْقَ فِي الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، مَعَ عَدَمِ
الْخُصُوفِ الْمَانِعَةِ يَهَا مِنَ الْأَعْدَاءِ، وَأَشْرَفَ سَائِرُ الْبِلَادِ
يَمِصَّرُ وَالشَّامُ عَلَى أَنْ تُمْلَكَ، وَخَافَهُمُ النَّاسُ كَافَّةً،
وَصَارُوا يَتَوَقَّعُونَ الْبَلَاءَ صَبَاحًا وَمَسَاءً. وَأَرَادَ أَهْلُ مِصْرَ

[320]

الْجَلَاءَ عَنْ بِلَادِهِمْ خَوْفًا مِنَ الْعَدُوِّ، [وَلَاتَ حِينَ مَتَاصٍ] ،

وَالْعَدُوُّ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَوْ مَكَّنْتَهُمُ
الْكَامِلُ مِنْ ذَلِكَ لَتَرَكُوا الْبِلَادَ خَاوِيَةً عَلَى غُرُوشِهَا،
وَأَتَمَّا مُنِعُوا مِنْهُ فَتَبَتُوا. وَتَابَعَ الْمَلِكُ الْكَامِلُ كُتْبَهُ
إِلَى أَخَوَيْهِ الْمُعَظَّمِ صَاحِبِ دِمَشْقَ، وَالْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
مُوسَى بْنِ الْعَادِلِ، صَاحِبِ دِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَأَرْمِينِيَّةَ
وَعَبَّاسِيَّهِمَا، يَسْتَنْجِدُهُمَا، وَيَخْتِثُّهُمَا عَلَى الْخُصُورِ
بِأَنْفُسِهِمَا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَيْزُرِ سِلَانِ الْعَسَاكِرِ إِلَيْهِ،
فَسَارَ صَاحِبُ دِمَشْقَ إِلَى الْأَشْرَفِ يَنْفُسِهِ بِخَرَّانَ، فَرَأَهُ
مَشْغُولًا عَنْ إِنْجَادِهِمْ بِمَا دَهَمَهُ مِنْ اخْتِلَافِ الْكَلِمَةِ
عَلَيْهِ، وَرَوَّالِ الطَّاعَةِ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ كَانَ يُطِيعُهُ، وَتَحَنَّنَ
تَذَكُّرَ ذَلِكَ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -
عِنْدَ وَفَاةِ الْمَلِكِ الْقَاهِرِ، صَاحِبِ الْمُؤَصِّلِ، فَلْيُطْلَبَ مِنْ
هُنَاكَ؛ فَعَدَّرَهُ، وَعَادَ عَنْهُ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ مَعَ
الْفَرَنْجِ.

فَأَمَّا الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ

فَرَأَى الْخُلْفَ مِنْ بِلَادِهِ، وَرَجَعَ الْمُلُوكُ الْخَارِجُونَ عَنْ
طَاعَتِهِ إِلَيْهِ، وَاسْتَقَامَتْ لَهُ الْأُمُورُ إِلَى سَنَةِ ثَمَانِيَةِ
عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ، وَالْمَلِكُ الْكَامِلُ مُقَابِلُ الْفَرَنْجِ.

فَلَمَّا دَخَلَتْ سَنَةُ

ثَمَانِيَةِ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ عِلِمَ بِرَوَّالِ مَانِعِ الْمَلِكِ

الْأَشْرَفِ عَنِ إِنْجَادِهِ، فَأَرْسَلَ يَسْتَنْجِدُهُ وَاحَاهُ، صَاحِبَ
دِمَشْقَ، فَسَارَ صَاحِبُ دِمَشْقَ الْمُعَظَّمُ إِلَى الْأَشْرَفِ يَحْتُمُهُ
عَلَى الْمَسِيرِ، فَفَعَلَ، وَسَارَ إِلَى دِمَشْقَ فَيَمُنْ مَعَهُ مِنَ
الْعَسَاكِرِ، وَأَمَرَ الْبَاقِينَ بِاللِّحَاقِ بِهِ إِلَى دِمَشْقَ، وَأَقَامَ
بِهَا يَنْتَظِرُهُمْ، فَأَسَارَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَمْرَائِهِ وَخَوَاصِّهِ
بِإِنْقَادِ الْعَسَاكِرِ وَالْعُودِ إِلَى بِلَادِهِ خَوْفًا مِنْ اخْتِلَافٍ يَخْذُثُ
بَعْدَهُ، فَلَمْ يَقْبَلْ قَوْلَهُمْ، وَقَالَ قَدْ خَرَجْتُ لِلْجِهَادِ، وَلَا
بُدَّ مِنْ إِيْتِمَامِ ذَلِكَ الْعِزْمِ، فَسَارَ إِلَى مِصْرَ.

وَكَانَ الْفِرْنَجُ قَدْ سَارُوا

عَنْ دِمِشَاطَ فِي الْقَارِسِ وَالرَّاجِلِ، وَقَصَدُوا الْمَلِكَ الْكَامِلَ،
وَتَرَلُّوا مُقَابِلَهُ، بَيْنَهُمَا خَلِيجٌ مِنَ النَّيْلِ يُسَمَّى بَحْرَ
أَشْمُومَ، وَهُمْ يَرْمُونَ بِالْمَنْجَنِيْقِ وَالْجَرْخِ إِلَى عَسْكَرِ
الْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ تَبَقَّعُوا هُمْ وَكُلُّ النَّاسِ أَنَّهُمْ يَمْلِكُونَ
الدِّيَارَ الْمِصْرِيَّةَ وَأَمَّا الْأَشْرَفُ فَإِنَّهُ سَارَ حَتَّى وَصَلَ
مِصْرَ، فَلَمَّا سَمِعَ أَخُوهُ الْكَامِلُ يُقْرِبُهُ مِنْهُمْ تَوَجَّهَ
إِلَيْهِ، فَلَقِيَهُ، وَاسْتَبَشَرَ هُوَ وَسَائِرُ الْمُسْلِمِينَ
بِاجْتِمَاعِهِمَا، لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بِذَلِكَ نَصْرًا وَطَقْرًا.
وَأَمَّا الْمَلِكُ الْمُعَظَّمُ،

صَاحِبُ دِمَشْقَ، فَإِنَّهُ سَارَ أَيْضًا إِلَى دِيَارِ مِصْرَ، وَقَصَدَ
دِمِشَاطَ طَلَبًا مِنْهُ أَنَّ أَحْيَوِيَهُ وَعِيسَكَرَيْهِمَا قَدْ تَارَلُوها،

وَقِيلَ بَلْ أَحْبَبَ فِي الطَّرِيقِ أَنْ الْفَرِجِ قَدْ تَوَجَّهُوا إِلَى

[321]

دِمْيَاطَ ،

فَسَابَقَهُمْ إِلَيْهَا لِيَلْقَاهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَأَخَوَاهُ مِنْ
خَلْفِهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَلَمَّا اجْتَمَعَ الْأَشْرَفُ بِالْكَامِلِ
اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ بَيْنَهُمَا عَلَى التَّقَدُّمِ إِلَى خَلِيجٍ مِنَ النَّيْلِ
يُغْرَفُ بِبَحْرِ الْمَحَلَّةِ، فَتَقَدَّمُوا إِلَيْهِ، فَقَاتَلُوا
الْفَرِجَ، وَازْدَادُوا قُرْبًا، وَتَقَدَّمتْ شَوَانِي الْمُسْلِمِينَ مِنَ
النَّيْلِ، وَقَاتَلُوا شَوَانِي الْفَرِجِ، فَأَخَذُوا مِنْهَا ثَلَاثَ قِطَعٍ
يَمْنُ فِيهَا مِنَ الرِّجَالِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالسَّلَاحِ،
فَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِذَلِكَ، وَاسْتَبَشَرُوا، وَتَقَاءَلُوا، وَقَوَّيَتْ
نُفُوسُهُمْ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ.

هَذَا يَجْرِي وَالرُّسُلُ

مُتَرَدِّدَةٌ بَيْنَهُمْ فِي تَقْرِيرِ قَاعِدَةِ الصُّلْحِ، وَبَدَلَ
الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ تَسْلِيمَ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسِ، وَعَسَقَلَانَ،
وَطَبْرِيَّةَ، وَصَيْدَا، وَجَبَلَةَ، وَاللَّادِقِيَّةَ، وَجَمِيعَ مَا فَتَحَهُ
صَلَاحُ الدِّينِ مِنَ الْفَرِجِ بِالسَّاحِلِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مَا

[322]

عَدَا الْكَرَّكَ، لِيُسَلِّمُوا دِمْيَاطَ ،

فَلَمْ يَرْضَوْا وَطَلَبُوا ثَلَاثِمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ عَوَضًا عَنْ
تَخْرِيبِ الْقُدْسِ لِيَعْمُرُوهُ بِهَا، فَلَمْ يَتَمَّ بَيْنَهُمْ أَمْرٌ

وَقَالُوا: لَا بُدَّ مِنَ الْكَرِّ.

فَبَيَّنَّا الْأَمْرَ فِي هَذَا،

وَهُمْ يَمْتَنِعُونَ، اضْطَرَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى قِتَالِهِمْ.

وَكَانَ الْفَرْنَجُ

لَا عِيْدَادِهِمْ يَنْفُوسِيهِمْ لَمْ يَسْتَصْجِبُوا مَعَهُمْ مَا يَفُوتُهُمْ

عِدَّةَ أَيَّامٍ، طَلَبًا مِنْهُمْ أَنَّ الْعَسَاكِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ لَا

تَقُومُ لَهُمْ، وَأَنَّ الْفَرَى وَالسَّوَادَ جَمِيعُهُ يَبْقَى بِأَيْدِيهِمْ،

يَأْخُذُونَ مِنْهُ مَا أَرَادُوا مِنَ الْمِيرَةِ، لِأَمْرِ يُرِيدُهُ اللَّهُ

تَعَالَى بِهِمْ، فَعَبَّرَ طَائِفَةً مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي

عَلَيْهَا الْفَرْنَجُ، فَفَجَّرُوا النَّيْلَ، فَكَرَبَ الْمَاءُ أَكْثَرَ تِلْكَ

الْأَرْضِ، وَلَمْ يَبْقَ لِلْفَرْنَجِ جِهَةٌ يَسْلُكُونَ مِنْهَا غَيْرَ جِهَةٍ

وَاحِدَةٍ فِيهَا ضِيقٌ، فَتَصَبَّ الْكَامِلُ حَيْثُئِذِ الْجُسُورِ عَلَى

النَّيْلِ، عِنْدَ أَشْمُومٍ، وَعَبَّرَتِ الْعَسَاكِرُ عَلَيْهَا، فَمَلَكَ الطَّرِيقَ

الَّذِي يَسْلُكُهُ الْفَرْنَجُ إِنْ أَرَادُوا الْعُودَ إِلَى دِمَشْقَ، فَلَمْ

يَبْقَ لَهُمْ خَلَاصٌ. وَاتَّفَقَ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْهِمْ

مَرْكَبٌ كَبِيرٌ لِلْفَرْنَجِ مِنْ أَعْظَمِ الْمَرَائِبِ يُسَمَّى مَرْمَّةً،

وَحَوْلَهُ عِدَّةُ حَرَاقَاتٍ تَحْمِيهِ، وَالْجَمِيعُ مَمْلُوءٌ مِنَ

الْمِيرَةِ وَالسَّلَاحِ، وَمَا يَخْتَاجُونَ إِلَيْهِ، فَوَقَعَ عَلَيْهَا

شَوَائِبُ الْمُسْلِمِينَ، وَقَاتَلُوهُمْ، فَطَفِرُوا بِالْمَرْمَةِ وَبِمَا

مَعَهَا مِنَ الْحَرَاقَاتِ، أَحْذَوْهَا، فَلَمَّا رَأَى الْفَرْنَجُ ذَلِكَ

سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ صَلَّوْا الصَّوَابَ
يُمْقَارِقَةَ دِمْيَاطَ فِي أَرْضٍ يَجْهَلُونَهَا. هَذَا وَعَسَاكِرُ
الْمُسْلِمِينَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ يَزُمُونَهُمْ بِالنُّشَابِ، وَيَحْمِلُونَ
عَلَى أَطْرَافِهِمْ، فَلَمَّا اشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْفَرِيجِ أَخْرَفُوا
خِيَامَهُمْ، وَمَجَانِيقَهُمْ، وَأَثْقَالَهُمْ، وَأَرَادُوا الزَّخْفَ إِلَى
الْمُسْلِمِينَ وَمُقَاتَلَتَهُمْ، لَعَلَّهُمْ يَقْدِرُونَ عَلَى الْعُودِ إِلَى
دِمْيَاطَ، فَرَأَوْا مَا أَمْلَوْهُ بَعِيدًا، وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا
يَسْتَهْوُونَ، لِكثْرَةِ الْوَحْلِ وَالْمِيَاهِ حَوْلَهُمْ، وَالْوَجْهَ الَّذِي
يَقْدِرُونَ عَلَى سُلُوكِهِ قَدْ مَلَكَهُ الْمُسْلِمُونَ.

فَلَمَّا تَبَيَّنُوا أَنَّهُمْ

قَدْ أُحِيطَ بِهِمْ مِنْ سَائِرِ جِهَاتِهِمْ، وَأَنْ مِيرَتَهُمْ قَدْ تَعَدَّرَ
عَلَيْهِمْ وَضُولُهَا، وَأَنَّ الْمَتَانِيَا قَدْ كَسَّرَتْ لَهُمْ عَنْ
أَنْبِيَاهَا، ذَلِكَ نُفُوسُهُمْ، وَتَكَسَّرَتْ صُلْبَانُهُمْ، وَصَلَّ
عَنْهُمْ سَيْطَانُهُمْ، فَرَأَسَلُوا الْمَلِكَ الْكَامِلَ وَالْأَشْرَفَ
يَطْلُبُونَ الْأَمَانَ لِيُسَلَّمُوا دِمْيَاطَ بِغَيْرِ عَوْضٍ، فَبَيَّنَمَا
الْمُرَاسَلَاتِ مُتَرَدِّدَةً إِذْ أَقْبَلَ جَمْعٌ كَثِيرٌ، لَهُمْ رَهْجٌ
شَدِيدٌ، وَجَلْبَةُ عَظِيمَةٌ، مِنْ جِهَةِ دِمْيَاطَ، فَظَنَّهَ الْمُسْلِمُونَ
تَجَدُّدَهُ أَتَى لِلْفَرِيجِ، فَاسْتَشْعَرُوا، وَإِذَا هُوَ الْمَلِكُ
الْمُعَظَّمُ، صَاحِبُ دِمَشْقَ، قَدْ وَصَلَ إِلَيْهِمْ، وَكَانَ قَدْ جَعَلَ
طَرِيقَهُ عَلَى دِمْيَاطَ، لَمَّا ذَكَرَتْهُ، فَاسْتَدَّتْ طُهُورُ

الْمُسْلِمِينَ، وَازْدَادَ الْفِرْنَجُ خِدْلَانًا وَوَهْنًا، وَتَمَّمُوا
الصُّلْحَ عَلَى تَسْلِيمِ دِمْيَاطَ، وَاسْتَقَرَّتِ الْقَاعِدَةُ وَالْأَيْمَانُ
سَائِعَ رَجَبٍ مِنْ سَنَةِ ثَمَانِي عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةٍ (27 أب/اغسطس 1221)،
وَاتَّقَلَ مُلُوكُ الْفِرْنَجِ، وَكُنُودُهُمْ، وَقَمَامِصَتُهُمْ إِلَى
الْمَلِكِ الْكَامِلِ وَالْأَشْرَفِ رَهَائِنَ عَلَى تَسْلِيمِ دِمْيَاطَ: مَلِكُ
عُكَّا، وَتَائِبُ بَابَا صَاحِبِ رُومِيَّةَ، وَكُنْدُ رِيَشَ، وَعَيْرُهُمْ،
وَعِدَّتُهُمْ عِشْرُونَ مَلِكًا، وَرَاسَلُوا قُسُوسَتَهُمْ وَرَهْبَاتَهُمْ إِلَى
دِمْيَاطَ فِي التَّسْلِيمِ، فَلَمْ يَمْتَنِعْ مَنْ يَهَا، وَسَلَّمُوهَا إِلَى
الْمُسْلِمِينَ تَاسِعَ رَجَبٍ الْمَذْكُورِ، وَكَانَ يَوْمًا مَشْهُودًا. وَمِنْ
الْعَجَبِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَمَّا تَسَلَّمُوهَا وَصَلَتْ لِلْفِرْنَجِ
تَجْدَهُ فِي الْبَحْرِ، فَلَوْ سَبَقُوا الْمُسْلِمِينَ إِلَيْهَا لَامْتَنَعُوا
مِنْ تَسْلِيمِهَا، وَلَكِنْ سَبَقَهُمُ الْمُسْلِمُونَ لِيَقْضِيَ اللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا، وَلَمْ يَبْقَ يَهَا مِنْ أَهْلِهَا إِلَّا آحَادُ،
وَتَفَرَّقُوا أَبْدَى سَبَا، بَعْضُهُمْ سَارَ عَنْهَا بِاخْتِيَارِهِ،
وَبَعْضُهُمْ مَاتَ، وَبَعْضُهُمْ أَخَذَهُ الْفِرْنَجُ. وَلَمَّا دَخَلَهَا
الْمُسْلِمُونَ رَأَوْهَا وَقَدْ حَصَّنَهَا الْفِرْنَجُ تَخْصِيْنًا عَظِيمًا
يَحِيْثُ بَقِيَتْ لَا تُرَامُ، وَلَا يُوَصَلُ إِلَيْهَا، وَأَعَادَ اللَّهُ،
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، الْحَقَّ إِلَى نَصَائِهِ، وَرَدَّهُ إِلَى أَرْبَائِهِ،
وَأَعْطَى الْمُسْلِمِينَ طَقْرًا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِهِمْ، فَإِنَّهُمْ
كَانَتْ غَايَةُ أَمَانِيهِمْ أَنْ يُسَلَّمُوا الْبِلَادَ الَّتِي أُخِذَتْ

مِنْهُمْ بِالسَّامِ لِئَعِيدُوا دِمِّيَاطًا، فَرَزَقَهُمُ اللَّهُ إِعَادَةً
دِمِّيَاطًا، وَبَقِيَتِ الْبِلَادُ بِأَيْدِيهِمْ عَلَى خَالِهَا، قَالَ اللَّهُ
الْمَحْمُودُ الْمَشْكُورُ عَلَى مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَى الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ كَفِّ عَادِيَةِ هَذَا الْعَدُوِّ، وَكَفَاهُمْ شَرَّ
التَّنَرِ، عَلَى مَا تَذَكَّرُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

تفاصيل

أخرى عن هزيمة الفرنج

(ابن

واصل، 209r-210r) ... (راسل الفرنج)... السلطان

الملك الكامل وأخويه السلطان الملك الأشرف والملك المعظم يطلبون منهم
الأمان

لأنفسهم، ليسلمون لهم دمياط من غير عوض. قال: فاستشار السلطان الملك
الكامل ملوك

أهل بيته في ذلك، فأشار بعضهم بأن لا يؤمنهم ويأخذهم أخذ باليد، فإنهم قد
صاروا في

قبضته، وهم جمهور أهل الشرب، وأنه إذا فعل ذلك أخذ منهم دمياط وجميع ما
تبقى لهم

من البلاد الساحلية. فلم يرى السلطان الملك الكامل ذلك مصلحة، وقال: "إن

هاولاي (هؤلاء) ليس هم جميع الفرنج، وإذا أبدناهم^[323] لم

نقدر على أخذ دمياط إلا بالمطاولة وحروب كثيره مدة، وتسمع ملوك ما وراء
البحر من

الفرنج مانالهم وما جرى عليهم، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء، وتعود الحرب خدعة".

وقد ضجرت العساكر من الحروب وكلّت^[324] ،

وكانت مدة مقام الفرنج بالديار المصرية ثلاث سنين وشهور. فاتفق رأى الكل على بذل

الأمان لهم، وبأخذ دمياط منهم. فأجيبوا الفرنج إلى ما طلبوا من الأمان، على أن

يأخذ السلطان الملك ملوكهم رهاين، إلى أن يسلموا دمياط. وطلبوا هم أيضا أن يأخذوا

ولد السلطان الملك الكامل وجماعة من خواصه رهاين، إلى أن ترجع ملوكهم إليهم فتقررت

القاعدة على ذلك والإيمان، سابع رجب من هذه السنه، أعني سنة ثمان عشر وستماية.

وكانت رهاين الفرنج ملك عكا، واللكاف نايب البابا صاحب رومية الكبرى، والملك

كندروس (لودوفيك) وغير هؤلاء من الملوك تنمة عشرين ملكا. وكانت رهاين السلطان

الملك الكامل، ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب^[325] وجماعة

من خواصه، وكان عمر الملك الصالح يومئذ خمسة عشر سنه، لأن مولده سنة ثلاث وستماية.

ولما قدم هؤلاء الملوك إلى السلطان الملك الكامل، جلس مجلسا عظيما، ووقف بين يديه

الملوك واخوته وأهل بيته جميعا، فرأوا الفرنج من عظمة ملكه وناموسه

ماهالهم^[326] ...

...(سلمت دمياط).. وبعد ذلك رجعت

رهابين الفرنج إليهم، ورهابين المسلمين إليهم. وولاها الأمير شجاع الدين جلدك
المظفرى النورى، وكان رجلا خيرا شهما. وكان للفرنج، لما وقع الصلح،
صوارى عظام

جدا، فأرادوا أخذها وحملها معهم إلى بلادهم، فمنعهم من ذلك شجاع الدين.
فبعثوا إلى

السلطان الملك الكامل يشكونه ويقولون إن "هذه الصوارى لنا، وإن مقتضى
الصلح

أن ترد إلينا". فكتب الملك العادل إلى شجاع الدين يأمره أن ترد الصوارى
إليهم، فأصر على الامتناع، وقال أن الفرنج أخذوا منبر جامع دمياط وكسروه،
وأهدوا

كل قطعة منه إلى ملك من ملوكهم، فيأمرهم السلطان أن يردوا إلينا المنبر
لنرد إليهم

الصوارى". فكتب السلطان إليهم في ذلك، وذكر لهم ما ذكر شجاع الدين،
فعجزوا عن

ذلك وأعرضوا عن ذكر الصوارى...

كان للحملة الصليبية السلمية التي شنها فريديريك الثاني على صورة مناوشات دبلوماسية تداخلت بين منافسات امراء الايوبيين من ورثة العادل أن تركت كثيرا من الذكريات المهمة لدى المؤرخين المسلمين في تلك الآونة. مصادرها الرئيسية هنا هم سبط ابن الجوزي الذي كان شاهدا ومشاركاً هو نفسه في ردة الفعل الاسلامية على عملية التنازل عن القدس للإمبراطور السوابي، ثم ابن واصل الذي لم يعرف شخص فيديريك لكنه أصبح فيما بعد سفيراً لدى مانفريدي في منطقة بوليا الايطالية فترك لنا كثيراً من التفاصيل المباشرة والحية والدقيقة عن السوابيين ومناصرتهم للمسلمين. تكشف هذه التفاصيل عن تلك الانطباعات التي كوّنوها شخصٌ استطاع الاقتراب من الإمبراطور خلال زيارته للقدس ووجده شخصاً متشككاً وساخراً من الناحية الدينية، ويناصر الإسلام من الناحية السياسية. لابد ان البابوية كانت سترحب أيما ترحيب بمثل هذه الانطباعات لأنها كانت ستعزز من موقفها المعادي لفريديريك. هناك أيضاً وثيقة مازالت حتى اليوم فريدة من نوعها وجدت بين رسائل فيديريك الثاني الدبلوماسية وهي عبارة عن رسالتين أرسلهما بالعربية بعيد عودته الى ايطاليا الى أميرٍ من أصدقائه في القصر الايوبي، وقد تم الاحتفاظ بهما ضمن تاريخ شرقي مجهول. لابد أن أحد معاوني الامبراطور غير الجديرين كتب الرسالتين بخطابه ركيكة ومع هذا فهما يفصحان عن وقائع تاريخية محددة وعن الوعي بالكرامة الامبراطورية وجِدّة الخصومة البابوية التي عرفت في كل الوثائق الفيديريكية.

قدوم الإمبراطور فريديريك - ملك الإفرنج - إلى عكا

[327]

(ابن واصل، 252r+119 r)

وفي هذه السنة (625/1228) قدم الإمبراطور ملك الفرنج إلى عكا في جمع كثير من الألمانية وغيرهم من الفرنج. وقد ذكرنا مسير الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى الملك الإمبراطور من جهة السلطان الملك الكامل، وكان

[328]

ذلك في أيام الملك المعظم . وإنما قصد الملك الكامل بالاتفاق مع الإمبراطور ملك الفرنج واستدعائه لإشغال سر الملك المعظم، ولئن لا يتمكن من مساعدة السلطان جلال الدين بن علاي الدين خواردم شاه ومظفر الدين، صاحب أربل، عليه وعلى الملك الأشرف. فتجهز الإمبراطور ووصل في عساكره إلى الساحل، ونزل بعكا في هذه السنة، وكان قد تقدمه جمع كثير من الفرنج، لكنهم لم يتمكنوا من الحركة، خوفاً من الملك المعظم، ولانتظارهم لملكهم الإمبراطور، ومعنى هذا الاسم بالفرنجية "ملك الأمراء".

ومملكته جزيرة صقلية، ومن البر الطويل (إيطاليا) بلاد أبولية والامبردية . قال صاحب الكتاب جمال الدين بن واصل قد رأيت تلك الممالك لما توجهت رسولا من جهة السلطان الملك الظاهر ركن الدين ببيرس، رحمه الله تعالى، إلى ولد الامبراطور المسمى منفريدا، وكان الإمبراطور من ملوك الإفرنج متميزا عالما محبا للحكمة والمنطق والطب ما يلا إلى المسلمين، لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية، وهو وأبوه وجده، كانوا ملوكها، وأهل الجزيرة غالبهم مسلمين.

ولما وصل الامبراطور إلى عكا (عجب) الملك الكامل به، لأن أخاه الملك المعظم الذي كان السبب في استدعائه توفي، واستغني عنه، ولم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق ولأنه كان يؤدي ذلك إلى فوات أغراضه التي كان في ذلك الوقت بصددتها. فراسله ولطفه، وجرى بعد ذلك ما سنذكره إن شاء الله تعالى... ولم يزل الامبراطور بعكا، والرسول مترددة بينه وبين الملك الكامل، إلى أن خرجت هذه السنة.

تسليم القدس إلى الفرنج

(ابن واصل 121R - 120R - 253R,V)

ولم تزل الرسل تتردد بين السلطان الملك الكامل والإمبراطور ملك الإفرنج. وأطماع الإمبراطور ملك الإفرنج متعلقة بما كان تقرر بينه وبين الملك الكامل أولا قبل موت الملك المعظم. وأبى ملك الإفرنج أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه من تسليم القدس إليه وبعض الفتوح الصلاحي (فتوح

[330] صلاح الدين) . وأبى الملك الكامل أن يسلم إليه كل ذلك. وآخر الأمر أنه قد تقرر بينهما أن يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خرابا ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنج شيء من ظاهره البتة، بل يكون جميع قراياه للمسلمين، وللمسلمين واليا عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخره المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين، ويكون شعار الاسلاميه قائما على عادته. واستثنى الفرنج قرايا معدوده في طريق عكا إلى القدس، تكون بأيديهم دون ما عداها من قرايا القدس.

ورأى السلطان الملك الكامل أنه إن شاقق الملك الإمبراطور ولم يقف له بالكلية، ان ينفذ باب محاربة مع الفرنج ويتسع الخرق، ويفوت عليه كل ما خرج بسببه. فرأى أن يرضي الفرنج بمدينة القدس خرابا، ويهادنهم مدة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء. وكان المتردد بين الملك الإمبراطور في الرسائل الأمير فخر الدين بن الشيخ، وكانت تجرى بينهما محاورات في أشياء شتى. وسير ملك الإفرنج الإمبراطور في أثناء ذلك إلى السلطان الملك

الكامل مسائل حكميه هندسيه ورياضيه مشكله، ليمتحن بها من عنده من الفضلاء. فعرض السلطان ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ علم الدين قيصر، امام هذه الصناعة. وعرض الباقي على جماعة من الأفاضل، فأجابوا عن الجميع. ثم حلف السلطان على ما وقع عليه الاتفاق، وحلف

[331]

الإمبراطور ملك الإفرنج، وعقدوا عقد الهدنه مدة معلومة . وانتظم بينهم الأمر، وأمن كل من الفريقين صاحبه. وبلغني أن الإمبراطور قال للأمير فخر الدين بن الشيخ "لولا أنني أخاف انكسار جاهي عند الفرنج، لما كلفت السلطان ذلك، ومالي غرض في القدس ولا غيره، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم. ولما وقعت الهدنه، بعث السلطان من نادى في القدس بخروج المسلمين منه وتسليمه إلى الفرنج. فخرج المسلمون، ووقع فيهم الضجيج والبكا والعيول، وعظم ذلك على المسلمين وحزنوا على خروج القدس من أيديهم، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه إذ كان هذا البلد الشريف (واستعادته) من الكفار من أعظم مآثر عمه السلطان الملك الكامل، رحمه الله، أن الفرنج لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وأنه إذا قضى غرضه واستتبت الأمور له، كان متمكنا من تطهيره من الفرنج وخراجهم منه. وقال "إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس ودار خراب، والحرم وما فيه من الصخرة المعظمة وسائر المزارات، والذي هو المقصود، بأيدي المسلمين على حاله، وشعار المسلمين والاسلام قاوما على ما كان عليه،

[332]

ووالي المسلمين متحكم في أعماله ورسائيقه ."

ولما تم ذلك، استأذن الملك الإمبراطور في زيارة القدس، فأذن له. وتقدم السلطان إلى القاضي شمس الدين، قاضي نابلس، رحمه الله، وكان جليلا في الدوله متقدما عند ملوك بني أيوب، أن يلزم خدمة الإمبراطور ملك الفرنج إلى أن يزور القدس ويرجع إلى عكا. قال القاضي جمال الدين بن واصل، صاحب التاريخ حكى لي القاضي شمس الدين، رحمه الله، قال "لما قدم الإمبراطور ملك الفرنج إلى القدس، لازمته كما أمرني السلطان الملك الكامل، ودخلت معه إلى الحرم الشريف وما فيه من المزارات، ثم دخلت معه إلى المسجد الأقصى، فأعجبه عمارته وعماره قبة الصخره المقدسة. ولما وصل إلى المحراب أعجبه حسنه وحسن المنبر، وصعد في درجه إلى أعلاه، ثم نزل وأخذ بيدي، وخرجنا إلى الأقصى، فوجد رجلا قسيسا وبيده الإنجيل يريد دخول الأقصى، فصاح عليه الملك الامبراطور صيحة منكروه، وقال له: "مالذي أتى بك إلى هاهنا؟ والله لئن عاد واحد منكم يدخل هاهنا بغير إذن، لأخذن ما في عيناه. نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وعندما تصدق علي وعليكم لهذه الكناين على سبيل الأنعام منه، ولا يتعدى أحد منكم

[333] على طوره. " . فمضى القسيس وهو يرتعد خيفة منه. ومضى الإمبراطور ملك الفرنج إلى الدار التي عين له نزوله فيها، فنزل بها. قال القاضي شمس الدين فأوصيت المؤذنين أنهم لا يؤذنون تلك الليلة احتراما للملك. فلما أصبحنا ودخلت عليه، قال: "يا قاضي لم لم تؤذن المؤذنون على المنابر على جاري عادتهم؟" فقلت لهم (له): "أن المملوك منعهم من ذلك إعظاما للملك واحتراما له" فقال: "أخطأت فيما فعلت، والله أنه كان اكبر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع أذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل". ثم رحل بعد ذلك إلى عكا.

ولما ورد الخبر إلى دمشق بتسليم القدس إلى الفرنج، أخذ الملك الناصر في التشنيع على عمه الملك الكامل لينفر الرعية منه. وتقدم إلى الشيخ شمس الدين يوسف سبط الشيخ جمال الدين بن الجوزي الواعظ، وكان له قبول عظيم عند الناس في باب الوعظ، أن يجلس في جامع دمشق للوعظ ويذكر فضائل القدس وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يحزن الناس عليه، ويذكر ما في تسليمه إلى الكفار من الصغار للمسلمين والذل، وقصد بذلك الملك الناصرداود تنفير الناس عن عمه الملك الكامل ليناصحوه في قتل له . فجلس شمس الدين للوعظ ما أمره، وحضر الناس لإستماع [334]

وعظه ، وكان يوما مشهودا، فعلى يومئذ ضجيج الناس وبكاؤهم وعويلهم. وحضرت أنا هذا المجلس، ومما سمعته، يورد ذلك قصيده عملها نائبه، ضمنها [335]

بيتا من شعر دعبل الخزاعي الشاعر . ومما علق منها بحفظي:
على قبة المعراج والصخرة التي تفاخر ما في الأرض من صخراتمدارس آيات
خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات
قال "فلم يرى في ذلك اليوم إلا باك وباكية". ولما تقرررت قواعد الهدنه
بين السلطان والملك الكامل والملك الإمبراطور، أقلع الإمبراطور إلى بلاده [336]

[337] راجعا .

أسف المسلمين في دمشق فيديريك في القدس

(سبط ابن الجوزي، 432-434)

ووصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج، فقامت القيامة في جميع بلاد الإسلام، واشتدت العطايم بحيث أنه أقيمت المآتم. وأشار الملك الناصر داود بأن أجلس بجامع دمشق وأذكر ما جرى على بيت المقدس، فما أمكنني مخالفته، ورأيت من جملة الديانة الحمية للإسلام موافقه. فجلست بجامع

دمشق وحضر الناصر داود على باب مشهد علي، وكان يوماً مشهوداً، لم يتخلف من أهل دمشق أحد. وكان من جملة الكلام "انقطعت من البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، كم جرت لهم على تلك المساكن من دمة، تالله لو صارت عيونهم عيوناً لما وفّت، ولو تقطعت قلوبهم أسفاً لما شفت. أحسن الله عز المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تنقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تنظم الحشرات..." وذكر كلام طویل، وأكثر الشعراء في حديث القدس...

[338]

... ودخل الأبرور (الإمبراطور) إلى القدس والحصار على دمشق .
وجرى له عجائب، منها أنه لما دخل الصخرة رأى قسيس قاعداً عند القوم

[339]

يأخذ من الفرنج القراطيس ، فجاء إليه كأنه يطلب منه الدعاء، ولكمه فرماه إلى الأرض وقال يا خنزير، السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان، تفعلون فيه هذه الأفاعيل! لأن عاد واحد منكم، دخل علي هذا الوجه لأقتلنه. وحكى صورة الحال قوائم الصخرة، قالوا: "ونظر إلى الكتابة التي في القبة" وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين"، فقال: "ومن هم المشركين (من هم هؤلاء المشركون)؟"، وقال للقوام: "هذه الشباك التي على أبواب الصخرة، من أجل ليش؟" قالوا: "لئلا تدخلها العصافير"، فقال:

[340]

"قد أتى الله إليكم بالجبارين" ، قالوا: "ولما دخل وقت الظهر وأذن المؤذن قام جميع من كان معه من الفراشين والغلمان، ومعلمه، وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق فصولاً، فصلوا وكانوا مسلمين. قالوا: "وكان

[341]

الإمبراطور أسقر، معط ، في عينيه ضعف، لو كان عبداً ما ساوى مايتي درهم". قالوا: "والظاهر من كلامه، أنه كان هدياً (مادياً)، وإنما كان يتلاعب بالنصرانية". قالوا: "وكان الكامل قد تقدم إلى القاضي شمس الدين قاضي نابلس، أن يأمر المؤذنين "ما دام الإمبراطور في القدس لا تصعدوا المنابر ولا تؤذنوا في الحرم". فأنسى القاضي أن يعلم المؤذنين، وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر، والإمبراطور نازل في دار القاضي، فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى مثل قوله تعالى: [ما اتخذ الله من

[342]

ولدا] ، ذلك عيسى بن مريم، ونحو هذا. فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له: "إيش عملت؟ السلطان رسم كذا"، وقال: "فما عرفتني، والتوبة". فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنه، فلما طلع الفجر استدعى الإمبراطور القاضي وكان قد دخل القدس في خدمته، وهو الذي سلم إليه القدس، فقال له: لا يا قاضي أين ذاك الرجل الذي طلع

البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام؟" فعرفه أن السلطان أوصاه، فقال الإمبراطور: "لا أخطأتم يا قاضي، تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي. فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله لا تفعلوا، هذا أول ما تنقضون عندنا." ثم فرّق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة أعطى كل واحد عشرة دنانير، ولم يبق بالقدس سوى ليلتين، وعاد إلى يافا، وخاف من الدونة [343] فإنهم طلبوا قتله.

[344]

العلاقات الأيوبية - السوابية وأواخر السوابيين

(ابن واصل 121R - 123R)

واستمر (الإمبراطور) مصافيا للملك الكامل موادا له، والمراسله بينهما متصله إلى أن توفي الملك الكامل -رحمه الله- وولي بعده ولده الملك العادل [345]

سيف الدين أبو بكر . فصافا الإمبراطور الملك العادل ووادده وراسله، ولما قبض (مات) على الملك العادل، وملك السلطان أخوه الصالح نجم الدين [346]

أيوب ، استمر معه الأمر كذلك. وأرسل إليه الملك الصالح الشيخ العلامة سراج الدين الأرموي الذي هو قاضي بلاد الروم اليوم، فأقام الشيخ سراج الدين عند الإمبراطور ملك الروم مكرما مده، وصنف له كتابا في المنطق. وأحسن الإمبراطور إليه إحسانا كثيرا. وعاد سراج الدين إلى الملك الصالح مكرما. ولما قصد ريدافرنس (ملك فرنسا) الإفرنجي، وهو من أكبر ملوك الإفرنج، الديار المصرية سنة سبع وأربعين وستماية (1249) بعث إليه الإمبراطور ينهاه عن ذلك ويخوفه ويحذره عاقبة ذلك، فلم يقبل منه. قال [347]

فحكى سر بر وهو مهمندار منفريد بن الإمبراطور، قال أرسلني الملك الإمبراطور في السر إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب لأعرفه على عزم ريدافرنس على قصد الديار المصرية، وأحذره منه وأشير عليه بالاستعداد له. فاستعد له الملك الصالح، ورجعت إلى الإمبراطور، وكان ذهابي إلى مصر ورجوعي في زي تاجر. ولم يشعر أحد باجتماعي بالسلطان، خوفا من الفرنج أن يعلموا بمالاة الملك الإمبراطور للمسلمين. ولما مات الملك الصالح وجرى لريدافرنس ما جرى من هلاك عسكره واستئصالهم قتلا وأسرا، وأسر الملك المعظم نوران شاه له، ثم خلاصه من الأسر بعد قتل الملك المعظم ورجوعه [348]

إلى بلاده ، بعث الملك الإمبراطور إليه يذكره نصحته إليه وما جرى عليه لحاجه ومخالفته، ويعنفه على ذلك تعنيفا شديدا. وتوفي الملك الإمبراطور سنه ثمان وأربعين وستماية (1250) بعد موت الملك الصالح أيوب بسنة. وولي

بعده ولده، كذا ثم مات كذا، وولي أخوه منفريدا، وهؤلاء كلهم كانوا ممقوتين عند البابا، خليفة الفرنج، لميلهم إلى المسلمين. وجرى بين منفريد وبين البابا، خليفه الفرنج، حربا انتصر فيها الإمبراطور على البابا.

قال القاضي جمال الدين قاضي قضاة حماه المحروسة، صاحب هذا التاريخ، توجهت رسولا إلى منفريدا من السلطان الأعظم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، رحمه الله، في شهر رمضان سنة تسع وخمسين وستمايه (أب/ أوغست - 1261) فأقامت عنده مكرما بمدينة من مدائن ايپوليه في البر الطويل

[349] (إيطاليا) المتصل ببر الأندلس يقال لها برلت، واجتمعت به مرارا فوجدته متميزا محبا للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب اقليدس في

[350] الهندسة. وبالقرب من البلد التي كنت نازلا مدينه تسمى لوحاده ، أهلها كلهم مسلمون من أهالي جزيرة صقلية، وتقام الجمعة فيها وتعلو فيها بشعائر الإسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور. وكان قد شرع في

[351] بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية ، وأكثر أصحابه الذين يتولون أمور الخاصه مسلمون، ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة. ولما رجعنا من تلك البلاد جاءت الأخبار بأنه اتفق على قصده البابا. صاحب رومية الكبرى، وبينها وبين البلد الذي كنا فيه خمسة أيام، واخو ريفرنس،

[352] الذي تقدم ذكره . وذلك أن البابا كان قد حرم منفريدا لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم، وكذلك أن كذا أخوه وأبوهما الإمبراطور محرمين من جهة البابا برومية. والبابا برومية يقولون أنه خليفة المسيح عليه السلام، عندهم والقيام بمقامه، إليه التحريم والتحليل والقطع والفصل وهو الذي يلبس الملوك تاج الملك ويقيمهم، ولا يتم لهم أمرا في شريعتهم إلا به، ويكون راهبا، وإذا مات قام مقامه من هو أيضا متصف بصفه الرهبانية.

ولقد حكى لي وأنا ببلادهم حكاية عجيبة، أن مرتبة الإمبراطورية كانت قبل الإمبراطور فردريك، الذي تقدم ذكره، لأبيه قبله، وانه لما مات، كان ابنه فردريك شابا في أول ترعرعه، وأنه طمع في هذه المرتبة جماعة من ملوك الفرنج، وكل منهم رجا أن يفوضها إليه بابا رومية. وكان فردريك ماكرا خبيثا، وهو من الألمانیه، جنّي من أجنان الفرنج، فاجتمع بكل واحد من الملوك الذين طمعوا في مرتبة الإمبراطورية على انفراد وقال له: "أنّي لا أريد هذه المرتبة فإنّي لا أصلح لها، فإذا اجتمعنا عند الملك فقل له أنت أني قد قلدت فردريك هذا الأمر، ورضيت بما يرضى به قائد ابن الإمبراطور الماضي، فأنا لا أختار من كل أحد إلا أنت، وقصدي الائتمان بك والاعتضاد بك". قال فردريك هذا القول لكل واحد منهم على انفراد، فكل منهم وثق إليه واعتقد صدقه فيما قال. فلما اجتمعوا عند البابا بمدينة رومية الكبرى، ومعهم فردريك، وكان قد تقدم إلى

جمع كثير من الالمانية الشجعان بأن يكونوا راكبين خيولهم قريبا من الكنيسة العظمى التي برومية، التي فيها المجمع المذكور. فلما اجتمع الملوك قال البابا "ما ترون في أمر هذه المرتبة، ومن هو الأحق بها؟" ووضع تاج الملك بين أيديهم، فكل منهم قال "حكمت فردريك في ذلك، وما يشير به فهو الذي اقبله وأشير به، فإنه ولد الملك الإمبراطور وأحق الجماعة أن يسمع قوله في ذلك"، فقام فردريك، وقال: "أنا ابن الإمبراطور وأنا أحق بمرتبته وتاجه، والجماعة كلهم قد رضوا بي واختاروني"، والبابا لا يختار إلا ما تختار الجماعة ويتفقون عليه، ووضع التاج على رأسه، فابلسوا كلهم، وخرج مسرعا والتاج على رأسه، وركب، وركبت الجماعة معه الألمانية الذين تقدم إليهم بأن يقفوا قرب الكنيسة، وسار بهم على حمية إلى بلادهم. ثم بعد ذلك صدرت منه أمور توجب عندهم تحريره، فحرموه.

قال وبلغني أنه كان الإمبراطور بعكا، قال للأمير فخر الدين بن الشيخ، رحمه الله، "أخبرني عن هذا الخليفة الذي لكم"، فقال فخر الدين: "هو ابن

عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم" ، أخذ الخلافة عن أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرة في بيت النبوة لا تخرج عنهم"، فقال الإمبراطور "ما أحسن هذا لكن هؤلاء القليلون العقول - يعني الفرنج - يأخذون رجلا من المذلة ليس بينه وبين المسيح نسب ولا سبب، جاهلا (عادما)، يجعلونه خليفة عليهم قائما مقام المسيح فيهم، وهو لا يستحق هذه المرتبة، وأنتم خليفتمكم

ابن عم نبيكم، فهو أحق الناس بمرتبته" .

ولما قصد البابا واخو ريدافرنس بن الإمبراطور منفريد ابن الإمبراطور، قاتلاه وهزما عسكره وقبضا عليه، فتقدم البابا يذبحه فذبح، وملك أخوه

البلاد التي كانت بيد الإمبراطور واستولى عليها، وكان هذا سنة ثلاث وستين وستمايه (1265)، في غالب ظني.

رسالتا فردريك العربيتان

(تاريخ المنصوري 24-37)

سنة 627 (1229)... وفيها وصل بحرّان رسول الإمبراطور إلى الكامل،

وعلى يده كتب إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ بما نسخه: بسم الله الرحمن الرحيم، عنوانه ترجمته

" قيصر المعظم، إمبراطور رومية فردريك بن الإمبراطور هريك بن الإمبراطور فردريك المنصور بالله، المقتدر بقدرته المستعلي بعزته، مالك

ألمانية ولمبردية وتسقانه وإيطاليا وأنكبردة وقلورية وصقلية ومملكة الشام

[358]

القدسية، معز إمام رومية ، الناصر للملة المسيحية.

بسم الله الرحمن الرحيم

(شعر)

رحلنا وخلفنا القلوب مقيمة
تخلت عن الأجسام والجنس والنوع
وأنت على ألا يخلّ بؤدّكم

[359]

ملأى الدهر وانسلت تنكب عن طوعي

لو ذهبنا إلى وصف بما نجد من عظم الشوق، ونكابده من اليم الاستيحاس
والتوق، إلى المجلس السامي الفخري (فخر الدين)، لازم الله أيامه، ومدد
أعوامه، وثبت في الرئاسة أقدامه، وحرس مودته وأكرمه، وأجرى على سبيل
المجاح (النجاح؟) مرّاه، وسدد عهده وكلامه، وأجزل من النعم أقسامه وجدد
مع الجديدين سلامه، الزمنا في الخطاب شططا، وحدنا عن الصواب غلطا. إذا
منينا بروعة استيحاس بعد سكون وإيناس، ولوعة فراق في أثر غبطة
واشتياق، فرأينا السلو ممتنعا، وحبل التجلد منقطعا، ومأمول التماثل قد عاد

[360]

جرعا، وشمل الاصطبار منصدعا، إذا رحلت .

وقد كنت لو خیرت بین فراقکم و بین حمامی، فليت يدركني نجي
وتما له، أكرمه الله ملثا، واعتاض بغيرنا واختار فراقنا، وتناسا ودادنا،

[361]

فعزينا أنفسنا بقول أبي الطيب :

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

إن لا تفارقهم فالراحلون هم

وبعد، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا، والحميد من آثارنا،
فنشعر: حسب ما شرحناه (؟) بصيداء، أن البابا باء بالغدر والخديعة (؟)، أخذ

[362]

إحدى قلاعنا المنيعه، تسمى منت قسين ، أسلمها له أباطها اللعين، وعد
للأرام المزيد، فلم يمكنه لانتظار أهل طاعتنا لرجوعنا السعيد، فاضطر إلى أن
زعم أننا متنا، وحلف القردنالية على ذلك وعلى أن رجوعنا مستحيل، وراوضوا
خداع العامه بمثل هذه الأباطيل، وأنه ليس أحد بعدنا يحسن حواية بلادنا
وحفظها برسم ولدنا مثل البابا، فلايمان هؤلاء الذين هم أئمة الدين وخلفاء
الواريين، انخدعت جماعة من الطغم والمفسدين، فعند وصولنا إلى مينا
مندريس المصونة، ألفينا الملك جوان واللمبرديين، في الدخول في ملكنا

[363]

معاندين (ولما) وقع خبر ورودنا متشكيكين، لما قرره القردنالية عندهم
باليمن. وكتبنا ورسلنا بوصولنا سالمين، واهل أعداءنا الجزع وحل بهم الروع

والنزع، ونكصوا إلى ورائهم خاسرين مسافة يوم (يومين)، وارتد أهل طاعتنا طائنين (طائعين) وذلك للمبردين، الذين كانوا معظم عسكرهم لم يرضوا لأنفسهم أن يوجدوا على سيدهم مخالفين منافقين، وانصرفوا على أديارهم أجمعين.

وأما الملك المذكور وأصحابه، فأحاط بهم الحياء والخوف، واجتمعوا إلى موضع ضيق يخافون التصرف عنه والخروج منه، بل لا يقدرّون على ذلك، لأن البلاد بأسرها قد عادت إلى طاعتنا، ونحن في خلال ذلك قد جمعنا عسكرا مديدا من الألمان، الذين كانوا معنا في الشام والذين انصرفوا قبلهم ورمتهم الريح إلى بلادنا، وغيرهم من أمثائنا ورؤساء دولتنا. واستقللنا نجد السير إلى بلاد أعدائنا. وبعد، فمما نؤثر من المجلس، مواصلة كتبه، متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته، وأن يقرى سلامنا على جميع أكابر العسكر وعلمانه ومملوكيه ودخلته، والسلام عليه ورحمة الله وبركته. كتب ببرلت المصونه بتاريخ الثالث والعشرين من شهر أوسو للاندقس (الاندقنس) الثاني (22 آب/ أغسطس 1229).

وهذا نسخة الكتاب الثاني، الترجمة كالأول، فيه من الأخبار بما نشعره به... أنا قد جمعنا عسكرا كثيرا، وأنا نجد بالسير إلى قتال من هم بانتظارنا ولم يهرب أمام وجهتنا، والآن قد حدث من الأمر حسب حدسنا، وذلك أنهم قد

^[364] حاصروا قلعة من قلاعنا ، ونصبوا عليها المنجنيقات وما شابهها من الدبابات والآلات فلما أحسوا بإقبالنا مع بعد المسافة بينهم، لم يتمهلوا إلى (..). بل أحرقوا ما عملوه من سائر آلاتهم، وانهزموا هاربين أمامنا، ونحن نجد السير في طلبهم وتفريق شملهم وتبديد جمعهم، وطلب البابا حشر (حشرا؟) ورده خاشيا (خاسيا؟) على قفاه، نادما على ما نواه. وما نجده من الأخبار، فنحن نكتب المجلس إن شاء الله.

الغرض من اثبات هذه الكتب، تحقيق ممالك عمّها الملك الإمبراطور، وقدرته. فما ملك من النصرانية مثله، من زمن الاسكندر وإلى الآن. لا سيما قدرته وانهاله لخليفته البابا، وقصده له واطراحه إياه.

كانت آخر الحملات الصليبية الحملة المصرية التي قادها لويس التاسع الذي عاد ليقارع بالسلاح تلك الأمكنة التي استعصت قبل ثلاثين سنة على المبعوث البابوي بيلاجو وجون دي بريين. أهم مؤرخي هذه الحملة المصرية الثانية من العرب كانا ابن واصل ومقرزي، فالأول عاصر الحملة وكان شاهد عيان على الوقائع المروية، أما الثاني فكان متأخراً وقام كالعادة بالتصنيف عن مصادر سابقة، وقد تابع عن قرب رواية ابن واصل ثم أغناها ونوّعها بتفاصيل مختلفة استقاها من مصدر مختلف أو من مصدر مشترك مجهول. نستقي هنا الأحداث المأساوية التي صاحبت الحملة الصليبية من ابن واصل، بينما نقدم عن مقرزي بعض الوثائق والتعليقات الإسلامية على مغامرة ملك فرنسا ثم نختم بإشارة إلى حملته التونسية التي قادها بعد عشرين سنة وفارق خلالها الحياة.

حملة سان لويس وصول الفرنج إلى الديار المصرية وتملكهم ثغر دمياط

(ابن واصل 356R - 357R)

... ولما كانت ثاني ساعة من نهار يوم الخميس لتسع بقين (عشرين) صفر من هذه السنة، وهي سنة سبع وأربعين وستمائة (5 حزيران/يونية 1249) وصلت مراكب الفرنج، وفيها جموعهم العظيمة، وقد انضمت إليهم افرنج الساحل جميعها، فأرسلوا في البحر إبان المسلمين. وفي هذا اليوم وهو يوم السبت شرعوا في النزول إلى البحر الذي فيه المسلمون، وضربت خيمة الملك أريدافرنس وكانت حمرا. وناوشوهم بعض المسلمين بعض المناوشة فاستشهد في ذلك اليوم الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام، رحمه الله، وقد قدمنا ذكره، وأنه كان هو وأخوه شهاب الدين يؤانسان - يونسان - الملك الصالح وهو بالكرك، بأمر الملك الناصر داود لهما بذلك، وكان رجلاً صالحاً. واستشهد أيضاً من أمراء مصر أمير يقال له الوزير، فلما أمس المسلمون

[365]

رحل بهم الأمير. فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وقطع بهم الجسر إلى الجانب الشرقي الذي فيه دمياط، وخلا البر الغربي للفرنج، ولما عدّا فخر الدين يوسف بن الشيخ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، فلم يكن لهم من يردهم ولا يردعهم، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ، إلى جهة أشمون طنّاح، والعسكر إلى البر الشرقي. وخلا البر الشرقي من عساكر المسلمين.

وخاف أهل دمياط على أنفسهم أن يحصروا. وكان فيها جماعة من الكنانية شجعان، فألقى الله سبحانه وتعالى الرعب في قلوبهم، فخرجوا هم وأهل دمياط على وجوههم طول الليل، ولم يبق بدمياط أحد بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان. ورحلوا في الليل مع العسكر هاربين إلى أشمون صناع، وكان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر. فإن فخر الدين يوسف، لو منع العسكر من التهرب وأقام لا متنعت دمياط. فإن دمياط في الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل، كانت أقل دكاير وعدد، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نوزلت سنة خمسة عشر وستماية (1218) وأخذت سنة ستة عشر وستماية (1219) ولم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع. والكنانية وأهل دمياط، لو غلقوا أبوابها وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشمون طنح، لما قدر الفرنج عليهم، وكانت العساكر ردت إليهم ومنعت عنهم، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم في عناية الكثر. فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك، ولكن إذا أراد الله أمراً فلا مرد له. ولكن أهل دمياط كانوا معذورين لأنهم لما رأوا هرب العساكر وعلموا مرض السلطان، خافوا أن يستمر عليهم الحصار مدة طويلة فيهلكوا جوعاً، كما هلك أهل دمياط في المرة الأولى.

قال: ولما أصبح الصباح يوم الأحد لسبع بقين (23) من صفر جاء الفرنج إلى دمياط فوجدوها صفراً من الناس، وأبوابها مفتحة، فملكوا صفواً وعضواً، واحتوا على ما كان فيها من العدد والأسلحة والذكاير والأقوات والمناجيق... وكانت هذه مصيبة عظيمة لم يجر مثلها. قال صاحب التاريخ: ووردت يوم الأحد إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباي، وأنا عنده، بطاقة بذلك، فاشتد الجوع والخوف، ووقع اليأس بالديار المصرية بالكلية، لا سيما والسلطان مريض، وقد ضعفت قواه عن الحركة، وليس قد بقا له قدرة على ضبط جنده، وقد اشتد طمعهم فيه. ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلي السلطان، حنق على الكنانيين حنقاً شديداً، وأمر بشنقهم، فشنقوا جميعاً، وتآلم مما فعله فخر الدين والعسكر، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإعفا عما فعلوه.

رحيل السلطان الملك الصالح إلى المنصورة ونزولهم بها

(ابن واصل 357 r-v)

ولما جرى ما ذكرناه، رحل السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالعساكر إلى المنصورة فنزل بها، وهي المنزلة التي كان أبوه الملك الكامل نزلها نوبة دمياط الأولى، وهي شرقي النيل في قبالة جرجر، وبينها وبين

الجزيرة التي هي برّ دمياط ^[366] بحر أشمون طنح، وكنا ذكرنا أن الملك

الصالح نجم الدين أيوب كان أمر ببناء الأبنية فيها وجعل بينها وبين البحر سوراً ولأبيه الملك الكامل فيها قصراً عالي على بحر النيل، فنزله الملك الصالح وضرب دليزه إلى جانبه.

وكان استقرار السلطان بالمنصورة يوم الثلاثاء خمس بقين (25) من صفر، وشرعت العساكر في تجديد الأبنية وقامت بها الأسواق وأصلح السور الذي على البحر وستر بالستائر، وجاءت الشواني والحراريق وفيها العدد الكاملة والمقاتلة، فأرسلوا قدام السور. وجاء إلى المنصور من الرجالة والحرافشة والغراة المطوعة من ساير النواحي خلق كثير لا يقع عليهم الإحصاء، وورد من العربان أمم كثيرة وشرعوا في الإغارة على الفرنج ومناوشتهم، وحصن الفرنج أسوار دمياط وشحنوها بالمقاتلة. وفي يوم الاثنين سلخ (آخر) ربيع الأول ورد إلى القاهرة من أسارى الفرنج الذين قطفتهم العربان وغيرهم ستة وأربعون أسيراً منهم فارسان. وفي يوم السبت لخمس مضين (خمس) من ربيع الآخر وصل أيضاً منهم تسع وثلاثون أسيراً أسرتهم العرب والخوارزمية، ثم دخل منهم إلى القاهرة أيضاً اثنان وعشرون أسيراً أخذوا من غزة، وكان دخولهم لسبع مضين (سبعة) من ربيع الآخر وفي يوم الأربعاء لأربع عشر ليلة بقيت من ربيع الأول (15) وصل أيضاً منهم خمسة وثلاثون أسيراً، منهم ثلثه من الخيالة. وورد يوم الجمعة لخمس بقين (24) من ربيع الآخر، بأن عسكر السلطان الملك الصالح بدمشق خرجوا إلى صيدا وتسلموها من الفرنج، ثم كان بعد كل قليل يصل من الفرنج أسارى، جمع بعد جمع، ووصل منهم لاثني عشر ليلة بقيت من جمادى الأول (30 آب) خمسين أسيراً، وهذا يجري والسلطان الملك الصالح يتزايد مرضه وقواه يضعف ويتلاشى، والاطباء ملازمون له ليلاً ونهاراً، وقد وقع ياسهم من عافيته، ونفسه مع ذلك وعزيمته في غاية القوة، وتعاوض عليه مرضان عظيمان الخراجة في مخاصته والسّل.

تقدم الفرنج ونزولهم قبالة عسكر المسلمين

(ابن واصل 364r - 365r)

ولما تحقق الفرنج موت السلطان (15 شعبان 647/24 تشرين الثاني - نوفمبر 1249) الملك الصالح نجم الدين أيوب، رحلوا من دمياط بفارسهم وراجلهم، وشوانيهم في البحر تحاذيهم، فنزلوا على فارسكور، ثم تقدموا منها مرحلة، وذلك يوم الخميس لخمس بقين من شعبان (24) من هذه السنة، وفي عند هذا اليوم، وهو يوم الجمعة ورد من الأمير فخر الدين يوسف كتاب يهدد

^[367] الناس ويأمرهم بالجهاد، وفيه علامة تشبه علامة الملك الصالح نجم الدين أيوب، ليظن الناس أنه كتابه، أوله: [انفروا خفاً وثقلاً وجاهدوا في سبيل الله

^[368] بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون] . وهو كتاب بليغ، أظنه

بإنشائها بهاء الدين زهير ، وفيه مواعظ جميلة، تحريض على قتال الكفار، وأن الفرنج قد قصدوا الديار المصرية والبلاد الإسلامية بحدهم وحديدتهم، وقد أطمعتهم أنفسهم بملك البلاد، وقد وجب على المسلمين كافة، النفر إليهم ودفعهم عن البلاد. فقرئ هذا الكتاب على الناس بالمنبر بالجامع بالصلاة بالقاهرة، فبكى الناس بكاء كثيراً، وانزعج الناس لذلك. وخرج من القاهرة ومصر وسائر النواحي خلق عظيم. وعظم الخوف لموت السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. وتمكن الفرنج بملك دمياط وكرهم، وتحققوا أنه إن اندفع العسكر الذي بالمنصورة إلى ورايهم مرحلة واحدة، ملكت ديار مصر أجمعها في أسرع الأوقات.

ولما كان يوم الثلاثاء مستهل شهر رمضان (8 كانون أول/ديسمبر 1249) وقعت بين الفرنج والمسلمين وقعة عظيمة، استشهد فيها أمير مجلس المعروف بالعلائي وجماعة من الأجناد. ونزلت الفرنج بسر مساح (شرم شاه). وفي يوم الاثنين لسبع مضي من رمضان (7)، نزلت الفرنج البرمون، وكثر الاضطراب بسبب دنوا ملك الإفرنج من عساكر المسلمين. وفي يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان (13)، وصلت الفرنج إلى طرف جزيرة دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين ومعظم عسكر المسلمين في المنصورة، وهي في البر الشرقي، وجماعة من العسكر وأولاد الملك الناصر

داود بن الملك المعظم ، وهم الملك الأمجد والملك الظاهر والملك المعظم والملك الأوحى، والأكابر فيهم في البر الغربي، وكانوا أولاد الملك الناصر الأكابر والأصاغر الذين قدموا القاهرة اثنتي عشرة ولداً ذكراً، وكان بالبر أيضاً أخو الملك الناصر داود الملك القاهر، والملك المغيث. ولما نزلت الإفرنج بجمعهم في طرف الجزيرة التي فيها دمياط، وصاروا في مقابلة المسلمين، خندقوا عليهم خندقاً، وأداروا عليهم سوراً ستروه بالستائر، ونصبوا المناجيق يرمون بها المسلمين. ونزلت شوانتهم في بحر النيل، وشوانتي المسلمين بإزاء المنصورة، ونشب القتال بين الفريقين براً وبحراً.

مباغطة المسلمين في المنصورة، ومقتل الأمير فخر الدين يوسف
ثم انتصار المسلمين بعد ذلك على الفرنج

(ابن واصل 365v، 366v)

قد ذكرنا استقرار الفرنج في قبالة المسلمين، واتصال القتال بين الفريقين، وبينهما بحر أشمون، وهو بحر صغير وفيه مخايض رقاق. فدل بعض المسلمين الفرنج على مخاضة يسلمون. فركبت الفرنج وقصدوا المخاضة أبكرةً الثلاثاء لخمس مضي من ذي القعدة (10 شباط/فبراير 1250)، فلم يشعر المسلمون بهم إلا وقد خالطوا معسكرهم. وكان الأمير فخر الدين يوسف بن

شيخ الشيوخ يغتسل في الحمام، فأتاه الصريح بأن الفرنج قد دهموا المعسكر، فركب دهشاً غير مستعد ولا متحفظ، فصادفوه جماعة من

الفرنج ^[371] فقتلوه رحمه الله، وكان أميراً فاضلاً عالماً متأدباً جواداً سمحاً عالي الهمة كبير النفس، وما كان في أخوته مثله بلى ولا في غير أخوته، نال من الدنيا سعداً عظيماً ومكانة عالية، وانتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح

نجم الدين أيوب، وكانت همته ترقا إلى الملك، وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضي عنه. ^[372]

ودخل ملك الإفرنج ريذا فرنس المنصورة، ووصل إلى القصر الذي للسلطان، وتفرق الفرنج في أزقة المنصورة، وهرب كل من فيها من الجند والعامّة والسوقة يميناً وشمالاً، وكادت ثقافة الإسلام تستأصل، وأيقن الفرنج بالظفر. وكان من سعادة المسلمين تفرق الفرنج في الأزقة: واشتد الأمر وأعضل الخطب، فأنحت الطائفة التركية، ممالك السلطان الملك الصالح نجم

الدين أيوب من البحرية والجمدارية ، أسود الحرب وفرسان الهيجاء، ^[373] وحملوا على الفرنج حملة واحدة، فزعزعوا بها أركانهم وهذّوا بنيانهم، وأخذت الفرنج السيوف والدبابيس من كل جانب. فأثخنوا البحرية فيهم القتل والجراح وطرحوهم في أزقة المنصورة. فكانت عدة ما قتل من الفرنج ألف وخمسمائة فارس من فرسانهم وصناديدهم وشجعانهم، وأما رجالة الفرنج فكانوا قد جاءوا على الجسر المنصوب على بحر أشمون ليعدوا منه. ولو تراخى الأمر وعدّت الرجالة إلى المسلمين وتكاملوا فيه لأعضل الداء، فإن الرجالة كانوا جمعاً عظيماً وكانوا حملوا فارسهم (لكن هذا لم يكن)، ولولا ضيق مجال القتال، فإن الحرب كان بين الأزقة والدروب، لكانوا استأصلوا - استوصلوا - الفرنج عن آخرهم. لكن سلم الباقون منهم ومضوا إلى جديلة، فاجتمعوا بها، ودخل الليل ففرق بينهم.

وضربوا على جديلة سوراً، وخذقوا خندقاً عليهم، وأقامت طائفة منهم في البر الشرقي، ومعظمهم في طرف الجزيرة المتصلة بدمياط، وعلى الطائفتين الخندق والسور. وكانت هذه الواقعة أول النصر ومفتاح الظفر. ووردت البطاقة إلى القاهرة، فأحضرت إلى حسام الدين محمد بن أبي

علي ^[374] بعد الظهر من يوم الواقعة، ومضمونها أنه: سُرح الطائر، وقد هجم العدو المنصورة والحرب قائمة، والقتال بين المسلمين والفرنج شديد، وليس في البطانة غير ما هذا معناه، فأنزعجا وأنزعج المسلمون كافة، وغلب على

الظنون بوار الإسلام. وورد المسلمون آخر النهار، وبقا باب النصر مفتوحاً ^[375] طوال ليلته، وهي ليلة الأربعاء، والجند والعامّة والكتاب والمتصرفون يدخلون

منه منهزمين، ولا علم لهم بما تجدد بعد دخول الفرنج المنصورة. وممن دخل تلك الليلة وجاء إلى الأمير حسام الدين القاضي تاج الدين المعروف بابن بنت الأعز، وكان متولي النظر بديوان الصحبة. وبقيت القلوب منزعة إلى أن طلعت الشمس من يوم الأربعاء، فوردت البشرى بالنصر، وزين البلد وضربت البشائر وعظم السرور والفرح بالانتصار على الفرنج، وكانت هذه أول واقعة انتصر فيها أسود الترك على كلاب الشرك، ووردت البشرى على الملك المعظم بذلك وهو في الطريق، فجدّ في السير إلى الديار المصرية.

وقوع أسطول المسلمين على مراكب الفرنج وضعف الفرنج

(ابن واصل، 368r.v)

ولما استقر الفرنج بمنزلتهم، كانت تأتيهم الميرة من دمياط في بحر النيل. فعمد المسلمون إلى مراكب شحونها بالمقاتله، وحملوا على الجمال إلى بحر

[376]

المحله ، وألقوها فيه، وفيه ما من زيادة النيل واقفة، لكنه متصل بالنيل. فلما حاورت مراكب الفرنج، وهي مقلعه من دمياط في بحر المحله، وتلك المراكب التي للمسلمين مكمنه، خرجت عليها تلك المكمنه في بحر المحلة ووقع القتال بين الفريقين. وجاءت أساطيل المسلمين من جهة المنصورة متحدرة إليهم، والتقى الأسطول والمراكب التي كانت مكمنه، فأحاطوا بالفرنج فأخذوهم ومراكبهم أخذ باليد. وكانت عدة المراكب المأخوذة للفرنج اثنتين وخمسين مركبا، وأسر من كان فيها نحو ألف رجل، وأخذ جميع ما فيها من الميره، ثم حملت الأسرى على الجمال وقدم بهم إلى المعسكر. وانقطعت الميره بسبب ذلك عن الفرنج، ووهنوا وهنا عظيما واشتد عندهم الغلا، وبقوا محبوسين لا يستطيعون المقام ولا الذهاب. و(استطرى) عليهم المسلمين، وطمعوا فيهم.

وفي مستهل ذي الحجه (7 آذار - مارس 1250)، أخذ الفرنج من مراكب المسلمين التي هي في بحر المحلة سبع حراريق، وهرب من فيها من المسلمين. وفي ثاني ذي الحجة، تقدم الملك المعظم إلى الأمير حسام الدين في الدخول إلى القاهرة، وفي المقام بدار الوزارة، ليجرى على عادته في نيابة السلطنة. قال صاحب التاريخ القاضي جمال الدين بن واصل: "وخلع علي وعلى جماعة من الفقهاء الذين وردوا إلى خدمته، ووصل إحسان الملك المعظم إلى كل من قصد بابه". قال: ودخلت القاهرة مع الأمير حسام الدين

[377]

وفي يوم الاثنين لتسع مضي من ذي الحجة (9)، وهو يوم عرفه ، خرجت شواني المسلمين على مراكب وصلت للفرنج تحمل الميره، فالتقوا عند مسجد النصر، وأخذت شواني المسلمين من مراكب الفرنج اثنين وثلثين مركبا، منها سبع شواني، فازداد عند ذلك ضعف الفرنج ووهنهم، وقوي الغلا

عندهم. وعند ذلك شرعت الفرنج في مراسلة المسلمين وطلب المهادنة منهم. ووصلت رسلهم، فاجتمع بهم الأمير زين الدين، أمير جندار، وقاضي القضاة بدر الدين، فرغب الفرنج أن يسلموا دمياط إلى المسلمين على أن يأخذوا بذلك بيت المقدس وبعض الساحل. فلم تقع الإجابة على ذلك. وفي يوم الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة (26) أحرقت الفرنج أخشابهم كلها وأبقوا مراكبهم وعزموا على الهروب إلى دمياط. وخرجت هذه السنة (647) وهم مقيمون بمنزلتهم في مقابلة المسلمين.

هزيمة الفرنج واستئصالهم والقبض على ملكهم ريدافرنس

(ابن واصل 369r، 370r)

ولما كانت ليلة الأربعاء لثلاث مضين من المحرم من سنة ثمان وأربعين وستماية (7 نيسان/أبريل 1250)، وهي الليلة الغرا المسفرة عن النصر الأعظم والفتح الأكبر، رحل الفرنج بفارسهم وراجلهم متوجهين إلى دمياط ليستعصموا بها، وأخذت مراكبهم في الانحدار في البحر قبالتهم. وعلم المسلمون بذلك فتبعوهم وركبوا أعناقهم بعد أن عدّوا إلى برهم، فاتبعوهم. وطلع الصباح من يوم الأربعاء المذكور، وقد أحاط المسلمون، وبذلوا فيهم سيوفهم وأحاطوا عليهم قتلاً وأسراً، فلم يسلم منهم أحد. فذكر أن عدة القتلى بلغت ثلثين ألفاً. وكان لممالك السلطان، الملك الصالح نجم الدين أيوب، البحرية في هذه الواقعة، المهمة العالية والتقدم العظيم. فأذاقوا الفرنج البلاء، وكان لهم الخط الأول، كانوا قاتلوا قتلاً شديداً، وهم الذين قدموا على أتباع الفرنج، وهم كانوا

[378]

داوية الإسلام . قال: وانحاز الملك ريدافرنس الملعون والأكابر من ملوك الفرنج إلى تل مونة (المنيا) مستسلمين طالبيين الأمان. فأمنهم الطواشي جمال الدين محسن الصالح، فنزلوا على أمانه وأحيط عليهم كلهم، ومضوا بالملك ريدافرنس ومن معه من ملوك الفرنج إلى المنصورة. فضربوا في رجل الملك الكبير ريدافرنس القيد، وكذلك جميع من معه من الملوك، واعتقل في الدوار التي كان نازلاً بها كاتب الإنشا فخر الدين بن لقمان، ووكل به الطوشي صبيح المعظمي، وهو أحد خدام الملك المعظم توران شاه بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو من قدم في صحبته من حصن كيفا، فقدمه وأعلا شأنه وعظمه.

وفي هذه الكسرة، وفي اعتقال ملك الإفرنج ريدافرنس في دار فخر الدين بن لقمان وتوكيل الطواشي صبيح به، قال جمال الدين يحيى بن مطروح رحمه الله تعالى:

قل لفرنسيس، إذا جئته، مقال حق عن قوؤل نصيح:
أجزاك الله على ما جرى من قتل عبّاد يسوع المسيح!

أتيت مصرآ، تبتغي أخذها، تحسب ان الزمر بالطبل ربح.
فساقك إلى موضع، ضاق له عن ناظريك الفسيح.
وكل أصحابك أوردتهم، بحسن تدبيرك، بطن الضريح.
خمسون ألف، لا يرى منهم إلا قتيل أو أسير جريح.

[379]

وفقك الله لأمثالها، لعل عيسى منكم يستريح !
إن كان باباكم بدا راضياً، فرب غش قد أتى من نصيح!
وقل لهم إن أخمروا عودة لأخذ تار أو لهد صحيح:
"دار بن لقمان على حالها، والقيد باق، والطواشي صبيح".

قال: ولما جرى ذلك رحل الملك المعظم والعساكر من المنصورة إلى
جهة دمياط، فنزلوا بفارس كور، وهي من أعمال دمياط، وضرب بها دهليز
السلطنة، ونصب إلى جانبه برج خشب كان الملك المعظم يصعد إليه بعض
الأوقات، متراحياً من ثغر دمياط. ولو أسرع على النزول عليها والدخول إليها،
وطلب تسليمها من الملك ريدافرنس، وهو في قبضته لحصل له ذلك في
أقرب الأوقات. لكن أبعده عن ذلك سوء التدبير، الذي اقتضاه بما سبق له من
التقدير.

مقتل الملك المعظم غياث الدين طوران شاه

(ابن واصل 371r.v)

ولما جرى ما ذكرناه من تغير قلوب العسكر منه، خصوصاً ممالك أبيه

[380]

البحرية، اتفق جماعته من ممالك أبيه على قتله، فلما كان بكرة الاثنين
لليلة بقيت من المحرم من هذه السنة، أعني سنة ثمان وأربعين وستماية (2
أيار/مايو 1250) مَدَّ الملك المعظم السماط في دهليزه، وجلس على طراحته،
وأكل الناس بين يديه، وأكل معهم على ما جرت عادته، ثم فرغت الناس من
الأكل وتفرقت الأمرا إلى وطاقتهم، وقام من مجلسه فطلب الدخول إلى
خيمة له صغيرة، فدخل عليه ركن الدين بيبرس، وكان أحد جمداريّة أبيه، وكان
يعرف بالبندقاري، وهو الذي ملك مصر بعد ذلك ولقب الملك الظاهر، وهو
الذي كسر التتر مع الملك المظفر قطز على عين جالوت، ولما ملك، فتح بلاد
الإفرنج مثل صفد والشقيف وأنطاكية وغيرهم من البلاد، وفتح بلاد الاسماعيلية

[381]

وكسر التتر مرات. ، فضرب الملك المعظم بسيفه، فجرحه في كتفه،
ورمى ركن الدين السيف من يده. ورجع الملك المعظم بن الملك الصالح إلى
مجلسه واجتمع حوله الناس وأصحابه وبعض ممالك أبيه، فقالوا له: "أي
شيء جرى؟"، فقال: "جرحتي أحد البحرية"، وكان ركن الدين بيبرس

[382]

البندقاري واقفاً، فقال: "ربما فعل هذا بعض الإسماعيلية" فقال: "ما

فعل بي هذا إلا البحرية"، فخافت البحرية حينئذ وأسسعروا منه. ثم قام وصعد إلى البرج وأحضر الجراحي ليداوي يده. فاجتمع مماليك أبيه، فخافوا لما سمعوه ينسبهم إلى أنهم قصدوا قتله، فانضم هذا إلى ما كان في نفوسهم من إطراحه لهم، فأحاطوا بالبرج، ففتح طاقاته واستغاث بالناس فلم يجبه أحد ولا عانه أحد، ولم تاتي إليه أحد من الأمراء المصرية، لأن الجميع كانت قلوبهم نافرة منهم. وأحضرت نار ليحرق بها البرج، فنزل من البرج، فحمل عليه البندقاري الذي كان جرحه، فهرب على جهة البحر، فكانت فيه حراريق له، فأراد أن يسبق لها ويقتصم بها، فأدركه فارس الدين أقطايا وضربه بالسيف فقتله، رحمة الله عليه، وكان شاباً ما أظنه كان استكمل ثلاثين سنة، ولم أحط علماً بتاريخ مولده. وكان مدة ملكه لمصر شهرين (وأياماً)

الاتفاق على تمليك السر العالي، والدة خليل، شجرة الدر
وعز الدين التركماني ليكون أتابك العسكر

(ابن واصل 372r.v)

ولما جرى ما جرى من قتل الملك المعظم، اجتمعت الأمراء والبحرية عند الدهليز السلطاني، واتفقت كليتهم على أن تكون شجرة الدر والدة خليل

[383]

الملك الصالح نجم الدين أيوب هي القائمة بأمر السلطنة والملك، وأن التواقيع السلطانية تخرج بأمرها واسمها وعليها علامتها. وكانوا عرضوا هذه

[384]

التقدمة على حسام الدين محمد بن أبي علي، وقالوا: "إنت كان الملك الصالح نجم الدين يعتمد عليك، فأنت أحق بهذا الأمر" فامتنع، وأشار بأن يكون الطواشي شهاب الدين الرشيد هو القائم بهذا الأمر، فعرضوا ذلك عليه، فامتنع. فوقع الاتفاق على الأمير عز الدين أيبك التركماني الصالح، فحلف الجماعة كلهم على ذلك. وورد إلى القاهرة الأمير عز الدين أيبك الصالح، وصعد إلى القلعة، وأنهى ذلك إلى والدة خليل بن الملك الصالح نجم الدين أيوب، فصارت الأمور كلها معلقة بها، وصارت تبرز من جهتها علامة ما صورته

[385]

"والدة خليل". وخطب لها بالسلطنة بالقاهرة ومصر وسائر الديار المصرية، وهذا أمر لا يعرف أنه جرى مثله في بلد من البلاد في أيام الإسلام. وأما الحكم والتصرف فقد جرى مثله، فان ضيفة خاتون بنت الملك

[386]

العادل، نظرت في أمر الملك بحلب وبلادها بعد موت ولدها الملك العزيز، إلى أن توفيت، لكن الخطبة بالسلطنة كانت لابن ابنتها الملك الناصر رحمه الله.

قال، ولما قتل الملك المعظم بن الملك الصالح، بقي مطروحا على ساحل البحر، لا يجسر أحد يتقدم إليه، فعدى بعض الملاحين من الجانب الغربي، ودفنه في بر الغرب.

فتح دمياط

(ابن واصل 372v, 373v)

ولما حلف الأمراء والأجناد، واستقرت القاعدة على ما ذكرناه، ووقع الحديث مع ملك الفرنج ريدافرنس في تسليم دمياط للمسلمين، وجعل المتحدث في ذلك الأمير حسام الدين محمد بن أبي علي، الاتفاق الجماعة على الاقتداء برأيه ومشورته لما يعلمون من عدله ومعرفته، واعتماد ملكهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عليه. فجرت بينه وبين ريدافرنس الملك محاورات ومراجعات، حتى وقع الاتفاق في تسليم دمياط، وأن يذهب بنفسه سالماً. قال القاضي جمال الدين بن واصل صاحب هذا التاريخ: حكى لي الأمير حسام الدين قال: كان ريدافرنس ملك الإفرنج عاقلاً فطناً إلى الغاية. قال: حكمت له في بعض محاوراتي في ما مضاه: "كيف خطر للملك، مع ما أرى فيه من فصله وعقله وصحة ذهنه أن يتقدم على خشب ويركب متن هذا البحر ويأتي إلى هذه البلاد المملوءة خلقاً من المسلمين والعساكر، ويعتقد إنما يحصل له ويملكها؟ وفيما فعل غاية التغرير بنفسه وبأهل مملكته". قال: فضحك، ولم يرد جواباً، فقلت له: "إن من شريعتنا من ركب هذا البحر مرة بعد أخرى مغراً بنفسه وماله، لا تقبل شهادته إذا شهد" فقال الملك: "ولم ذلك؟"، قال: فقلت "إنا نستدل بذلك على نقصان عقله، ومن كان ناقص

[387]

العقل لا ينبغي قبول شهادته" قال: فضحك وقال: "إنه قد صدق هذا القائل وما قصّر فيما حكم به". قال صاحب التاريخ وهذا الذي ذكره حسام الدين من قول منقول عن بعض العلماء، لكنه ليس يقوى، لأنه الغالب في ركوب البحر السلامة. وأما ها هنا وجهان: إذا لم يكن للإنسان وصول إلى مكة إلا بركوب البحر، هل يجب عليه الحج؟ فأحد الوجهين لا يجب، لما في ركوب البحر من الخطر والتغرير بالنفس، والثاني يجب، لأن الغالب إنما هو السلامة. ولما وقع الاتفاق بين ريدافرنس والمسلمين على تسليم دمياط، أرسل ريدافرنس إلى من بمدينة دمياط يأمرهم بتسليم البلد إلى المسلمين، فأجابوا إلى ذلك بعد امتناع ومراجعات بينه وبينهم. وسلموا دمياط إلى المسلمين، ودخل العلم السلطاني في يوم الجمعة لثلاث مضي من صفر من هذه السنة، أعني سنة ثمان وأربعين وستماية (7 أيار/مايو 1250)، ورفع العلم السلطاني على سورها، وأعلن فيها بكلمة الإسلام، وأخرج عن ريدافرنس، وانتقل هو ومن بقي من أصحابه إلى البر الغربي، ثم ركب البحر غداة هذا اليوم وهو يوم

السبت، هو ومن معه، وأقلعوا إلى عكا. وأقام بالساحل مدة، ثم رجع إلى بلاده. وظهر الله الديار المصرية منهم، وكانت هذه النصره أعظم من

الأولى ^[388] بأضعاف مضاعفة، لكثرة من قتل منهم واسر، وامتلات الحبوس بالقاهرة من الفرنج. ووردت البشرى بذلك إلى سائر الأقطار وأعلن فيها بالفرج والسرور. ولما رحل ريدافرنس رحلت العساكر متوجهة إلى القاهرة فدخلوها وقد ضربت البشائر بها أياماً متوالية لنصرة المسلمين على الفرنج واسترجاع ثغر دمياط، وهي عقيلة الإسلام وثغر الديار المصرية. وكانت هذه ثانية لأخذ الكفار لها واسترجاعها منهم وانصرافهم مكسورين مغلولين.

مقدمة حملة سان لويس وخاتمتها

(مقرزي، 334 - 335، 356 - 358)

(وبينما كان في طريقه إلى مصر) سير ملك الفرنج إلى السلطان (الملك

^[389]

الصالح) كتاباً، نصه بعد كلمة كفرهم :
"أما بعد فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الامة المحمدية. وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلى منهم الديار. وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية. فلو حلفت لي بكل الأيمان، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان، ما ردني ذلك عن الوصول إليك، وقتالك في أعز البقاع عليك. فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يدي، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليّ، فيدك العليا ممتدة إليّ. وقد عرفتك وحذرتك، من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسيايف القضا."

فلما وصل الكتاب إلى السلطان وقرأ عليه، إغرورقت عيناه بالدموع واسترجع. فكتب الجواب بخط القاضي بهاء الدين زهير بن محمد، كاتب الإنشاء، ونسخته بعد البسملة وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين:

"أما بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك. فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمّرناه. فلو رأت عيناك - أيها المغرور! - حد سيوفنا، وعظم حروبنا، وقنّحنا منكم الحصون والسواحل، وإخربنا منكم ديار الأواخر والأوائل، لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، ولا أن تزلّ بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك.

^[390]

فهناك تسىء بك الظنون، [وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون] .

فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل: [أتى أمُر الله فلا

تستعجلوه] ^[391] ، وكن على آخر سورة ص: [وَلَتَعْلَمَنَّ تَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ] ^[392] . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى، وهو أصدق القائلين: [كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً

كثيرةً يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ] ^[393] ، و(إلى) قول الحكماء: إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك، وإلى البلاء يقلبك، والسلام".

(وبعد النصر في المنصورة، السلطان طوران شاه) كتب إلى الأمير جمال الدين بن يغمور نائب دمشق كتابا بخطه نصه:

"(من) ولده تورانشاه. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وما النصر إلا من عند الله، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، وأما بنعمة ربك فحدث، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها. نبشر المَجْلِسَ السَّامِيَّ الْجَمَّالِيَّ، بل نبشر المسلمين كافة، بما من الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين. فإنه كان قد استفحل أمره واستحكم شره، ويئس العباد من البلاد والأهل والأولاد، فنودوا لا تيأسوا من روح الله. ولما كان يوم الاثنين مستهل السنة المباركة، تمم الله على الإسلام بركتها، فتحنا الخزائن وبذلنا الأموال وفرّقنا السلاح، وجمعنا العربان والمطوعة وخلقنا لا يعلمهم إلا الله، فجاءوا من كل فج عميق ومكان سحيق. فلما كان ليلة الأربعاء تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم، وقصدوا دمياط هاربين. وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل، وقد حلبهم الخزي والويل. فلما أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفاً، غير من ألقى نفسه في اللجج، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج. والتجأ الفرنسيين إلى المنية، وطلب الأمان فأمناه وأخذناه وأكرمناه، وتسلمنا دمياط بعون الله وقوته، وجلاله وعظمته"،

وذكر كلاماً طويلاً.

وبعث (المعظم) مع الكتاب غفارة الملك الفرنسيين، فلبسها الأمير جمال الدين بن يغمور، وهي أشكّر لاط أحمر بفرو سنجاب، (فيها بُكْلَةٌ ذهب). فقال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل:

إن غفارة الفرنسيين التي
جاءت جِباءَ لسيد الأمراء
كبياض القرطاس لونا ولكن
صبغتها سيوفنا بالدماء

وقال (آخر):

أَسَيِّدُ أَمْلَاكِ الزَّمانِ بِأَسْرِهِمْ
تَنَجَّزَتْ مِنْ نَصْرِ إِيَّالِهِ وَغُودَهُ
فَلَا زَالَ مَوْلَانَا يَبِيحُ حِمَى الْعَدَى
وَيُلْبِسُ أَسْلَابَ الْمُلُوكِ عَبِيدَهُ

سان لويس في تونس

(مقرزي، 364 - 365)

واتفق أن الفرنسيين هذا، بعد خلاصه من أيدي المسلمين، عزم على الحركة إلى تونس من بلاد إفريقية^[394] ، لما كان فيها من المجاعة والموتان. وأرسل يستنفر ملوك النصارى، وبعث إلى البابا خليفة المسيح بزعمهم. فكتب (البابا) إلى ملوك النصارى بالمسير معه، وأطلق يده في أموال الكنائس يأخذ منها ما شاء. فأتاه من الملوك ملك الإنكيتار، وملك اسكوسنا، وملك ثورل، وملك برشلونة واسمه ريداركون^[395] ، وجماعة آخر ملوك النصارى.

فاستعد له السلطان أبو عبد الله محمد المستنصر بالله^[396] ابن الأمير أبي زكريا يحيى ابن الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص عمر، ملك تونس، وبعث إليه رسله في طلب الصلح، ومعهم ثمانون ألف دينار. فأخذها (الفرنسيين) ولم يصالحهم، وسار إلى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين وستمائة (21 تموز/لولية 1270)، ونزل بساحل قُزطاجنة في ستة آلاف فارس^[397]

وثلاثين ألف راجل. وأقام (الفرنسيين هناك) ستة أشهر ، فقاتله المسلمون - للنصف من محرم سنة تسع وستين (آخر آب/اغسطس) - قتالا شديدا، قتل فيه من الفريقين عالم عظيم. وكاد المسلمون أن يغلبوا، فأتاهم الله بالفرج وأصبح ملك الفرنجة ميتا، فجرت أمور آلت إلى عقد الصلح ومسير النصارى. ومن الغريب أن رجلا من أهل تونس، اسمه أحمد بن إسماعيل الزيات، قال:

يا فرنسيس هذه أخت مصر
فتأهب لما إليه تصير
لك فيها دار ابن لقمان قبراً

[398]

وطواشيك منكروك ونكير
فكان هذا فألا عليه ومات...، وكان ريدافرنس هذا عاقلا داهيا خبيثا مُفكراً.

القسم الرابع: الممالك وتصفية الصليبيين

بين الأعوام 1265 و1291 تمكن ثلاثة سلاطين

ممالكهم بيبرس (1260-1277) وقلوون (1279-1290) والأشرف (1290-1293) تمكنوا من تفكيك كل ماتبقى من أعمال الحملات الصليبية. المصدر الرئيسي عن جميع

الثلاثة هو معاصريهم ابن عبد الزاهر، رغم أنه لم يصلنا من روايته إلا بعضها وأن أكثرها مازال غير منشور. هناك عن فتوحات بيبرس سيرة ابن عبد الزاهر الموجودة في

المختصر الذي جمعه ابن أخيه شفيق، هذا فضلاً عن وقائع متأخرة كتبها ابن الفرات

والمقرزي والعيني. المقاطع التالية مأخوذة من المصادر المذكورة وفيها أيضاً رسالة

النصر المشهورة المرسله إلى بيمند السادس بعد فتح انطاكية.

بيبرس

ضد طرابلس وأنطاكية
ورسالته إلى بيمند السادس

(ابن عبد الزاهر الاوراق

(v111 - v105)

هذا الحصن (طرابلس الشام) كان

للإسلام قديماً وآخر من كان به بنو عمار. وحاصره بعض ملوك الفرنج عدة سنين، وبني

أمامه حصناً لطول مدة المحاصرة ،

فلما أعيى بني عمار ذلك، تركوا فيه واحداً منهم وذهبوا ليستنصروا ويستنجدوا.
وكان

الذي تركوه منهم بها مختلاً، فقام بأعلاها، ونادى الفرنج أن يدخلوا وتسلموا،
فتسلموها. وآخر من ملكها بيمند السادس بن بيمند الأبرنس. ولما أفضت نوبة
الملك للسلطان الملك الظاهر، صاحب هذه السيرة، وأيد الله به الإسلام،
وصار يبلغه

عن بيمند هذا، من سوء الجيرة وكثرة التعدي والتعرض إلى من يقصد أبوابه،
حتى أنه

ظفر برسل أتو من الكرج، وقد انكسرت مركبهم، فأخذهم وأخذ ما على يدهم
من الكتب

الواردة إلى السلطان، وسيّرهم إلى هولاكو ملك التتار، فأتى على نفوسهم
ونفوس

مرسلهم، إلى غير ذلك من مجاهرة. فاقتضت الغيرة الإسلامية والحمية
الإيمانية، أن

تهياً لقصدها، وأسّر في التهيئة خلاف فأظهر منها، وأقتحم إليها الجبال
والأودية.

وفرق العساكر الإسلامية، فأحاطوا بها الهلاك، وأسروا ونهبوا، وأرعدوا
وأبرقوا،

واستولى على أكثر بلادها، وتركها بما اقتضاه الحزم، وعاد.

قد تقدم ذكر الإغارة على طرابلس

وإنهاك قواها، ورحيله عنها، من غير أن يُعرف إلى أين موه السلطان، فضرب
عدة

دهاليز، جعل باب كل دهليز إلى ناحية لتحجير الأخطار، ثم فرق عساكره قاصداً أنطاكية، وهي في مملكة الإبرنس صاحب طرابلس، فتوجهوا موغلين في القتل والأسر وخراب

الديار وتعقبه الآثار. وقصد السلطان أنطاكية بنفسه، فنزل بها مستهل رمضان سنة ست

وتسعين وستمائة (15 آيار - مايو 1268).

وكان أستاذ داره الأمير شمس الدين أقسنقر الغارقاني، قد وجد في توجهه، جماعة من

فرسان أنطاكية، فضرب معهم رأساً، فأهلكهم عن آخرهم، واسر كند اسطبل، نايبها.

واجتمعت العساكر على أنطاكية من كل جانب ومكان، وحصل الزحف، وملكت الأسوار، وأخذت

البلد، وقتل من بها من الجمع الكبير الكثير. ثم حُصرت القلعة، فأخذت بالأمان، واستقرت في قبضة الإسلام.

وأمر السلطان بالكتابة إلى

[400] الإبرنس، عزاء بفتحها، وخسراناً له برجمها، من إنشاء مؤلفها، رحمه الله ،

ما كان أدراه بمواقع الكتابة، وأظفـره بمظانّ الإصابة، وأنكاه بدسايس كتبه ودفاين

تفتيشه عن مقاصد ملكه وتطلبه. وعند الفرنج أنه لا يجعل إبرنس إلا صاحب أنطاكية،

[401] فخطبه مؤلفها بالقومص، لخروج أنطاكية عنه .

ويتعرض ذلك ما حكاه لي، رحمه الله، قال: كان السلطان قد جهزني رسولاً، صحبة الأمير

[402]

فارس الدين أتاك إلى طرابلس عند تقرير هدنة طرابلس .

وأن السلطان الملك الظاهر دخل معها متنكراً في صورة سلاح دار، ليكشف حال البلدة

ويخبر جهاتها ومكان أخذها. وأنه لما أحضره الإبرنس للحديث فيما وصلا فيه، واستقر

الأمر والسلطان واقف ينظر على رأس الأتابك، ويسمع، أنه أخذ (أخذ)

[403]

فكتب : "واستقرت الهدنة بين مولانا السلطان، وبين القومص... " ولم يكتب الإبرنس،

إن صاحب طرابلس لمحها، واستشيط وقال: "من هو القومص؟" فقلت له:

"أنت" قال: "لا، أنا إبرنس"، فقلت له: "الإبرنس السلطان

الملك الظاهر، لأن الإبرنسية هي لصاحب القدس وأنطاكية واسكندرونه، وهو مولانا

السلطان"، فنظر إلى جيشه الواقف، فارتج المجلس. قال: فغمز السلطان الأتابك

برجله، فقال الأتابك: "يا يحيى الدين، صدقت، وإنما مولانا السلطان قد أنعم

على هذا بلفظة الإبرنس، كما أنعم عليك بتوطينه في مملكته"، فقلت للأتابك:

"إذا عملت هذا فلا بأس"، وكتب عوض القومص الإبرنس. قال مؤلفها: ولما

انفصلنا، وحل مولانا السلطان لمخيمه، أخذ مولانا السلطان يحكيها لأمرء دولته

ويضحك، ويلتفت إلي ويقول: "هذا كان وقته! بعد الله الإبرنس والقومص".

انقضت الحكاية، ونعود إلى إثبات نسخة الكتاب وهي:

[404]

قد علم، القومص فلان ،

أكبر الطائفة العيسوية، والمنتقل إلى اللفظة القومصية - ألهمه الله رشده،
وقرن

بالخير قصده. وجعل النصيحة محفوظة عنده - ما كان من قصدنا طرابلس،
وغزونا له في

عقر الدار، وما شاهد بعد رحيلنا من إخراب العماير وهدم الأعمار، وكيف
كنست تلك

الكنائس من له بساط الأرض، ودارت الدواير على كل دار، وكيف جهلت ثلث
الحساير على

جانب البحر من الأجسام كالجزاير، وكيف قتلت الرجال الحرار، وكيف قطفت
الأشجار، ولم

[405]

يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق ،

إن شاء الله، والستائر، وكيف نهبت الأموال والحريم والأولاد والمواشي،
وكيف استغنى

الفقير وتأهل العازب واستخدم الحذيم، وركب الماشي، هذا وأنت تنظر
المغشي عليه من

الموت، وإذا سمعت صوتا كلت فزعاً على هذا السوط، وكيف رحلنا عنك، لكن
رحيل من

يعود، وأخرناك وما تأخيرك إلا لأجل معدود، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها
ماشية،

إلا وهي بين أيدينا ماشية، ولا جارية إلا وهي في ملكها جارية، ولا سارية إلا
وهي

بين أيدي المغاول سارية، ولا زرع إلا وهو محصود ولا موجود لك إلا وهو منك
مفقود،

وما منعك تلك المغاير التي هي في رؤوس تلك الجبال الشاهقة، ولا تلك
الأودية التي

هي في التخوم مخترقة، والعقول حارقة. وكيف سقنا عنك، ولم يسبقنا إلى مدينتك

أنطاكية خبر، وكيف وصلنا إليها، وأنت تصدق أننا نبعد عنك، وأنت بعدنا فستعود على

الأثر. وها نحن نعلمك بما تمّ، ونفهمك بالبلاء الذي عم: كان رحيلنا عنك من طرابلس

في يوم الأربعاء رابع عشرين شعبان، ونزولنا أنطاكية في مستهل شهر رمضان المعظم،

وفي حالة النزول، فرجت عساكرك للمبارزة، فكُسروا، وتناصروا فما تُصروا، وأسر من

بينهم كذا اسطبل، فسأل في مراجعة أصحابك، فدخل إلى المدينة، فخرج هو وجماعة من

رهبانك وأعيان أعيانك، فتحدثوا معنا، فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض

الفاسد، وأنهم رأيهم في الخير مختلف وقولهم في الشر واحد. فلما رأيناهم قد فات

فيهم الفوت، وأنهم قد قدر الله عليهم الموت، رددناهم، وقلنا نحن الساعة لكم نحاصر،

وهذا هو الأول في الإنذار والآخر، فرجعوا متشبهين بفعلك، ومعتقدين أنك تنجدهم

بخيلك ورجلك ففي بعض ساعة (...) شان المرشان، وداخل [406]

الرهبان (...) البلاء القسطلان وجاءهم الموت من كل مكان وفتحناها بالسيف في

الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان المعظم (18 أيار - مايو)، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحامات عنها. وما كان احد منهم إلا

وعنده شيء من الدنيا. فما بقي أحد منا إلا وعنده شيء منهم ومنا، فلو رأيت خيالتك

وهم صرعى تحت أرجل الخيول، وديارك والنهاية فيها تصول والكسابة فيها تجول، وأموالك

وهو توزن بالقنطار، ودامائك (نساؤك) في كل أربع منها تباع فتشتري من مالك بدينار،

ولو رأيت كنائسك وصلبانها وقد كسرت، وصحفها من الأناجيل المزورة وقد نشرت، وتبور

البطارقة وقد بعثرت. ولو رأيت عدول المسلم وقد داس مكان القداس والمذبح، وقد ذبح

فيه الراهب والقسيس والشماس والبطارقة وقد دهموا بطارقة، وأنباء المملكة وقد دخلوا

في المملكة، ولو شاهدت النيران وهو في تصورك تحترق، والقتلى فكم بدار الدنيا قبل

دار الآخرة تحترق، وتصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسة بولص وكنيسة القُصيان ^[407] وقد

نزلت كل منها وزالت، لكنك تقول "يا ليتني كنت تراباً، ياليتني لم أوت بهذا

الخبر كتاباً" ولكانت نفسك ذابت من حزنك، ولكنك تطفي تلك النيران بماء عبرتك.

ولو رأيت مفانيك وقد أقفرت من معانيك، ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك،

فصارت شوانيك من شوانيك، ولتيقنت أن إلاله الذي أنطاك أنطاكية، منك استرجعها،

والرب الذي أعطاك قلعتها، منك قلعتها، ومن الأرض اقتلعها. ولتعلم أنا قد أخذنا،

بحمد الله، منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام وهو دركوش وشقيف
كفردبين وجميع ما

كان لك في بلاد أنطاكية، واستنزلنا أحمالك من الصياصي، وأخذناهم
بالنواصي،

وفرقناهم في الداني والقاصي. ولم يبق شيء يطلق عليه اسم العصيان إلا
النهر، فلو

[408]

استطاع لما تسمى بالعاصي ،

وقد أجرى دموعه ندماً، وكان يذرفها عبرة صافية، فها هو أجراها بما سفكناه
فيه

دماً. وكتابنا هذا يتضمن البشرى لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر،
بكونك لم

يكن لك في أنطاكية في هذه المدة إقامة، وكونك ما كنت بها، فتكون إما قتيلاً
وإما

جريحاً وإما كسيراً، وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحي، إذا شاهد الميت.
ولعل

الله ما أخرجك إلا لأن تستدرك من الطاعة والخدمة ما فات. ولما لم يسلم أحد
يخبرك

بما جرى، خبرناك. ولما لم يقدر أحد يباشرك بالبشرى بسلامة نفسك وهلاك
ما سواها،

بشرناك بهذه المفاوضة وبأشركناك، لتتحقق الأمر على ما جرى، وبعد هذه
المكاتبة، لا

ينبغي لك أن تكذب لنا خبراً، كما أن بعد هذه المخاطبة يجب أن لا تسأل غيرها
مخبراً.

ولما وصل (هذا الكتاب) انقضى

الكتاب بهذه ورعده، (ولم يصله خبر أنطاكية إلا بهذه الوسيلة).

الاتفاق

مع أوك الثالث، ملك قبرص

(ابن الفرات، 6، 146r

- 147r)

لما فتحت الشقيف، أراد الفرنج أهل

عكا أن يملكوا عليهم ملكاً يصلح أمورهم. وكان بقبرص (بقبرس) ملك

^[409] صغير وله

بال مقدم على عسكره اسمه أوك بن هنري (أوك بن هري) وعمره دون
الثلاثين

^[410] سنة، وهو ابن عم صاحب طرابلس، وهو ابن أخت صاحب قبرص
(السابق)،

والد الصبي الذي ذكرناه. فأيقن أن الصبي مات، وهذا البال فروج عند أصحاب
^[411] أرسوف ،

^[412] ومرجع الملك لهذا الشاب، ولابن خالته ،

وولد خالته أحق بالملك منه، لأن أمه الكبرى: وهذا في اصطلاح الفرنج أنه
مقدم ولد

^[413] الكبرى. وإنما كان غائباً في بلاد سيس ،

فاستولى هذا الشاب على قبرص. ثم استدعاه الفرنج إلى عكا، والمملكة
العكارية منضافة

للملكة القبرصية. فوصل إليها، وحلف له أهل عكا. وورد (في هذا الوقت إلى قيصر

بيبرس) كتاب ملك صور يذكر وصول هذا الملك، وأنه رجل عاقل، وأنه لما وصل (عرض عليه) آراء الفرنج في (أن يطمئنوا) ما أحسنوا مجاورة السلطان، وأنه قال "ما جرى مني

ما يوجب عداوة"، وسأل صاحب صور في أن السلطان يصالحه. ولما عاد السلطان من

(حرب) أنطاكية إلى دمشق. كما قدمنا شرحه، وصلت رسله وجماعة من خيالتهم قريب الماية

تفسي، وأحضروا هدية ومصوغاً وجوارح وغيرها. وحصل الاتفاق بين السلطان الملك

الظاهر (بيبرس) وبين هذا الملك على شيء يسير، وهو مدينة عكا وبلادها، وهي أحد

وثلاثون ضيعة، وتقرر أن حيفا تكون للفرنج ولها ثلاث ضياع، وبقية بلادها مناصفة،

وبلاد الكرمل تكون مناصفة وعسليث تكون (للفرنج؟)، لها ثلاث قرى والباقي مناصفة،

والقرين عشر قرايا (للفرنج؟)، والباقي للسلطان وبلاد صيدا الوطأة (السهول) للفرنج

والجبلية للسلطان، واتفق الصلح على مملكة قبرص. هذا ما استقر عليه الحال في

البلاد كلها، وأن تكون الهدنة لعشر سنين، وإنها لا تنقض برجل غريبة ولا ملك محضرة

في البحر. واشترط (السلطان) عليه إطلاق رهاين البلاد.

قال القاضي محي الدين بن عبد

الظاهر، مؤلف سيرة الملك الظاهر (بيبرس): وتوجهت رسولاً أنا والأمير كمال الدين

ابن شيث، لاستحلاف الملك. وسير السلطان هنا هدية: عشرين نفرًا من أسارى أنطاكية

قسيسين ورهباناً. فدخلنا إلى عكا في رابع وعشرين شوال (666/7 تموز يوليه 1298)

واحتفل بنا احتفالاً كثيراً. وكان السلطان قد وصى بأن لا نتواضع له في جلوس ولا

مخاطبة فلما دخلنا إليه، رأيناه على كرسي هو والمقدمين. فلم نجلس إلى أن وضع لنا

كرسي قبالته، ومد الوزير يده لناخذ الكتاب. فلم نعطه حتى مد الملك يده، وأخذه.

وتوقف في أشياء منها: أنه رغب في مملكة قبرص، يكون لها صلح بمفردها، وأن الصلح

يستقر ما لم تصل رجل غريبة أو أحد من ملوك البحر، وأن الإسماعيلية لا يكون لهم

حديث في الهدنة، واستعفى من حديث الرهاين، وفصول أخر. وعادت رسل السلطان من ملك

الفرنج، ولم يحلف وبقيت الأمور ساكنة. وكان هذا الملك بعكا كلما تكلم يقول:

"أنا أخاف من الملك جارلا (كارلو) أخي ريدافرنس، ولا أقدر أبث صلحاً خوفاً

[414]

منه".

والله أعلم.

(ابن عبد الزاهر، 117v)

كانت هذه عكا، حين المهادنة، بلا

ملك، فملكنت لشخص من فرنج قبرص. فلما وليّها هذا المذكور، كتب إلى السلطان مترامياً

إليه، خاطباً مودته، سائلاً استقرار الهدنة على ما هي عليه، وسيّر هدية نفيسة مثمنة. فما كره السلطان منه ذلك، وقبل تودده وعوّضه بهدية. فسأل الملك المذكور أن

تكون المهادنة باسمه، ودخل في الطاعة والفراعة، فأجاب السلطان. فحلف له على

المهادنة وسيّر لتحليفه صاحب محي الدين ^[415] مؤلفها،

وكمال الدين بن شيث. وحكى لي محي الدين المشار إليه، قال: لما استحضرنا هذا

الملك، وجدناه على سرير مرتفع، وأراد أن يكون فوق ونحن أسفل، فأبى لنا الإسلام

ذلك، فرفعنا إليه، وأخذنا معه في الحديث، فأخذ يُمغِلط، ويدخل حديثاً في حديث،

فأغلظت عليه، فنظر إليّ بعين المغضب، فقال للترجمان: "قل له ينظر إلى من

وراه"، فنظرت، فإذا به قد صف جنده وحملهم، وقال له: "قل له، انظر إلى

هذه الكثرة"، فنظرت وأطرقت، فقال للترجمان: "قل له: أيش تقول فيما

رأيت؟"، فقلت: "قله ولي الأمان؟" فقال له "نعم" قلت

"عرف الملك أن عندنا في خزانة البنود، وهو حبس بمملكة السلطان بمصر، أساري من

الفرنج أكثر من هؤلاء؟"، فاغضب وصلّب وجهه وقال: "وحق ديني ما أسمع لهم

رسالة في هذا اليوم" فانصرفنا ثم استحضرنّا، فحلفناه. واستقرت الهدنة إلى

الأيام السلطانية الملكية المنصورية القلاونية^[416].

ذكر

بعض أخبار حصن الأكراد وفتحه^[417]

(ابن الفرات 189 - 190v) كان هذا الحصن قديماً يسمى حصن

السفح. منتخب الدين يحيى بن أبي طي النجار الحلبي^[418]،

في تاريخه في سبب نسبته إلى الأكراد أن الأمير شبل الدين نصر بن مرداس صاحب

حمص أسكن في هذا الحصن قوماً من الأكراد في سنة اثنين وعشرين وأربعماية (1031) فنسب إليهم، فلما أن كانت أيام الأتابك طغتكين بدمشق وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج

على أن يكون حصن الأكراد وحصن مصياف داخلين في المودعة، ولحمل أهلها مالا معيناً

في كل سنة إلى الفرنج، قاوموا (فداوموا) على ذلك مدة. وذكر ابن عساكر^[419] أن

صنجيل (رايموند)، لعنه الله تعالى، منذ (سار) لطرابلس الشام كان لا يقطع الغارات

عن هذا الحصن وما قاربه من الحصون. ثم أنه قصده في سنة ست وتسعين وأربعماية (1103) وحاصره وضيق عليه وأشرف على أخذه. واتفق قتل جناح الدولة، صاحب حمص، فطمع في حمص

[420]

ورحل عن حمص الأكراد، واتفق هلاكه. وتولى ولده بدران (برتراند) ،
فجرى على عادة أبيه في أذية هذا الحصن وإفساد أعماله، فخاف من كان فيه.
وتوجه

لحصار بيروت. فخرج طنكلي صاحب أنطاكية واستولى على أكثر البلاد، وداراه
أهل بلاد

الشام، فنزل على هذا الحصن، وأهله في غاية ما يكون من الضعف. فسلمه
صاحبه إليه،

وكان يرجوا أنه يبقيه فيه لأنه اختاره على صنجيل، فأنزل أهله منه واجبره
صحبه،

ورتب فيه من يحفظه من الفرنج. انتهى ما ذكره (ابن عساكر).

وقيل أن طنكريك، صاحب أنطاكية، خرج

من أنطاكية ونزل على حصن الأكراد، وتسلمه من أهله في بقية سنة ثلاث
وخمسمائة (1110)،

ولم يزل بيد الفرنج إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى. وذكر ابن منقذ
في كتاب

[421]

البلدان ،

أن الشهيد الملك العادل نور الدين محمود، صاحب الشام، رضي الله عنه كان
قد عامل

بعض رجاله التركمان المستخدمين في جهة الفرنج أصحاب حصن الأكراد،
على أنه إذا قصده

الشهيد يثور هو وجماعة من أصحابه في الحصن، ويرفعون علم نور الدين
الشهيد على

الحصن، وينادون باسمه وكان هذا التركماني له أولاد وأخوة قد وثق لهم الفرنج في هذا

الحصن، وكانت العلامة بينه وبين الملك العادل نور الدين الشهيد، أنه يقف على رأس

باشوره. فاتفق أن الشهيد لم يطلع أحداً على هذا الأمر، وتقدمت العساكر، فرأوا

التركماني فرموه فقتلوه، واشتغل أهله بوفاته وبطلت الحيلة.

ولم يفتح السلطان صلاح الدين

يوسف بن نجم الدين أيوب فيما فتح من بلاد الفرنج، ولم يزل الحصن بيد الفرنج

إلى أن أغار الملك الظاهر ركن الدين بيبرس الصالحي على طرابلس في هذه السنة (669/1271) ما قدمنا شرحه. وفي تاسع شهر رجب (2 شباط/فبراير)

الفرد من هذه السنة، نازل السلطان الملك حصن الأكراد، وفي العشرين منه (4 آذار/مارس)

[422]

أخذت أرباص حصن الأكراد، ووصل الملك المنصور، صاحب حماة ،

بعسكره. فالتقاء السلطان، وترجل لترجله وساق السلطان تحت صناجق صاحب حماة بغير

جمدارية ولا سلاح داريه، تأدبا مع صاحب حماة. وسير إليه دهليز أمر بنصبه. ووصل

الأمير سيف الدين، صاحب صهيون وصاحب دعوة الإسماعيلية القياجب نجم الدين. وفي آخر

شهر رجب، الشهر المذكور، تكمل نصب عدة مجانيق. وفي سابع شعبان (22 آذار/مارس)

من هذه السنة، أخذت الباشورة بالسيف، وجعل للسلطان مكان يرى منه
النشاب، وصار يعطي

المال والخلع. وفي سادس عشر شعبان، الشهر المذكور، (31 آذار/مارس)
تشقق برج من أبراج القلعة، وزحف الناس فطلعوا على القلعة وتسلموها،
وطلع الفرنج

على القلعة، وأحضرت جماعة من الفرنج والنصارى، فأطلقهم السلطان
صدقة من الملك

[423]

السعيد .

ونقلت المجانيق إلى القلعة ونصبت بها على التلة. وكتب السلطان كتباً على
لسان مقدم

الفرنج بطرابلس إلى من بالقلعة يأمرهم بالتسليم. ثم طلبوا الأمان، فكتب
لهم أمان

على أن يتوجهوا إلى بلادهم. وفي يوم الثلاثاء رابع وعشرين شعبان (7 نيسان/
ابريل)،

الشهر المذكور، خرج الفرنج منها وجهزوا إلى بلادهم، وتسلم السلطان
الحصن.

وكتب إلى مقدم بيت الأستار، صاحب

[424]

حصن الأكراد، كتاب بالبشارة، منه هذه المكاتبة "إلى افرير اوک ،

جعلك الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر
والظفر، ولا

يعتقد أنه ينجي من أمر الله الحذر ولا يحمي منه حجر البناء ولا مبنيّ الحجر.
يعلمه

مما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذي حصنته وبنيته وحليته. وكنت الموفق
لو اخليته^[425] .

واتكلت في حفظه على أخوته، فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه، فضيعوه
وضيعوك. وما

كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى أو تخدم سعيداً ويشقى". ورتب
السلطان

الأمير صارم الدين الكافري نايباً لحصن الأكراد، وفوض عمارته للأمير عز
الدين

الأكرم والأمير عز الدين أيبك الشيخ وقبض السلطان وهو يحاصر حصن
الأكراد نفرين،

كانا سيرا من العليقة^[426] إلى

صاحب طرابلس، وقد رتب معهم اغتيال السلطان الملك الظاهر. فلما حضر
الصاحب نجم

الدين، أنكر السلطان عليه ذلك، ثم أطلقهما.

الهجوم

الفاشل على قبرص

(العينى 239-242)

وقال ابن كثير^[427] : لما فتح الملك السعيد بن الظاهر حصن الأكراد جعل
كنيستها جامعاً وأقام فيه

الجمعة، وولى السلطان فيه نائباً وقاضياً، وأمر بعمارة البلد. ثم أنه بلغ
السلطان

وهو مخيم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى
عكا، لينصر أهلها

خوفا عليهم من الملك الظاهر، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث جيشا كثيفا

في سبعة عشر شينيا ليأخذوا جزيرة قبرس في غيبة صاحبها عنها. فسارت المراكب مسرعة،

فلما قاربت الجزيرة جاءتها ريح قاصف، وصادفت بعضها بعضا، فتحطم منها أحد عشر مركبا

بإذن الله عز وجل، فغرق خلق وأسر الفرنج من الصنائع والرجال قريب من ألف وثمانمائة

إنسان، إنا لله وإنا إليه راجعون.

[428]
وقال بيبرس في

تاريخه: هذه الطامة التي حصلت على المسلمين بعد فتح القرين، فقال: خرج السلطان من

دمشق بعد فراغه من الجهات التي ذكرناها في العشر الآخر من شوال، (اوائل حزيران/يونية

[429]
1271) وسار إلى القرين ونازله

في ثاني ذي القعدة (13 حزيران/يونية)،

وأخذت باشورته، وسأل من فيه الأمان، فكتب لهم أمانا، وتقرّر خروجهم وتوجّههم حيث

شاءوا، وأنهم لا يستصحبون مالا ولا سلاحا. وتسلم السلطان الحصن وأمر بهدم قلعته،

ثم سار عنه ونزل اللجون، وتقدمت مراسمه إلى النواب بالديار المصرية وتجهيز

الشواني وتسفيرها إلى قبرس، فجهزها النواب، وسفروها صحبة مقدم البحر
ورؤساء

الخلافة. فلما وصلت إلى مرسى النمسون تحت قبرس جنّها الليل، وتقدّم
الشيني الأول

داخلا على أنه يقصد الميناء، فصادف الشعاب في الظلماء، فانكسر. وتبعه
الشواني

واحدا فواحدا، ولم تعلم بما أصابه، فانكسروا في دجى الليل جميعا، وأسرههم
أهل قبرس.

وكان ابن حسون المقدم قد أشار برأي، تطيّر الناس منه، وهي أن تطلّى
الشواني

بالقار، ويعمل عليها الصلبان لتشبته على الفرنج بشوانيههم، فيتمكن من
موانيههم،

فاقتضى تغيير شعارها بما أراد الله من انكسارها. وورد كتاب صاحب قبرس
إلى السلطان

يخبر بأن شواني مصر وصلت إلى قبرس، وكسرها الريح وأخذتها، وهي أحد
عشر شينيا، فأمر

السلطان بأن يكتب جوابه، فكتب إليه هذه المكاتبة:

إلى حضرة الملك أوك، جعله الله ممن

يوفى الحق لأهله، ولا يفتخر بنصر إلا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثله، نعلمه
أن

الله إذا أسعد إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليسير، وأحسن له التدبير فيما

[430]

جرت به المقادير ،

وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدّة من شوانينا وصار بذلك ينجح، وبه يقرح،
ونحن

الآن نبشره بفتح القرين، وأين البشارة بتملك القرين من البشارة بما كفى
الله ما كنا

من العين، وما العجب أن يفخر بالاستيلاء على حديد وخشب، الاستيلاء على
الحصينة هو

العجب، وقد قال وقلنا، وعلم الله إن قولنا هو الصحيح، واتكل واتكلنا، وليس
من اتكل

على الله وسيفه كمن اتكل على الريح، وما النصر بالهواء مليح، إنما النصر
بالسيف هو

المليح، ونحن ننشئ في يوم واحد عدّة قطائع، ولا ينشأ لكم من حصن قطعة،
ونجهزّ مائة

قلع ولا يجهزّ لكم في مائة سنة قلعة، وكلّ من أعطى مقداً قذّ، وما كلّ
من أعطى

سيف أحسن الضرب به أو عرف، وإن عدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا
من بحرية

المراكب ألوف، وأين الذين يطعنون بالمقاديف في صدر البحر من الذين
يطعنون بالرماح في

صدر الصفوف، وأنتم خيولكم المراكب ونحن مراكبنا الخيول، وفرق بين من
يجريها

كالبحار ومن تقف به في الوحول وفرق بين من يتصيد الصقور من الخيل
العراة، وبين من

[431]

إذا افتخر قال: تصيدت بغراب ،

فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة، وإن
استوليتم على

سكان فكم أخلينا بلادكم من سكان، وقد كسبت وكسبنا، فيرى ايّنا أغنم، ولو
أن في

الملك سكوتا كان الواجب عليه أن سكت وما تكلم.

لم تكن سلطنة قلاوون أقل قيمة من

سلطنة بيبرس، لابل إنها كانت أكثر انسانية. كما أن قلاوون اشتهر بعلاقاته مع مابقي

من دويلات مسيحية في سورية، وبتوقيع سلسلة من المعاهدات مع الديوية وعكا ومرعريت

صاحبة صور، والتي حفظ نصوصها كلها ابن عبد الزاهر في كتابه عن ذلك السلطان (تشریف)

الأيام والعصور). لكن قلاوون تابع أيضاً تفتيت الممتلكات اللاتينية في الأراضي المقدسة

وتوج عملياته بأخذ طرابلس (1289) وكان المؤرخ أبو الفدا شاهد عيان على ذلك (وهناك رواية أخرى أقدم، نقلها مقرزي).

بعد سقوط طرابلس لم يبق للفرنجة إلا منطقة عكا وبعض المدن الساحلية.

اتفاق

قلاوون مع ديويّه طرطوس

(ابن عبد الزاهر، تشریف، 38 v - 44 v) وفي هذه السنة (681/1282) استقرت الهدنة بين مولانا الملك السلطان المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك

الصالح علاء الدنيا والدين، وبين المقدم افرير كليام ديباجوك مقدم بيت الديوية

[432]

بعكا والساحل، وبين جميع الأخوة الديوية بانطرطوس ،

لمدة عشر سنين كوامل متتاليات وعشرة شهور، أول ذلك يوم الأربعاء
خامس المحرم سنة

إحدى وثمانين وستماية للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للخامس عشر من
نيسان/أبريل

سنة ألف خمس مائة وثلاثة وتسعين لاسكندر بن فيلبس اليوناني^[433] 15)
نيسان/أبريل

(1282)، على بلاء مولانا

السلطان والملك المنصور، وبلاء ولده السلطان الملك الصالح علاء الدين
علي^[434] ،

وعلى كل ما هو داخل في مملكتها من الديار المصرية وأعمالها وثورها
وموانئها،

والبلاد الشامية وثورها وحصونها وقلاعها وسواحلها وموانئها، والمملكة
الحمصية

وبلادها وأعمالها، وقلاع الدعوة وبلادها وأعمالها، ومملكة صهيون وبلاطئس،
وجبله

واللاذقية وما أضيف إلى ذلك، والمملكة الحموية وبلادها وأعمالها، والمملكة
الحلبية

وأعمالها وبلادها والفراتية وبلادها وأعمالها، والفتوحات الساحلية وبلاد حصن
الأكراد وبلادها وأعمالها داخل فيها ومنسوب إليها ومحسوب منها حين استقر
أن هذه

الهدنة، من بلاد وقرى ومزارع ومزارجات وأرض وأبراج وطواحين وغير ذلك،
ومملكة

صافيتا وبلادها وأعمالها وقراها وأسوارها، وما استقر لها، وأنصاف القرى
والبلاد

إلى آخر وقت. والميعار وأعمالها، والغريمة وأعمالها وما هو مستقر لها
ومنسوب

إليها، وحلبُ وأعمالها، وعرقا وأعمالها، وطيبوا وأعمالها، وقلعة حصن الأكراد
وأعمالها وبلادها، والقليعات وأعمالها وبلادها، بكمالها وبلادها وما وقع الاتفاق
عليه في مناصفات بلاد المرقب، وكل ما تضمنته الهدنة لهم المستقرة في
الأيام

المنصورية، وكلما في هذه البلاد القريب منها والبعيد، والمحادر والمجاور وغير
ذلك

من عامر ودائر، وسهل ووعر، وبر وبحر ومواني وسواحل، وما هو في هذه
البلاد من

طواحين، وأبراج وبساتين وأنهار ومياه وشجيرات وَدَحَل (آبار)، وكلما سيفتحه
الله،

على يد مولانا السلطان الملك المنصور، ويد ولده السلطان الملك الصالح،
وعلى يد

مقدمي جيوشه وعساكره، من حصون ومدن وقلاع وقرى، وما تخلل ذلك من
سهل وجبل وعامر

ودائر وأنهار وبساتين وموان وسواحل وبروز. وعلى انطرطوس الجارية في
بيت الديوية،

وعلى بلادها المستقرة إلى آخر وقت، عند استقرار هذه الهدنة المباركة، وما
انضاف

إلى بلادها من بلاد العريمة وميعار، بمقتضى الهدنة الظاهرية^[435] التي

حمل الأمر على حكمها. وهي سبعة وثلاثون ناحية، على ما فُصِّل في الهدنة
على كل ما

تحويه بلاد مولانا السلطان جميعها من المقدام افرير كليام ديباجوك، مقدم بيت

الديوية، ومن ساير الأخوة بانطروطوس، من جميع الخيالة والتركُبلية والفرسان وسائر

أجناس الفرنجية.

لا تخطي أحد من انطروطوس وبلادها

وميناها وسواحلها إلى بلاد مولانا السلطان الملك المنصور وبلاد ولده السلطان الملك

الصالح، ولا إلى قلاعهما ولا إلى حصونها ولا إلى بلادهما ولا إلى أراضيها، ما عين

في الهدنة وما لم يعين. وتكون انطروطوس وبلادها المعينة في الهدنة، ومن بها من

الأخوة والفرسان والرعايا وغيرهم، القاطنين والمترددين، آمنين مطمئنين من مولانا

السلطان الملك المنصور أو من ولده، ومن عساكرهما، ومن هو داخل في حكمهما، لا يتخطى

أحد إلى انطروطوس ولا إلى بلادها ولا رعاياها، بمكروه ولا غارة، إلى انقضاء الهدنة.

وعلى أن الممنوعات تستمر على قاعدة المنع.

وعلى أنه متى انكسر مركب أو إنعاب

من بلاد مولانا السلطان، ومن المترددين إليها، وغيرها من ساير البلاد والأجناس

والناس، في ميناء انطروطوس وسواحلها وبروزها الداخلة في هذه الهدنة يكون كل من فيها

آمنين على النفوس والأموال والمتاجر والبضائع والرجال. فإن وجد صاحب
الذي انكسر أو

إنعاب، يسلم إليه مركبه وماله، وإن عدم بموت أو غرق، فيحتفظ بموجوده،
ويسلم لنواب

مولانا السلطان. ويكون هذا الحكم لما ينكسر في بلاد مولانا السلطان من
مراكب

انطرطوس.

وعلى أن لا تجدد في بلاد انطرطوس،

المعينة في هذه الهدنة، قلعة ولا برج ولا حصن، ولا ما يُتَحَصَّن به من حفر
خندق، ولا

غير ذلك.

الاتفاق

مع عكا

(ابن عبد الزاهر، 69 r

- 85 v)

وفي هذه السنة (682/1283) أجاب مولانا السلطان مسألة أهل عكا، عندما
تكررت رسلهم إلى خدمته في الشام ومصر

بسبب الصلح، ومنعهم من الحضور في البر، وأنهم لا يحضرون إلا في البحر إن
أرادوا

الحضور، فحضروا في البحر وآخر الأمر أنهم نزلوا على حكمه، بعد أن كانوا
اشتطوا عند

[436]

انقضاء الهدنة الظاهرية .

(وفي صفر من هذا العام (آيار/مايو

1283) وصل رسل الإفرنجية

وأعيان عكا ووقعوا على الهدنة) وحلف مولانا السلطان عليها بحضور رسل
الفرنجية، وهم

نفران من بيت الديوية أخوة، ونفران من بيت الأسبتار أخوة، ومن المملوكية
فارسان

هيام، والي الولاة والوزير فهد. وهي (نص الهدنة):

استقرت الهدنة بين مولانا السلطان

الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدين الدنيا والدين علي،
خلد الله

سلطانهما، وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليث وبلادها التي انعقدت عليها
الهدنة،

[437]

وهم السنجال أود، كفيل المملكة بعكا ،

والمقدم افرير كليام ديباجول، مقدم بيت الديوية، والمقدم افرير نيكول
للورنى،

مقدم بيت أسبتار الأمن (الأرمن)، لمدة عشر سنين كوامل وعشرة شهور
وعشرة أيام

وعشرة ساعات. أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأولى سنة اثنين
وثمانين وستماية

للهجرة النبوية، الموافق للثالث من حزيران/يونية

سنة ألف وخمسمائة أربعة وتسعين لاسكندر بن فيليبس اليوناني (3 حزيران/
يونية

1283). على جميع بلاد مولانا

السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين،
على جميع

القلاع والحصون والبلاد والممالك والأعمال والمدن والقرى والمزارع
والأراضي، وهي ^[438] مملكة

الديار المصرية وما بها من الثغور والقلاع والحصون الإسلامية، وثغر دمياط
وثغر

الإسكندرية ونسّروه وسنترّية، وما ينسب إلى ذلك من المواني والسواحل
والبروز،

وثغر فوّه وثغر الرشيد والبلاد الحجازية، وثغر غزة المحروس، وما معها من
المواني

والبلاد والمملكة الكركية والشوبكية وأعمالها، والصلت وأعمالها، وبصرى
وأعمالها،

ومملكة الخليل، صلوات الله وسلامه عليه، ومملكة القدس الشريف وأعمالها،
والأردن

وبيت لحم وأعماله وبلادها وجميع ما هو داخل فيها ومحسوب منها، وبيت
جبريل، ومملكة

نابلس وأعمالها، ومملكة الأطرون وأعمالها، وعسقلان وأعمالها وموانئها
وسواحلها،

ومملكة يافا والرملة ومينائها وأعمالها، وأرسوف وأعمالها ومينائها، وقيساريّة

ومينائها وسواحلها وأعمالها، وقلعة قاقون وأعمالها وبلادها، ولدّ وأعمالها،
وأعمال

العوجا وما معها من الملاحّة (المملحة)، وبلاد الفتوح العيد وأعمالها ومزارعها

وبيان وأعمالها ومزارعها، والطور وأعماله، واللجون وأعماله، وجنين وأعمالها،
وعين

جالوت وأعمالها، والقيمون وأعماله وما ينتسب إليه، وطبرية وبحيرتها
وأعمالها وما

معها، والمملكة الصفدية وما ينتسب إليها، وتبنين وهونين وما معها من البلاد
والأعمال، والشقيف، المعروف بشقيف أرنون، وما معه من البلاد والأعمال
وما هو منسوب

إليه، وبلاد القرن وما معه، خارجاً عما عين في هذه الهدنة، ونصف مدينة
أسكندرونة

ونصف ضيعة مارون بقراها وكرومها وبساتينها وحقولها، وما عدا ذلك يكون
جميعه

بحدوده وبلاده لمولانا السلطان ولولده، والنصف لمملكة عكا، والبقاع
العزيري^[439] وأعماله،

ولشقرا وأعمالها، وشقيف قيرون وأعماله، وقلعة الصبية وما معها من
البحيرات

وأعمالها، وكوكب وأعمالها وما معها. وقلعة عجلون وأعمالها، ودمشق
والمملكة

الدمشقية ومالها من القلاع والبلاد والممالك والأعمال، وقلعة بعلبك وما معها
وأعمالها، ومملكة حمص وما لها من الأعمال والحدود، ومملكة حماة ومدينتها
وقلعتها

وبلادها وحدودها، وبلاطئس وأعمالها، وصهيون وأعمالها، وئزريّة وأعمالها،
وفتوحات حصن الأكراد وأعماله، وصافيتا وأعمالها، وميعاز وأعمالها، والغُرّيمة
وأعمالها، مرقية وأعمالها، وحلب وأعمالها، وحصن عكا وأعماله وبلاده،
والقُليعة

وأعمالها، وقلعة شيزر وأعمالها، وأفامية وأعمالها، وجبلّة وأعمالها، وأبو قُبيس

وأعماله، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد والحصون،

[440]

وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتوحات المباركة ،

وبُغراس وأعمالها، والدريساك وأعماله، والراوندان وأعمالها، وحارم وأعمالها،

وعينتاب وأعمالها، وتيزين وأعمالها. وسيح الحديد وأعماله، وقلعة نجم وأعمالها،

وشقيف دير كوش وأعمالها، والشغر وأعماله، وبَكاكس وأعماله، والسويدا وأعمالها،

والباب وبَزاعا وأعمالهما، والبيرة وأعمالها، والبيرة وأعمالها، والرحبة

وأعمالها، وسلمية وأعمالها، وشميمس وأعمالها، وتدمر وأعمالها، وما هو منسوب إلى

جميع ذلك ما عين وما لم يعين.

(الأمان مكفول في كل هذه البلاد) من الحكام بمملكة عكا، وهم: كفيل المملكة والمقدم افرير كليام ديباجول مقدم بيت

الديوية، والمقدم افرير نيكول للؤرّن مقدم بيت الأستبار، والمرشال افرير كورّات

نايب مقدم بيت أستبار الأمّن، ومن جميع الفرنج الأخوة والفرسان الداخلين في

طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية، ومن جميع الفرنج على اختلافهم الذين يستوطنون عكا

والبلاد الساحلية الداخلة في الهدنة، من كل واصل إليها في بر وبحر على اختلاف

أجناسهم وأنفارهم. لا ينال بلاد مولانا السلطان الملك المنصور، وبلاد ولده السلطان

الملك الصالح - ولا حصونها ولا قلاعهما ولا بلادهما ولا ضياعهما ولا عساكرهما ولا

عربهما ولا تركمانهما ولا رعاياهما على اختلاف الأجناس، ولا ما تحويه أيديهم من المواشي

والأموال والغلال وسائر الأشياء - ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية،

وكذلك كلما يستفتحه مولانا الملك السلطان المنصور وولده السلطان الملك الصالح، على

يدهما ولا عساكرهما وثوابهما من بلاد وحصون وقلاع وملك وولايات، برأً وبحراً،

سهلاً وجبلاً.

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي

استقرت الآن عليها الهدنة من البلاد الساحلية، وهي مدينة عكا وبساتينها وأراضيها

وطواحينها وما تحصّن بها من كرومها، وما لها من حقوق حولها، وما تقرر من بلاد في

هذه الهدنة، وعدتها بما فيها من مزارع، ثلثه وسبعون ناحية، خاصاً للفرنج. وكذلك حيفا

والكروم والبساتين، والعدة بحيفا سيع نواحي، وكذلك مارينا بأرضها، المعروفة بها،

تكون للفرنج، وكذلك دير السياج (?) أو دير مار إلياس يكون للفرنج ويكون لمولانا

السلطان من بلاد الكرمل خاصاً عكا والمنصورة، وهي ثلث عشرة ناحية، للفرنج وعثليث،

القلعة والمدينة والبساتين التي قطعت، والكروم وفلاحتها وأراضيها، تكون لها، ويكون

لها من البلاد ستة عشر ناحية. وتكون خاصا لمولانا السلطان ما يذكر، وهو قرية

الهراميس بكاملها وحقوقها ومزارعها، وبقية بلاد عثليث تكون مناصفة، خارجا عما

للخاص الشريف، وعما لخاص عثليث تكون مناصفة، وهي ثمان نواحي. وفلاحة الأسبتار بعمل

قيساريه يكون خاصا للفرنيج بما فيها. ونصف مدينة اسكندرونة ونصف قرية مارون بما

فيها للفرنيج، وما عدا ذلك يكون لمولانا السلطان. ومهما كان في اسكندرونة وقرية

مارون من الحقوق والغلة، يكون مناصفة. وصيدا، القلعة والمدينة وضواحيها وجميع ما

ينتسب إليها، يكون خاصا للفرنيج، ويكون لها من البلاد خاصا خمس عشرة ناحية، وما في

الوطأة من أنهار ومياه وعيون وبساتين وطواحين وقنى ومياه جارية وسكور (سدود)، لهم

بها عادة قديمة تسقي أراضيهم، يكون خاصا لها. وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها، تكون لمولانا السلطان ولولده بكاملها. وتكون هذه البلاد العكاوية، وما عين

في الهدنة، أمانة من مولانا السلطان ومن ولده ومن عساكره وجيوشه، ما هو خاص وما هو

مناصفة أمانة مطمئنة، ومن بها.

وليس للفرنيج أن يحددوا في غير عكا

وعثليث وصيدا، مما هو خارج عن الأسوار في هذه الجهات الثلاثة، سورا ولا قلعة ولا

برجا ولا حصنا قديما ولا مستجدا.

وعلى أن شواني مولانا السلطان

وشواني ولده، متى عمرت وخرجت، لا تتعرض لأذية البلاد الساحلية التي
انعقدت الهدنة

عليها، وإذا قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات، وكان صاحب تلك
الجهة

معاهدا للحكام بمملكة عكا، ولا تدخل إلى البلاد التي انعقدت الهدنة عليها، ولا

تتزود منها، وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني، معاهدا
للحكام بمملكة

عكا، فلما أن تدخل إلى بلادها وتتزود منها: وإن انكسر شيء من هذه الشواني
-

والعياذ بالله - في مينا من المواني التي انعقدت الهدنة عليها وسواحلها، فإن
كانت

قاصدة إلى من له مع مملكة عكا عهدا أو مع مقدمها، فيلزم كفيل المملكة
بعكا ومقدمي

البيوت حفظها، ويمكن رجالها من الزوادة وانصلاح ما انكسر والعود إلى البلاد

الإسلامية، ويبطل حركة ما انكسر منها أو ترميه في البحر. فإن لم يكن للذي
تقصده

الشواني معهم عهد وانكسرت، فلها أن تتزود وتعمر رجالها من البلاد المنعقدة
عليها

الهدنة، وتتوجه إلى الجهة المرسوم بقصدها، ويعهد هذا الفصل بين الجهتين.

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك

البحر الفرنجية، وغيرهم من جؤا البحر، لقصد الحضور لحضرة مولانا
السلطان، أو حضرة

ولده، في بلادهما المنعقدة عليها الهدنة، فليلتزم نايب المملكة والمقدمون بعكا،

تعريف مولانا السلطان بحركتهم، قبل وصولهم إلى البلاد بمدة شهرين، وإن وصلوا بعد

انقضاء مدة شهرين فيكون كفيل المملكة بعكا والمقدمون بُرَّاءً (بريئين) من عهدة

اليمين في هذا الفصل.

وإن تحرك عدد من جهته التتار

وغيرهم، فأَي من سبق إليه من الجهتين، فيعرف الجهة الأخرى. وعلى أنه إن قصد البلاد

الشامية - العياذ بالله - عدد من التتار وغيرهم في البر، انحازت العساكر قدامهم

ووصل العدد إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، وقصدوها بمضرة،

فلكفيل المملكة بعكا والمقدمين بها أن يداروا عن نفوسهم ورعيّتهم وبلادهم بما تصل

قدرتهم إليه. فإن حصل جفل - والعياذ بالله - من البلاد الإسلامية إلى البلاد

الساحلية الداخلة في هذه الهدنة، فيلزم كفيل المملكة بعكا والمقدمين حفظهم والدفع

عنهم ومنع من تقصدهم بضرر، يكونون آمنين مطمئنين بما معهم. وعلى نايب المملكة

بعكا، والمقدمين يوصون في ساير البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها، أنهم لا

يمكنون حراميّة البحر من الزوادة من عندهم، ولا من حمل ماء، وإن ظفر بأحد منهم

يمسكوه، وإن باعوا عندهم بضائع يمسكوا، حتى يحضر صاحبها وتسلم إليه، وكذلك يعتمد

مولانا السلطان في أمر الحرامية هذا الاعتماد.

وعلى أن تكون كنيسة الناصرة، وأربع

بيوت من أقرب البيوت، لزيارة الحجاج وغيرهم من دين الصليب، كبيرهم وصغيرهم، على

اختلاف أجناسهم وأنفارهم من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة. ويصلى

بالكنيسة الأقسّاء والرهبان، وتكون البيوت لزوار كنيسة الناصرة خاصة، ويكونون

أمينين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة. وإذا

تُقيت الحجارة التي بالكنيسة، ترمى برأً، ولا يحط منها حجر على حجر لأجل بناء. ولا

[441] يتعرض إلى الأقسّاء والرهبان في ذلك على وجه الهبة بغير حق .

وتضمنت الهدنة تقرير الشروط الجاري

بها العادة. ولما حلف مولانا السلطان على هذه الهدنة، توجه الأمير فخر الدين أياز

أمير حاجب، والقاضي بدر الدين بن رزين، لتحليف الفرنج، فحلفوا واستقر ذلك.

صيغة

قسم السلطان في هذه الهدنة

(ابن الفرات 7، 181 v - 182 r) والله والله والله، وبالله وبالله

وبالله، وتالله وتالله، والله العظيم الطالب الغالب الضار النافع الملاك
المهلك، عالم ما بدا وما خفا، عالم السر والعلانية الرحمن الرحيم. وحق
القرآن ومن

أنزله ومن انزل عليه، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم، وما يقال
فيه

من سورة سوره وأية آيه، وحق شهر رمضان انني أفي بحفظ هذه الهدنة
المباركة، التي

استقرت بيني وبين ملك عكا والمقدمين بها على عكا وعسليت وصيدا وبلادها،
التي

تضمنتها هذه الهدنة، التي مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام
وعشرة ساعات،

أولها يوم الخميس خامس شهر ربيع الأول، سنة اثنين وثمانين وستماية
للهجرة، من

أولها إلى آخرها، وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المسرودة فيها، وأجري
الأمور على

أحكامها إلى انقضاء مدتها، ولا أتأول فيها ولا في شيء منها، ولا استقتي فيها
طلبا

[442]
لنقضها ما

دام الحاكمون بمدينة عكا وصيدا وعسليت، وهم كافل المملكة بعكا ومقدم
بيت الديوية

ومقدم بيت الأسبتار ونايب بيت اسبتار الأرمن، الآن ومن يتولى بعدهم في
كفالة مملكة

أو يقدم بيت بهذه المملكة المذكورة، وافين باليمين التي يحلفون بها لي
ولولدي

الملك الصالح ولأولادي على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن، عاملين بها وبشروطها

المشروحة فيها، إلى انقضاء مدتها، ملتزمين بأحكامها. وإن نكثت في هذا اليمين

فيلزمني الحج إلى بيت الله الحرام، بمكة المشرفة، حافياً حاسراً ثلاثين حجة،

ويلزمني صوم الدهر كله إلا الأيام المنهي عنها (ويذكر بقية شروط اليمين)، والله

على ما نقول وكيل.

صيغة

قسم الإفرنج

(ابن الفرات 7، 182 R - 183 R) والله والله والله، وبالله وبالله

وبالله، وتالله وتالله وتالله، وحق المسيح وحق المسيح وحق المسيح وحق الصليب وحق

الصليب وحق الصليب وحق الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد المكنى بها عن الأب والابن

والروح القدس إله واحد، وحق اللاهوت^[443] المكرم

الحال في الناسوت المعظم، وحق الإنجيل المطهر وما فيه، وحق الأنجيل الأربعة التي

نقلها متى ومرقس ولوقا ويحنا، وحق صلواتهم وتقديساتهم، وحق التلاميذ الإثني عشر

والاثني عشر وسبعين والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين بالبيعة، وحق الصوت الذي نزل من

السماء على نهر الأردن فزجره، وحق الله منزل الإنجيل على عيسى بن
مريم، روح

الله وكلمته، وحق الست ماريا أم النور مارت مريم ويوحنا المعمودين
ومرتمان

ومرتماني، وحق الصوم الكبير، وحق ديني ومعبودي وما تلقيته من النصرانية،
وما

تلقيته من الآباء والأقسس المعمودية. أنني ومن وقتي هذا وساعتي هذه أنني
قد

أخلصت بينتي وأصفيت طويتي في الوفا للسلطان المنصور ولولده الملك
الصالح

ولأولادهما، بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة، التي انعقد الصلح عليها
على

مملكة عكا وصيدا وعسليث وبلادها الداخلة في هذه الهدنة المسماة فيها التي
مدتها

عشرة سنين كوامل وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشرة ساعات أولها يوم
الخميس ثالث حزيران

سنة ألف وخمسمائة أربعة وتسعين لاسكندر بن فيلبس اليوناني. والعمل
بجميع

شروطها، شرطا شرطا، والتزم الوفا بكل فصل في هذه الهدنة المذكورة إلى
انقضاء

مدتها. وإنني والله والله وحق المسيح وحق الصليب وحق ديني، لا أتعرض لبلاد
السلطان

وولده ولا إلى من حوته وتحويه من ساير الناس أجمعين، ولا إلى من يتردد
منها إلى

البلاد الداخلة في هذه الهدنة، بأذية ولا ضرر، في نفس ولا في مال. وإنني والله
وحق

ديني ومعبودي، أسلك في المعاهدة والمهادنة والمصافاة والمصادقة وحفظ
الرعية

الاسلامية، والمتردددين من البلاد السلطانية والصيادين منها وإليها، طريق
المعاهدين

المتصادقين الملتزمين كف الأذية والعدوان، من النفوس والأموال. وألتزم
الوفا بجميع

شروط هذه الهدنة. على انقضاها، ما دام الملك المنصور وافيا باليمين التي
حلف بها

على الهدنة، ولا أنقض هذه اليمين ولا شيئاً منها ولا أستثنى فيها ولا شيء منها
طلباً لنقضها. ومتى خالفها أو نقضتها أكون بريء من ديني واعتقادي
ومعبودي، وأكون

مخالفا للكنيسة، ويكون علي الحج إلى القدس الشريف ثلاثين حجة حافيا
حاسرا، ويكون

علي فك ألف أسير مسلمين من أسرى الفرنج وإطلاقهم، وأكون من () من
الأهوت (اللاهوت) الحال في الناسوت، واليمين يميني، وأنا فلان والنية فيها
بأسرها (مثل) نية السلطان

الملك المنصور وولده الملك الصالح، ونية مستحلفي لهما بهما على الإنجيل
المكرم.

لا نيّة لي غيرها، والله والمسبح

على ما نقول وكيل.

فتوح

حصن المرقب

(تشریف 149 r - 160 r) وهو حصن عظيم منيع، ما زال مولانا

السلطان الملك المنصور، نصره الله، يدأب في أمره ويتحَيَّل في تحصيله للإسلام،

ويستنفذ الرأي والتدبير في افتتاحه وإحجاب جماحه، لأنه كان قد أعجز الملوك، ولم

يقدر أحد منهم على التقرب منه، فكيف النزول عليه. واجتهد الملك الظاهر (بيبرس) في

الإغارة عليه مراراً، فما قدر الله ذلك ولا سهله، ولا حاج على قسمته ولا عجله.

وتوجه إليه مرة من حماة: مصادفته ثلوج وبرد وأمطار، وحجبته عنه، وحجزته المضائق

والأوعار. ومرة من غير حماه، ولم يحصل له منه قصد بالحملة الكافية، وخبأه الله

لمولانا السلطان، ليكون من فتوحاته المنيرة ولتطرز به أحسن سيرة. وكان بيت

الأسبتار الذين به قد زاد بغيهم وعدوانهم، وكثر فسادهم، حتى بقيت أهل القلاع

المجاورة لهم كأنهم في حبس، بل في رمس وكان الفرنج يعتقدون أنه لا يدرك بحول ولا

حيلة، وأن الحيلة فيه قليلة واستمروا على هذا الطغيان، ولم يقفوا عند الإيمان،

وعملوا في نوبة القليعات^[444] كل

فتح من الغدر والأسر والنهب، ومولانا السلطان المنصور رابض بهم كالأسد الهصور، وهو

يهتم بأمر هذا الحصن من غير إظهار، وكلما أوقدوا ناراً لحرب أمدته من الهداية

الربانية الأنوار، وجهاز المناجيق من دمشق، ولا يعلم أحد إلى أين تسير، ولا إلى أين

المصير، والرجال من البلاد مجهزة بأزوادهم ومقدميهم وعددهم، وهي كثيرة لا تحصى

[445]

كثرة، ومن الناس من يقول أن العزم إلى قلعة الروم ،

ومنهم من يقول إلى غير ذلك. وكان قد جهز مولانا السلطان زردخانه عظمة من مصر،

بها أحمال كثيرة من الشباب وغيره، وكذلك فُرق على الأمراء والجند شباب يحملونه

معهم، ليحضروا إذا طلب منهم. وجهزت آلات من الحديد والنفط مما لا يوجد إلا في

ذخائره وخزائن سلاحه. كل ذلك سبق تجهيزه قبل سفره. وتوجهه، واستخدمت جماعة كبيرة

من الصناع الذين لهم خبرة بالحصارات ودريه بالمنازلات، وجهزت المجانيق التي في

القلاع المجاورة، وجرت رجالها من غير رهج ولا إظهار شيء. وحملت المناجيق والآلات

على الأعناق والرؤوس، ورحل مولانا السلطان من على منزلة عيون القصب مُجّداً. فنازل

حصن المرقب، في يوم الأربعاء العاشر من شهر صفر (684/17 نيسان/أبريل

1285).

وللوقت حملت المجانيق على الأكتاف

في تلك الأكتاف، وكان البلاء بهذا الحصن من كل مكان، ونفذوا في حصاره بأعظم سلطان،

ونصبت المجانيق الفرنجية والقرايغا، ومن جملة ذلك مجانيق فرنجية كباراً
ثلاثة،

ومجانيق قرايغا ثلاثة، ومجانيق شيطانية أربعة، بحيث أنها طافت بها من كل
مكان،

واستمرت ترمي من الحجارة بما يتطاير شرره ويتنوع ضرره، وأخذت النقب
من كل جانب.

واتفق أن المجانيق الفرنجية كسرت مجانيق الفرنج، وتقدمت الإسلامية إلى
قرب القلعة،

فأصلح الفرنج مجانيقهم، ورموا المجانيق الإسلامية، فكسروا بعضها، وقتل
تحتها جماعة

من المسلمين. ولا خلاف في أن الحرب سجال، وما في كل موطن تسلم في
الحرب الرجال.

وانتهى النقب السلطاني وحُشي بالأحطاب، وأوقد في يوم الأربعاء سابع عشر
شهر ربيع

الأول (25 آيار/مايو):

فعملت النيران في وسط النقب في البرج الذي في قرنة الباشورة، وزحف
المسلمون

ليطلعوا الباشورة، واشتد القتال، وقصد المسلمون الصعود فما تمكنوا، فبطل
الزحف

وانفصل هذا النهار، وسقط البرج، وتوهم الناس عسر التوصل إلى الحصن.
وبات الناس في

قلق عظيم لأجل ذلك، لأن الحيلة من المجانيق بطلت بسبب ماعرض،
والثقب انتهى الحال

فيها، وما بقي تدبير إلا من الله عز وجل. فلما كان يوم الجمعة، أنزل الله
تعالى

لطفه وأجمل عطفه، وأنجد بملائكته المقربين وجنوده أجمعين، فنزلت لنصرة الإسلام

مسرعين: وخيّل الله للفرنج أن النقوب في بقية الأسوار على هذه الصورة، وأن النقوب

تخرج إلى الخنادق، ومنها إلى الأبراج، وتتعلق حينئذ في الأسوار. وكانت النقوب قد

أخذت من تحت الخنادق في أسربة إلى تحت الأبراج، والفرنج لا يشعرون بذلك، فأطلقوا

على ذلك، فسقط في أيديهم، وحل الخذلان في ناديم، وتحققوا أنهم قتلى بغير شك، وأن

أسيرهم لا يفك، وطلبوا الحديث في الأمان، والمعادلة بالعفو والاحسان، وبعد أن

كانوا يؤثرون الموت على الحياة، صاروا يؤثرون الحياة على الموت، وتحققوا أنهم إن

غفلوا عن أنفسهم، فإن فيهم القوّث. فطلبوا رحمة مولانا السلطان وعفوه، فاقتضى

الحال أن مولانا السلطان رأى إختيار الغنيمة بهذا الحصن العظيم أولى من التطويل في

حصاره، وأن التأخير له آفات، والأولى الاهتمام بما هو آت، وأن الفرنج الذين بهذا

الحصن، إن سلموا من نار السيوف، لا يسلموا من نار الحتوف. فأجابهم إلى العفو

والأمان، ووثقوا بأن قول مولانا السلطان هو أعظم من الإيمان. فسيروا أكابرهم إلى

الدھليز المنصور، ولم يسألوا غير الأمان على النفوس لا غير، وأن لا يخرج منهم لا

مال ولا سلاح متعلق بالحصن خاصة، ومن لم له مال يتعلق بنفسه ينعم عليه به وشقّ

الأمرء فيهم، وقبّلوا الأرض بين يدي مولانا السلطان، ورغبوا في إجابة سؤالهم،

فأطلق لهم مركوب أكابرهم من الخيل والبغال خمسة وعشرون رأساً وملبوساً، وما عينوه

من مال لبعضهم، وهو ألفان ديناراً صوريّة، وكتبت لهم أمانات، وصعدوا ومعهم الأمير

فخر الدين المقرّي الحاجب، فحلّف الجسطلين وبقية الفرسان. وسلموا الحصن جميعه في

ثامن ساعة من نهار الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الأول (25 أيار/مايو).

وصعد الصنّجق الشريف السلطاني المنصوري المنصور. وارتفعت السنة العالم بالأدعية

لمولانا السلطان الذي أرثهم أيامه هذا الفتح الذي طالما تقاصرت عنه الهمم. وشابت

دون الإلمام به اللمم.

وطلع المسلمون وأعلن أعلاه بالأذان

والتسبيح والشكر لله على إهلاك عبدة المسيح وإخلاء ديارهم منهم، وأنهم لم تغن

نيتهم شيئاً عنهم، وكتبت البشائر إلى جميع الأقطار، وسيّرت به البريدية إلى كل

جهة. وطلع مولانا السلطان إلى الحصن، يوم السبت، واجتمع الأمرء الأكابر في خدمته،

وضرب مشورة بين يديه في هدم القلعة أو إبقائها، فمنهم من أشار بهذا، ومنهم من أشار

بهذا، ومنهم من أشار بهذا. ورأي مولانا السلطان يتقد نوره نفاذاً، فرأى إبقاءها
لحصانتها ومنعتها، وتحسينها وتزينها. وصمم على ابقائها حصرة في قلوب
الكفار،

وعضداً للحصون التي لها عليها حق الجوار، ورتب بها ألف راجل أتجيّة (؟)
وجرّية

ومقاتلة، وأربع مائة من أرباب الصنائع، ورتب بها جماعة من الأمراء أصحاب
الطبال

[446]

خانات، وجماعة من البحرية الصالحة والمنصورية ،

مائة نفر وخمسون نفرأً. ونقل المنجنيقات التي كانت ترمي عليها، فصارت
ترمي منها،

وكذلك الآلات والأخشاب والأحطاب والنشاب والزردخانات والنفط، ومن كل
شيئ كان في

الصحة الشريفة من أصناف الحصن وألاته. ورتب لها خاصاً من بلاد كفر طاب
ومدينة

انطاكية ومدينة اللاذقية والمينا وبلاد المرقب التي كانت خاصا لها وماكان
مقطعا

قبل الفتح، وجملة مايتحصن منه عند عمارته الف الف درهم. ورتب كلف
عمارته [447] ونفقات

رجالته على البلد الى ان تتعمر وتراجع اهلها، ولما تمت هذه الامور رحل
فنزل

بالوطأة على مدينة بلنياس.

فتح

مرقيّة

(تشریف)

(178v - 172 r)

ولما فرغ مولانا السلطان، نصره

الله، من مهمات المرقب، ونزل بالوطأة، على ما ذكرناه، وشرع في أمر
حصن مرقية،

وأعمل الرأي في افتتاحه، وتحقق أنه بين أحشاء تلك الحصون داء دخیل، وأنه
لا يحصل

راحة ولا أمن بوجوده وبقائه. وصاحبه يعرف ببرتلما (بارتولوميو)، أحد أكابر
الفرنج.

وكان لم (لما) فتح حصن الأكراد، لم يطق الإقامة بهذه البلاد وضافت به، فهجَّ
على

رأسه، ودخل إلى التتار مستجيراً ومستميراً ومستنصراً ومستكبراً، وأقام
سنيين على

هذه الحالات. ولما مات الملك الظاهر، رحمه الله، عاد إلى هذه البلاد واغتنم
الفرصة

وطلب عمارة مرقية، فعجزت قدرته وخاف أن تؤخذ منه، فعمر حصناً قبالتها،
وحصنه وحسنه،

وأعانه الابرنس (الأمير) صاحب طرابلس، عليه. وأمدّه وأعانه آخرون من
الفرنج

الاستبارية، أهل المرقب، وغيرهم. وهذا البرج (هو) بين انطرطرس وبين
المرقب، في

البحر المالح، قبالة مدينة مرقية، وبينه وبين البحر رميتان للسهم السريع
وأكثر.

وصفّته: أنه برج مربع، عرضه قريب من طوله، كل جانب منه خمسة
وعشرون ذراعاً ونصف

(بِالْعَمَلِ) وعرض سورہ سبعة أذرع. وهو سبع طباق، وبني على مراكب،
عُرِّقَتْ فِي وَسْطِ

البحر، فيها أحمال كثيرة من الحجارة، تحت كل قطر مفرّق تسع مائة مركب
(!؟) فيها

حجارة، وبين كل حجرين، في أسوارها، قضيبين من الحديد متصلين وعليهما
شبكة الرصاص،

وداخله صهير عظيم، وفوق الصهير قبو، وفوق القبو أخشاب. وفوق
الأخشاب حصى صغار،

وفوق الحصى خيش، وفوق الخيش حبال قنب مشدودة، حتى إذا نصب
المنجنيق من البر ورمى

به لا يبالي مما يرمى فيه، ويقع الحجر من أعلاه في الماء. وفيه مائة مقاتل.
وخلف

هذا البرج برج متصل به، وفيه ثلاثة مجانيق منصوبة. لا يؤخذ هذا الحصن
بحصار ولا

بضايقة. وكان النواب (المسلمون) بحصن الأكراد وتلك الجهات، لما بني هذا
الحصن

وعجزوا عن منعهم من عمارته، لأن الأصناف والآلات إنما تحضر في البحر،
الجاهم الحال

إلى عمارة برج بالقرب منه، بقرية، تسمى ميعار. وجرد خمسون راجلاً بالبدل،
فما أفاد

ذلك ولا أغنى غناء.

ولما شاهد مولانا السلطان هذا

الحصن، على هذه الصورة من الحصانة والمنعة، وأن البرج المبنيّ قبالة ضريح
بانيه

وما نفعه، وأن حصاره لا يمكن لكونه في البحر، وما للمسلمين مراكب تقطع عنه الميرة،

ولا تمنع الداخل إليه ولا الخارج منه، وأن أمره يطول ومسألته تعول، وأن الأمر الذي

منه بدأ إليه يعود، وأن افتتاحه بجنود التدبير لا بالجنود. فسيّر إلى صاحب طرابلس،

فقال له أن العساكر قد تفرّغت وما بقي لها إلا أنت، وهذا البرج أنت عمرته في الحقيقة،

ولولا اعانتك لما بُني، وأنت المؤاخذ به، فإما أن يهدم وإلا أخذنا قبالتة من بلادك

مالا ينفعك في الدفع عنه صاحب مرقية، وتندم حيث لا ينفعك الندم، ويكشف الغطاء

[448]

ويُسترد العطاء. فلما علم الابرنس هذا التصميم العظيم ،

وتحقق ما يترتب على هذا القول من إخراج بلاده وحصونه وتلاف أحواله، وأن ملك

البسيطة وجيوشه العظيمة على أبواب مدينته، وانه بربوعه قد خيم، وأن القصد له أو

هدم هذا الحصن قد تحتم، توصل في تسليمه وهدمه، وأرضى صاحبه بما وصلت قدرته إليه

بجملة من المال وتمليك ضياع بعد صعوبة من صاحب مرقية. وكان ولد صاحب مرقية قد

حضر متخفياً إلى أبواب مولانا السلطان، وتذكر تحصيله هذا الحصن وتسليمه لمولانا

السلطان، وتوجه إلى عكا مختفياً على البريد، فأمسكه أهل عكا، واتصل خبره بأبيه

فحضر من طرابلس إلى عكا وتسلمه وقتله بيده في وسط عكا، وبطل ذلك السعي، وبعد ذلك

وافق على تسليمه بواسطة الابرنس وأذن وأجاب إلى تسليمه للمسلمين. وسير الابرنس

جماعة من الفرنج للمساعدة في هدمه، فكانوا - كما قال الله تعالى - [يخربون بيوتهم

[449]

بأيديهم وأيدي المؤمنين] .

وسير صاحب طرابلس شخصاً من أعيان أصحابه، للحضور على هدمه، مقدماً للجماعة

المسيرين من الفرنج لذلك، ومزياً للاعتذار في استدعاء آلات الهدم من حديد وغيره.

[450]

وجرد الأمير بدر الدين بكتاس النجمي، أمير جاندار، وصحبته مائة حجار ،

لهدمه. وكان الأمير الأسفهلار ركن الدين طقضو المنصوري، وصحبته جملة من العساكر،

المجردين قبالة جبلة. فرسم مولانا السلطان له ولهم بالحضور إلى قبالة البرج،

للمساعدة والمعاونة على هدمه، فهدم حجراً فحجراً، وما أبقى الاجتهاد له عيلاً ولا

أثراً، وذلك بعد تعب عالت المعاول من شدته، وقست الحجارة من حدته، وتضرجت القوى

من مدته، ولطف الله في إزالة آثارها واذالة قرارها، وكفى الله المؤمنين شره، وكف

صُرّه، وأبطل مكره، وبقي مكانه في قلوب الكفار حسرة.

سقوط

طرابلس

(أبو الفداء، 162)

.. إن السلطان الملك المنصور

قلاوون خرج بالعساكر المصرية في المحرم من هذه السنة (688/شباط /
فبراير 1289) وسار إلى الشام، ثم سار بالعساكر المصرية والشامية، ونازل
مدينة طرابلس الشام يوم

الجمعة مستهل ربيع الأول (25 آذار/مارس).

ويحيط البحر بغالب هذه المدينة، وليس عليها قتال في البر إلا من جهة
الشرق، وهو

مقدار قليل. ولما نازلها السلطان نصب عليها عدة كبيرة من المجانيق الكبار
والصغار

ولازمها بالحصار واشتد عليها القتال حتى فتحها يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر من

هذه السنة (27 نيسان/أبريل)

بالسيف، ودخلها العسكر عنوة، فهرب أهلها إلى المينا، فنجا آفلهم في
المركب، وقتل

غالب رجالها وسبيت ذراريهم وغنم منها المسلمون غنيمة عظيمة.

ولما فرغ المسلمون من قتل أهل

طرابلس ونهبهم، أمر السلطان، فهدمت ودكت إلى الأرض. وكان في البحر
قريباً من

طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطمان (سان توماس) وبينها
وبين طرابلس

المينا، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة وإلى الكنيسة التي فيها عالم

عظيم من الفرنج والنساء، فاقتحم العسكر الإسلامي البحر، وعبروا بخيولهم سباحة إلى

الجزيرة المذكورة، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا جميع من فيها من النساء

والصغار والمال، وهذه الجزيرة، بعد فراغ الناس من النهب عبرت إليها في مركب

فوجدتها ملاء من القتلى وقد جافت بحيث لا يستطيع الإنسان الوقوف فيها من تنن

القتلى. ولما فرغ السلطان من فتح طرابلس وهدمها، عاد إلى الديار المصرية... فيكون

مدة لبثها (لبث طرابلس) مع الفرنج نحو مائة سنة وخمس وثمانين سنة وشهوراً^[451].

(مقرزي، 746 - 487)

في يوم الخميس عاشر المحرم (4 شباط/فبراير

1289) خيّم السلطان بظاهر

القاهرة، ورحل في خامس عشره. واستخلف ابنه الملك الأشرف خليلاً بالقلعة^[452]،

والأمير بيدرا نائباً عنه ووزيراً، وكتب عند الرحيل إلى سائر ممالك الشام بتجهيز

العساكر لقتال طرابلس. وسار إلى دمشق فدخلها في ثالث عشر صفر، وخرج منها في

العشرين منه إلى طرابلس فنزلها، وقد قدم لنجدة أهلها أربعة شوانٍ من جهة متملك

قبرص. فوالى (السلطان) الرمي بالمناجيق عليها والزحف والنقوب في الأسوار، حتى

[453]

افتتحها عنوة في الساعة السابعة من يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر ،

بعد ما أقام عليها (1190) أربعة وثلاثين يوماً، ونصب عليها تسعة عشر منجنيقاً، وعمل فيها ألف وخمسمائة نفس

من الحجارين والزرايين. وفرّ أهلها إلى جزيرة تجاه طرابلس، فخاض الناس فرساناً

ورجالاً وأسروهم وقتلوهم وغنموا ما معهم، وظفر الغلمان والأوشاقية بكثير منهم

[454]

كانوا قد ركبوا البحر فألقاهم

الريح بالساحل، وكثرت الأسرى حتى صار إلى زردخاناه السلطان ألف ومائتا أسير.

واستشهد من المسلمين الأمير عز

الدين معن، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني، وخمسة وخمسون من رجال الحلقة،

وأمر السلطان بمدينة طرابلس فهدمت، وكان عَرَضُ سورها يمر عليه ثلاثة فرسان

بالخيل، ولأهلها سعادات جليلة منها أربعة آلاف تَوَلَّ قِرَازة. وأقر (السلطانُ

[455]

بلدةً) جبيل مع صاحبها على مال أخذه منه، وأخذَ بيروت وجبله

وما حولها من الحصون.

وعاد (السلطان) إلى دمشق في نصف

جمادى الأولى، واستقرّ العسكر على عادته بحصن الأكراد مع نائبه الأمير سيف الدين

بلبان الطباخي. ونزل اليّزك إلى طرابلس من حصن الأكراد وأضيف إلى الطباخي، واستقر

معه خمسمائة جندي وعشرة أمراء طبلخاناه، وخمسة عشر أمراء عشرات، وأقطعوا إقطاعات.

ثم عمر المسلمون مدينة بجوار النهر فصارت مدينة جليلة، وهي التي تُعرف اليوم

بطرابلس.

في عام 1291 اكمل الاشرف بن قلاوون عمل ابيه الذي مات وهو يحضر الحملة على عكا وكذلك عمل كل اسلافه في حربهم على الغزاة المسيحيين. وقد روى ابو الفداء الوقائع الدموية التي تم بواسطتها استعادة عكا بعد مقاومة عارمة. وكان ابو الفداء قد شارك في تلك العملية في تبع السلطان وتتكامل روايته مع "داويّ صور" التي شكلت أهم مصدر غربي حول الأحداث التي أدت إلى نهاية السيادة المسيحية على الأراضي المقدسة. أما مذبحة الكفرة التي نفذت بحق المدافعين الابطال بعد استسلامهم فجاءت أخبارها عن أبو المحاسن وهو مؤرخ مصري متأخر وهي ترتبط بمذبحة مماثلة قام بها قبل قرن من الزمان ريتشارد قلب الأسد ضد أسرى مسلمين بعد أن حنث بوعوده لهم. وبتطبيق هذا القانون القديم ينسدل الستار على الفصل الأخير من مأساة الحروب الصليبية.

سقوط عكا

(ابو الفداء، 162-163)

في هذه السنة في جمادى الآخرة (690/1291) فتحت عكا وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق فتوجه

الملك المظفر صاحب حماة وعمه الملك الأفضل [456] وسائر عسكر حماة صحبتهم إلى حصن الأكراد. وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري، حمل مائة عجلة ففرقت في العسكر الحموي. وكان المسلم إلي منه عجلة

واحدة، لأنني كنت إذ ذاك أمير عشرة [457]. وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق فقاسينا من ذلك بسبب جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة. وسرنا بسبب العجل من حصن الأكراد إلى عكا شهراً. وذلك مسير نحو ثمانية أيام للخيول على العادة. وكذلك أمر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار ما لم يجتمع على غيرها. وكان نزول العساكر الإسلامية عليها في أوائل جمادى الأولى من هذه السنة (أوائل آيار/مايو 1291) واشتد عليها القتال ولم يغلق الفرنج غالب أبوابها، بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها. وكانت منزلة الحمويين برأس الميمنة على عادتهم، فكنا على جانب البحر والبحر عن يميننا إذا واجهنا عكا. وكان يحضر إلينا مراكب مقبية بالخشب الملبس جلود الجواميس وكانوا يرموننا بالنشاب والجروح، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر. وأحضروا بطسة

فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمنا من جهة البحر. فكنا منه في شدة، حتى اتفق في بعض الليالي هبوب رياح قوية فارتفع المركب وانحط بسبب الموج وانكسر المنجنيق الذي فيه بحيث أنه انحطم ولم ينصب بعد ذلك. وخرج الفرنج في أثناء مدة الحصار بالليل وكبسوا العسكر، وهزموا اليزكية، واتصلوا إلى الخيام وتعلقوا بالأطناب، ووقع منهم فارس في جورة مستراح بعض الأمراء فقتل هناك. وتكاثر عليهم العساكر فولى الفرنج منهزمين إلى البلد. وقتل عسكر حماة عدة منهم. فلما أصبح الصباح علق الملك المظفر صاحب حماة عدة من رؤوس الفرنج في رقاب خيلهم التي كسبها العسكر منهم، وأحضر ذلك إلى السلطان الملك الأشرف. واشتدت مضايقة العسكر لعكا، حتى فتحها الله تعالى لهم في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة (17 حزيران/يونية 1291) بالسيف. ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب. وكان في داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها. وقتل المسلمون وغنموا من عكا شيئاً يفوت الحصر من كثرته. ثم استنزل السلطان جميع من عصى بالأبرجة ولم يتأخر منهم أحد، فأمر بهم فضربت أعناقهم عن آخرهم حول عكا^[458]. ثم أمر بمدينة عكا فهدمت إلى الأرض ودكت دكاً.

ومن عجائب الاتفاق أن الفرنج استولوا على عكا وأخذوها من صلاح الدين ظهر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة واستولوا على من بها من المسلمين ثم قتلوهم فقدر الله عز وجل في سابق علمه أنها تفتح في هذه السنة في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة على

[459]

يد السلطان الملك الأشرف صلاح الدين . لما فتحت عكا ألقى الله تعالى الرعب في قلوب الفرنج الذين بساحل الشام، فأخلوا صيدا وببروت، وتسلمها الشجاع في أواخر رجب (آخر آب/اغسطس). وكذلك هرب أهل مدينة صور فأرسل السلطان وتسلمها، ثم تسلم عثليث في مستهل شعبان (30 آب/اغسطس)، ثم تسلم أنطرطرس في خامس شعبان. جميع ذلك في هذه السنة أعني سنة تسعين وستمائة.

واتفق لهذا السلطان من السعادة ما لم يتفق لغيره من فتح هذه البلاد العظيمة الحصينة بغير قتال ولا تعب. وأمر بها فخرت عن آخرها. وتكاملت بهذه الفتوحات جميع البلاد الساحلية الإسلامية، وكان أمراً لا يطمع فيه ولا يرام. وتطهر الشام والسواحل من الفرنج بعد أن كانوا قد أشرفوا على أخذ الديار المصرية وعلى ملك دمشق وغيرها من الشام. فله الحمد والمنة على ذلك.

(ابو المحاسن v24 - r25)

ولمّا استهلّت سنة تسعين وسبعمائة أخذ الملك الأشرف في تجهيزه إلى السّفر للبلاد الشاميّة، (وإتمام ما كان قصده والده من حصار عكا، وأرسل إلى

[460]

البلاد الشاميّة) ، وجمع العساكر وعمل آلات الحصار، وجمع الصّناع إلى أن تمّ أمره. خرج بعساكره من الديار المصريّة في ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين المذكورة (6 اذار/مارس 1291)، وسار حتّى نازل عكا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، ويوافقه خامس نيسان (ابريل)، فاجتمع عنده على عكا من الأمم ما لا يحصى كثرة. وكان المتطوّعة أكثر من الجند ومن في الخدمة. ونصب عليها المجانيق الكبار الفرنجيّة خمسة عشر منجنيقا، منها ما يرمى بقنطار دمشقيّ وأكبر، ومنها دونه. وأمّا المجانيق الشيطانيّة وغيرها فكثير، ونقب عدّة ثقب. وأنجد أهل عكا صاحب قبرس بنفسه، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نيرانا عظيمة لم يبر مثلها، فرحاً به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عند ما شاهد انحلال أمرهم، وعظم ما دهمهم.

ولم يزل الحصار عليها والجدّ في أمر قتالها إلى أن انحلت عزائم من بها وضعف أمرهم واختلفت كلمتهم. هذا والحصار عمّال في كلّ يوم، واستشهد عليها جماعة من المسلمين.

[461]

فلمّا كان سحر يوم الجمعة سابع عشر جمادى الأولى ركب السلطان والعساكر وزحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكوسات فكان لها أصوات مهولة وحسّ عظيم مزعج. فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار، هرب الفرنج وملكّت المدينة بالسيف. ولم تمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلّا وقد استولى المسلمون عليها ودخلوها؛ وطلب الفرنج البحر فتبعتهم العساكر الإسلاميّة تقتل وتأسر فلم ينج منهم إلّا القليل؛ ونهب ما وجد من الأموال والذخائر والسلاح، وعمل الأسر والقتل في جميع أهلها. وعصى الدّيويّة والإسبتار واسبتار الأرمن في أربعة أبراج شواهد في وسط البلد فحاصروا فيها. فلمّا كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة، قصد جماعة من الجند وغيرهم الدار والبرج الذي فيه الدّيويّة، فطلبوا الأمان فأمنهم السلطان وسيّر لهم صنجا، فأخذوه ورفعوه على برجهم وفتحوا الباب. فطلع إليهم جماعة كثيرة من الجند وغيرهم. فلمّا صاروا عندهم تعرّض بعض الجند والعوامّ للنهب، ومدّوا أيديهم إلى من عندهم من النساء والأصاغر، فغلّق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعة من المسلمين، ورموا الصّنجق وتمسّكوا بالعصيان، وعاد الحصار عليهم. وفي اليوم المذكور نزل من كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمنهم السلطان على أنفسهم وحرّيمهم على يد الأمير زين الدين كتبغا المنصوريّ. وتمّ القتال على برج الدّيويّة ومن

[462]

عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جمادى الأولى طلب الدّيويّة ومن بقى في الأبراج الأمان، فأمنهم السلطان على أنفسهم وحرّيمهم على أن

يتوجّهوا حيث شاءوا. فلما خرجوا قتلوا منهم فوق ألفين وأسروا مثلهم، وساقوا إلى باب الدّهليز النساء والصبيان، وكان من جملة حنق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير أقبغا المنصوريّ أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة من طلع فأمسكوه وقتلوه، وعرقبوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنهم إذهابه؛ فتزايد الحنق عليهم. وأخذ الجند وغيرهم من السّبي والمكاسب ما لا يحصى.

ولمّا علم من بقى منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعصيان، وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشدّ قتال، واختطفوا خمسة نفر من المسلمين ورموهم من أعلى البرج فسلم منهم نفر واحد ومات الأربعة. ثم في يوم [463]

الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أخذ البرج الذي تأخّر بعكا، وأنزل من فيه بالأمان، وكان قد غلّق من سائر جهاته. فلمّا نزلوا منه، وحولوا معظم ما فيه، سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين وممّن قصد التّهب فهلكوا عن آخرهم. ثمّ بعد ذلك عزل السلطان النساء والصبيان ناحية وضرب رقاب الرجال أجمعين، وكانوا خلائق كثيرة.

والعجب أن الله سبحانه وتعالى قدّر فتح عكا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها، فإنّ الفرنج كانوا استولوا على عكا [464]

في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع وثمانين وخمسائة] في الساعة الثالثة من النهار، وأمّنوا من كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدرا، وقدّر الله تعالى أنّ المسلمين استرجعوها منهم في هذه المرّة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابح عشر من جمادى [466]

الأولى ، وأمّنهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فانتقم الله تعالى من عاقبتهم.

وكان السلطان عند منازلته عكا قد جهّز جماعة من الجند مقدّمهم الأمير [467]

علم الدين سنجر الصّوابي الجاشنكير إلى صور لحفظ الطّرق وتعزّز الأخبار، وأمره بمضايقة صور. فبينما هو في ذلك لم يشعر إلا بمراكب المنهزمين من عكا قد وافت الميناء التي لصور، فحال بينها وبين الميناء؛ فطلب أهل صور الأمان فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ويسلموا صور فأجيبوا إلى ذلك، فتسلّمها. وصور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المنيعة، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب فيما فتح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلما فتح مكانا وأمّنهم أوصلهم إلى صور هذه لحصانتها ومنعتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرّعب حتّى سلّموها من غير قتال ولا منازلّة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها البتّة.

وعند ما تسلّمها جهّز إليها من أخرجها وهدم أسوارها وأبنيتها، ونقل من
رخامها وأنقاضها شيء كثير. ولمّا تيسر أخذ صور على هذه الصورة قوى عزم
الملك الأشرف على أخذ غيرها (من أراضي الفرنجة) .^[468]

نماذج المرحلة الأولى من الكتاب العربي

نماذج من صور طبق الأصل (فوتوكوبي) وميكروفيلم التي شكلت أساس هذا العمل المصنعي القائم على صور الصفحات الأصلية التي جمعتها من أصولها في مكتبة مؤسسة كايثاني للدراسات الإسلامية Fondazione Caetani Per gli studi musulmani في روما، ثم رتبها بحسب ماوردت في كتاب غابريلي الإيطالي. قمت بعدها بترجمة كل ماكتبه غابريلي من مقدمات وهوامش وفهارس وأضفتها إلى هذا العمل. كما أضفت إلى النصوص العربية المقتطفة التواريخ الميلادية التي وضعها غابريلي إلى جانب التواريخ الهجرية الموجودة في النصوص الأصلية.

في ثلاثين غلًا * هلي وجهه * فجاء فابيه في حفظ البلد فغسل
 حته فقبيل انه عرب فخرج من باب آخر فباركه وكان ذلك معونة
 للفرنج وبنو قبيس ساعة ليتركوا * ثم ان الفرنج دخلوا البلد من
 انياب ونهبوا وقتلوا من فيه من المسلمين وولكن في جهادى الاول *
 واما باعى سيمان فانه لما طلع عليه الفهار رجع اليه فقلده وكان
 كلبه من * فراه فسه بعد وضع هذه فربطه ففقد من معه *
 فقبيل على اربعة فراسخ من انطاكية فندم كيف خاص سائلا
 ولم يقتل حتى يورليم عن البلد او يقتل وجعل يتلف ويسترجع
 على ترك امانه واولاده والمسلمين فلهذا ما حقه سقط عن قمره
 معشما عليه فلما سقط ان الارض اران اجند ان يركع فلم يكن
 فيه فمكة قد هارب انوث فتركوه وصاروا عقه واجتاز به انسان
 ارمي ان يقتل ففزع ففزع وهو يتركه ففزع ففزع ففزع ففزع
 الفرنج بالانطاكية * وكان الفرنج قد كتبوا صاحب حلب ومسلمين
 بانما لا نعلم غير الميلاد لك كانت بيد الترم لا فقلب سراها
 مكرًا مدين وحذيفة حتى لا يساعدوا صاحب الانطاكية

مسير المسلمين الى الفرنج وما كان منهم

(١٨٨ - ١٨٩ - ١٩٠)

لما سمع قوم الدولة كروفاً بحال الفرنج وملكهم انطاكية فجمع
 انصارهم وسار الى الشام واقام بروج دانيق فاجتمع معه عساكر
 الشام وتركها وعربها سوى من كان بحلب فاجتمع معه دقاق بن
 قنشى وطغتكين اتابك وجنالك الدولة صاحب حمص واورسلان فافروا
 صاحب سنجار وصابان بن اوسك ووعبر من الاسراء من ليس
 منهم فلما سمعت الفرنج عظم الهزيمة عليهم وخافوا لما فيه
 من الرقى فلكه الاقوات عند سار المسلمين فصار لهم على انطاكية
 ولساء كروفا السيرة فبين مع من المسلمين وانصب الاراء وتكبر

١) On. B. ٢) كثر على B. ٣) لم يتركه B. ٤) On. B. ٥) Yarat bu'us modula scripturi, اما بلغتكين

وأحرق أهل القرى القتلى من الفرنج ، فوجد في رماد فارس
واحداً أربعون نصل نشأب ، ونزل إيلغازي في خيمة سرجال ، وحمل
إليه المسلمون ما غنموه ، فلم يأخذ منهم إلا سلاحاً يهديه للملك
الإسلام ، ورد عليهم ما حملوه بأسره .

ولما حضر الأسرى بين يدي إيلغازي ، كان فيهم رجل عظيم
الحلقة مشتهراً بالقوة ، وأسره رجل ضعيف قصير قليل السلاح ، فلما
حضر بين يدي إيلغازي قال له التركمان : « أما تستحي يا سرك مثل
هذا الضعيف وعليك مثل هذا الحديد ؟ » فقال : « والله ما أخذني
هذا ، ولا هو مولاي » وإنما أخذني رجل عظيم أعظم مني وأقوى ،
وسلمني إلى هذا ، وكان عليه ثوب أخضر وتحت فرس أخضر .

(أب الفهرست ، ٢٠٠ - ١)

ولما وصل ظهير الدين اتابك إلى حلب ، للاجتماع مع نجم الدين على الأمر المقرر
بينهما ، بعد مضي الأجل المعلن عليه بتدميرهما ، وجد التركمان قد اجتمعوا إليه من كل فج
وكل صوب في الأعداد الدثرة الوافرة والقوة الظاهرة ، كأنهم الأسود تطلب فريستها ،
والشواهي إذا حامت على مكاسرها . ووردت الأخبار بيزور روجير صاحب انطاكية
منها في من جمعه وحشده من طوائف الأفرنج ، ورجال الأرمن من سائر أعمالهم
وأطرافهم ، بحيث يزيد عددهم على العشرين ألف فارس وراجل ، سوى الاتباع ، وهو
العدد الكثير في أتم عدو وأكمل سكة ، ولهم قد تولوا في الموضع المعروف بشرمدا ،

وقد وضع تلامذه وكثير قصصه وأحد قصصه ولقد رأيت واستعانت به السان
من أهل دمشق يقال له ابن زهير بن أبي العباس ابن أخيه كنفه إليه ليعضده إلى
محاسن الحكم وكان نبي الدين من أمم الناس عليه وأعطاه منده ومجابه في الحق
وأعظم من هذا الحكمة مما يدل على هذه القصة جرت له مع انساني بعدما قر
لخلاط بن زهير وذلك أن كنت يوماً في مجلس الحكم بالقدس الشريف إذ دخل بن صبح
حسن زهير معروف بن يحيى بن خلاط معه كتاب حكيم يسأل فيه مسألة من
خدماء فقال لخمى السلطان وهذا يسأله العدل وقد سمعنا أن لا نحاسبه قلت وفي
إن قصته هو حقيق فقال إن سفر خلاط كان مملوكاً يوم بول في ملوك إلى أن مات
وكان في يده أموال عظيمة كلها لم يأت بها عندها واستولى عليها السلطان ولا مطالبه
بها فقلت له يا صبح وما الذي أعددت إلى هذا الغاية فقال لحقوق لا تعطى بالخير
وهذا الكتاب لم يكن ينطق بأنه في بول في ملكه إلى أن مات فقلت الكتاب منه
وتسلمت مقبولة فوجدته يتقدم عليه سفر خلاط وأنه قد استقره من ملوك
الناظر لأحدثت اليوم الفلاني من شهر كذا من سنة كذا وأنه في ملكه إلى

أن تعد عن يميني سنة كذا يوماً عرض شهيد هذا الكتاب خروجه عن ملكه
بوجه ما وفر الشريط إلى آخره فقصت من هذه القصة فقلت للرجل لا ينبغي جامع
الدعوى إلا مع وجود الحكم وأنا أعرفه وأعرف ما عنده في ذلك عرض الرجل بذلك
وأن دفع فلما اتفق لثقل بين يديه في بقية ذلك اليوم عرفته القصة فاستبعد
ذلك استبعاداً عظيماً فقال كنت نظرت في الكتاب قلت نظرت فيه ورايته من قبل
اليوم والقبول إلى دمشق وقد كتب عليه كتاب حكيم بدمشق يومه به على
فأخذ دمشق شهيد معروفين فقال صلياً حضر الرجل وتكلمه فوجدت في القصة
ما يقتضيه الشرع في اتفق بعد ذلك جلوسه خلوة فقلت له هذا الحكم بن زهير ولا
بد وإن سمع دعواه فقال أقم هي وكذا سمع الدعوى في قيم الشهود شهدتهم
وأخبر فقم الكتاب إلى حين حضور الرجل هاهنا ففعلت ذلك في حضر الرجل عنده
فاستدله رحمه الله حتى جلس بين يديه وكانت إلى جانبه قد انتقل من طراحته

حتى ساء له ثم قال لا والله لا رضى نازراً ما غرر الرجل ورجل
من منى ما سرى وكره ما ساءه واستطاع ما به لقا شهيد كذا ملك
ولم تزل على ملكي حتى فلتته وتوفيت هذا بالحق لورثته فقال الرجل
في بيته شهيد ما استسما ثم قال سمع كتابه

اعظم محل وأظهر شاعة صلاح الدين وأوافقه على ما فعل جماعة
الفرنج، فاختلعت كنيستهم وقهرت شعقتهم، وكان ذلك من أعظم الآ
الواجبة لفتح بلادهم، واستندوا إليها في جميع القديس مدتهم، على ما تذكره
شأن الله، وسير صلاح الدين السرايا من ناحية طبرية، ففتحت له
على بلاد الفرنج، وخرجت سائلة غائمة، فخرج الفرنج بذلك، و
وكنجرا المسلمون عليهم، وضربوا قتلهم.

غدر البيريس أرباط

كان البيريس أرباط، صاحب الكرك، من أعظم الفرنج، و
واحد من عداوة المسلمين وأعظمهم ضررا عليهم، قلنا رأى صلاح
ذلك منه، فمعه بالحصن مرة بعد مرة، وبانقارة على بلاده مرة بعد
فذل وخسار، وألجأ الصلح من صلاح الدين، فاجابه إلى ذلك، و
وكانها، ولم تكدت القوافل من الشام إلى مصر، ومن مصر إلى الشام،
كان هذه السنة احتار به قافلة عظيمة، غزيرة الأموال كثيرة،
ومعها جماعة سائلة من لندن، فغدر البيريس بهم، واخذهم من
وغنم أموالهم ودوابهم وسلاحهم وأودع السجون من امره منهم،
أثبه صلاح الدين بيلومه وبلغه فعله، وغدره، وبتوعدة أن ت
السرور والأموال، فلم يجب إلى ذلك، وأصر على الامتناع، فغدر صلاح
لنرا أن يقتله، أن ظفرك كان ما تذكره أن شاء الله تعالى.

سرايا بصرى في سنة ٦٠٠

كان الفرنجيون، قديما وحديثا، قد حكموا في هذه السنة
والعشرين من جمادى الآخرة، فاجتمع الكواكب الخمسة في برج
وجئت باقراها، وبلغ شدتها، فلم يكن لذلك فقا، ولم يه
الرباب على الحقيقة، حتى أن الغلال تفسد، والشجر يتحرق، والبحر
التي، الذي يخرى في الغلج، واطرب الله احدية الله
واخواتهم، وفيها ترق عند الله بن برى بن عبد الجبار ابن برى
تضمرى، وكان أمنا في السجون، رحمه الله تعالى.

ثم مضت سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة

اتفق أول هذه السنة يوم السبت، وهو يوم التوراة، إلى
ورابع عشر آذار سنة الف وأربع مئة وثمان وتسعين استخديت
الفرنج والشيش في الليل، واتفق أول سنة العرب، وأول سنة الفرس
جندوها أخيرا، وأول سنة السوم، وأنشئوا وأظهر في أول
وهذا يوم بعد خروج مائة.

لحكم حصر صلاح الدين الكرك

في هذه السنة، كتب صلاح الدين إلى جميع البلاد يستنفر
للجهاد، وكتب إلى القومل وديار الجزيرة وأربل وغيرها من بلاد
والد مصر وسائر بلاد الشام، يدعوهم إلى الجهاد، ويحثهم عليه، ويأمرهم
له بغاية الامكان، ثم خرج من دمشق، وأمر القرم، في عسكرها، وح

موجز سيرة المترجم

- نبيل رضا المهاياني Nabil R. Mahaini - من مواليد دمشق 1944.
- أقام في إيطاليا للدراسة ثم العمل بين عامي 1963 و1986.
- تخرج عام 1969 من فرع دكتور المسرح والتلفزيون في أكاديمية الفنون الجميلة في مدينة فلورنسة،
- ثم تخرج عام 1973 باختصاص علوم الرأي العام - إخراج تلفزيون وسينما من جامعة الدراسات الاجتماعية في روما.
- عمل قبلها وبعدها في مجالات التلفزيون والسينما في إيطاليا.
- ومراسلاً لكثير من المجلات الأدبية والعامّة العربية، من فلورنسة وروما.
- ترجم وقتها وفيما بعد عدة كتب عن الإيطالية. وقد نشر كثير منها في بيروت ودمشق.
- أخرج كثيراً من الأفلام التلفزيونية في مختلف المجالات الوثائقية والإرشاد الزراعي، حاز بعضها على جوائز في مهرجانات دولية وعربية.
- يعمل منذ عام 1983 خبيراً لدى الصندوق الدولي للتنمية الزراعية-إيفاد، في روما بداية ثم في دمشق.
- يعمل الآن كممثل ميداني لإيفاد في سورية.

انتهى

-
- [1] من شخصيات ملحمة "القدس المحتلة" و"القدس المحررة" للشاعر الإيطالي توركوأتو تاسو (1544- 1595) [المترجم]
- [2] من شخصيات الملحمة المذكورة. [المترجم]
- [3] كانوا يسمون المسلمين آنذاك Saracini Cani [المترجم]
- [4] René Grousset (1885-1952)، مستشرق ومؤرخ فرنسي. من أهم مؤلفاته في مجالنا "تاريخ الحروب الصليبية ومملكة القدس الإفرنجية". [المترجم]
- [5] Albegesi أو Albigenian هم سكان منطقة ألبي جنوب فرنسا استقروا فيها وشكلوا في العهود الوسطى طائفة دينية انشقت عن تعاليم الكنيسة، ولهؤلاء أصول تعود إلى شبه جزيرة البلقان. جهزت الكنيسة حملة صليبية ضدهم عام 1208، إلا أن الصراع معهم استمر طيلة النصف الأول من ذلك القرن. أما الهوهنشتاوفن Hohenstaufen فهم سلالة الكهنة الألمان حكمت خلال العهود الوسطى، كما حكمت مملكة صقلية عام 1194. [عن موسوعة ويكيبيديا]
- [6] انجيل متى 52/26 وهي باللاتينية Qui gladio ferit gladio perit ووردت ترجمتها الانكليزية: for tutti quelli che mettono mano alla spada periranno di spada مثل الإيطالية: all who take the sword will perish by the sword [المترجم]

[7] وضع دانتى البيجيري صلاح الدين في البرزخ بين العظماء الصالحين، والمكان مخصص للصالحين من غير المسيحيين والأطفال الذين ماتوا قبل أن يتم تعميدهم. وجاء في النشيد الرابع 129 من كتاب "الجحيم" في "الكوميديا الإلهية": (رأيت صلاح الدين، كان وحيداً، على طرفي). قال دانتى إنه وحيد لأنه من دين آخر، لكنه ذكره بين الحكام الذين استحقوا المجد بسبب سخاء روحهم، ووضعه مع الأرواح العظيمة Spiriti Magni. [المترجم]

[8] بمعنى أنه لم يُكتب عن صلاح الدين الأسطورة، مثلما كُتب عن بيبرس في كتاب السيرة.
[9] أشعر هنا بضرورة توجيه الشكر للمهندس جهاد العواد على مساعدته القيمة في هذا المجال.
[10] من أهم المواقع المستعملة: موقع المكتبة الشاملة <http://index.php/shamela.ws/> وقد وجدت فيه مقاطع فيها كتب مثل "الكامل في التاريخ ابن الأثير"، وكتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية"، "النجوم الزاهرة"، "ذيل تاريخ دمشق". وهناك موقع المشكاة <http://www.almeshkat.net/> حيث وجدت كتاب "بغية الطلب في تاريخ حلب". ثم موقع <http://tareikh/book/sunna/www.anti-rafeda.com/> الذي وجدت فيه كتاب "زبدة الحلب في تاريخ حلب". وهناك أخيراً موقع "المصطفى" www.al-mostafa.com وفيه "كتاب العصا". [المترجم]

[11] إن ترتيب هذه الإشارات - عدا الأولى منها - إنما هو وفق الترتيب الذي يظهر فيه المؤلفون في الكتاب، وهو لا يتوافق إلا بصورة إجمالية مع الترتيب الزمني.
[12] صدر منه حتى الآن ثلاثة أجزاء (القاهرة 1954/1962) بإشراف م. شبال.

[13] لا توجد في الطبعتين الغربيتين (Matthes-Popper) لكتاب النجوم إشارة إلى تلك الفترة. ولم أتمكن من الوصول إلى طبعة القاهرة.

[14] أكرر أن كل أرقام الصفحات هذه - هنا وفي كل الكتاب - تشير إلى صفحات الطباعات المذكورة في فصل "المؤلفون والكتب" [المترجم]

[15] من الواضح أن هذا التاريخ يشير إلى نهاية الغزو النورماني.
[16] باردويل هذا (بالدوين الأول) شخص خيالي، نتج عن التباس بين ألسماء العديد من أشخاص يحملون هذا الاسم في الفلاندر والقدس، أو أنه أول باردويل تم تخيله خطأ على أنه ملك من ملوك الغرب.

[17] من المؤسف أن يتم في بداية هذه الصفحات تصوير الكونت الأكبر بربرياً بهذا الشكل. لكن هذا أمر تقليدي، سواء بسبب الطريقة العدائية المبتذلة التي يتكلم بها عادةً أولئك المسلمون عن أعدائهم، أو لأن هذا المقطع الخيالي يصور بأمانة بالغة الحنكة السياسية التي يتمتع بها روجر.

[18] وهو سلطان تونس الزيري، تميم بن معز (1061-1107).

[19] قائد عسكري تابع للسلطان السلجوقي مالك شاه، وكان قد غزى مصر عام 1076 انطلاقاً من فلسطين.

[20] الفاطميون هم بالطبع مسلمون أيضاً، لكنهم طائفة منشقة، وقد تم وضعهم هنا في تناقض مع الإسلام السني.

[21] ذلك كما كان المؤرخون العرب يسمون أرمينيا الصغرى الكليكية.

[22] حسب المصادر الغربية: 3 حزيران - يونية.

[23] الفرسخ حوالي 6 كيلومتر.

[24] أمير الموصل التركي.

[25] صاحب دمشق السلجوقي، وسرعان ما خلفه واحد من قواد جيشه آتابك طغتكين فُعِين بعده مباشرة ليصبح من أعنف خصوم الفرنجة خلال هذه المرحلة الأولى من الغزو.

[26] وهو Baudoin du Bourg وسيصبح بعدها بالدوين الثاني.

[27] كنيسة مار بطرس الأنطاكية، واسمها في المصادر العربية قسيان، على اسم شخص أحيى مار بطرس له ابنه.

[28] معجزة الرمح المقدس التي حققها Pierre Barthelemy، مروية هنا من خلال منظور عقلائي إسلامي.

[29] سلجوقي من سوريا، أخو السلطان ملك شاه

[30] وزير فاطمي

[31] بهذا تنتهي العلاقة المشار إليها أعلاه بالانهزام التركي تحت أنطاكية، لكن الخطأ في الواقع هو في تاريخ العام، إذ أن القدس قد أخذت من المصريين في شهر آب 1908.

[32] يوجد محراب داود، الذي تدعوه المصادر الغربية برج داود، في مدينة القدس. لكن لابد من تمييزه عن معبد صغير يحمل نفس الاسم في منطقة المعبد المقدس.

[33] وهي الصخرة التي صعد منها - على ما يعتقد المسلمون - محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى السماء وقد أقيم عليها المعبد المسمى بمسجد عمر، وهو أكبر صرح إسلامي في القدس، وفيه أقام المنتصرون عيدهم. ويوجد قريبا المسجد الأقصى، لكنه متميز عنها، وهناك اشتد القتال حسب رواية ابن الأثير هذه. علماً أن المصادر الشرقية والغربية تخلط عادةً بين هذين المعبدتين.

[34] شاعر عراقي عاش بين القرنين 11-12

[35] أي صوت النبي (صلى الله عليه وسلم) ينبعث من القبر ليزجر أفراد عائلته (آل هاشم) والمتقاعسين عن أداء واجبهم أحسن قيام في محاربة الصليبيين.

[36] تجمع كل المصادر الإسلامية على أن كندفري مات في القتال.

[37] وهو ريموند سان جيل، كونت طولوز ومؤسس الفرقة الطرابلسية

[38] لا بد من التنبيه إلى المبالغة الخيالية في هذه الأرقام، وهي ظاهرة متبعة في التأريخ الإسلامي آنذاك

[39] الدينار عملة ذهبية كانت تستعمل بأشكال مختلفة خلال العهد المتوسط الإسلامي، وكان وزن الدينار من النوع (القانوني) 4.25 غرام ذهب صافي

[40] هو Krak des chevaliers، حصن منيع شمال شرق طرابلس، وقد احتل مكانة مهمة في تاريخ الحروب الصليبية

[41] أي من أتباع الطائفة الباطنية أو الإسماعيلية أو الحشاشين، وقد شكل إرهابهم، الذي سنرى أمثلة منه، كابوساً جاثماً على صدر الفرنجة والمسلمين السنة خلال الحروب الصليبية

[42] الأول هو أمير حصن كيفا في ديار بكر، وقد سبق ذكره. أما الثاني فقد كان أمير الموصل.

[43] أمير تركي استولى على الموصل منتزعا إياها من جكرميش والذي أسر بالدوين صاحب الرها، كما رأينا

[44] من عام 1104، كما رأينا سابقاً

[45] هذا من طبعة فرسان ذاك الزمان، وقد أثرت هنا في المؤرخ المسلم

[46] السلطان السلجوقي محمد بن ملك شاه (1104 - 1117)، أكبر سادة الإقطاعيين بين هؤلاء الأمراء

[47] يذكر هنا وبعد قليل اسم ريموند وفي هذا خلط مع اسم الأب Raymond de Saint-Gilles ريموند صنجيل الذي مات عام 1105 دون أن يتمكن من أخذ طرابلس المحتضرة وقد خلفه ابن إحدى قريباته أي Guillaume Jourdain كونت منطقة سردان الواقعة بين فرنسا وإسبانيا (وتسميها المصادر العربية سارداني) وذلك حتى وصل برتراند ليطلب بالوراثة.

[48] دار العلم، مكتبة ومدرسة علمية، وقد كانت فخراً لأمرء طرابلس من بني عمار

[49] المقصود مدينة جبلة لأن الإفرنج استولوا على مدينة جبيل عام 1104

[50] مرفأ أنطاكية

[51] ملك النروج Sigurd

[52] كان يقسم الحكم آنذاك في بغداد كل من الخليفة العباسي وهو السلطان الاسمي وزعيم المسلمين السنة، والسلطان السلجوقي، وهو السلطان الفعلي في كل من إيران والعراق مع فروع إقطاعي الشام. ولم يكن الانسجام الموجود بين السلطتين كاملاً رغم الزيجات المتعددة بين الأسرتين. يتهاى لنا أننا نرى في هذا التناقض، الظاهر في هذه الصفحات والصفحات التالية، صورة إيطاليا في العشرينيات الفاشية وقبيل اكتمال الحكم الفاشي، حيث كان يتنازع الملك فكتور عمانوئيل والدوتشه موسوليني.

[53] Alessio Commeno (1081-1110)

[54] الوزير الفاطمي الذي سبق ذكره والذي كان عليه أن ينقذ هذه الثغور الواقعة من الناحية الشكلىة تحت السيادة المصرية.

[55] أي قذائف وألواح (ترجمة عن الإيطالية)

[56] الدعائم (ترجمة عن الإيطالية)

[57] صليب على شكل T

[58] ليس من الواضح فيما إذا كانت "فيها" تعني: في دمشق - خلال العودة، أو أنها تعني "خلال الحرب" أي في صور نفسها أيام الحصار.

- [59] أي البرج المتحرك وسنده وكلاهما مشار إليهما بنفس الكلمة مما لا يساعد على الوضوح
- [60] بعد هذا الدفاع الناجح، تم إنقاذ صور مرات عديدة أخرى من قبل طغتكين، ذلك قبل أن تسقط نهائياً في أيدي الصليبيين عام 1124
- [61] في معجم البلدان لياقوت 3/162: سنجة: بفتح أوله وسكون ثانيه ثم جيم- قال الأديبي: هو نهر عظيم لا يتهدأ خوضه لأن قراره رملٌ سيّال كلما وطئه الإنسان برجله سال به فغرقه، وهو يجري بين حصن منصور وكيسوم وهما من ديار مضر- بالضاد المعجمة.
- [62] هناك في المخطوطة جملة مكررة ((وقطع الفرات من عبر... وسارت)) ولا محال لوجودها، وقد كتبت فوق الجملة بخط دقيق ((من لا... إلى)) وهي دلالة الحذف، وبدونها تستقيم الجملة، على أن تبدل الكلمة في الأصل وهي ((سراياهم)) فنرسمها ((سراياه)) متابعة للسِّياق.
- [63] سرجال هو: سير روجير ((Sir Roger)) ملك أنطاكية. - وفي ابن القلانسي 200: ((ووردت الأخبار ببروز روجير صاحب أنطاكية منها فيمن جمعه وحشده من طوائف الافرنج ورجال الأرمن))- في ابن الأثير 8/289 "سيرجال".
- [64] في ابن القلانسي 201 ((قد نزلوا في الموضع المعروف بشرمدا وقيل دانيث البقل بين أنطاكية وحلب)) - وفي معجم البلدان لياقوت 3/82: ((سَرْمَدُ: بلفظ السَرْمَد، الدائم، موضع من أعمال حلب)) - وفي دوسو 221 أنها منذ الحروب المصرية القديمة وتسمى Sarmad أو Sarmeda وهي عند المؤرخين الفرنجة Sarmit. (الهوامش الأربعة السابقة من النص الأصلي، غير مذكورة عند غابرييلي)
- [65] العمامة يضعها رجال الدين والشرع لدى المسلمين
- [66] أمير أرزان في الجزيرة، من أعمال إيلغازي
- [67] في ابن الأثير 8/289: ((وأما سيرجال صاحب أنطاكية فانه قتل وحمل رأسه)) (هامش من النص الأصلي)
- [68] اللون الأخضر الفردوسي لا يترك مجالاً للشك بأن الحديث يدور عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو عن مبعوث آخر من السماء، أتى ليساعد المسلمين على النصر.
- [69] استشهاداً بعبارة قرآنية (قرآن كريم 27، 28) مطابقة هنا على الأعداء المهزومين. ويستعمل المؤلف في النص السجع والمحسنات البديعية الأخرى تناغماً مع سمو الموضوع.
- [70] يجب تقديم هذا التاريخ سنة كاملة لأن بغدوين الثاني مات في الواقع في القدس في 21 اب/أوغست 1131 الموافق تماماً لـ 25 رمضان 525.
- [71] وهو Cont d'Anjou.
- [72] سماها الصليبيون Mont Ferrand، وهي بين طرطوس وحماه.
- [73] ملك القدس Folco ومن تبعه من البارونات (جمع بارون).
- [74] وذلك مع الامبراطور البيزنطي Giovanni II Comneno (1118 - 1143).
- [75] غابرييلي: وفي هذه السنة...
- [76] كان يسمى في القديم Celesiria بين سلسلتي لبنان الشرقية والغربية
- [77] حفيد طغتكين ورابع خليفة له على إمارة دمشق.
- [78] مكان إقامة صلاة الجماعة
- [79] قال الفارقي: إن في هذه السنة ملك أتابك زنكي قلعة بعلبك ونزل على دمشق وحاصرها مدة ثم سلموا إليه قلعة بصرى - (عن النص الأصلي).
- [80] باب الفراديس من أبواب دمشق
- [81] الغوطة منطقة خصبة كلها بساتين وجنائن تحيط بدمشق وفيها البلدات التي وردت هنا أسماؤها
- [82] Raimondo di Poitiers
- [83] معين الدين أنر (Aynard في المصادر الفرنجية)، قائد عسكري تركي، كان يتزعم من الناحية العملية إمارة دمشق في هذه السنوات، وذلك باسم الأمير الشاب أبق Abaq.
- [84] خيول المراعي (عن الإيطالية)
- [85] قال الفارقي في تاريخه: أنه فتحها عنوةً في 25 من جمادى الآخرة وكان 23 كانون الأول من السنة وكان أخذتها الافرنج بعد موت تاج الدولة في سنة 492 ثم رحل عنها بعد ما رتب أمرها ونزل على البيرة فحاصرها مدة. وكانت النصارى يقولون أن أتابك يُقتل ليلة الميلاد وكانو منتظرين ذلك وكان فتحها ليلة الميلاد وسلم أتابك وكذبوا (هامش من النص الأصلي).

- [86] لابد أن كلمة ((عشرين)) قد سقطت سهواً لأن التاريخ الصحيح هو الذي ذكره تاريخ ابن القلانسي قبل قليل أي السبت 26 جمادى الثاني عام 539 - 23 كانون أول 1144.
- [87] يقول غابرييلي إن النص يحتمل تفسيرين حول أي منهما قتل الآخر.
- [88] وهي Biregik التركية حالياً.
- [89] هناك تزامن غير دقيق مع حملة صقلية عام 1142، أو مع تلك الناجحة التي جرت عام 1146 ضد طرابلس. والحادثة تؤكد هنا تسامح رجّار الثاني المناصر للمسلمين أما المسلم المذكور الذي كان غافياً فقد يكون الإدريسي بالذات.
- [90] مع أن الزنكي قد قتل وهو يحارب مسلمين آخرين (العقيلي صاحب جبر)، فإن ابن الأثير المخلص له يدعوه هنا وفي أمكنة أخرى بالشهيد، ذلك لكفاحه المبرر ضد الفرنج.
- [91] الأمير أفسنقر، والذي تمرد عام 1094 على سلطان حلب تتش فقتله هذا.
- [92] يمدح كل المؤرخين على الإطلاق زنكي بسبب رعايته ودفاعه عن مواطنيه ضد عنف ولصوصية الجنود. ويقول المؤرخ الحلبي كمال الدين، أنه عندما كان يخرج من المدينة، فإن الجنود يظهرون وكأنهم يسبرون بين سلسلتين طويلتين، وذلك لحرصهم على ألا يدوسوا شيئاً من الزرع لأنهم يعلمون أنه لا مزاح مع الأتابك.
- [93] وهو تاريخ أتابكة الموصل، حيث عبر ابن أثير عن حبه وإخلاصه ومناصرته للعائلة الزنكية.
- [94] الامبراطور كونراد الثالث. أما مشاركة لويس السابع ملك فرنسا فلم يكن لها ذكر كبير في المصادر الإسلامية.
- [95] (وفي كتاب العبر للحافظ الذهبي: هو ابو الحجاج يوسف بن دوباس المغربي الفندلاوي، قُتل شهيداً في حصار الفرنج مقبلاً غير مدبر. والدعاء عند قبره خارج الباب الصغير مستجاب. (هامش من النص الأصلي)
- [96] إشارة إلى عموم الآيات القرآنية المتعلقة بالجهاد..
- [97] يتخيل فرانشيسكو غابرييلي أنه قد يكون بين هؤلاء القتلى واحد من شخصيات الكوميديا الإلهية الذين يقول الشاعر الإيطالي الكبير دانتي أنهم قضوا خلال الحروب الصليبية اعتقاداً منهم أنهم يدافعون عن قبر المسيح. واسم هذه الشخصية هو Cacciaguida.
- [98] عن الآية الكريمة 42/43 من السورة 37 (الصفات)
- [99] نسخة قيمة من القرآن الكريم تعود لعهد الخليفة عثمان (رضي الله عنه) عندما جرت أولى محاولات جمع القرآن (الكريم) (644 - 56). ويرجح أنها كانت أيضاً النسخة التي كان يقرأ فيها عندما قتل.
- [100] دمشق.
- [101] كان نور الدين أول من نظم خدمة بريد نظامية باستعمال الحمام الزاجل.
- [102] أسد الدين شيركوه كردي من خلصاء نور الدين وعمّ صلاح الدين.
- [103] Honfroi de Toron
- [104] بالدوين الثالث
- [105] الدركيولية "أبناء الأتراك" كانوا جنوداً مؤقتين ومحليين في الجيوش الصليبية.
- [106] كان صلاح الدين قد ذهب إلى مصر كقائد في جيش نور الدين، وهناك ألغى الخلافة الفاطمية واستولى عملياً على البلد، رغم أنه لم يعلن الانفصال رسمياً عن تبعيته لنور الدين. ومن هنا فقد سمي الأخير في هذا السياق "صاحب مصر"، إلا أنه لم يكن يمارس هناك أية سلطة مباشرة.
- [107] نرى هنا أيضاً أنها كانت شكليةً بحته سلطةً نور الدين على الحجاز ("المدينتين المقدستين" أي مكة والمدينة) وعلى اليمن الذي استولى عليها أخو صلاح الدين. والواقع أن هذه البلدان كانت تحت السلطة الأيوبية.
- [108] الخلفاء الراشدون هم الخلفاء الأربعة الذين جاءوا بعد محمد (صلى الله عليه وسلم)، أي أبو بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم) ويجمع معهم عادةً الخليفة عمر بن عبد العزيز (عمر الثاني 719-717)، ويعتبرون جميعهم في مفاهيم السنة التقليدية الخلفاء المثاليين بل انموذج الحكم الصالح.
- [109] تاريخ أتابكة الموصل السابق ذكره.
- [110] ترجمها غابرييلي: "ما أحسن المحارب في المحراب"، وهذا وجّه صحيح في فهم بيت الشعر.
- [المترجم]
- [111] سهمين
- [112] ملك القدس فلك (1131 - 1134)، راجع الفصول التالية عن علاقته مع أسامة.

- [113] هناك في هذا الفصل تأرجح بين معنيي كلمة فارس بالفرنسية، "Chevalier" "Cavalier". أما في الإيطالية والعربية فلا توجد لهما إلا لفظة واحدة.
- [114] هذا لا يعني أنه ملك بالفعل، فالإشارة هنا إلى الوزير الفاطمي طلائع بن روزيك، الذي استبد بمصر تحت سلطة الخليفة الفايز، وقد مات عام 1161
- [115] كان أسامة يشارك في سياسته الداخلية، المليئة بالفتن الدموية، ومن هنا اشارته التالية إلى خشيته أو وحشته من أهل القصر.
- [116] مركب نهري خاص
- [117] سلطان قونية السلجوقي، وقد حدث هذا حوالي عام 1155.
- [118] يسميها الصليبيون Moinestre، وهي في لبنان، خمسة عشر كيلو متر غربي جبيل.
- [119] من المؤكد أن أطباء الإفرنج لم يكونوا كلهم من الجزارين، كما جاء في هذا الوصف. لكن هذا التهكم يجد تبريراً له في تفوق المعارف الطبية الشرقية على تلك الغربية في ذلك الوقت.
- [120] برميل
- [121] Teodoro Sofiano، يوناني، رئيس بلدية أنطاكية.
- [122] شكل هذا الطعام النجس كابوساً بالنسبة لهذا الضيف الحذر، لهذا فقد أكل وهو محتزز رغم تطمينات صاحب البيت.
- [123] يقول المسلمون في بدء صلواتهم "الله أكبر"
- [124] كان مسيحيو العهد المتوسط يصلون ووجوههم متجهة نحو الشرق. بينما يصلي المسلمون نحو القبلة أي باتجاه مكة.
- [125] تطبيقاً لآية قرآنية على تجديد هذا الشخص
- [126] التحالف الفرنجي - الدمشقي عام 1140، ويبدو من هذا النص أن المؤلف شارك في المحادثات.
- [127] حلّ بالدوين الثاني، خلال إحدى فترات أسره ضعيفاً على أمراء شيزر، ذلك كما يخبرنا أسامة نفسه في مكان آخر.
- [128] من أمراء دمشق، وقد سبق ذكره.
- [129] King Folco
- [130] وهذا من التقليدي في العائلة المسلمة في العهد الوسيط، فعندما لفق أسامة الحجة ذكر الجدة ولم يذكر الأم، ومن المؤسف أن العرض لم يقبل، إذ لو سافر ابن مؤرخنا إلى الغرب لترك لنا شهادة قيمة عنه!
- [131] يعتبر المسلمون كلاً من يحيى المعمدان وزكريا (عليهما السلام) نبين ويقدسونهما.
- [132] الصلاة المسيحية كما رأينا قبلها.
- [133] النص والمعنى غير واضحين في هذه العبارة: ويبدو أن الصلبان المذكورة على شكل عصي كانت مرسومة على أبواب الكهنة من اتباع القديس يوحنا.
- [134] حيث كان خان قاه بعض الصوفيين في دمشق
- [135] الحديث يضم أحاديث نقلت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) عبر سلسلة من الرواة الذين يؤكدون صحتها. وقد أصبح علم الحديث جانباً هاماً في علوم الدين الإسلامي.
- [136] كتب غابرييلي عن هذه الصلوات إنها ركعتا قيام الليل، ثم قام بتفسير معنى الركعة وقال إنها وحدة من وحدات الصلاة تضم القيام والجلوس.
- [137] أي موهورة باسمه الرسمي الملك الناصر (الملك ناصر الدين)
- [138] قاضي القضاة ومستشار صلاح الدين الخاص، وسنقرأ عنه لاحقاً عدة مرات.
- [139] جاء لقب الحافظ الذي لقب به هذا الشاعر الفارسي الشهير من معنى الكلمة وهو يطلق على حفظة نصوص القرآن الكريم وعلى علماء الفقه بصورة عامة.
- [140] فيلسوف متصوف من حلب راح 1911 ضحية التعصب الفكري الديني الذي شرّعه صلاح الدين فكشف عن جانب حقيقي من شخصيته بعيد عن الصورة التي كونها عنه عصر التنوير Illuminism.
- [141] أول خليفة جاء بعد محمد (صلى الله عليه وسلم) 632-634.
- [142] في بلاد الرافدين
- [143] محمد بن قره ارسلان، أمير ارتوقي على حصن كيفا (1174-1185) Hasankeyf وهي اليوم في تركيا.

- [144] Balian II d'Ibelin الثاني أحد سفراء الفرنج المفوضين في سلام 1192. سنعاول رؤية هذه الأحداث والشخصيات فيما بعد.
- [145] الطبول (غابرييلي)
- [146] هنا تبرز الأسباب الجدلية والتبريرية التي سنجدتها حول سلام 1192 المثير للجدل
- [147] نيران المعسكرين
- [148] ألواح خشبية كان مسيحيو الشرق يستعملونها محل الناقوس
- [149] قرآن (كريم) الآية 69 من السورة 29 (العنكبوت- وقد ذكر غابرييلي أنها السورة 62 لأنه اعتمد على نسخة مترجمة لمعاني القرآن الكريم رتبت آياتها بشكل مختلف).
- [150] حصن إسبانية قرب طبرية
- [151] إجازة أو تسريح (ترجمة عن غابرييلي)
- [152] عيد الأضحى بعد الحج (عرفة) في شهر ذي الحجة
- [153] (استعارة عن) القرآن (الكريم) [مَوْج كَالْجَبَالِ] الآية 44 من السورة 11 (هود)
- [154] سنرى لاحقاً أن هناك آراء فقهية تقول بعدم قبول شهادة من يركب البحر
- [155] قرآن (كريم) الآية 110 السورة 16 (النحل)
- [156] مكان بين حيفا وماريوجنا في عكا.
- [157] الأمتعة (ترجمة عن غابرييلي)
- [158] قرآن (كريم) الآية 134 سورة 3 (آل عمران)
- [159] ترجمها غابرييلي بـ (الخيمة)
- [160] قرآن (كريم) الآية 4 سورة 68 (القلم)
- [161] قرآن (كريم) الآية 120 سورة 9 (التوبة)
- [162] أي ريتشارد قلب الأسد
- [163] من مشايخ الفرق الصوفية أو غيرهم من التقاة المسنين المعروفين بالفضل والصلاح
- [164] Renaud de Chatilion
- [165] توجد هذه القصة المأساوية حتى في اخبار تاريخ حطين
- [166] أي أنه كان يخصص له كل أو قسم مما كان مخصصاً لأبيه إذا كان هذا موظفاً عسكرياً أو مدنياً.
- [167] الكونت ريمند الثالث - of Saint Gilles
- [168] الكونتس Echive
- [169] بالدوين الرابع (1174-1185)
- [170] بالدوين الخامس، مات في 1186 بعد عدة أشهر من توليه الملك إسمياً
- [171] Sibilla اخت بالدوين الرابع وأم بالدوين الخامس وزوجة ثانية لغويدو دي لوزينيانو Guido di Lusignano
- [172] كرك معاب في شرق الاردن وكانت تشرف على طرق تصل بين مصر وسورية كما بين سورية والحجاز.
- [173] Roger des Moulins
- [174] امتيازات ورواتب عسكرية (ترجمة عن غابرييلي)
- [175] قرآن (كريم) الآية 120 سورة 4 (النساء)، والآية ترد في سورة أخرى، إلا أن غابرييلي ذكر الآية 19 من السورة السادسة، وهذا خطأ.
- [176] طلائع النشايين (ترجمة عن غابرييلي)
- [177] يقول القرآن (الكريم) إن الذي ضُلب هو شخص آخر وليس شخص يسوع المسيح، وهذا يعكس (كذا) مذاهب دوسيتية Docetism (المترجم: جاء في موسوعة ويكيبيديا أن: الدوسيتية هي مذهب مسيحي يتعلق بطبيعة المسيح الحقيقية. أصل الاسم عن فعل في اليونانية يعني "الظهور" أو "الظاهر". وبهذا فإن المذهب يعتقد أن آلام المسيح وطبيعته البشرية ليست إلا أموراً ظاهرة وغير حقيقية. وقد تطور المذهب بين أفراد الغنوصيين من أوائل المسيحيين الذين ثاروا ضد ما اعتبروه فضيحة الصليب، خاصة وأن بعضهم نظر فكرة أن المسيح لم يصلب لأن شخصاً آخر وضع محله على الصليب أو لأن حادثة صلب المسيح على الجلجلة كانت مجرد وهم. بل إن هؤلاء كانوا يعتقدون أن كل ماشوهد من حياة المسيح كان قائماً على وهم الآخرين. وقد وجد هذا المذهب عدة أصداء خلال تاريخ المسيحية عبر العصور وظهر تحت عدة مسميات ومذاهب).

- [178] غويدو دي لوزينيانو
- [179] المعلم الكبير Gerard de Ridefort
- [180] ترجمها غابرييلي (فاح عطره).
- [181] أي "المسيحيين" مثل الذين يعبدون الأقانيم الثلاثة أو الأشخاص الإلهية
- [182] يبدو الكونت هنا في موقف مضاد لذاك الذي رسمه به ابن الأثير في بدء المعركة
- [183] أراد بهذه الصورة البلاغية الأنيفة ماقاله ابن الأثير بكلمات بسيطة: "ترجلوا عن الفرس وجلسوا على الأرض"
- [184] أي أن المسيحيين أذلّوا كأنهم يهود جناء. وكان غابرييلي قد ترجم العبارة "وعادوا مثل أغنام بائسة بعدما كانوا أسودا"
- [185] لابد أن عماد الدين اعتبر هذه السحبة البلاغية الرهيبة برهاناً ساطعاً على روعة أدبه.
- [186] يشكل هذا النص الذي يرويه مؤرخنا شاهد العيان، بأسلوبه المطرز المعتاد، لطخة تعيب شهامة صلاح الدين المزعومة. من جهة أخرى لا يمكن تفسير هذه المذبحة إلا بذلك الحقد الذي زرعه الطائفتان الحربيتان في الجانب الإسلامي، وذلك من خلال سلوكهما الحربي الذي لم يكن بكل تأكيد أكثر إنسانية (ومسيحية) من سلوك أعدائهم.
- [187] Eraclio
- [188] Balian d'Ibelin
- [189] يملؤ النقب بعد حفره بمواد محترقة، ما إن تشتعل حتى يسقط الجدار الذي يعلوه.
- [190] حسب غابرييلي والنسخة العربية الأصلية، لكن نسخة الانترنت تذكر 491.
- [191] يصعب مع هذا الخبر تحديد هوية تلك المرأة، وفيما إذا كتنت هي نفسها Maria Comnena
- أرملة الملك Amaury الأول والتي تزوجت بعدها بباليان دي ايبيلين.
- [192] Sibilla زوجة الملك غويدو دي لوزينيانو
- [193] Stefania أم Honfroi de Thoron
- [194] أسلفنا بأن الأقصى ومسجد الصخرة، المسمى مسجد عمر، هما مسجدان متقاربان لكن متميزان. من المؤكد بأن هذا الحفل الكبير جرى في الأقصى، قام صلاح الدين بعدها بالصلاة في مسجد الصخرة، ويبدو هذا بصورة واضحة في الرواية التي سنستشهد بها بعد قليل عن عماد الدين
- [195] نرى أن ابن الأثير لا يترك فرصة تمر دون أن يظهر تعلقه بالأسرة الزنكية التي أطاح بها صلاح الدين.
- [196] الخليفة الثاني (634 - 644). فتح المسلمون في عهده القدس للمرة الأولى (637).
- [197] في العربية: القيامة، لكن الكتاب المسلمين أنذاك كانوا يرون من واجهم تحويل الاسم إلى: القمامة وذلك للحط من قيمتها. وقد أوردها عماد الدين هنا وبعد ذلك تحت هذا الاسم، ويقصد القبر المقدس.
- [198] إشارة إلى آية قرآنية تذكر رمي سحرة مصر الحبال أمام موسى (عليه السلام) ليتخيلوا أنها تسعى - الآية 66 سورة 20 (طه).
- [199] هذا صدى قرآني آخر: المائدة هي مائدة القربان المقدس التي يرى (كذا) محمد (صلى الله عليه وسلم) أن معجزة أنزلتها من السماء، قرآن (كريم) السورة 5 (المائدة). أما المسيح الصبي المتكلم، قرآن (كريم) الآية 30 وما بعدها من السورة 19 (مريم)، فهو صدى (كذا) لـ Evangelium Infantiae.
- [200] معلومات مجتزأة وعداء مسبق ساهمت في دفع هذا الكاتب المسلم على رسم هذا الخليط العجيب من العقائد والطقوس المسيحية، لكن هذا التصوير الكاريكاتوري للمسيحية، بعيداً عن الأسلوب المطرز، هو نفسه الذي نراه عادة لدى مسلمي العهد المتوسط. ولا نستطيع أن نقول بأن الأمر كان مختلفاً لدى الطرف الآخر.
- [201] رأينا أن هذا نسبة إلى لقب صلاح الدين الناصر لدين الله
- [202] ترجمها غابرييلي (ألوية صفر لشقاء بني الأصفر).
- [203] بعيداً عن تلاعب الألفاظ (الاشتقاق الحقيقي هو من ذكر توراني عن Sofer قريب Esau)، ويرى العرب أنهم قدامى الرومان ثم اللاتين والغربيين، وقد سموا بعدها بالعيون الزرق كوصف عرقي وكوصف شؤم وتطير.
- [204] الأعوام القمرية للهجرة، من 492 (1099) إلى 583 (1187).

[205] البراق السماوي الذي يعتقد إن محمداً (صلى الله عليه وسلم) انطلق عليه في معجزة المعراج من الصخرة نحو العالم الآخر. وتظهر في النص رغم تزويقات عماد الدين تلك المعالم التي جعلت وماتزال تجعل القدس ثمينة بل ومقدسة لدى المسلمين. راجع بعدها الرسالة التي بعث بها صلاح الدين ريتشارد وظهرت فيها نفس الأسباب.

[206] باب الرحمة، المسمى اليوم بالباب الذهبي، أحد أبواب المعبد المقدس.

[207] القبلة هي وجهة الصلاة التي جعلها (كذا) محمد (صلى الله عليه وسلم) نحو القدس قبل أن يحولها نهائياً (كذا) نحو مكة. فالقدس هي إذن أول القبليتين، وثالث الحرمين بعد مكة والمدينة، وفيها بيت الله الثاني بعد الكعبة.

[208] قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 17 (الإسراء)، وفيها ذكر إسراء النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى القدس. وبعده المعراج الليلي نحو السماء.

[209] قرآن (كريم) الآية 37 من السورة 3 (آل عمران)

[210] لقب الخليفة عمر

[211] قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 17 (الإسراء)

[212] أي من العائلة الأيوبية.

[213] يبدو أنه يريد القول إنها كانت تبث الرعب بشكل تتفطر معه مرارة من يستطيع تقدير أثرها المميت. لكن هذه الصور لم تذكر إلا لصالح السجع الذي يضيع في هذه الترجمة.

[214] الملكة Sibilla ابنة الملك Amauri

[215] Stefania ابنة Filippo di Milly وArمله Renaud de Chatillon وام Honfroi de Thoron

[216] أي هدفاً ووجهة كما اسلفنا

[217] يبدأ الكاتب هنا بمدح نفسه، على أنه ذو القلم الفاضل والكاتب السلطاني الأمين في التعبير عن الإرادة السلطانية.

[218] تلاعب بلفظة البروج بين معنيي برج القلعة وبرج الفلك

[219] تلاعب بالالفاظ وسجعها مرة أخرى للتعبير عن انتشار الخبر السعيد حتى في انحاء بلاد فارس واسيا الوسطى الاسلامية

[220] ذكر هذا حبا في الجناس او انه يشير الى صناديق الصدقات وماشابهها

[221] أي إلى كنيسة القبر المقدس كما في هامش سابق

[222] قرآن (كريم) الآية 29 من السورة 9 (التوبة) نقلها غابرييلي بالاطالية عن ترجمة حديثة بقلم

F. Rosenthal

[223] محراب الصلاة في قبلة المسجد الأقصى الذي يدور عنه الحديث في هذا المقطع، قارن هذا مع رواية ابن الأثير السابقة.

[224] يفسر غابرييلي معنى الأذان ثم يكرر معنى ألواح الخشب التي كان مسيحيو الشرق يستعملونها بدل الناقوس

[225] أوتاد الخيام والأوتاد من درجات الصوفية أيضاً، وترجمنا "الأبدال" بعبارة كبار القديسين، وهم أيضاً من درجاتهم.

[226] أي طالباً لتوسّط كاتب السلطان، ورغم المحسنات البديعية التي نَمَّق بها كاتبنا روايته عن هذه المسابقة، فإن جمال السعي نحو نيل المنصب يبدو بوضوح.

[227] حافظ صلاح الدين السني على صلته النظرية بالخلافة العباسية بينما قضى على الخلافة الفاطمية المنشقة في مصر.

[228] عرفات قرب مكة من مواقع الحج الاسلامي حيث يحيي الحجاج بالتعب والصلاة الليل في الخيام (كذا)

[229] أم الكتاب أي السورة الاولى او الفاتحة والتي تبدأ بالبسملة

[230] الإجماع والقياس من مبادئ الفقه الإسلامي

[231] انتقال البركات من الاشخاص والاشياء المقدسة

[232] تصاوير حيوانية من الفن الروماني (تيجان اعمدة ونقوش بارزة) أما عن الخزائير فهناك شك بان المقصود هو الحيوان بالذات ام انها كناية عن ذكر المسيحيين.

[233] القراءات السبع ومازاد هي قراءات بفوارق بسيطة للكتاب المقدس (القرآن الكريم)

[234] النقش التذكاري الذي مازال يخلد اسم السلطان

[235] أخو صلاح الدين صفاء الدين وقد أصبح سلطاناً على سورية ومصر حتى عام 1218

- [236] ابن اخ صلاح الدين وامير حماة (1178-1191)
- [237] ابن صلاح الدين وخليفته على سورية (1186-1196)
- [238] ابن آخر لصلاح الدين وخليفته على مصر (1193-1198)
- [239] تعني اليوم القنابل المعروفة ولاندرى ان كانت تعني وقتها الطلقات
- [240] السهام اليزنية والردينية كانت مميزة لدى قدماء العرب وكذلك السيوف المشرفية في ماوراء سورية
- [241] تقوّت (عن غابرييلي)
- [242] المدرسة هي معهد عالي لعلوم الدين والفقه الاسلامي. وقد تم الالتفات أولاً إلى المدرسة الشافعية لأنها كانت سائدة آنذاك في مصر وسوري. لكن السلطان دبر أيضاً لغيرها (الحنفية والمالكية والحنبلية) وهذا واضح بعد سطور قليلة في الحديث عن "مدارس للطوائف".
- [243] San Giovanni
- [244] في نسخة أخرى (المركيش) [المترجم]
- [245] ليس هذا هو النص الوحيد الذي تلوح فيه عداوة مؤرخ مابين النهرين لصلاح الدين، وكان هذا دائماً بسبب ميله للعائلة الزنكية التي أطاح بها صلاح الدين. لذلك فإننا لا ندرى مدى صحة نقده هنا لسلوكه الحربي: لكن المهم هي الروح التي تتجلى، والتي لم تمنع ابن الأثير من الاعتراف ولو على على مضض بعظمة هذا البطل المسلم.
- [246] Il Marchese di Monferrato
- [247] وكان صلاح الدين قد صدهم خلال معركة سابقة
- [248] غزوة مؤتة شرقي الاردن عام 629 عندما هزم البيزنطيون حملة محمد (صلى الله عليه وسلم)
- [249] Gerard de Ridefort أسره صلاح الدين في حطين ثم اطلق سراحه.
- [250] قرآن (كريم) الآية 11 سورة 13 (الرعد) يعود موقف ابن الأثير النقدي من تحركات صلاح الدين العسكرية.
- [251] قبائل كردية
- [252] أي الذين يحملون اسم اسد الدين شيركوه عم صلاح الدين
- [253] يتقدم هذا التاريخ بأكثر من شهر على تاريخ ابن الأثير والمصدر الذي أخذ عنه أي عماد الدين (منتصف شوال)
- [254] الخنازير نجسة لاياكلها المسلم قط.
- [255] تل العياضية قرب عكا، في التاسع من ربيع اول 587 (6 نيسان/ابريل 1191)
- [256] الحقيقة أن هذا الجواب الكريم يجعل صورة صلاح الدين التاريخية تتطابق مع صورته الأسطورية
- [257] هذه صفحة من الاباحية التقية ذات الطراز الباروكي المزخرف قد تثير اهتمام هواة ادب العجائب والغرائب
- [258] هذه هي الاشارة الوحيدة لطبيعة تلك المرتزقات اللائي تم تصويرهن كأنهن يمثلن العقيدة المسيحية، لكن هذه العبارة عن طلب الاجرة بغمزة العين والخطيئة قد تفهم أيضاً بمعنى غير فاسد.
- [259] هذه "كلوريندا" ثانية في الجانب المسيحي، لكن أسامة يطلعنا على أنه كان هناك في الجانب الاسلامي أيضاً نساء تمكن من حمل السلاح.
- [260] سبق وان اسلفنا ان فهم المسلمين للمسيحية يستند الى نظريات دوسيتية. (راجع هامش رقم 179).
- [261] احتفالات النيران خلال السبت المقدس كان يجري احيائها في القبر المقدس حتى القرن المنصرم
- [262] سلطان قونية السلجوقي
- [263] فيديريك وقد مات بعدها بقليل على عكا
- [264] قرآن (كريم) الآية 11 من السورة 33 (الأحزاب) - تشير الآية الى حصار المدينة من قبل حلفاء المشركين، في السنة الخامسة للهجرة (617).
- [265] Filippo Augusto
- [266] فيليب، كونت الفلاندرز
- [267] ريتشارد قلب الأسد

- [268] قرع الطبول والرجوع الى المعركة من جديد (عن غابرييلي)
- [269] قرآن (كريم) الآية 134 من السورة 3 (آل عمران)
- [270] ترجمها غابرييلي (القويس والنشاب).
- [271] ترجمها غابرييلي (مركباً).
- [272] أي أن في هذه الخطة مغامرة بالاسلام كله (المترجم).
- [273] يبدو انها كانت هزة ارضية
- [274] الصفوف السماوية التي غالباً ماتراها المعتقدات الاسلامية تتدخل في المعركة
- [275] قرآن (كريم) الآية 54 من السورة 3 (آل عمران)
- [276] أورد غابرييلي هذا المقطع على النحو التالي: "كان دور الملك العادل على مقدمة الجبهة عندما طلب ملك انكلترا منه أن يبعث له برسول، فبعث له بأمين سره الذي كان من صنيعته وكان شاباً حسناً اسمه ابن النبال، فذهب إلى ريتشارد وهو في مكان اسمه يازور مع جمع من صحبه..." [المترجم]
- [277] يقول غابرييلي إن النص والمعنى غير واضحين ويمكن أن يفهم منهما "إن موت المسيح هو كذبة كبرى" أو "إن في تحطيم الصليب جدارة عظيمة"
- [278] Giovanna di Sicilia أرملة غوليلم الثاني
- [279] كان يجب ان يقول: أخت زوجة الملك غويدو وليس غوفريدو كما يكرر بهاء الدين. كانت Isabella d'Angio أخت الملكة Sibilla تزوجت أولاً من Honfroi Thorono ثم خلعت منه وتزوجت من Corrado di Monferrato.
- [280] قد يكون المتكلم سفير ملك الانكليز أو أنه صلاح الدين بالذات
- [281] يذكر النص 11 شوال مما لايتفق مع التواريخ السابقة
- [282] كما قال بهاء الدين كانت أخت ريتشارد ارملة اما العذراء فلاحاجة بها الى موافقة البابا. والواقع ان كل مشاريع الزواج هذه لم تشهد النور بسبب المعارضة المسيحية على تزويج امرأة مسيحية من كافر.
- [283] حطم خنجر الحشاشين بعدها بقليل كل حياكات كوراد هذه وهو نفسه لم يشهد انعقاد السلم.
- [284] السفير المسلم المفوض
- [285] Enrico di Champagne الملك المقبل، و Balian II di Ibeling.
- [286] كان تهديم المسلمين لسور عسقلان من شروط المعاهدة.
- [287] يتكرر هنا حدس صلاح الدين بموته، وكذلك في الفقرات التالية.
- [288] أي الخصمان
- [289] تلاعب الفاظ بالإشارة الى اصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) من جماعتي المهاجرين المكيبين والانصار
- [290] فليلاحظ الاسلوب الشرقي بالافصاح اولا عن الموافقة عندما يكون الهدف الانتقال الى رأي معارض.
- [291] قرآن (كريم) الآية 61 من السورة الثامنة (الانفال)
- [292] Marchese di Monferrato
- [293] يقول غابرييلي إنهم الـ Assassini الذين يرى المسلمون السنة أنهم خارجون عن الاسلام.
- [294] جاء في موسوعة ويكيبيديا أن شيخ الجبل أو حارس الجبل كان بطل قصة وردت في كتاب "المليون" لماركو بولو. وقد انتشرت هذه القصة آنذاك في أنحاء اوريا.
- [295] يقول غابرييلي إنهم الـ Assassini الذين يرى المسلمون السنة أنهم خارجون عن الاسلام.
- [296] Henri di Champagne
- [297] أي استلامه للحكم في صور وعرسه.
- [298] حارس الجبل أو المعلم الكبير لدي الحشاشين - راجع المقطع التالي.
- [299] الباطنية رديف آخر للاسماعيلية أو الفدائية أو الحشاشين، ويعني حرفياً أتباع مذهب سرّي يقتصر على جماعة معينة.
- [300] عبادة وطاقة مما كلن يستعمله الشرقيون آنذاك.
- [301] واحد من حصون الاسماعيليين قرب بانياس شمالي سورية. المولى هو حارس الجبل رشيد الدين سنان المسرودة قصصه في هذا المصدر.
- [302] فلنلاحظ الصيغة المستعملة هنا "منه السلام" بدل "عليه السلام" المعتادة لدى المسلمين.

[303] يتراوح معنى الدعوة الحرفي بين الرسالة والدعاية. ويقصد بها هنا الدعوة الاسماعيلية. وينطبق معنى الدعاية (أو نشر الدعوة) في السطور التالية لدن الحديث عن فتح مقرات لها في مختلف المدن.

[304] كان موت السلطان على الغالب فرصة سانحة للاضطرابات والنهب.

[305] أمير حلب زمن الحملة الصليبية الأولى.

[306] تظهر التفاصيل التالية هشاشة تلك الدويلات القائمة على اقطاعية عسكرية فوضوية خاصة عندما تسقط شخصية الزعيم القوية مثل صلاح الدين ومن بعده العادل والكامل. نرى أن الاحتياطات التي يتخذها الابن الكبير الفاضل لضمان خلافته على سورية وأحقته في السيادة على مواقع الأيوبيين تصطدم منذ البداية مع أنانيات مختلف الأمراء الذين يسعى كل منهم لأن يضمن لنفسه المنافع والامتيازات. لكن المستقبل خيب آمال ذاك وأولئك حيث نال الأولوية أخو مؤسس الأيوبيين أي الملك العادل.

[307] من الشائع في قسّم المسلمين الحلف بطلاق الزوجة إذا نكث الحالف بقسمه.

[308] والواقع أن السيادة المباشرة التي سيتمتع بها الأفضل من إرث صلاح الدين إنما هي على سورية، لأن مصر هي لأخيه العزيز.

[309] لا تتطابق كل العبارات مع كتاب غابريلي الذي اختصر بعضها. [المترجم]

[310] مزار قرب دمشق

[311] قرآن (كريم) الآية 22 من سورة (الحشر) 59

[312] قرآن (كريم) الآية 129 من سورة (التوبة) 9

[313] يعود هنا الحديث عن نزاهة صلاح الدين وتقصفه الواسع. ولم أفهم تماماً نفع التبن والطين في هذا الموضع. (المترجم: يجوز أنهما مما يستعمل في بناء القبر)

[314] من الشائع أن ضمائر وعقائد المسلمين تنشغل كثيراً بالاصل الشرعي للحلال لمصادر الدخل والاشياء التي يستعملها المؤمن في حياته ولدن موته.

[315] مع الملك Giovanni di Brienne, Andrea II d'Ungheria، وملك قبرص Ugo di Lusignano.

[316] حصن اسلامي قرب عكا

[317] تمكن العادل من توحيد مختلف البلاد التي كانت تحت سلطة أخيه صلاح الدين وجعلها تحت سيادته.

[318] ترجمها غابريلي بما معناه (في كل حذب وصوب).

[319] اراد على الأقل الغاء أهميتها العسكرية، وذلك خيفة من الاضطراب الى إعادة المدينة

المقدسة اليهم، كما عُرض عليهم بالفعل

[320] قرآن (كريم) الآية 3 من السورة 38 (ص)

[321] في محاولة للإنسحاب من الدلتا الملحقة، كما سيروي لاحقاً

[322] بناء على هذا العرض يمكننا أن نقيس أهمية دمياط وصحة حسابات الفرنجة في مهاجمتها.

والكرك المستثنى من عرض التسليم (وتضم تقريباً كل مكاسب صلاح الدين) هو كرك معاب الذي يشرف على طرق المواصلات بين سورية ومصر.

[323] يقول غابريلي إن هنك رواية أخرى تقول (أسرناهم)

[324] يمكن أن تكون العبارة جانباً مما سبق من قول السلطان.

[325] وقد حكم مصر بعدها بين 1240 و1249

[326] في هذه الحملة وقبل هذا بقليل ظهر ليعظ "في حضرة السلطان الجليلة" القديس

فرانشيسكو أسيسي S.Francesco d'Assisi، وقد اعتقدنا بالعثور على أثرٍ من اشارة في المصادر الشرقية تتحدث عن مستشار مسلم للملك العادل "حول قصة الراهب". (المترجم: هناك كثير من الأدبيات بل والرسوم حول لقاء جرى بين هذا الراهب المشهور وبين الملك العادل. أما عبارة "في حضرة السلطان الجليلة" فهو بيت شعر لدانتى اليغييري في الكوميديا الالهية.

[327] هذه ارقام اوراق لكن ترتيبها تغير في مخطوطة باريس

[328] صاحب دمشق وأخو الكامل الذي رأينا كيف سارع الى مناصرته ضد الفرنجة في دمياط. لكن

علاقتها تدهورت بعدها وساد التوتر بعدما تقرب من سلطان خوارزم جلال الدين والى امير اربيل، مما دفع الكامل للتقرب من فيديريك.

[329] قد يوجد هنا بعض الخلط بين اسمي منطقتي لومبارديا ولانغوبارديا وذلك بسبب التسميات

الجغرافية العربية السائدة آنذاك. وقد ورد كلا الاسمين في رسالة فيديريك بالعربية التي سنوردها لاحقاً.

[330] يشير فيديريك الى عروض تسليم الساحل التي قدمها الكامل للصليبيين في 1220 تحت دمياط (راجع الصفحات السابقة). بل إن الامبراطور يسخر من مبعوثه Pelagio حين يقول "إنه مبعوثي أي آخر خدمي. وعليكم أن تقدموا لي الآن مالا يقل عما كنتم مستعدين لتقديمه له." (تاريخ منصوري 32 مقررزي 228-229).

[331] عشر سنوات وخمسة اشهر واربعون يوما بدءاً من اول 626/24 شباط/فبراير 1229 (مقررزي 230).

[332] اريافه

[333] ترجمها غابرييلي (يخرج عن حدوده).

[334] راينا الصدام بين الكامل والمعظم صاحب دمشق مما فسخ المجال امام التقارب مع فيديريك. ونرى هنا ان الناصر الذي خلف ابيه على دمشق يحاول ان يستغل الانطباع بتسليم القدس من اجل تدعيم ملكه المهتز.

[335] يحدثنا بهذا ابن الجوزي في صفحات من تاريخه قدمناها بعد قليل.

[336] شاعر من زمن هرون الرشيد (القرن الثامن-التاسع)، وقد قام الواعظ باستبدال بعض كلمات القصيدة ليطبقها على وضع القدس التي لم تعد مسلمة.

[337] يحدد مقررزي هذا في اواخر جمادى الثاني (ايار/مايو 1229)

[338] من قبل الكامل والانشرف ضد ابن اخيهما الناصر

[339] لايتسنى هنا معرفة ماهية تلك القراطيس التي كان بحسب هذه الرواية يأخذها ذلك الخوري الافرنجي. (ولايمكننا الظن بأنها كانت دراهم ورقية). وقد رأينا أن رواية ابن واصل تقول إن الخوري هو الذي كان يحمل الانجيل. أما (المستشرق) ميكيلي أماري فيظن أن بعض العبارات سقطت من النص.

[340] يفسر غابرييلي معاني "الجبار" بالعربية ويقول إن أماري يظن أن الامبراطور قال "خنازير" وذلك على سبيل النكتة وفي سجع مع "عصافير"، ويبدو أنه قالها بالعربية مما يشهد بمعرفته بها حتى باعتراف المصادر الشرقية.

[341] يقول غابرييلي "أحمر الوبر وأصلع".

[342] قرآن (كريم) الآية 91 من السورة 13 (المؤمنون)

[343] تقرأ "الداوية" أو "الدونة" بحسب المخطوطة، اشارة إلى المؤامرات المسيحية ضد

فيديريك. راجع أماري في "تاريخ المسلمين في صقلية" الطبعة الثانية الجزء 3 ص 660

[344] نسبة إلى (بمختلف اللغات اللاتينية): -Svevia- Swabia- Schwaben- Souabe -Suēbia- [المترجم]

[345] بين 1238 و1240

[346] بين 1240 و1249

[347] المهندار هو مدير المراسم المختص بالعلاقة مع السفراء وكبار الضيوف في قصر مانفريد. أما عن اسمه فلم يصلنا إلا سر بر، فافتترضت مجموعة المطبعة أنه كان Sir Berto.

[348] حملة سان لويس على مصر وسيأتي ذكرها.

[349] من ينظر في خريطة الادريسي فلن يدهش من قرب ايطاليا من اسبانيا بحسب المعارف الجغرافية لدى الشرقيين آنذاك.

[350] Lucera بحسب غابرييلي

[351] هذه معلومة ثمينة حول الحياة الثقافية لمجموعة المسلمين في مدينة لوحادة (لوشيرا) ولم يكن هذا معروفاً. ويبدو واضحاً أن مؤسس "دار العلم" المؤسسة العلمية المذكورة لاحقاً إنما هو مانفريدي، كما أن "كان قد شرع" هي اشارة للأب.

[352] Carlo d'Anglo 'أخوالملك لويس التاسع

[353] إشارة إلى خلفاء العباسيين من سلالة عباس عم محمد (صلى الله عليه وسلم).

[354] يتضح من هذه المقاطع وغيرها انه كانت تسود آراء تقارن بين الخليفة والبابا، ذلك رغم الاختلاف العميق الواضح بين هذين المنصبين من النواحي الدينية والقانونية.

[355] "وملك أخوه البلاد" سهو في النص والصحيح: وملك أخو ملك فرنسا البلاد، أي Carlo

d'Angio وهذا ما يوضحه حتى ابو الفدا الذي نسخ عن ابن واصل.

[356] حران في ما بين النهرين كانت تابعة لسيادة الابوبيين

[357] وقد رأينا انه مفوض الكامل ودليل/مستشار الامبراطور في الاراضي المقدسة

[358] من مهازل البروتوكول

[359] تتعاقب في هذا القسم الاول ابيات الشعر والنثر المسجوع وتعبر، بأسلوب الغمز التصويري المعروف في البلاغة العربية، عن الاسى على بعد الصديق. لكن النص غير موثوق على الاطلاق.
[360] طبع أماري السطور التالية على انها نثر، لكننا نرى صيغة شعرية في هذا النص التالف وخاصة في سطره الاول.

[361] المتنبي الشاعر العظيم من القرن العاشر

Montecassino [362]

[363] . يتحدث عن جيش البابا جورج التاسع او الكتائب المسلحة من حملة شارة المفاتيح البابوية التي غزت سنة 1226 بقيادة ملك القدس السابق Giovanni di Brienne مملكة بوليا وصقلية واقتحمتها خلال تغيب فيديريك الثاني عنها لوجوده في الحملة الصليبية. وقد هزم الامبراطور هذا الجيش وألزم البابا بالاستسلام عام 1230. (المترجم عن موسوعة تريكانى (Treccani).

[364] يبدو أنها Caiazzo، وحدث عسكري جرى في ايلول/سبتمبر 1229.

[365] هو نفسه الذي رايناه قبل عشرين سنة يسير المفاوضات مع فيديريك وقد وضعه الان الايوبي الملك الصالح المريض في قيادة الدفاع المصري.

[366] هي قطعة برية طويلة بين النيل وبحيرة منزلة على طرف دمياط.

[367] حاولوا اذن اخفاء خبر وفاة السلطان ريثما يصل ابنه الملك المعظم ويتقلد العرش. وعلامة

الملك هي توقيع (او ختمه) على وثائق الدولة.

[368] قرآن (كريم) الآية 41 من السورة 9 (التوبة)

[369] شاعر ايوبي وكاتب (لدى السلطان)

[370] المعظم الذي عرفناه وهو اخو الكامل وابو الناصر داود (صاحب دمشق ثم الكرك) ويجب ان

يعرف بانه ليس المعظم توارنشاه ابن الصالح الذي خلف هنا اياه وهو اخر ايوبيي مصر. خاصة وأن ألقاب الأمراء الأيوبيين تختلط بسبب تشابه الأسماء.

[371] تفصل رواية مقررزي اكثر وتقول انهم كانوا فرقة من الداوية (فرسان الهيكل)

[372] كان في الواقع الوصي على عرش مصر في الفترة بين موت الصالح وتتويج ابنه المعظم قبل

ان يصل من سفره من ما بين النهرين.

[373] أي ما إن اشتد الخطب حتى هجمت الطائفة التركي... الخ (عن غابرييلي). والبحرية خرجت

من بينهم أول مجموعة ممالكك وسموا كذلك لأنهم كانوا يعسكرون في بحر النيل في القاهرة. أما الجمدرية فكانوا نوعاً من الخدم بين الممالك.

[374] متصرف القاهرة ثم وزير يعمل لديه كاتبنا ابن واصل

[375] احد ابواب القاهرة ومازال قائماً

[376] ذراع ميت من النيل ذكر في احداث الحملة الخامسة

[377] يوم عظيم في الحج الاسلامي.

[378] وهذا أعظم مديح بمدح عدو به القيمة القتالية لجماعة الداوية

[379] يعتبر المسلمون يسوع المسيح نبياً عبداً لله أتى بالمعجزات ولهذا فإنه يعتبر هو بالذات كفراً

عبادة المسيحيين له.

[380] بعد أن ميّز عناصر أخرى جلبها معه من ما بين النهرين مثل ذلك الطواشي صبيح الذي قرأنا

للتو عنه.

[381] يُفسرُ هذا التقديم التيجيلي لبيرس أن كاتبه -ابن واصل - كان عاملاً بإمرته ومتنعماً بهياته،

فضلاً عن أن التقديم مطابق للحقيقة التاريخية، ومع هذا فإنه لايفلح في تجميل المنظر التالي (وقد أورد آخرون تفاصيل أخرى رهيبة مروعة) الذي شكل اساس انطلاقة مُلك سلطان مصر المقبل.

[382] الطائفة المنشقة التي رايانا أنها متخصصة بالاغتيالات السياسية.

[383] جارية تركية ولدت للملك الصالح ابنه خليل الذي مات طفلاً. وقد رأى ابن واصل أنّ تسلّم

هذه المرأة للسلطنة كان حدثاً لاسابق له في تاريخ الاسلام، وقد شكل فترة انتقالية بين حرص الايوبيين على شرعية ملكهم وبين النظام العسكري المملوكي الذي خيم عملياً على مصر: خاصة بعد أن تزوج كبير عسكرهم آيبك من شجرة الدر مبتدأ حكم سلالة الممالك.

[384] يفهم من السطور السابقة أن العرض كان يتعلق بالسلطنة، لكن السطور التالية تظهر أن

العرض كان لقيادة الجيش، وسنرى على كل الأحوال أنه سرعان مااجتمع هذان المنصبان في يد رجل واحد.

[385] خطبة الجمعة من على منبر الجامع حيث يدعى لولي الأمرالحاكم.

- [386] زوجة الظاهر سلطان حلب الذي مات في 1216 ومات ابنهما العزيز في 1236 عندما بدأت ولاية الجدة باسم حفيدها.
- [387] جرى ذكر ذلك
- [388] زمن الحملة الخامسة.
- [389] أي بعد المدائح المسيحية
- [390] قرآن (كريم) الآية 277 من السورة 26 (الشعراء)
- [391] قرآن (كريم) الآية 1 من السورة 16 (النحل)
- [392] قرآن (كريم) الآية 88 من السورة 38 (ص)
- [393] قرآن (كريم) الآية 149 من السورة 2 (البقرة)
- [394] صاحبة روما الافريقية، أي تونس.
- [395] ملوك انكلترا، اسكتلندا، تولوز، برشلونة (المسمى Re d'Aragon)
- [396] ملك تونس بين 1240 و1277
- [397] في 25 آب/اغسطس
- [398] اشارة الى سجنه من قبل في مصر. ومنكر ونكير هما الملكان الذي يعتقد المسلمون أنهما أول من يحاسب الميت حساباً عسيراً.
- [399] Mont-Pelerin بناه Raymond de Saint-Gilles في 1103
- [400] المتحدث هو ابن أخ ابن عبد الزاهر منسق اعمال عمه.
- [401] مع بيمند الرابع (1233-1277) توحدت اماره انطاكية وكونتية طرابلس تحت السلالة الانطاكية.
- [402] في 1271 بعد أخذ انطاكية بثلاث سنوات.
- [403] هو محي الدين ابن عبد الزاهر المؤلف والراوي.
- [404] كما في تصنيف ابن عبد الزاهر. لكن مصادر اخرى تظهر الترويسة اكثر احتراماً: (الكونت النبيل الجليل، الأسد الشجاع، فخر الامة المسيحية، زعيم أمة الصليبيين، الذي أصبح لقبه بعد الظفر بانطاكية أميراً بعد أن كان كونت... الخ). رغم اللهجة العدائية الساخرة فقد كانت تلك الألقاب كثيرة فأسقطها المصنّف. وقد تم في ترجمتنا هذه تعديل رواية ابن عبد الزاهر حيثما هي تالفة وفق رواية النوبري (في QUATREMERE, Sultans Mamlouks, I, II ص 91-190).
- [405] تفهم كتهديد بعودة جيش الاسلام على طرابلس.
- [406] تتلوى هنا العاب الالفاظ بشكل (لايفهم) ولايترجم، وهذا مما افتخر به عماد الدين الأصفهاني
- [407] كاتدرائية القديس بطرس مركز الحياة الدينية والمدنية في انطاكية المسيحية.
- [408] يسمى العرب نهر Oronte بالعاصي نظراً لأنه يجري من الجنوب الى الشمال.
- [409] Ugo الثاني مات عن 14 سنة في 1267
- [410] Isabella الأخت الصغرى لهنري الأول
- [411] هوغو الثالث زوجته Isabella d'Ibelin
- [412] Ugo di Prienne ابن ماريا اخت هنري الاول الكبرى
- [413] في كليكيا او ارمينيا الصغرى
- [414] بدأ Carlo d'Angio هذا تجميع الحقوق في تاج القدس الاسمي (أي مملكة عكا الحقيقية) والتي حصلتها Maria d'Antiochia وأعلنت رسمياً في 1277.
- [415] الكلام للكاتب
- [416] تم توقيع هدنة مع هوغو(او)ك) الثالث في 1268 هذا بخلاف ماورد في رواية ابن فرات السابقة مع أنه استشهد بآبن عبد الزاهر. لكن الاشارة الى استمرارها حتى زمن قلاوون فانما يتعلق بهدنة Cesarea (أيار/مايو 1272) بين بيبرس وعكا والتي جددت بمعاهدة قلاوون وعكا التي ستذكر لاحقاً.
- [417] وهو قلعة الأكراد Krak de Chevaliers وكان حصن الداوية الكبير الواقع شمال شرق طرابلس.
- [418] مؤرخ شيعي مغمور من القرن الثاني عشر حفظ لنا منه ابن الفرات بعض الاستشهادات
- [419] مؤرخ دمشقي من القرن الثاني عشر.
- [420] راجع الهامش رقم 48 في القسم الاول من هذا الكتاب
- [421] عمل مفقود من تأليف أسامة ابن منقذ المشهور الذي كتب ايضاً سيرته الذاتية. وتظهر كل هذه الاستشهادات طريقة التصنيف التي يسلكها ابن الفرات.

- [422] عم المؤرخ ابو الفدا.
- [423] الابن الكبير لبيبرس وهو شاب خلفه على عرش مصر لسنتين (1277-1279)
- [424] Frere Hugues - Hugues de Revel
- [425] التلاعب المعهود بالالفاظ كما سيجري باسم الامير ولي العهد
- [426] العليقة من حصون الاسماعيلية الذين غابت قوتهم المخيفة بعد ضربات تلقوها من المغول وهم هنا يتحركون بين الصليبيين وبيبرس ويدفعون أحياناً لكليهما الفدية رغم أنهم مازالوا على عاداتهم الجارية في الاغتيالات.
- [427] مؤرخ من القرن الرابع عشر، والعيني هو ايضا مصنف عن مصادر سابقة.
- [428] امير مملوكي بنفس اسم السلطان الذي عاصره لكنه كان اصغر سنا، وهو مؤلف تاريخ مهم حول احداث زمنه.
- [429] مونت قورت، الافرنجي شمال شرق حيفا، تابع للدواية
- [430] تنوع وتقويم للمفهوم الكلاسيكي القديم عن غيرة الالهة (والقائل بأن كثرة الخير على الانسان تستدعي غضب الالهة - المترجم عن موقع انترنت)
- [431] الغراب كان نوعا من الزوارق الخفيفة، ونقرأ هنا كما من قبل وفيما بعد التلاعب المعتاد بالالفاظ والمعاني
- [432] نص الوثيقة مشوة
- [433] التقويم السلوقي يبدأ في 311 قبل المسيح
- [434] الوريث الذي عينه قلاوون لكنه مات في 1288 فانتقلت الوراثة الى الاشرف اخيه الاصغر.
- [435] لايتوفر لدينا نص هدنة بيبرس المذكور
- [436] لايتوفر لدينا نص هدنة بيبرس المذكور
- [437] Odo Poilechien قائم مقام 'Carlo d'Angio
- [438] تتابع على وتيرة واحدة قائمة طويلة بامتلاكات سلطان مماليك مصر مرتبة تقريبا من الجنوب الى الشمال. وتفصح الأمور عن حالها عندما نقارن هذه القائمة مع وصف الاراضي الموجز الذي سنراه لاحقا في قائمة طرف العقد الثاني، والنتيجة هي ان مملكة القدس قد مسخت الى بقعة هزيلة تمتد من شمال عكا الى الكرمل. وهناك خارجها صور وصيدا وبيروت وطرابلس وبعض قلاع الدواية والاستبارية في سورية وهي كل ماتبقى من اعمال الصليبيين. اما قائمة دويلات قلاوون بدءا من المدينة المقدسة فتضم كل الاراضي التي خسرها أوهاجمها الصليبيون عبثاً خلال قرن من الزمان.
- [439] نسبة الى الملك العزيز ابن صلاح الدين.
- [440] فتوحات بيبرس الجديدة نوعا ما، لكنه غير واضح ماهي الفتوحات السعيدة المذكورة لاحقا.
- [441] تسمح الشريعة الاسلامية بوجود كنائس مسيحية على اراض اسلامية، لكنها لاتسمح بترميمها او بنائها من جديد. الا ان السلطات المحلية كانت تعصر تبرعات من الكهنة. (تشاد كثير من دور العبادة التابعة لكل الأديان بتبرعات اتباعها- المترجم)
- [442] خلل قديم في عادات المسلمين وغيرهم للتحلل من اليمين والعهد.
- [443] يقول غابرييلي ان النص اخطأ بذكر الصليب وهذا ما صلحه Quatremere (الهامش غير مفهوم القصد- المترجم)
- [444] هي Caliat باللاتينية، قرب عرقة وقد تعرضت قبلها الى غزو الاستبارية.
- [445] قلعة الروم في اعلى الفرات.
- [446] أصحاب الطبال خانات امراء عندهم اوركسترا عسكرية لتحية الشرف. الممالك البحرية هم كما اسلفنا قاطنو بحر النيل، والصالحية والمنصورية شكلهما كل من الملك الصالح والملك المنصور اي قلاوون نفسه.
- [447] أفهم من هذا انه من الصعب وضع الكلفة المالية لاعادة الاعمار على المنطقة المعنية نفسها وذلك من خلال مطالعة الجملة العامة في الوحدة الاقتصادية-العسكرية القائمة.
- [448] اعيد له هنا لقبه الذي انكر عليه قبلها على انه صاحب السابق لانطاكية.
- [449] قران (مريم) الآية 2 السورة 59 (الحشر)
- [450] يتراوح المعنى بين قطاعي الاحجار ورماة الاحجار.
- [451] بحسب التقويم الهجري القمري (502—688) أي 180 سنة شمسية (1109-1280)
- [452] قلعة جبل المقطم مقر السلاطين في القاهرة.
- [453] في المخطوطة "الأول" تُصلح من نفس السياق وبحسب أبو الفدا.

- [454] تذكر المخطوطة "من الافرنج" وأحسن Quatremere بتصليحها.
- [455] الواقع أن سقوط هذه المدينة أقدم بسنتين من سقوط عكا. راجع بعدها.
- [456] هما ابن عم وأب المؤلف الذي سيصبح بدوره صاحب حماة.
- [457] درجة من الدرجات الأولى في ترتيب الاقطاعية.
- [458] لا يذكر أبو الفدا الامان الذي اعطاه السلطان للمدافعين ثم نكث به وقتلهم. راجع فيما يلي رواية ابي المحاسن حول هذا.
- [459] أي انه كان يحمل مثل سلفه الكبير لقب صلاح الدين.
- [460] زائد عن غابرييلي
- [461] (جمادى الثاني- لدى غابرييلي). يسوق النص هنا وفيما بعد "الأولى" (راجع الهامش 467).
- نلاحظ أيضاً في التواريخ التالية عدم توافق بين أيام الشهر وأيام الاسبوع.
- [462] يسوقها غابرييلي: (الأحد 20 جمادى الثاني)
- [463] يسوقها غابرييلي (ثامن عشر)
- [464] في 587/1191 بعد الحصار الشهير. راجع ما جاء في هذا الكتاب عن "استيلاء العدو على عكا".
- [465] يقول غابرييلي (17 جمادى الثاني). كما يكرر أن فتح عكا تم في شهر جمادى الأولى. لكن ملاحظة التوافق مع الفتح الأول على يد صلاح الدين (17 جمادى الثاني) ترجح كفة رواية أبو الفدا القائلة بـ "جمادى الثاني"، هذا ان لم يكن هو بالذات قد أخل بالتوافق عن قصد. وعلى مانقبل بواحد من هذين التاريخين فإن مأساة عكا تكون قد حدثت في أيار/مايو أو حزيران/يونية من 1291.
- [466] يسوق غابرييلي: جمادى الثاني.
- [467] يقول غابرييلي إن "الذواق" "النحات" هي من تسلسل الألقاب القيادية في القصر.
- [468] أي بيروت وصيدا والثليث وطرطوس التي أخذت كلها أو أخليت دون حرب في صيف نفس العام ذلك كما رأينا في أبي الفدا. لكن جزيرة ارواد مقابل طرطوس بقيت في يد الداوية حتى عام 1303.

Table of Contents

عنوان الكتاب	
صفحة الحقوق	
إهداء	
مقدمة المؤلف	
مقدمة المعرب	
الأعزل	
ملاحظات ببليوغرافية (1)	
ملاحظات ببليوغرافية (2)	
المؤلفون والكتب	
المؤرخون العرب للحروب الصليبية	
القسم الأول: من كندفري إلى صلاح الدين	
- 1 -	
- 2 -	
- 3 -	
- 4 -	
- 5 -	
- 6 -	
- 7 -	
- 8 -	
- 9 -	
القسم الثاني: صلاح الدين والحملات الثالثة	
- 1 -	
- 2 -	
- 3 -	
- 4 -	
- 5 -	
- 6 -	
- 7 -	
- 8 -	
القسم الثالث: الأيوبيون والهجمات على مصر	
- 1 -	
- 2 -	

- 3 -

القسم الرابع: الممالك وتصفية الصليبيين

- 1 -

- 2 -

- 3 -

نماذج المرحلة الأولى من الكتاب العربي

موجز سيرة المترجم